أمراء الموساد
تأليف: دان رافيف
يوسى ميلمان
كل جاسوس .. أمير
تعريب: ممدوح لطفي
دار الكتاب العربي
دمشق - سورية

أمراء الموســــــــاد

كل جاسوس .. أمير

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م



دار الكتاب العربي

دمشق - الحلبوني - مدخل فندق الشموع
هاتف: ٢٢٣٨١١ - ص ب: ١٢٣٤٤ دمشق تلكس/دمشق/٤١١٥٤١

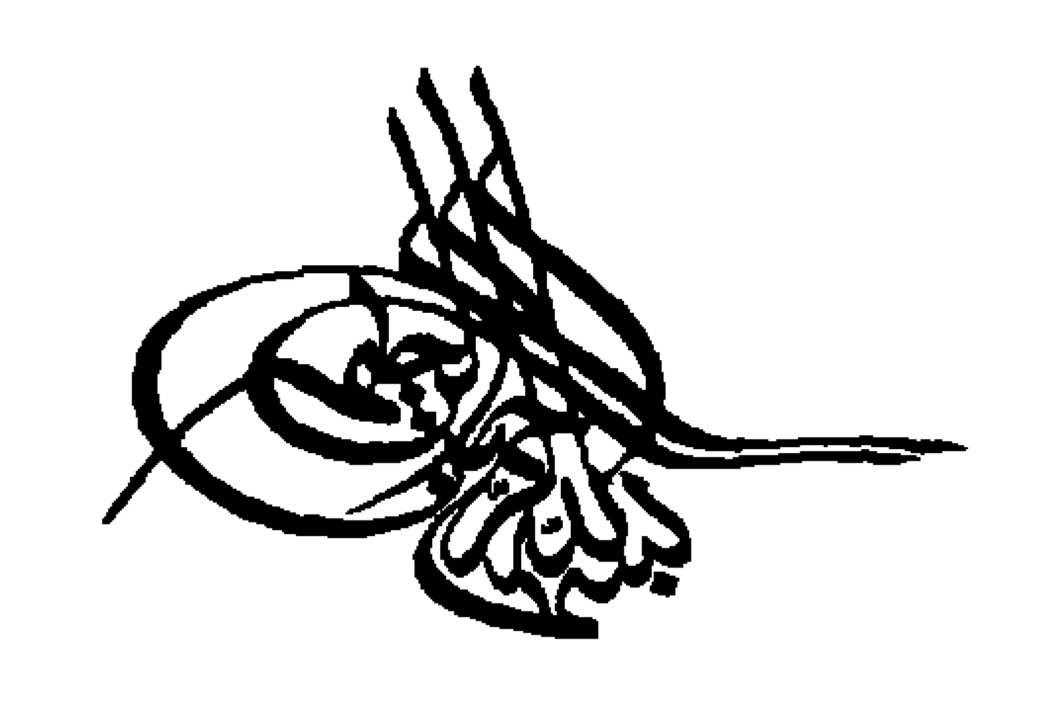
القاهرة - مصر الجديدة - مساكن مصر للتعمير
شيراتون المطار المنطقة الثالثة عمارة ٢٢ شقة ٤ هاتف ٢٦٩٢٧٥١

كل جاسوس .. أمير

تعريب : ممدوح لطفي

أمراء الموساد

تأليف: دان رافيف
يوسي ميلمان



مقدمة

● ماهو التاريخ الكامل للمخابرات الاسرائيلية من الجذور وحتى الآن ؟ وكيف جاءت البداية مع إنشاء أول جهاز للمخابرات اليهودية قبل ظهور دولة إسرائيل للوجود ؟ .

إن البداية كما يقول تاريخ المخابرات اليهودية كانت تحت اسم شاى ، فى الثلاثينيات ، وبفضل « بن جوريون » ظهرت وكالات المخابرات الاسرائيلية وهذا الكتاب « كل جاسوس .. أمير » أو « Every spy a prince » يكشف الملف الكامل لمؤسسة المخابرات الاسرائيلية بكل عملياتها القذرة ومحاولاتها التخريبية ليس فقط فى الوطن العربى ، ولكن فى العالم بأسره حتى داخل الولايات المتحدة أهم حليف للدولة اليهودية ..

وقد شارك فى تأليف الكتاب مراسل التليفزيون الأمريكى « دان رافيف » ، والصحفى الاسرائيلى البارز « يوسى ميلمان » وبذلا جهدا ملموسا لتقديم الاجابات على كل التساؤلات حول مؤسسة المخابرات الإسرائيلية ، ودورها فى صياغة أبرز التحالفات الاستراتيجية التى سعت إسرائيل إليها لضرب حركة القومية العربية ..

إن أهمية هذا الكتاب تنبع من خطورة الدور الذى تلعبه مؤسسة المخابرات الاسرائيلية فى اطار الصراع العربى - الاسرائيلى ، وعلى مستوى العالم ، والذى تستخدم فيه اسرائيل عشرة آلاف من مواطنيها من أجل تحقيق أهداف الصهيونية وخططها الخبيثة .

الفصل الأول

الخطوات الأولى

● فى الثلاثين من يونيو عام ١٩٤٨ ، وصل ستة من الرجال ، يرتدون الملابس الكاكية ، فى حذر فى سيارات وعربات أجرة مختلفة إلى المبنى رقم ٥٨ بشارع « بن يهودا » فى تل أبيب .. واتخذوا طريقهم فرادى إلى شقة معلق عليها لافتة مكتوب عليها « خدمات استشارية » ولم تكن هذه الشقة غير مقر للمخابرات اليهودية « شيروت يديعوت » المعروفة اختصارا باسم « شاى » « **Shai** » والتى كانت تتبع الجيش اليهودى السرى فى فلسطين قبل نشأة اسرائيل والمعروف باسم « الهاجاناه » وهى كلمة عبرية تعنى « الدفاع » ومع مولد اسرائيل فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ تم دمج « الهاجاناه » فى جيش اسرائيل الجديد الذى أطلق عليه جيش الدفاع الاسرائيلى . وبعد ذلك بستة أسابيع انتهى جهاز « شاى » وولدت مجموعة المخابرات الاسرائيلية أو مؤسسة المخابرات الاسرائيلية ..

عندما اكتمل وصول الرجال الستة إلى مقر « شاى» أو المخابرات اليهودية ترأس الاجتماع الليفتنانت كولونيل « إيسر بيرى » مدير « شاى » والذى يبلغ من العمر سبعة وأربعين عاما .. وأوضح لهم آخر تطورات الموقف على جبهات القتال مع الجيوش العربية مشيرا إلى أن القوات المصرية تدعم مواقعها على مسافة عشرين ميلا فقط من تل أبيب بينما القوات السورية تهدد مزارع الكيبوتز [1] قرب بحر الجليل ، بالإضافة إلى الحصار الذى يفرضه الفيلق العربى الأردنى على القدس ..

كانت الصورة التى طرحت على ضباط « شاى » بالغة القتامة .. ومع ذلك أكد

لهم « إيسر بيرى » أنه لم يدعهم للاجتماع من أجل ذلك ، وأنه قادم لتوه من اجتماع مع « الرجل العجوز » أى « بن جوريون » رئيس الحكومة الاسرائيلية الذى أصدر تعليماته بحل جهاز « شاى » واستخدام العاملين فيه كأساس لمجموعة أجهزة مخابرات جديدة يتم تنظيمها ..

لم يكن الهدف من وراء هذه التعليمات التى أصدرها « بن جوريون » مجرد تغيير اسم جهاز « شاى » بل كان الغرض الحقيقى هو حل هذا الجهاز والاستفادة من أعضائه وأعضاء الجماعات السرية الصهيونية الأخرى فى انشاء أربع وكالات مخابرات جديدة وهى :

● المخابرات العسكرية : وقد أعلن « إيسر بيرى » فى ذلك الاجتماع أنها ستكون الوكالة المسيطرة فى التنظيم الجديد للمخابرات وأنه سيرأسها ، وكانت تسمى آنذاك إدارة مخابرات الجيش ، وعرفت فيما بعد باسم « أمان » أو « **Aman** » وقد كلفت بمهام عديدة تتراوح بين جمع المعلومات عن الجيوش العربية والرقابة على الصحف الاسرائيلية ، وضمان الأمن داخل الجيش الاسرائيلى ، وحتى مكافحة الجاسوسية .

● بوليس سرى محلى : لتعقب أعداء الدولة اليهودية داخل حدودها ، وتعرف هذه الوكالة الآن باسم « شين بيت » « **Shin Bet** » وهو اختصار لاسمها بالعبرية الذى يعنى « ادارة الأمن العام » وتقرر وقتها أن يرأسها « إيسر هاريل » أحد ضباط « شاى » ..

● ادارة المخابرات الخارجية : وقد تم تكليف « بوريس جوريل » بقيادتها بوصفه رئيس القسم السياسى فى وزارة الخارجية الاسرائيلية ، وهى تهدف إلى جمع المعلومات من خارج اسرائيل .. وعرفت باسم « القسم السياسى »

● وكالة أو مجمع الهجرة : وقد قرر « إيسر بيرى » أن يواصل مجمع الهجرة عملياته السرية تحت قيادة « شاءول أفيجور » .. وكانت المهمة الأصلية لهذا المجمع قبل انشاء اسرائيل هى تهريب اليهود إلى داخل فلسطين ..

ولد مدير مجمع الهجرة عام ١٨٩٩ فى لاتفيا تحت اسم « سول ماييروف » وأسهم فى انشاء « شاى » عام ١٩٣٤ ..

وفى عام ١٩٤٨ كان مشغولا بوصفه وكيل وزارة الدفاع ، أى وكيل « بن جوريون » الذى شغل منصبى رئيس الحكومة ووزير الدفاع فى آن واحد ، فى شراء الأسلحة من الخارج من أجل حرب الاستقلال ..

وقام بتغيير اسمه إلى أفيجور أى « أبى جور » إحياء لذكرى ابنه « جور مايروف » الذى مات فى حرب إسرائيل الأولى ..

لم يشهد « أفيجور » مولد مؤسسة المخابرات فى تل أبيب ، كذلك لم يشهده المؤسس الآخر لجهاز « شاى » ، « روفين شيلوح » ، لكن « شيلوح » بوصفه مستشارا خاصا لرئيس الوزراء للشئون الخارجية والاستراتيجية العامة ، هو الذى تصور عملية إعادة التنظيم ..

لم يجد اسم « شيلوح » طريقه مطلقا إلى قائمة الأبطال القوميين الذين يوقرهم الدارسون اليهود فى جميع أنحاء العالم ، ابتداء من محاربى الكتاب المقدس وانتهاء بجنود اسرائيل الحديثة ..

فنادرا مايلقى الرجال والنساء ، الذين يعملون فى العالم السرى للجاسوسية ، التقدير الذى يستحقونه .

وعلى أية حال ، ينبغى تذكر « شيلوح » بوصفه ملك المخابرات فى اسرائيل ..

كان « شيلوح » الرجل القصير ذو العينين الزرقاوين اللتين تختفيان وراء نظارة طبية ، يركز نظراته المحدقة المتغلغلة على أى شخص يتحدث إليه .. ويجعله يشعر وكأنه يواجه استجوابا

كان « شيلوح » يشع مزيجا من السرية والقوة ، وفضوليا بلا حدود ، ينقب عن أدق تفاصيل أى موضوع يجتذب اهتمامه ..

وقد لاحظ الزملاء الذين تحدثوا إلى « شيلوح » الندبة الموجودة على وجنته اليمنى ، وهى تذكار دائم للشظية المشتعلة التى أصابته عندما انفجرت سيارة عربية ملغومة فى مارس ١٩٤٧ بالقرب من مكاتب الوكالة اليهودية فى القدس ، التى كانت الحكومة غير الرسمية ليهود فلسطين قبل استقلالهم ..

اتسم « شيلوح » بمهارته فى توجيه الأسئلة ، لكنه لم يكن يتطوع سوى بتقديم أقل القليل من المعلومات ، كان ذئبا يؤثر العزلة ، ويحقق أفضل انجازاته من وراء الكواليس .. كان مخططا منهجيا ومفكرا تحليليا يتوصل إلى توصياته بمنأى عن العواطف وارتكزت مشروعاته دائما على أرض الواقع الصلبة ، لكنه فى حياته الخاصة كان يفضل الغموض الملغز ● ●

ويتذكر صديقه الدبلوماسى الاسرائيلى البارز « أبا إيبان » أنه عندما كان « روفين شيلوح » يستقل سيارة أجرة فإنه لايبلغ السائق أبدا بوجهته ، ولكنه يصدر إليه أمرا مقتضبا : « تحرك » ، وعندما ينفد صبر السائق ويسأله : ولكن إلى أين ؟ فإن « شيلوح » يوجه نظرته المحدقة المتغلغلة والتى لا توحى بالثقة إلى الرجل ، كما لو أنه يواجه جاسوسا خطيرا ..

ولد « شيلوح » عميلا سريا ، على الرغم من أنه لم يكن يوجد مايشير إلى ذلك البتة عندما خرج إلى النور فى ديسمبر عام ١٩٠٩ تحت اسم « روفين زاسلانسكى » . عاشت أسرته فى حى يهودى متزمت من أحياء القدس ، التى كانت تحت حكم الامبراطورية العثمانية آنذاك :

كان أبوه « اسحاق زاسلانسكى » حاخاما زرع فى أطفاله حبا شديدا للمعلومات العامة وليس مجرد الاكتفاء بالتعليم الدينى الذى سيطر على حياة المجتمع ..

لاحظ مدرسو « روفين » أنه طالب جاد وموهوب ، وأنه نادرا مايكون لدية الكثير لقوله ، لكنه من حين لآخر يكشف عن تمتعه بروح الدعابة .

وقد تفوق فى الدراما أو الفن المسرحى كاشفا عن مهارة تمثيلية والتى وظفها فى وقت لاحق فى عمله بالمخابرات كما كان أيضا مفكرا مستقلا ، وعندما أصبح فى المدرسة الثانوية تخلى عن طعام « كوشير » وهو الطعام المباح فى الشريعة اليهودية ، وعن بقية أسلوب الحياة الدينى لأسرته ..

كان بمقدوره أن يكون ساحرا عندما يهتم بأن يكون كذلك ، وخلال قيامه بتدريس العبرية للمهاجرين الجدد القادمين من أمريكا ، بدأ يتودد إلى « بيتى

بوردين » وهى اخصائية اجتماعية من نيويورك وتزوجا فى عام ١٩٣٦ ..

أما حبه العظيم الثانى فكان « الهاجاناه » ، حيث تبين « بن جوريون » وغيره من القادة مواهبه بسرعة ، ودفعوه إلى أعلى سلم القيادة ورد هو على ذلك بإخلاص لايتزعزع ..

وفى اطار انضمامه إلى صفوف كبار الناشطين الصهاينة ، قام باختصار اسمه من « زاسلانسكى » إلى « زاسلانى » وفى وقت لاحق اتخذ من اسمه الحركى « شيلوح » اسما له ..

ولم يكن هناك اسم يناسبه أفضل من ذلك ، لأنه مشتق من الكلمة العبرية « شالياح » أى المبعوث ، وقد استخدم بصفة متكررة كمبعوث على مستوى عال لبن جوريون فى مهام سرية متعددة .. ولم يكن ذلك من أعمال المخابرات الحقيقية لكن أسفار « شيلوح » السرية احتوت على البذور الأولى التى ستثمر فيما بعد نظرته للمخابرات والتى تتمثل فى الواضح للأعداء ، وجمع المعلومات بصورة شاملة عنهم ، والبحث المستمر عن حلفاء فلأن هناك من يتفوق على اليهود من الناحية العددية بدرجة كبيرة فى منطقة الشرق الأوسط ، لذلك تعين عليهم أن يعرفوا ويتعلموا بسرعة وبصورة مؤكدة كيفية التمييز بين الأصدقاء والخصوم ..

جاءت مهمة « شيلوح » الخارجية الأولى فى أغسطس ١٩٣١ ، قبل أن يحتفل بعيد ميلاده الثانى والعشرين ..

فقد زرعته الوكالة اليهودية فى عمق العالم العربى فى بغداد عاصمة العراق ..

وكان غطاؤه وظيفة مدرس فى أحد المدارس .. وقدم نفسه أيضا على أنه صحفى حر ، الأمر الذى جعل رحلاته فى أنحاء العراق تبدو طبيعية جدا ..

وفى غضون ثلاث سنوات أنشأ « شيلوح » شبكة مؤثرة من مصادر المعلومات وأكثر الدروس التى تلقنها « شيلوح » حدثت خلال جولته فى جبال كردستان فى شمالى العراق ، حيث أقام اتصالات مع سكان الجبال غير العرب الذين لا دولة لهم ..

ولم ينس أبدا الأكراد ، وخلال تنميته لرؤيته الشخصية لمستقبل مؤسسة التجسس الاسرائيلية ، ركز على الحاجة الى اقامة تحالفات سرية مع جميع الاقليات غير العربية فى الشرق الأوسط ..

وشعر بأن اليهود يمكن أن يكون لهم أصدقاء متناثرون حول محيط العالم العربى .. وأصبحت فلسفة « شيلوح » المحيطية عقيدة ثابتة بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية ..

عندما عاد « شيلوح » إلى القدس فى عام ١٩٣٤ أوكلت إليه « الهاجاناه » مهمة تشكيل قسم مخابرات محترف لحماية المصالح بعيدة الأمد للجالية اليهودية فى فلسطين ..

وانكب « شيلوح » على تنفيذ المشروع مع « مايبروف / أفيجور » ، وخلال فترة قصيرة أنشأ « شاى » . وكانت وظيفة « شيلوح » العلنية هى ضابط اتصال بين الوكالة اليهودية وبين الحكام البريطانيين لفلسطين ..

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، انتهز « شيلوح » الفرصة لتعميق هذه العلاقة فالمانيا النازية كانت العدو المشترك لكل من اليهود والبريطانيين ..

واسهم « شيلوح » فى تشكيل لواء داخل القوات المسلحة البريطانية وهو إجراء كشف عن بصيرة نافذة لأن اللواء أصبح فيما بعد جزءا من ركيزة الجيش الاسرائيلى .

كانت الحرب مثيرة لاحباط اليهود الفلسطينيين الذين لم يتمكنوا سوى من انقاذ عدد قليل من أخوتهم الأوربيين من معسكرات الإبادة النازية ، ولكنها كانت أيضا خبرة تعليمية بالنسبة لشيلوح ورجاله :

فعن طريق القتال بكل طريقة ممكنة ، اقتنصوا مهارات لاتقدر بثمن فى مجال التسلل والمراقبة وأساليب التنكر الكامل ..

ستة وعشرون من جنود المظلات اليهود جندهم « شيلوح » للعمل لحساب المخابرات البريطانية ، تم اسقاطهم خلف خطوط النازى فى دول البلقان ..

بعضهم ، مثل « حنا سينيش » و « إنديو سيرينى » ، تم سجنهم واعدامهم

بوصفهم جواسيس وأصبحوا أبطالا يهودا .. وآخرون مثل « يشياهو » نجوا ليبرزوا مزيدا من المواهب فى المخابرات الاسرائيلية ..

لم يكن « شيلوح » يتعلم فقط خلال الحرب ، فقد صنع أصدقاء ذوى نفوذ يمكنهم فى وقت لاحق مساعدة اليهود فى نضالهم المتزايد ضد العرب من أجل السيطرة على فلسطين .

وقد واتته الفرصة لإقامة صداقات قوية مع ضباط مخابرات الجيش البريطانى فى القدس والقاهرة كما تقاسم « شيلوح » الشراب والأفكار مع عملاء مكتب الخدمات الاستراتيجية الذى أصبح فى عام ١٩٤٧ نواة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتم تدعيم هذه الروابط بعد الحرب وكانت الأساس لبناء صلات حيوية بين وكالة المخابرات المركزية وبين المخابرات الاسرائيلية .

ونشاطات « شيلوح » فى زمن الحرب دليل واضح على حكمته وقدرته على انتهاج وجهة نظر استراتيجية بعيدة المدى لأهمية المخابرات فى العصر الحديث ..

وخلال إلقائه محاضرة على رفاقه من مؤسسى الدولة اليهودية ، الذين كانوا يُعلمون أنفسهم كيف يديرون دولة حديثة فى الوطن القديم لشعبهم ، وصف « شيلوح » المخابرات بأنها أداة سياسية ضرورية للغاية ..

وكان « شيلوح » هو الذى حدد الجانب السرى من الدبلوماسية والسياسة الخارجية الاسرائيلية بقوله :
« العدو رقم واحد للمجتمع اليهودى هو الشعب العربى ، وأنه يتعين اختراق المجتمع العربى من جانب عملاء محترفين .. وينبغى على المخابرات الاسرائيلية أيضا أن تفكر فيما يتجاوز فلسطين ، بوصفها حامية يهودية صهيونية لليهود فى أنحاء العالم ..

ويتعين أن يرتكز العمل السرى على التكنولوجيا الحديثة ، والاطلاع على أحدث صيحة فى أساليب التجسس عن طريق الاحتفاظ بروابط مع الوكالات الصديقة فى أوربا والولايات المتحدة »

وعلى الرغم من أنه لم يشهد اجتماع شارع « بن يهودا » ، الذى تم فيه حل « شاى » وظهور الهيكل المخابراتى للدولة الجديدة ، بوصفه اجتماعا فنيا محضا ، إلا

أن « شيلوح » سهر على رعاية ورقابة المؤسسة الوليدة كملاك حارس ، واكتشف الكثير مما أقلقه فى شخص « إيسر بيرى » .

بعد ظهر الثلاثين من يونيو عام ١٩٤٨ ، وبعد بضع ساعات فقط من توليه مهام منصبه كمدير للمخابرات العسكرية ، دفع الشعور بالواجب « بيرى » الى مدى متطرف لم يتكرر أبدا فى تاريخ اسرائيل ، عقد « بيرى » محكمة لاتراعى مبادىء القانون والعدالة أدانت على عجل ضابطا فى الجيش الاسرائيلى بتهمة الخيانة ، ونفذ فيه الحكم بالاعدام بسرعة ..

كان المتهم هو الكابتن « مائير توبيانسكى » ، الذى خدم فى الهاجاناه واصبح مسئولا بعد الاستقلال من إنشاء القاعدة الدائمة الأولى لجيش الدفاع الاسرائيلى فى القدس .. وكان يشغل أيضا وظيفة مدنية فى شركة كهرباء القدس ..

وكان زملاء « توبيانسكى » الاسرائيليون متشككين بشأن علاقته مع المديرين البريطانيين للشركة ..

وفى بداية حرب عام ١٩٤٨ ، كانت المدفعية الأردنية تحقق ضربات دقيقة إلى حد مدمر ضد القواعد الاسرائيلية .. وتوصل قائد « شاى » فى القدس الميجور « بنيامين جيلبى » إلى أنه لا بد أن يكون هناك جاسوس فى صفوف الاسرائيليين ، وبدا منطقيا أن « توبيانسكى » بمقدوره تقديم المعلومات إلى رؤسائه فى شركة الكهرباء ، ويقومون هم بدورهم بتقديم النصيحة للضباط البريطانيين الذين يقودون الفيلق العربى الأردنى ..

والأهم من ذلك ، أن « توبيانسكى » كان ضابطا برتبة ميجور فى سلاح المهندسين الملكى التابع لبريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، وعرف عنه أنه محب لانجلترا .. كان هذا الدليل الثانوى كافيا للحكم عليه بالاعدام ..

اجتمع القضاة فى منزل مهجور بالقرب من الطريق الرئيسى الذى يربط بين القدس وتل أبيب .. وكان القضاة هم بيرى ، جيلبى ، واثنين آخرين من ضباط « شاى» .. لم يتم الاحتفاظ بأية مذكرات تفصيلية للمحاكمة السريعة .. وفى وقت لاحق ، ادعى جميع القضاة ، فيماعدا بيرى ، انهم قاموا فقط باستجواب المشتبه فيه

وانهم لم يعرفوا أنهم كانوا يفرضون أية عقوبة يتعين تنفيذها ..

لكن بعد ظهر اليوم نفسه ، أعدم « توبيانسكى » بواسطة فرقة اعدام رميا بالرصاص ..

وبعد بضع ساعات ، ابلغ « بيرى » رئيس الوزراء بأنه بعد محاكمة عسكرية ميدانية ، نفذت وحدة جيش حكم الاعدام رميا بالرصاص فى أحد الخونة وعلى أية حال ، أعاد « بن جوريون » فتح القضية ، بعد أن تلقى رسالة مثيرة للعواطف من أرملة « توبيانسكى » وأمر بإجراء تحقيق رسمى أدى إلى تبرئة اسم الكابتن وإلى دفع تعويض إلى أسرته ..

وفى اليوم نفسه ، الثلاثين من يونيو عام ١٩٤٨ قام رجال « شاى » التابعين لبيرى فى حيفا بتعذيب صديق للعمدة اليهودى الذى كان يعتبر ليبراليا للغاية ..

كان عملاء « شاى » يضغطون من أجل العثور على دليل بأن العمدة « أبا خوشى » قد ذهب إلى مدى أبعد من كونه لينامع العرب ، وأنه خائن للقضية الصهيونية ..

أما ضحيتهم فكان « جوليس [يهودا] أمستر » وقد أمر « بيرى » بالقبض عليه فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ ، وهو اليوم نفسه الذى جرى فيه اعلان استقلال اسرائيل .

كان « أمستر » يمتلك عربة أجرة ، ووراء الكواليس كان الساعد الأيمن للعمدة « خوشى » .. اتهم « امستر » بالتجسس ، وعاش فى كابوس لمدة شهرين ونصف الشهر فى معسكر اعتقال سرى ..

وتمت مصادرة بممتلكاته ، وقام من حققوا معه ، وكانوا فى البداية من « شاى » ثم من وكالة « بيرى » الجديدة للمخابرات العسكرية ، بتعذيبه بلا رحمة ، صوبوا المسدسات اليه كما لو انهم على وشك أن يمزقوا مخه ، ضربوه ، تركوا الماء يتساقطوا على رأسه نقطة .. نقطة ، خلعوا أسنانه ، وحرقوا اخمص قدميه ، وحقنوه بالعقاقير المخدرة .. وتم اطلاق سراحه ، دون أن تتأكد أية اتهامات ضده ، فى اليوم الأول من أغسطس من العام نفسه ..

وظلت عملية القبض غير القانونى ، والتعذيب الذى تلاها ، سرا لسنوات عديدة .. حتى كان عام ١٩٦٤ عندما وافقت وزارة الدفاع بالفعل على دفع تعويض مالى لامستر ..

وكان واضحا ، طوال الوقت ، أن « بيرى » قد حاول الحصول على اعتراف من أمستر يورط صديقه « خوشى » بل إن « بيرى » لفق أدلة بأن العمدة قد تجسس على الهاجاناه لحساب البريطانيين .. وعلم بن جوريون بعملية تلفيق الأدلة ، وأصبح « بيرى » فى طريقه للإقالة ..

وتمثلت القشة التى قصمت ظهر البعير فى مقتل ثرى عربى فى صيف عام ١٩٤٨ والضحية هو « على قاسم » وكان عميلا مزدوجا جندته المخابرات العسكرية لاختراق المليشيات العربية الفلسطينية ونتيجة للتشكك فى أن قاسم كان فى الحقيقة عميلا ثلاثيا يعمل لحساب العرب قبل أى شىء ، قام عملاء « بيرى » بقتله بالرصاص ..

وأمر بن جوريون ، بوصفه وزير الدفاع الى جانب كونه رئيسا للحكومة ، بإجراء تحقيق شامل فى قضية قاسم ..

وتم وقف « بيرى » مؤقتا عن عمله بالجيش فى نوفمبر ، ثم أدانته محكمة عسكرية بتهمة القتل ..

ثم حوكم بعد ذلك بتهمة القتل غير القانونى لتوبيانسكى وتعذيب « امستر » .. نفى « بيرى » الاتهامات لكن المحكمة وجدته مذنبا وادانته وحكمت عليه بعقوبة رمزية وهى السجن لمدة يوم واحد ..

وهكذا فإن الرجل الذى كان أول مدير للمخابرات العسكرية ، وأكبر قوة نشطة فى مؤسسة الجاسوسية الجديدة استمر ستة شهور فقط فى موقعه .. وقد سقط « بيرى » من جراء نظرته ضيقة الأفق للأمن القومى ..

فلم تكن لديه وقت للمناورات السياسية أو حتى لحقوق الانسان .

فالدولة يتعين حمايتها ، وهكذا كان عالم « بيرى » بمثل هذه البساطة .. اكتشف بمرارة انه كان مخطئا فالسلوك الذى تنتهجه دولة شمولية ويمر دون عقاب ، لايمكن

التسامح فيه طويلا فى اسرائيل .. وهى دولة صممت منذ بدايتها على أن تكون دولة ديمقراطية .. واصل « بيرى » حتى وفاته بنوبة قلبية فى يناير عام ١٩٥٨ ، الادعاء بأنه برىء . وأصر ابنه « اتاى بيرى » بعد ذلك بسنوات ان « ايسر بيرى » لم يكن فيما فعله سوى منفذا لاوامر « بن جوريون » ..

كان سقوط « بيرى » نوعا من الصدمة كان يمكن أن تصيب مؤسسة المخابرات بالشلل ..

وعلى أية حال ، فإن « بن جوريون » اختار بحكمة الكولونيل « حاييم هيرتزوج » كمدير جديد للمخابرات العسكرية ..

وقد كفلت الحقيقة التى مفادها أن « هيرتزوج » كان وكيلا لبيرى استمرارية حيوية .. بالإضافة إلى الصداقة التى تربط بين « هيرتزوج » و « روفين شيلو وقد تجنب « هيرتزوج » كافة الأخطاء المحلية وركز على التخطيط الاستراتيجى والشئون الخارجية ، مما ساعد على تضميد الجراح العميقة فى الجسد الوليد لمؤسسة المخابرات ..

وخلال فترة ولاية « هيرتزوج » القصيرة للمخابرات العسكرية ، قام بإدخال الكمبيوتر والاعتماد عليه فى عمليات المخابرات ولنكون أكثر دقة ، فإنها كانت مجموعات من الالات الحاسبة الضخمة أكثر من كونها أجهزة كمبيوتر حديثة ، إلا انها عملت بصورة جيدة للغاية ، ومكنت اسرائيل من فك الانظمة الشفرية البسيطة التى تستخدمها جيوش مصر وسوريا والدول العربية المجاورة الأخرى بمجهود قليل ..

وقد جعل « هيرتزوج » وفريقه من الحالمين الشباب ، اسرائيل واحدة من بين الدول الأولى التى تستفيد من ميزات التكنولوجيا المتطورة والجديدة فى عالم الجاسوسية ..

ومضى « هيرتزوج » قدما فى حياته العملية الممتدة والمتميزة ، ووصل إلى الذروة بتنصيبه رئيسا لاسرائيل فى عام ١٩٨٣ ..

انطلاقا من قراره بأن يكون له دور أكثر نشاطا وفعالية فى ادارة مؤسسة

المخابرات ، أنشأ « شيلوح » هيئة للتنسيق يترأسها بنفسه .. وأطلق عليها اسم « لجنة رؤساء اجهزة المخابرات » وقد عقدت هذه اللجنة أول اجتماع لها فى إبريل عام ١٩٤٩ بعد انتصار القوات الاسرائيلية على العرب ..

وشارك فى عضوية هذه اللجنة إلى جانب « شيلوح » و « هيرتزوج » ، « إيسر هاريل » عن « شين بيت » و « بوريس جورييل » عن القسم السياسى لوزارة الخارجية ويشير رؤساء المخابرات الاسرائيلية إلى اللجنة باسم « فاراش »Varash ، وهى الكلمة المركبة من أوائل حروف الكلمات المكونة لاسمها بالعبرية ، وذلك على الرغم من أنه لم يكشف عنها علنا ..

وكان توقيت اجتماعات « لجنة فاراش » ومكانها يعد سرا من الأسرار ، أما هدفها فقد تحدد فى تسهيل التنسيق والتعاون بين مختلف اجهزة المخابرات الاسرائيلية وتقليل احتمالات الخطأ نتيجة سوء الفهم وترشيد العمل للحيلولة دون حدوث ازدواجية

كانت ادارة المخابرات الخارجية ، أو ماعرف باسم القسم السياسى ، هى ذراع المخابرات الاسرائيلية فى الخارج تحت قيادة « بوريس جورييل » ..

وتحددت مهام عملاء القسم السياسى فى زرع الجواسيس والعملاء فى الدول العربية وإقامة روابط بين المخابرات الاسرائيلية وبين أجهزة الأمن والمخابرات الأجنبية خاصة فى فرنسا وايطاليا وغيرها من الدول الأوربية ..

وكان عملاء القسم السياسى يتمتعون بغطاء دبلوماسى فى القنصليات والسفارات الاسرائيلية فى لندن ، باريس ، روما فيينا ، بون ، وجنيف ..

ومن أبرز ضباط وعملاء القسم السياسى كان « آشر بن ــ ناتان » .

وحتى عام ١٩٥٠ ، قام عملاء المخابرات الاسرائيلية فى أوربا بتقديم تقاريرهم إلى « آشر بن ــ ناتان » الذى اتخذ من باريس مقرا له ، وكان يتمتع باستقلال ملحوظ عن مدير القسم السياسى « بوريس جورييل » وفيما بعد ، استقر « بن ــ ناتان » تقريبا فى تل أبيب ، حيث كان يتلقى التقارير ويصدر الأوامر بشأن العمليات .

وكان لكل فرع للقسم السياسى الاسرائيلى فى العواصم الأوربية المختلفة ، شبكة خاصة من العملاء معظمهم من غير الاسرائيليين الذين يبيعون المعلومات للمخابرات الاسرائيلية . وقد أسهمت هذه المعلومات فى تسهيل قيام المخابرات الاسرائيلية بتخريب شحنات الأسلحة الواردة من أوربا للدول العربية ..

وأهم انجاز حققه القسم السياسى كان الحصول على أمر القتال والخطط الحربية للجيش السورى خلال حرب فلسطين من عميل تم زرعه فى العاصمة السورية دمشق .. وكانت مثل تلك المعلومات حيوية للغاية بالنسبة للدولة اليهودية الوليدة التى رأت انها مازالت تواجه تهديدا خطيرا من جيرانها العرب ..

ورغم ذلك ، لم تكن التقارير والمعلومات التى يقدمها « بن ــ ناتان » ورجاله بصفة عامة تلقى تقديرا كبيرا من جانب رؤسائهم فى القسم السياسى ، وربما رجع ذلك إلى أسلوب حياة « بن ــ ناتان » نفسه ..

فقد كان هو وغيره من كبار العملاء ، ومن بينهم « جيرشون بيريز » شقيق « شيمون بيريز » رئيس الحكومة فى وقت لاحق ، يتصرفون ويعيشون حياة مترفة ، يتناولون طعامهم فى المطاعم الفاخرة فى باريس وجنيف ، ويشربون فى أرق بارات أوربا ، ويجتمعون فى افخر الفنادق الأوربية ..

وأثار هذا الاسراف غضب كبار المسئولين فى أجهزة المخابرات الاسرائيلية وعلى رأسهم « روفين شيلوح » و « شاءول أفيجور » اللذين يعتبران المؤسسين الحقيقيين للمخابرات فى الدولة اليهودية ..

كذلك واجه القسم السياسى انتقادات حادة من جانب أجهزة المخابرات الاسرائيلية الأخرى التى اعتبرت عملاء القسم السياسى مجرد مجموعة من الهواة لايسهمون إلا نادرا فى الدفاع عن أمن اسرائيل ..

● تعرض « روفين شيلوح » لضغوط شديدة من جانب « بن جوريون » رئيس الحكومة الاسرائيلية بوصفه رئيسا للجنة « فاراش » أى لجنة التنسيق بين مختلف أجهزة المخابرات الاسرائيلية ..

وواجه « روفين شيلوح » أيضا ضغوطا من جانب القادة العسكريين .

فقد أراد « بن جوريون » وقادة الجيش الاسرائيلى من « روفين شيلوح » أن يقدم لهم معلومات دقيقة ومحددة عن قدرات وإمكانات الجيوش العربية ، خاصة وأن قادة اسرائيل آنذاك فى عام ١٩٥٠ ، كانوا يخشون أن تؤدى الأوضاع الدولية المتمثلة فى نشوب الحرب الكورية ، والحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، إلى دفع العرب إلى التفكير فى جولة جديدة من القتال ضد اسرائيل لاجهاض نتائج الجولة الأولى من القتال خلال ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ التى هزموا فيها ..

أى أنهم خشوا أن يدفع التوتر الدولى إلى قيام العرب بانتهاز الفرصة لتوجيه ضربة قاصمة إلى الدولة اليهودية .

كان قادة اسرائيل يريدون معلومات محددة عن القدرات العسكرية العربية ، ولم يكن يبدون اهتماما بما يقدمه القسم السياسى من تقارير حول الخطط السياسية العربية ومشروعات العرب الاقتصادية ، ومايحدث فى مخادع الزعماء العرب ..

من أكثر الشخصيات معارضة لعمليات القسم السياسى داخل جهاز المخابرات الاسرائيلية كان الليفتنانت كولونيل « بنيامين جيلبى » الذى عمل نائبا لحاييم هيرتزوج مدير المخابرات العسكرية ، ثم حل محله عندما انتقل « هيرتزوج » الى واشنطن للعمل كملحق عسكرى اسرائيلى هناك ..

وقرر « جيلبى » شن حملة شاملة ضد القسم السياسى ، ووجد مساندة فى ذلك من جانب « إيسر هاريل » مدير ادارة الأمن العام « شين بيت » والذى كان يكن الازدراء للقسم السياسى بسبب حياة الاسراف والترف التى يحياها عملاؤه وقلة انتاجيتهم ..

لم تصدق أجهزة الأمن فى فرنسا وايطاليا مايحدث .. فقد شعرت هذه الأجهزة بالارتباك من جراء عدد هائل من المطالب المتناقضة من جانب ضباط الاتصال الاسرائيليين...

كان توصيف الحالة هو صراع على السلطة بين أجهزة المخابرات الاسرائيلية ولم يعرف الاصدقاء الأجانب لمؤسسة المخابرات الاسرائيلية كيف يتصرفون .. فقد كانوا يعلمون ان اسرائيل التى تحيط بها دول معادية ، لاتملك ترف الصراع الداخلى ..

وصلت تقارير حول مايحدث الى « بن جوريون » رئيس الحكومة الاسرائيلية ، فاستشاط غضبا ، وأصدر تعليماته إلى « روفين شيلوح » بوضع حد لتلك الفوضى ..

انتهز « روفين شيلوح » ، الأب الروحى للمخابرات الاسرائيلية ، الفرصة وقرر إعادة تنظيم أجهزة المخابرات .. وأعلن أنه سيتم حل القسم السياسى ، وأجبر مديره « بوريس جوريل » على تقديم استقالته ..

وتم ابلاغ شبكات التجسس التابعة للقسم السياسى فى أوربا بان عليها أن تتوقع صدور تعليمات جديدة اليها من جانب قادة جدد ..

لكن « بن ــ ناتان » الرجل البارز فى القسم السياسى رفض الاستسلام ، وبعد أيام من الانقلاب الصامت الذى قام به « روفين شيلوح » ، وبالتحديد فى الثانى من مارس عام ١٩٥١ ، جمع « بن ــ ناتان » معاونيه وعملاءه الأوربيين فى جنيف واتفقوا على تقديم استقالاتهم ، وقرروا إلا يعملوا بعد ذلك لحساب أى من أجهزة المخابرات الاسرائيلية .

وبدأ « بن ــ ناتان » يدرس العلاقات الدولية فى سويسرا ، بينما رفض معاونوه تسليم ملفاتهم الى « روفين شيلوح » ، وامتنعوا عن ابلاغه عن عمليات المخابرات الجارية ، وقاموا باحراق ملفاتهم السرية .

وفى اطار عملية إعادة التنظيم هذه تقرر ان تتحمل المخابرات العسكرية « **Aman** » مسئولية كافة المهام والعمليات الخاصة تحت قيادة « بنيامين جيلبى » ، الذى قرر على الفور تشكيل وحدة سرية خاصة اطلق عليها اسم « الوحدة ١٣١ » ومهمتها زرع العملاء فى الدول العربية .

وعلى أطلال القسم السياسى ظهر جهاز الموساد او ماأطلق عليه آنذاك « مجمع المخابرات والمهام الخاصة » .

وعلى هذا فإن المولد الحقيقى للموساد كان على يد « روفين شيلوح » فى أول إبريل عام ١٩٥١ ..

وقرر « بن جوريون » تعيين « روفين شيلوح » كأول مدير للموساد ، وتقرر أن

تتبع الموساد مكتب رئيس الحكومة مباشرة ، مثلما يحدث فى الولايات المتحدة حيث تقدم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تقاريرها الى البيت الأبيض مباشرة ..

ويعد ذلك أول تأثير محسوس للنفوذ الأمريكى داخل المخابرات الاسرائيلية ، حيث كانت عمليات القسم السياسى السابق تابعة لوزير الخارجية الاسرائيلية مثلما هو الحال فى بريطانيا حيث يعد جهاز المخابرات البريطانية المعروف باسم « **MI6** » مسئولا امام وزير الخارجية البريطانية ..

الفارق الوحيد آنذاك بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبين الموساد ، أن الأولى كان لها منذ البداية قسم للعمليات لكن الموساد عند تأسيسها لم يكن لديها مثل هذا القسم الخاص بالعمليات ولم يكن امام الموساد وقتها سوى المشاركة فى لجنة مشتركة مع المخابرات العسكرية للاشراف على استخدام الوحدة الخاصة السرية « الوحدة ١٣١ » ..

وتحددت مهمة الموساد فى جمع الحقائق والمعلومات فقط ..

وعلى الرغم من أن « روفين شيلوح » امضى فترة قصيرة كمدير للموساد ، إلا أنه عمد ألى ارساء المبادىء الاساسية لترشد الموساد فى عملها خلال العقود التالية ..

حيث قرر « روفين شيلوح » التأكيد على إقامة علاقات عمل مع أجهزة الأمن الأجنبية وبصفة خاصة مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، كما قام بإنشاء وحدة مخابرات اقتصادية للبحث عن ثغرات لمواجهة الحظر العربى على التجارة مع اسرائيل ، كذلك شدد على حاجة الدولة اليهودية لاقامة علاقة وثيقة مع اليهود فى مختلف أنحاء العام .

قام « شيلوح » أيضا بمراجعة شاملة ومكثفة للعمليات الجارية التى ورثها ، فقد كان العملاء مازالوا يعملون من وراء ستار على الرغم من الاضراب المجهض الفاشل الذى قام به ضباط الحالة فى أوربا الذين يديرون هذه العمليات .

واستغرق الامر من « شيلوح » عاما لاكتشاف جاسوس فى القسم السياسى .. والجاسوس ، الذى كان ينبغى عدم تجنيده . عرف فى اسرائيل باسم « ديفيد ماجن » ..

على أية حال ، فإن « ديفيد ماجن » كان اسمه « تيودور جروس » ، عندما ولد في بداية العشرينيات لأسرة مجرية يهودية ..

انتقلت أسرة جروس إلى جنوب افريقيا وتوجه « تيودور » في وقت لاحق إلى ايطاليا لدراسة الموسيقى ..

وبوصفه مغنيا بارعا ، فقد ظهر في عروض اوبرالية في ايطاليا والمكسيك . ودفعته الحرب العالمية الثانية للانضمام إلى الجيش البريطاني ، حيث غير اسمه إلى « تيدكروس » وأصبح ضابط مخابرات يقوم بمهام خطرة في ايطاليا وألمانيا .. عندما نشبت الحرب في فلسطين في عام ١٩٤٨ شعر « جروس / كروس » بأنه ملزم بالانتقال إلى إسرائيل والانضمام إلى جيشها » وبسبب خبرته ومعرفته باللغات الانجليزية ، الألمانية ، الايطالية الاسبانية ، والفرنسية ، تم تجنيده في القسم السياسي عن طريق « آرثر بن ـــ ناتان » .

وفي اسرائيل ، اتخذ الجاسوس المتطوع لنفسه اسم « ماجن » وهو لفظ عبرى يعني درع ، وتم ارساله الى ايطاليا بوصفه « تيد كروس » لادارة شبكة من العملاء العرب الذين كانوا يجمعون المعلومات العسكرية والسياسية لحساب اسرائيل ..

وفي عام ١٩٥٠ ، تم ارسال « ماجن / كروس » إلى مصر حيث قام بادارة شبكة من المخبرين المحليين .

تلقى « شيلوح » وجهاز الموساد الجديد تقارير من عميلهم في القاهرة ، لكنهم لم يحتفظوا به طويلا ..

ففي عام ١٩٥٢ ، صدرت إليه الاوامر بمغادرة مصر وبعد أن توقف في روما ، طار إلى تل أبيب .

وبوصفه « ديفيد ماجن » ، فقد القى القبض عليه بسرعة وحوكم وأدين ، وصدر عليه الحكم بالسجن لمدة خمسة عشر عاما . وكانت التهمة المذهلة : التجسس لحساب مصر .

فقد قام « ماجن / كروس » ، بدون تفويض دون أن يقدم تقارير عن أفعاله ، بالاتصال برجال المخابرات المصرية ..

وفى دفاعه ، ادعى أن غرضه كان دائما خداع المصريين عن طريق ان يبدو عميلا مزدوجا فى الوقت الذى يظل فيه من الواقع مخلصا لاسرائيل .

ولم تجد حجج « ماجن » قبولاً من جانب الادعاء ولا من جانب المحكمة ، ورجع ذلك جزئيا إلى توافر الأدلة على تورطه فى صفقات مخدرات غير مشروعة فى ايطاليا ، ولأنه قد سجن بسبب اتجاره فى المخدرات واصل اعضاء عديدون من القسم السياسى الذى تم حله الاعتقاد بان « ماجن / كروس » لم يخن اسرائيل .. وقد شهد « بوريس جوريل ، لصالحه خلال المحاكمة ، وادعى ان « شيلوح » والموساد لفقوا قضية زائفة ضد « ماجن » لتدمير سمعة القسم السياسى ..

وقد أدت حملة للعفو عنه الى اطلاق سراحه فى عام ١٩٥٩ بعد أن امضى سبع سنوات فى السجن ..

وقام « جروس / ماجن / كروس » بتغيير شخصيته مرة أخرى .. حيث اتخذ لنفسه اسما جديدا وتزوج ، وكون اسرة ، وعاش فى اسرائيل فى ظل احساس عميق بالظلم حتى وفاته فى عام ١٩٧٣ عاش كرجل مجهول دون ان يكشف عن شخصيته الحقيقية ودون ان تعرف قصة حياته لشعب الدولة التى عاش من أجلها .

ومن الصعب تقدير الأضرار بعيدة المدى التى تسببت من جراء تمرد « بن ـــ ناتان » وبسبب قضية « ماجن » .

لكن انعدام الثقة بعمق بين مديرى المخابرات فى اسرائيل ، وعملائهم فى الخارج جعل من الصعب بالنسبة لمؤسسة المخابرات ان تؤدى وظيفتها .

وقد انشغل « شيلوح » ، الذى اصبح الآن رسميا رئيسا لإحدى الوكالات إلى جانب كونه رئيسا للجنة « فاراش » ، إلى حد كبير بالموضوعات الداخلية لشئون الادارة البيروقراطية الى درجة أنه لم يوجه اهتماما كافيا بالأحداث فيما وراء البحار ..

كان هناك خطأ فادح على وشك الوقوع ، اخفاق مربك ومحير كان يمكن من الناحية العملية توقعه ، لكن ذلك لم يحدث . جاء مفاجأة وحدث فى العراق ، فور القيام بعملية اعادة التنظيم ومولد الموساد .

● دخل رجلان يبدو عليهما الغموض الى حد ما مصنع تل أبيب المعروف باسم

« تكنو ـــ فيتز » الذى ينتج النوابض او الزنبركات ، وطلبا لقاء احد مديرى الشركة وهو « ياكوف فرانك » وقالا له : « يسر روفين شيلوح ان يتحدث إليك »

حدث ذلك فى يناير عام ١٩٥١ ، قبل عشرة أسابيع من مولد الموساد ..

وكان الدور الرسمى لشيلوح فى الحكومة غامضا وغير واضح بالنسبة للشعب الاسرائيلى الذى لم يكن قد سمع على الاطلاق بلجنة « فاراش » ..

وعلى أية حال ، فإن « فرانك » قد سمع عن « شيلوح » ووافق دون تردد على الاجتماع بذلك الجاسوس الذى يكاد يكون أسطورة ..

لقد كان « فرانك » عضوا متحمسا فى الهاجاناه وبعد أن أفلت من مطاردة البريطانيين له فى فلسطين ، عمل لحساب مجمع الهجرة [وكالة الهجرة] فى نيويورك .

وقام بدوره إلى جانب الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية بوصفه جنديا أمريكيا ، يقاتل اليابانيين فى المحيط الهادىء .

وترتيبا على إصابته بجراح خطيرة فى الفلبين فى اكتوبر عام ١٩٤٤ ، عاد « فرانك » الى اسرائيل بعد أن أصبحت مستقلة فى عام ١٩٤٨ وهو يتمتع بالمواطنة الأمريكية وبمعاش شهرى من البنتاجون .

وبعد أن استرد عافيته تماما تقريبا ، شارك فى القتال فى حرب الاستقلال ، وكان على وشك أن يتم استدعاؤه بدون انذار مسبق للخدمة الفعلية ثانية فى عام ١٩٥١ اصطحبه المسئولان الى الكيريا وهو الاسم الذى يطلق على مجمع وزارة الدفاع والجيش على الحافة الشرقية لقلب تل أبيب .. وقاما بمرافقته الى داخل أحد المبانى ، وصعد الثلاثة عددا من الدرجات إلى حيث يقع مكتب شيلوح الخاص ..

كان رئيس مؤسسة المخابرات فى اسرائيل يطالع ملف فرانك .. ووجه إليه الحديث قائلا :

« اننى أرى يافرانك انك ساعدت وكالة الهجرة على احضار اليهود إلى اسرائيل ثم انك كنت ضابطا برتبة ميجور فى الجيش .. ان لديك الخلفية التى نبحث عنها »

قال فرانك الذى وافق دائما على القيام بأية مهمة من أجل اسرائيل :
« ماذا تريدنى أن أفعل ؟ »

أجاب « شيلوح » :
« أريدك أن تذهب إلى العراق ، فرجلنا فى بغداد على وشك أن ينهى فترة خدمته ونريد منك أن تتولى مركزنا هناك »

قال فرانك :
« أوافق بشرط واحد وهو أن اتمتع بسلطة كاملة هناك » .

ووافق « شيلوح » قائلا :
« بالطبع ، ستكون مسئولا عن هجرة اليهود من هناك ، وأيضا عن جمع المعلومات »

رد « فرانك » متسائلا فى اصرار :
« لكن ، أليست وكالة الهجرة مسئولة عن اخراج اليهود من هناك ؟ » .

قال « شيلوح » .
« لا تقلق ، كل شىء يجرى تنسيقه » .

بعد أن قامت هيئة العاملين مع « شيلوح » باطلاع « فرانك » بسرعة على مهمته ، دعى لمحادثة مع « موشى شاريت » وزير الخارجية الذى أكد له اهمية عملية بغداد ، وطمأنه بأن دولة اسرائيل تقف وراءه ..

واحساسا منه بثقة كاملة ، غادر المجند الجديد تل أبيب قاصدا بغداد بعد بضعة أيام فيما يمكن اعتباره اول مهمة غير مدبرة لحساب الموساد ..

بعد ثلاثة أسابيع من بدء اتصال المخابرات الاسرائيلية به طال « ياكوف فرانك » من تل أبيب الى طهران وهو يحمل جواز سفر اسرائيليا مزيفا تحت اسم « اسحاق شتاين » .

وفى العاصمة الايرانية ، التقى « فرانك / شتاين » برئيس مركز وكالة الهجرة « صهيون كوهين » .

سأله « فرانك » :
« قل لى ، ياصهيون ، لحساب من أعمل ؟ » .

هل كان يعمل لحساب شيلوح ؟ وماهى الوكالة التى يعمل لحسابها إذن ؟ لحساب وكالة الهجرة ؟ لحساب القسم السياسى الذى يرأسه « جورييل » ؟ ام لحساب المخابرات العسكرية التى يقودها « جيلبى » .

أجاب « كوهين » :
« ليست لدى أدنى فكرة ، وأجهل ذلك تماما ولدى احساس بأن تل أبيب مشغولة بأشياء أخرى » .

انتظر « فرانك » فى طهران مايزيد عن شهرين دون أن يفعل شيئا على الاطلاق ..

لكن عندما ماحاول « كوهين » ان يساعده ويعطيه جواز سفر زائفا كأساس لغطاء شخصية جديدة ، استشاط « فرانك » غضبا ..

فجواز السفر سيرغمه على أن يصبح تاجر سجاد من البحرين يدعى « اسماعيل طاشبقاش » وكان قد اعتقد أن غطاءه سيصبح رجل أعمال كنديا فهو يتحدث الانجليزية بطلاقة ، وزار كندا عدة مرات واعتقد أن الاعوام التى امضاها فى الولايات المتحدة ستمكنه من القيام بذلك .
والآن ، من المفترض ان يصبح عربيا من الخليج

ويتذكر « فرانك » ذلك قائلا :
« إن ملامح وجهى اوربية وليست عربية .. صحيح أننى اتحدث قليلا من العربية لكن بلهجة فلسطينية .. لقد وجدت أن من الصعب علىّ الاعتقاد بأننى سأكون قادرا على أن أعمل كما هو مطلوب فى ظل هذه الظروف .. كنت أغلى كالمجنون وقلت لنفسى كيف يفعلون ذلك بى ، هل هذه هى الطريقة التى يعمل بها عميل سرى ؟ »

لم يكن هناك من يشكو إليه ، وفكر فى العودة إلى اسرائيل ، لكن وطنيته منعته من التخلى عن مهمته . وقرر ان ينفذ المهمة ، حتى بدون توافر تعليمات محددة ..

قام أولا باحراق كل وثيقة تربطه بالدولة اليهودية . ثم عمد « فرانك / شتاين / طاشبقاش » إلى رشوة بعض المهربين لنقله من إيران إلى داخل العراق ، ولم يكن تلك مهمة سهلة بسبب نقاط تفتيش البوليس العديدة وفى ٢٠ ابريل عام ١٩٥١ بدأ عذابه الحقيقى ..

لقد صدق « فرانك » وعد تل أبيب بأنها ستبعث رسالة شفرية إلى مركز بغداد تنبىء عن وصتوله ..

ومع ذلك ، فعندما انتهت رحلته الطويلة والمضنية ، ودق باب اسرة يهودية صدرت إليه التعليمات بالاتصال بها ، اكتشف أن أحدا لم يتوقع حضوره على الاطلاق

ومن المثير للسخرية ، أنها كانت الليلة الأولى لإجازة عيد الفصح اليهودى ، ورفضت الأسرة اليهودية التى كانت تحتفل به ان تسمح للقادم الجديد بأن يمضى ليلته معهم .. ومن الطبيعى أنهم خشوا من أنه قد يكون عميلا للبوليس العراقى .. ولم تجد مناشدات وتوسلات « فرانك » آذانا صاغية بل إن احد الضيوف وهو « موردخاى بن ــ بورات » والذى كان من المفروض ان يعرف أكثر ، رفض الانصات إليه ..

كان « بن ــ بورات » العميل الرئيسى لوكالة الهجرة فى بغداد . وهو يهودى ولد فى العراق وهاجر إلى فلسطين ، وخدم فى الجيش الاسرائيلى ثم أعيد إلى العراق فى خريف عام ١٩٤٩ لتنظيم مغادرة اليهود غير القانونية وانتحل شخصيتين ليهوديين غادرا العراق بالفعل ، وكان يتبادل انتحال الاسمين الزائفين : « زكى حابى » و « موشى نسيم » وعلى أية حال ، لم يكن ذلك وجودا سريا تماما حيث أن عددا كبيرا جدا من الناس كانوا يعرفون شخصيته الحقيقية .

وفى اطار حالة الاضطراب التى سيطرت على مؤسسة المخابرات ، كان « بن ــ بورات » مسئولا أيضا عن عمليات سرية أخرى .. ولاشك فى أن الأسلوب المعروف فى مهنة الجاسوسية باسم « التخصص وتقسيم العمل » كان من شأنه ان يصبح أكثر امانا بكثير . لكن بدلا من اتباع هذا الأسلوب فإن منظم الهجرة كان يدير أيضا شبكة من العملاء ، اساسا من اليهود ، ينقلون إليه ابناء ومعلومات

عسكرية وسياسية هامة .. وكانوا مرتبطين بالمقر الرئيسى فى تل أبيب بموجة لاسلكية قصيرة ..

واجه « فرانك » مهمة غير مريحة فيما يتعلق بابلاغ « بن ــ بورات » ان مهمته هى تولى مركزه لكن « بن ــ بورات » رفض الامتثال ، مدعيا أن فريقه من العملاء ورؤساء الجالية اليهودية الذين يعرفون انشطته السرية ، لن يوافقوا على هذا التغيير ..

وازداد حنق « فرانك » ، الذى بلغ به الارهاق حدا بالكاد يسيطر على غضبه ، عندما نقله « بن ــ بورات » بالسيارة إلى فندق « سمير اميس » الكبير .

عرف « فرانك » ان اى اجنبى ينزل فى أحد الفنادق ، لابد وأن يسجل جواز سفره لدى البوليس ، وهذه مخاطرة يمكن أن تقوض مهمته .

واستنادا إلى العاطفة اكثر من المنطق العقلى ، قرر « فرانك » ان يتحمل المشاق حتى النهاية .. سيظل فى بغداد ، ويحاول تنفيذ مهمته على الأقل حتى تصبح حياته فى خطر واضح ..

ومما لا يدعو للدهشة ، انه اكتشف خلال أيام ان رجال الأمن العراق يتبعونه .. فقام بتغيير سيارة الأجرة بضع مرات ليتخلص من مطارديه ، ثم لجأ إلى عملاء « بن ــ بورات » ليطلب عونهم فى الهرب لكنهم رفضوا مساعدته .

ظل « فرانك» هادئا ، ودخل إلى شركة سياحة حيث رشا موظفا ليرتب له رحلة وتأشيرة خروج ..

وكان لديه الحس الصادق الذى جعله يطير إلى بيروت بدلا من التوجه الى عاصمة اوربية خاصة وأن البوليس السرى العراق يراقب بدقة أكبر الرحلات إلى أوربا بالمقارنة بالرحلات إلى العواصم العربية .. لقد مكث « فرانك / شتاين / طاشبقاش » فى بغداد لمدة أسبوع واحد فقط ، لكنه متاعبه لم تنته حتى بعد مغادرته بغداد .. ومن بيروت طار إلى تركيا ، وهو يعتزم اللحاق برحلة جوية إلى تل ابيب .. ولكن القنصل الاسرائيلى فى استانبول رفض تصديق روايته ، ولم يمنحه تأشيرة بوصفه « تاجر سجاد من البحرين » وكانت تلك هى

الشخصية الوحيدة التى يمكن لفرانك ان يثبتها بالوثائق ..

وتطلب الأمر من القنصل ثلاثة أيام قبل أن يمنح « طاشبقاش » فى النهاية تأشيرة لاسرائيل ..

وحتى ذلك الوقت ، كان « فرانك » يفكر كعميل وطنى ، وحث القنصل على ألا يدمغ جواز السفر البحرينى بتأشيرة دخول اسرائيل ، لأن ذلك سيجعل جواز السفر عديم النفع فى المستقبل ..

فلا يمكن لعميل سرى اسرائيل ان يستخدم وثيقة سفر له علاقة واضحة باسرائيل لكن القنصل ، بوصفه بيروقراطيا كبيرا ، دمغ جواز السفر بتأشيرة اسرائيل على أية حال ..

لم يكن هناك مايثير فى الرحلة الجوية إلى تل أبيب ، ووصل « فرانك » إلى ميناء « اللد » الجوى ولم يجد فى استقباله أى مسئول فى المخابرات ..

ومما ضاعف من حيرة « فرانك » أنه عندما ذهب إلى مكتب « شيلوح » فى اليوم التالى ، والذى أصبح الآن جزءا من جهاز الموساد الجديد ، فإن « شيلوح » . رفض أن يقابله ..

وبعد قرابة أربعين عاما ، فإن « فرانك» مازال يحتفظ بغضبه تجاه رجال المخابرات الذين تعاملوا معه ، ويتهمهم على حد قوله بأنهم « هواة ، الأمر الذى كاد يكلفنى حياتى ، وأن اليد اليمنى لاتعلم شيئا عما تفعله اليدى اليسرى وأن سوء التنظيم متفش ، ونحن محظوظون لأنهم ، أى العراقيين ، أسوأ منا » وعلى أية حال ، لم يكن عملاء مكافحة التجسس فى العراق غير أكفاء تماما ، لأنهم فى غضون شهر من رحيل « فرانك » على عجل ، كشفوا مجموعة سرية اسرائيلية فى بغداد .

كان انهيار المجموعة حتميا ، بالنظر إلى غطاء « بن ــ بورات » الواهن ، واصراره على السيطرة على كل من امور التجسس والهجرة .

وقبل عام بالضبط من شجاره مع « فرانك» كان « بن ــ بورات » فى نزاع مع عميل كبير من عملاء وكالة الهجرة الذى وصل من أوربا فى إبريل ١٩٥٠ فى مهمة هامة .

قدم « شلومو هليل » نفسه على أنه رجل الأعمال البريطانى « ريتشارد ارمسترونج » ممثل شركة الشرق الأدنى للنقل الجوى الأمريكية فى المباحثات مع الحكومة العراقية ..

وقد سترت شركة الطيران الأمريكية الغامضة حقيقتها بعناية لكى تخفى روابطها الوثيقة مع الحكومة الاسرائيلية ..

فلم يعرف أحد ان الشركة قامت فى عامى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ بنقل كل يهود اليمن وعدن البالغ عددهم ٥٠ ألفا إلى اسرائيل فى عملية سرية أخرى لوكالة الهجرة اسمها الشفرى « عملية البساط السحرى » ..

وبعد عامين من القمع النشط المعادى للسامية أقر البرلمان العراق قانونا فى مارس ١٩٥٠ يسمح لكل يهودى بمغادرة العراق إن أراد ذلك ولم يكن على اليهود سوى التخلى عن المواطنة العراقية ببساطة ..

وبدأ ذلك تساهلا مثيرا للدهشة من جانب نظام قد أعلن الحرب ضد اسرائيل وألقى القبض على مئات من اليهود لنشاطاتهم الصهيونية .

وتفسير ذلك يكمن فى الحوافز التى عرضت على رئيس الوزراء الذى فتح أبواب الهجرة ، وهو توفيق السويدى .

وكان أيضا رئيس مجلس ادارة « عراق تورز » التى عينت وكيلا لشركة الشرق الأدنى للنقل الجوى دون مجال للمصادفة ..

وبكلمات أخرى وبطريقة تقريبية ، فإن رئيس حكومة العراق تلقى رشاوى واموالا من المخابرات الاسرائيلية ..

ولم يكن رئيس الوزراء فريدا فى ذلك ، حيث أن « هليل / ارمسترونج » وعملاءه من وكالة الهجرة ضمنوا أيضا أن يستفيد السياسى المحنك « نورى السعيد » معارض « السويدى » وخليفته والذى أصبح فى وقت لاحق رئيسا للوزراء .. فقد منحت الشركة الأمريكية شركة الخطوط الجوية العراقية التى يديرها العقيد « صباح السعيد » ، « ابن نورى السعيد » امتيازا لصيانة طائراتها .. وعلى أية حال ، فقد تهددت هذه العملية بأسرها بالخطر ، بسبب « بن — بورات » .. حيث أدى

تورطه فى الاتصالات السرية المتعددة الى كشف النقاب عنها تقريبا ..

واضطر المقر الرئيسى لوكالة الهجرة فى تل أبيب إلى إبلاغه بألا يتدخل ، وابتداء من مايو ١٩٥٠ إلى يناير ١٩٥٢ ، تمكن « هليل » من نقل ١٥٠ الفا من اليهود العراقيين إلى اسرائيل بطريق الجو ..

وعرفت الرحلات الجوية المباشرة باسم عملية « عزرا ونحميا » نسبة إلى القائدين اليهوديين اللذين قادا شعبهما فى طريق العودة إلى الأرض المقدسة من المنفى فى العراق منذ حوالى ثلاثة وعشرين قرنا ..

حل الجسر الجوى المعروف باسم عملية «غررا ونحميا » محل عملية « بن ــ بورات » الأصغر بكثير والتى هدفت إلى تهريب اليهود برا من العراق إلى إيران ثم نقلهم جوا إلى اسرائيل ..

والأكثر من ذلك ، أن « بن ــ بورات » نفسه واجهه سوء الحظ .. حيث قبض عليه مرارا العملاء العراقيون واستجوبوه بوحشية . وفر أخيرا الى اسرائيل ، على إحدى الرحلات الجوية التى رتبها « هليل » .

ومهما كان الأمر ، فإن اسرائيليا ثانيا قبض عليه مع « بن ــ بورات » . لم يستطع الحفاظ على غطائه السرى وكونه تاجرا فارسيا .. فلم يكن حتى بمقدوره ان يتحدث الفارسية .. فاعترف للعراقيين بأن اسمه الحقيقى « يهودا تاجار » .

وكان جنديا سابقا فى « البالماخ » وهى « قوات العاصفة » الخاصة التابعة للهاجاناه ثم أرسل إلى بغداد من جانب القسم السياسى ، قبل حله ، كضابط حالة لمجموعة من اليهود العراقيين الشباب والمرتزقة العرب الذين يجمعون معلومات استراتيجية لحساب اسرائيل .

من المفترض ان « بن ــ بورات » و « تاجار » قد كانا يعملان متلازمين ، ولكن على ألا يعملان معا بطريقة محددة ..

ولكنها تجاهلا كل القواعد ، كانا يلتقيان عادة ويتحدثان الى بعضهما بعضا باللغة العربية ، بل كانا يترنمان بأغان اسرائيلية وهما يقودان السيارة .. ومثل هذه الأخطاء الأساسية أدت إلى سقوط شبكة الجواسيس اليهود مثل قطع الدومينو ..

ألقى العراقيون القبض على نحو مائة يهودى واحدا تلو الآخر ، وضبطوا كمية هائلة من الأسلحة المخبأة ..

وأدين عشرون من اليهود العراقيين فى نوفمبر ١٩٥١ ، وتم شنق إثنان منهم وحكم على « تاجار » بالسجن المؤبد .. وعلى أية حال ، فقد طرد من العراق بعد تسع سنوات ، بعد أن اقام عملاء الموساد اتصالا مع الحاكم العراقى الجديد العقيد عبدالكريم قاسم ، وضمنوا حرية « تاجار » فى مقابل تقديم معلومات عن المؤامرات التى يدبرها المنشقون العراقيون ضد « عبدالكريم قاسم » .

وقد أدين المتهمون بأربع عمليات تخريب إلى جانب جرائم أخرى ..

والعملية الأولى هى القاء قنابل على مركز الاستعلامات العامة التابع للسفارة الأمريكية مما ألحق به أضرارا طفيفة به .. أما أكبر هذه العمليات وأكثرها إثارة للدهشة فهو هجوم بالقنابل اليدوية على معبد « مسعودة شيمتوف » فى بغداد بينما كان مئات من اليهود يصلون ممأأدى إلى مقتل أربعة من المصلين بينهم صبى فى الثانية عشرة من عمره ، وإصابة حوالى عشرين آخرين بجراح ..

وأدى الاتهام المذهل بأن شبكة جواسيس اسرائيلية قد قصفت معبدا يهوديا بالقنابل إلى اصابة اليهود العراقيين بصدمة ..

وراجت الشائعات بين المهاجرين العراقيين إلى اسرائيل الذين ظنوا أنه قد يتم التعجيل برحيلهم من جراء الارهاب الذى يشنه عملاء اسرائيليون .

وكان العراقيون فى اسرائيل ناقمين بالفعل ويوجهون اللوم للقيادة الأوربية المولد للدولة اليهودية لدفعها إياهم إلى داخل خيام وأكواخ بدائية دونما أمل فى الحصول على مسكن مريح أو على عمل مناسب .

وشعر المهاجرون السفارديم [الشرقيون] الجدد بالاذلال من جراء رشهم بالمبيدات الحشرية وعدم منحهم حرية الاختيار ..

وبدأ الساسة الاشكنازى [اليهود الأوربيون] مشغولين للغاية بتهئنة أنفسهم بالعمل العظيم الذى قاموا به عن طريق انقاذ اليهود العراقيين أكثر من اهتمامهم بعمل أى شىء ملموس على أرض الواقع لهم ..

ونتيجة ضيق « بن جوريون » رئيس الوزراء من إمكانية أن تؤدى الشائعات حول عملية سرية إلى زيادة الانقسامات فى المجتمع الاسرائيلى ، فقد أصدر أوامره إلى « هاريل » فى عام ١٩٦٠ بإجراء تحقيق داخلى .. وذكر التقرير بالغ السرية ، للجنة التى ضمت ثلاثة أعضاء ، أنه ليس بالامكان اكتشاف أى دليل فعلى على أن الاسرائيليين أو اليهود قد تورطوا فى إلقاء المتفجرات .

ونفى أعضاء مؤسسة المخابرات بحزم استخدام أية أساليب ارهابية ، ولكنهم كانوا يشعرون بالفخر من جراء أن يقولوا أنهم يتوصلون دائما إلى أساليب جديدة ومبتكرة لنقل اليهود إلى اسرائيل ..

والاضطراب فى الوطن يتطلب عادة الارتجال الماهر من جانب العملاء فى الميدان .. فهم ، قبل أى شيء ، كانوا يقاتلون من أجل بقاء دولتهم الجديدة .

فالهجرة اليهودية كانت حيوية لاسرائيل فى أعوامها الأولى بوصفها دولة صغيرة فى بحر متلاطم من الدول العربية ..

ولم تكن المسألة .. مسألة تتعلق بالجغرافيا فقط بل أيضا بالديموجرافيا ..

وبفضل العملاء السريين لوكالة الهجرة تضاعف تقريبا عدد سكان اسرائيل ليصل إلى أكثر من مليون يهودى ، خلال السنوات الأربع الأولى بعد الاستقلال .. ولكن ماهو الجزاء الذى تلقاه رجال ونساء وكالة الهجرة ؟ .. لقد تم حل وكالتهم فى مارس عام ١٩٥٢ .. وقال « روفين شيلوح » أنه لا حاجة إليها بعد ذلك ..

وكما فعل « آرثر بن ــ ناتان » وعملاؤه فى القسم السياسى فى العام السابق ، فقد اعترض الأعضاء العاملين فى وكالة الهجرة ..

واتهموا أن موساد شيلوح تحاول أن تختطف منهم مصادر قوتهم المؤثرة كانت وكالة الهجرة امبراطورية اقتصادية .. وتحفة عملية .. فلم يتوفر للدولة اليهودية أى شيء يماثلها أبدا : منظمة هائلة منهمكة فى نقل أهم مصدر قوة لاسرائيل وهو البشر ، من أنحاء الكرة الأرضية .

أنشئت وكالة الهجرة تحت ستار وكالة سياحية هائلة وامتلكت ما يزيد على ستين سفينة وطائرة وأعدادا لا حصر لها من السيارات وعربات النقل ..

وتم التنسيق بصورة جيدة لتحركات هذا الأسطول بواسطة شبكة من أجهزة الارسال اللاسلكية فى جميع أنحاء العالم .

وساعدت الوكالة مئات الألوف من اليهود على شق طريقهم إلى أرضهم الموعودة القديمة .. واستوعبت وكالة الهجرة مبكرا فنون الرشوة والدبلوماسية السرية . وركز عملاؤها على إقامة علاقات مباشرة مع الزعماء السياسيين وحدث ذلك عادة فى الدول المعادية ظاهريا ولم يقتصر ذلك على السويدى ونورى السعيد رئيس الحكومة فى العراق ، لكنه شمل أيضا الساسة المجريين ، وكلا من شاة ايران والملك عبدالله عاهل الأردن لاستكشاف الترتيبات الممكنة للمرور الآمن ليهود العراق إلى اسرائيل ..

وكانت ميزانية وكالة الهجرة تقدر بعشرات الملايين من الدولارات ، وهو مبلغ مؤثر إلى حد أنه كان له تأثير اقتصادى حقيقى فى بعض مناطق موانىء أوربا التى خربتها الحرب ، كما امتد نظام الرشاوى ليشمل رجال البوليس ، مسئولى الموانىء موظفى الحكومة ، وملاك السفن .. واكتسب عملاء اسرائيل شهرة فى الأسواق السوداء فى فرنسا ، اليونان ايطاليا ، النمسا ، ودول أخرى ..

وأصبحت بعض طائراتها الطائرات الأولى فى شركة الخطوط الجوية الاسرائيلية « العال » كما اسهمت سفنها فى تكوين أساس شركة الشحن البحرى الوطنية الاسرائيلية « زيم » وساعدت الخبرة التى اكتسبها عملاء وكالة الهجرة فى أنحاء العالم البحرية الجديدة لاسرائيل .

كما كان لدى وكالة الهجرة عدد من أمهر المزيفين والعملاء الميدانيين والذين يمكن للموساد توظيفهم توظيفا جيدا ..

ولإضفاء تماسك إدارى على التغيير فى السلطة تورط « شيلوح » ومساعده « أكيفا ليفنيسكى » فى توقيع مذكرة تجعل الموساد مسئولة عن الهجرة من الدول العربية ، وبصفة خاصة النشاطات السرية من أجل إقامة اتصال مع اليهود واحضارهم إلى اسرائيل ..

ووعدت الوكالة اليهودية بدفع النفقات وقد اصبح ذلك هو نمط العمليات فى المستقبل .

بدا أن « شيلوح » قد استحوذ على سلطة هائلة ، من جراء قيامه بحل القسم السياسى ووكالة الهجرة وخلقه لهيكل مخابراتى اكثر كفاءة .. لكن تاتى الرياح بمالا تشتهى السفن فقد ساءت صحته بعد إصابته بجرح فى رأسه فى حادث سيارة .. كما شعر أيضا أنه يتعرض لضغوط من جانب الطموح « إيسر هاريل » وبالفعل كتب « بن جوريون » . فى يومياته فى ٢٤ مايو ١٩٥٢ :

« جاء إلىّ إيسر ، وفى رأيه أن روفين قد أخفق فى مهمته »

وبدا يتشكل إجماع على أنه بالرغم من أن « روفين شيلوح » يتسم بالذكاء ، لكنه لايتمتع بمقدرة كبيرة لادارة وكالة على نحو جيد ..

وفى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٥٢ ، وبعد ١٨ شهرا فقط امضاها فى منصبه كأول مدير للموساد قدم « شيلوح » استقالته إلى « بن جورين » وعندما طلب منه أن يوصى بمن يمكن أن يخلفه رشح « شيلوح » المرشحين البارزين : ليفينسكى ، جيلبى ، وهاريل ..

واختار « بن جوريون » هاريل ..

بعد الأربعة أعوام الأولى المثيرة للدوار من النشاط المحموم فى الداخل والخارج فإن مؤسسة المخابرات الوليدة كانت مشغولة للغاية لدرجة أنها لم تستطع أن تحدد اتجاهها .. ففى اطار الحركة المستمرة لم يتضح توجهها .

فكل مهمة بدت ملحة من الجانب السرى من قتال اسرائيل من أجل البقاء ، مثل الحاجة إلى تدفق اليهود من الخارج لدعم الدولة الجديدة ، فى الوقت الذى تم فيه ارسال الجواسيس خلف خطوط العدو كما جرى اقتفاء أثر الخونة والمخربين .

ومع ذلك ، بدا كل هذا مرتجلا وغير متماسك .. كان رؤساء المخابرات الأول مازالوا يبحثون عن اطار عمل يمكن من خلاله المواءمة بين الامن الكافى وبين الديمقراطية الحقيقية وتطلعوا إلى أستاذهم السياسى ، لكن حتى « بن جوريون » الذى عثر على إجابات لأسئلة عسيرة كثيرة جدا لم يعرف كيف يواجه هذا التحدى المعين .

لقد أثارت مثابرة « إيسر هاريل » واستقامته اعجاب رئيس الوزراء ، واعتقد

« بن جوريون » انه الرجل الذى يناسب مهمة لم يتم فهمها فهما كاملا بعد .

وأصبح هاريل الرئيس الأعلى للمخابرات الاسرائيلية بعد توليه مسئولية كل من « شين بيت » داخل اسرائيل ، والموساد خارجها .

الفصل الثانى

نمو طفولى

● « إيسر ، إننى بحاجة إلى خمسة آلاف دولار » هكذا قال « دان باينس » المحرر بجريدة « دافار » التابعة للحركة العمالية عندما حضر لرؤية « هاريل » فى أول يوم له كرئيس للموساد فى ٢٠ سبتمبر ١٩٥٢ .

سأله « هاريل » : « لماذا تحتاج هذه النقود »

« ماذا ألا تعرف السبب ؟ » ..

هكذا رد « باينس » وهو يميل برأسه فى دهشة فى الوقت الذى بدأ يروى فيه قصة طويلة ومعقدة حول شبكة الجاسوسية التى يديرها فى الاتحاد السوفيتى . وإستمع إليه « هاريل » فى صبر ، وغريزة الشك تتحفز لديه وقال له :
« دان ، امنحنى بضعة أيام حتى أتأقلم مع الأوضاع ، وسوف أرد على طلبك »

فقد اشتم رئيس الموساد بحاسته السادسة التى اكتسبها كرئيس لوكالة « شين بيت » رائحة الاختلاس وبدلا من أن يمنح « باينس » أية أموال شكل لجنة للنظر فيما بداله على أنه عملية احتيال .

ولم تكن هذه التحقيقات تثير أية فضائح علنية ، لأنه كان من المعتاد فى السنوات الأولى لإسرائيل أن يعين أعضاء مثل هذه اللجان من حزب الماباى الحاكم فقط ، بحيث لاتكون لجنة برلمانية مشتركة ، وقد ضمن هذا الإجراء بقاء كل مايثير أى حرج ، وبصفة خاصة مايتعلق لشئون المخابرات ، داخل نطاق « الأسرة » .

ولم يتطلب الأمر سوى وقت قصير ، لتكشف لجنة التحقيق عن حقيقة أن « باينس » يكذب ، ويمتص أموالا سهلة من الموساد التى كان « روفين شيلوح » يديرها بغير انتباه ..

فمؤسس الموساد لم يؤخذ عليه سوى سوء الإدارة المختلط بالسذاجة ، إلا أن « باينس » كان قد اقنعه هو و « موشى شاريت » وزير الخارجية فى ديسمبر ١٩٥١ بأنه يعمل على إنشاء « جماعة سرية صهيونية » داخل روسيا .

عقب إلغاء وكالة الهجرة السرية ، اهتمت إسرائيل على وجه الخصوص باليهود السوفيت ، وبألا تفقد الصلة بهم ، مما جعل لعلاقات « باينس » وقعا طيبا بصفة خاصة .

وأعلن الصحفى المحترم أن هناك مسئولا سوفيتياً ، لم يكشف عن اسمه ، يرغب فى مساعدة إسرائيل سرا وكان يلوح بالرسائل التى يزعم إنه يتلقاها من عملاء مفترضين فى الخارج ، والتى اكتشف المحققون أنه كان يتلقاها من أصدقائه المقيمين هناك .

واستمر الجاسوس الهاوى فى استغلال افتقار شيلوح للإدارة لمدة تسعة شهور ، وهو يزعم أنه يعقد اجتماعات سرية مع مصادر معلومات روسية سرية فى باريس ، نيويورك ، كوبنهاجن ..

وكل مرة ، عند عودته إلى تل أبيب ، كان يتلقى نفقاته بالكامل من الموساد .

وقد لفق الصحفى المتجول مخططه بسبب مرض ابنته الشديد الذى يحتاج إلى نفقات باهظة للعلاج فى أوربا .

واستنادا إلى أن دوافعه تدعو للتسامح بشأنها ، ولأنهم كانوا يرغبون فى إخفاء الأمر برمته ، لم توجه أية اتهامات جنائية ضد « باينس » .

وقد نجمت السهولة التى خدع بها « شيلوح » عن حالة الفوضى التى كانت سائدة حينئذ فى مؤسسة المخابرات الإسرائيلية .

فحلقة التجسس فى العراق انهارت ، وعملية إعادة تنظيم الوكالات السرية كانت جارية ، وتكلفت مشروعات غير مدروسة آلاف عديدة من الدولارات التى لم تكن الدولة اليهودية الفتية تستطيع تحملها إلا بالكاد .

وعن طريق اكتشاف مخطط « باينس » ، برهن « هاريل » على قيمته منذ أول يوم له فى الموساد .. فقد اختاره « بن جوريون » ، قبل أى شيء ، بسبب نزوعه العقلى للشك والارتياب بالإضافة إلى صفات أخرى .

تعرف رئيس الوزراء على « هاريل » أثناء وجوده فى « شين بيت » ، واكتشف الرجلان أن اهتماماتهما متطابقة .

فبعد حصول اسرائيل على استقلالها فى حرب ١٩٤٨ ركز « بن جوريون » انتباهه على القضايا الداخلية وهى : استيعاب مئات الالوف من المهاجرين الجدد ، إجراءات التقشف الصارمة ، والنزاعات المريرة بين الجماعات السياسية .

ومع تقلص الاهتمام بالسياسة الخارجية ، كان من الطبيعى أن يتركز اهتمام « بن جوريون » على « شين بيت » اكثر من الموساد أو المخابرات العسكرية .

ووجد « هاريل » بوصفه رئيسا لشين بيت ، أن باب « بن جوريون » مفتوح أمامه اكثر مما هو امام « شيلوح » ومساعديه .

كان « هاريل » مثله فى ذلك مثل بن جوريون والمؤسسين الآخرين لإسرائيل ، ينتمى لأصل أوربى شرقى .

وقد ولد فى عام ١٩١٢ تحت اسم « إيسر هالبرين » فى « فايتبسك » بإقليم « فولوجين » فى روسيا القيصرية وهو الإبن الأصغر لأربعة أشقاء لأب من رجال الأعمال الأغنياء من علماء التلمود .

شب « هاريل » ليصبح مثلما كان تقريبا وهو طفل فهو قصير وبالغ الحيوية ..

كانت روسيا على أعتاب مرحلة من الفوضى المثيرة ، ويتذكر « هاريل » زيارة الثورى الروسى « ليون تروتسكى » إلى فايتبسك وربما كان من الممكن أن يجرف التيار الشيوعى « إيسر » الصغير ، إلا أن تعليمه اليهودى الشامل وقف حائلا دون ذلك . فقد كان والده يقرأ له ولأشقائه الكتب العبرية ويغرس فيهم مبادىء الصهيونية وليس الماركسية إلا أن « إيسر » المراهق انضم ، رغم ذلك ، إلى مجموعة

صهيونية يسارية تعرف باسم « الحرس الفتى » التى تطورت بعد طلك لتصبح حزب « المابام » ، والذى أضمر له « هاريل » الكراهية عندما شب بعد ذلك فى إسرائيل .

وكواحد من اليهود القلائل المحظوظين ، اختارت جماعة الحرس الفتى ، « إيسر هالبرين » للذهاب إلى « كيبوتز » فى فلسطين ، كواحد من الرواد الاشتراكيين .

لكنه فقد بسرعة أى ميل للاشتراكية

وبعد أن أمضى مع زوجته الجديدة « ريفكا » خمس سنوات فى المزرعة الجماعية ، غادراها وبدا عملهما الخاص فى تغليف البرتقال .

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، انضم « هاريل » إلى الهاجاناه وعمل مع فرع المخابرات « شاى » فى عام ١٩٤٤ . وأكسبه العمل السرى لمدة ثمانى سنوات خبرة رائعة .

ولاحظ « بن جوريون » ، فى منتصف حرب ١٩٤٨ ، ما يتمتع به « هاريل » من مواهب فى مجال المخابرات ، وتم تعيينه وهو فى السادسة والثلاثين من عمره كأول مدير لوكالة « شين بيت » وذلك فى الاجتماع الذى عقد فى شارع « بن يهودا » فى يونيو الذى تقرر فيه إعادة تنظيم المخابرات الإسرائيلية .

وعندما سقط « شيلوح » مجللا بالعار بعد أربع سنوات ، وبالتحديد فى سبتمبر ١٩٥٢ ، تم أيضا تعيين « هاريل » رئيسا للموساد .. كان لم يبلغ إلا الأربعين عاما من عمره رغم أنه بدا كما لو كان فى الخمسين على أقل تقدير ..

غير أن مابدا على « هاريل » من ارهاق وتقدم فى السن لم يكن سوى واجهة خادعة ، فقد كان يتمتع بطاقة شابة لاحدود لها ..

أسس « هاريل » بسرعة امبراطوريته المخابراتية الخاصة فكان المئات من العاملين فى الوكالتين يقدمون تقاريرهم اليه مباشرة ، ولم يكن أحد ليسأله عن نشاطه سوى رئيس الوزراء وحده .

وأصبح لوكالة « شين بيت » رئيس شكلى جديد هو « إيزادور روت » ، وهو يهودى بولندى ، عمل من قبل نائبا لهاريل ، وأدخل تعديلا على اسمه ليصبح « إيزى دوروت » ليكتسب بذلك سمة عبرية ، عند عودته من جديد للعمل فى « شين بيت » لفترة قصيرة بعد أن عمل لفترة قصيرة لمساعدة « شيلوح » فى الموساد .

فقد كانت التنقلات بين « شين بيت » والموساد من الأمور المألوفة تماما خلال العقدين الأولين من عمر مؤسسة المخابرات الإسرائيلية .

استمر « دوروت » فى تولى منصبه القيادى لمدة عام واحد فقط فقد اعتبر قائدا غير مؤثر .

وفى سبتمبر ١٩٥٣ ، طلب منه تقديم استقالته ، وعاش فى الظل تماما حتى وفاته عام ١٩٧٩ .. لدرجة أن أحدا فى المخابرات الاسرائيلية لايكاد يتذكره إلا بالكاد .

أصبح « آموس مانور » الرئيس التالى لوكالة « شين بيت » . وقد ولد تحت اسم « ارتور منديليفتشى » فى ترانسلفانيا فى أواخر أيام الامبراطورية النمساوية ـــ المجرية فى اكتوبر ١٩١٨ وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، كان « منديليفيتشى » منضما للجيش المجرى ، وظل فى الخدمة هو والجنود اليهود الآخرين ، حتى بعد أن أجبرت الحكومة الفاشية الموالية للنازى اليهود على وضع النجوم الصفراء على ملابسهم ولم يتم طردهم من الجيش إلا فى عام ١٩٤٣ فقط .

واستقل « مند يليفتشى » واحدا من قطارات النقل الأولى التى حملت اليهود المجرمين إلى معسكر « أوشفيتز » للإبادة فى بولندا .

لقى ملايين اليهود مصرعهم فى « أوشفيتز » ، لكن « مند يليفتشى » استطاع أن ينجو من الأهوال التى لايمكن وصفها ، وعاد إلى ترانسلفانيا التى أصبحت جزءا من رومانيا .

وبعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب ، أدرك أنه لا مستقبل لليهود فى شرق أوربا ، وطلب من الناشطين الصهاينة مساعدته على الانتقال إلى فلسطين الواقعة تحت الحكم البريطانى .

وبدلا من مساعدته على مغادرة رومانيا ، قام عملاء وكالة الهجرة السرية بمراجعة

طلبه ، وقرروا أن أفضل استخدام له ، بوصفه من الناجين من تجربة خطيرة ويحوز خبرة عسكرية ، هو إبقاؤه حيث هو ..

وأقنعوا « مند يليفتشي » بالانضمام لوكالة الهجرة التى ظل يعمل فيها سرا فى بوخارست ، على مدى ثلاث سنوات ، فى مشروعات تمكنت من ارسال آلاف اليهود الذين نجوا من الابادة الجماعية إلى وطنهم التوراتى ..

وظل « منديليفتشى » يعمل لحساب إسرائيل بعد استقلالها عام ١٩٤٨ على الرغم من أنه لم يذهب هناك من قبل ، غير أنه حقق أمنيته فى عام ١٩٤٩ ، عندما أمرت حكومة رومانيا الشيوعية بإغلاق كافة المنشآت الصهيونية .

وبعد حصوله وزوجته على جوازى سفر مزيفين ، هربا الى الدولة اليهودية ، خشية من احتمال اتهامهما بالقيام بنشاطات سياسة غير مشروعة أو حتى بالتجسس .

وبعد ثلاثة أيام من وصوله إلى إسرائيل فى يونيو ١٩٤٩ ، توجه « مند يليفتشى » لزيارة « شاريت » وزير الخارجية ، ووافق على اقتراحه بأن يستبدل اسمه اليهودى الأوربى ويختار اسما عبريا حديثا ، وهكذا أصبح « آرتور منديليفتشى » « آموس مانور » .

واستقال من وكالة الهجرة . ونتيجة عمله لفترة طويلة فى الهجرة السرية وصل « مانور » إلى نتيجة لن يصل إليها « بن جوريون » و « شيلوح » إلا بعد ثلاث سنوات ، وهى أن الدولة الشرعية لاتحتاج إلى وكالة متخصصة فى العمل غير المشروع وأمكن لشاعول أفيجور رئيس وكالة الهجرة أن يرى أن « مانور » مازال مناسبا لعمل المخابرات وأن عيشه فى إسرائيل لايقلل بأى حال من وطنيته .. وبعث به أفيجور ليرى « إيسر هاريل » فى « شين بيت » وأعجب به الأخير وقرر تعيينه على الفور .

وعلى الرغم من أن المهاجر الجديد بدأ مسيرته بالقرب من أول سلم « شين بيت » غير الرسمى ، إلا أنه شق طريقه بسرعة مذهلة ليتولى منصب رئيس قسم مكافحة الجاسوسية ..

وآمن « مانور » منذ البداية ، بأن تهديد الجاسوسية الأجنبية هو أقوى مايكون

من جانب دول الكتلة الشيوعية أكثر من جيران إسرائيل العرب .. فقد هزم العرب فى محاولتهم لسحق اسرائيل الوليدة ، ولم يكن هناك مايشير على الاطلاق إلى أن الجواسيس العرب أفضل من الجيوش العربية فى عام ١٩٤٨ ـــ ١٩٤٩ .

وعندما حل « هاريل » محل « شيلوح » فى الموساد ، رقى « مانور » إلى منصب نائب « إيزى دوروت » الرئيس الجديد لوكالة « شين بيت » .. وفى عام ١٩٥٣ تمت تنحية « دوروت » من منصبه ، وأصبح « مانور » الرئيس الجديد للأمن الداخلى لإسرائيل ..

كان صعود « مانور » أمرا غير عادى ، لأنه لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره ، ولم يكن قد مضى على وصوله إلى إسرائيل سوى أربع سنوات فحسب ، كما أنه لم يكن ضمن النخبة المطلعة للدولة التى حاربت كتفا لكتف فى الهاجاناه « الجيش السرى » أو فى البالماخ القوة الضاربة للهاجاناه ..

ولم يخدم فى الجيش البريطانى ، ولا فى الفيلق اليهودى الشهير ، ولم يقاتل حتى فى سبيل استقلال إسرائيل فى ١٩٤٨ / ١٩٤٩ .

كان « مانور » يتحدث العبرية ولكن بلكنة مجرية واضحة ويسلك فى حياته كأوربى أكثر من كونه « اسرائيليا جديدا » ـــ لقد كان باعتراف الجميع شخصا وافدا لايمكن تحديد جنسيته بسهولة : غير أنه كان أيضا الشخص الذى خلقته النخبة التى يحاول الانضمام إلى صفوفها .

منذ الوهلة الأولى ، بدأ طبقا للتسلسل القيادى الرسمى أن « مانور » قد وصل إلى نفس المستوى الذى وصل إليه « هاريل » .. فكل من الرجلين يعمل كرئيس لوكالة ، فهاريل فى الموساد ، ومانور فى « شين بيت » ، غير أنه أصبح من الواضح بعد فترة وجيزة أن « هاريل » هو الأول بين المتساويين حيث أنه لم يسلم أبدا قيادة الأمن الداخلى ، وأمكنه بموافقة « بن جوريون » رئيس الوزراء أن يقود العمل السرى من فوق صهوتى جوادين فى آن واحد وهما « شين بيت » والموساد .

سيطر « هاريل » على كل شيء ، لدرجة أن « بن جوريون » ابتدع له لقبا خاصا فى عام ١٩٥٧ عندما أشار إليه فى الكنيست بوصفه «المسئول الأوحد عن الأجهزة

السرية » « The Memuneh » .. لم يصدق مجلس الوزراء ولا الكنيست على هذا اللقب غير أن « بن جوريون » لم يتردد فى إعلانه .. ففى بلد لقى فيه الاعجاب بل والتقديس أحيانا بوصفه « شخصية أبوية » ، شعر « بن جوريون » بحريته فى العمل استنادا إلى مواهبه الطبيعية دون الاهتمام بالشكليات الديمقراطية .. ففى الوقت الذى أرست فيه الولايات المتحدة والدول العربية الأخرى الاجراءات التى تحدد توصيف وظائف البيروقراطيين وتعلن عن وضعيتهم الرسمية ، كان « الرجل العجوز » يدير إسرائيل الصغيرة بأسلوب شخصى على الأرجح ..

وكان « هاريل » أيضا رئيسا لـ « فاراش » وهى اللجنة التى تضم مديرى كافة الوكالات .

ركز « هاريل » سلطات هائلة فى قبضته ، أكثر من أية سلطات تمكن أى رئيس مخابرات فى أية دولة غربية أخرى من الحصول عليها . فقد حصل رجل واحد [هاريل] على سلطات توازى سلطات « ادجار هوفر » رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالية « FBI » و . آلن دالاس مدير وكالة المخابرات المركزية مجتمعة .

وهكذا تمتع « إيسر هاريل » ضئيل الحجم بهذه السلطة التى لم يسبق لها مثيل ، وبتقدير وثقة « بن جوريون » غير المحدودة ..

وفى المقابل ، أظهر « هاريل » إخلاصا بغير حدود ووافق على القيام بأى شيء تقريبا من أجل الحكومة وعندما طلب منه « بن جوريون » ذلك ، كان سعيد بتحويل مؤسسة المخابرات إلى أداة سياسية لحزب « الماباى » الحاكم .

ففى الوقت الذى آمن فيه الآباء المؤسسين لإسرائيل بالديمقراطية ، كان لديهم أيضا قناعة لا تتزعزع بتطابق مصالحهم السياسية الخاصة مع مصالح الدولة ..

وكان الاخلاص لبن جوريون أمرا طبيعيا تماما ، فالتمايز السياسى للاتجاهات المختلفة ، لم يكن قد تحدد مجراه الخاص فى اسرائيل . لم يكن لأحد ما أية تجربة فى إدارة دولة ديمقراطية حديثة ، كما لم تتوافر سوى تقاليد ومعايير قليلة للاسترشاد بها .. كانت الدولة فى بداية مسيرتها الممتدة بعيدا عن الأنماط السرية للنضال اليهودى من أجل الاستقلال .. وبالنسبة للأغلبية الساحقة من اليهود ، كان حزب « الماباى »

هو المرادف العملى للدولة ، وهو الحزب الذى كانت له السيطرة الفعلية على غالبية مؤسسات الدولة المتمثلة فى الوحدات الصناعية ، النقابات العمالية ، القيادة العسكرية ، ومؤسسة المخابرات .

وبعث « هاريل » بعملائه للقيام بمهام بوليسية ، كانوا فى الغالب ممانعين فى ادائها ، لمحاربة تجار السوق السوداء ، والاشتراك مع رجال المخابرات العسكرية « أمان » فى فتح آلاف الخطابات المرسلة للخارج فى مطاردة لمهربى العملة والمخربين .

وفى اطار تعقب المخربين ، اتخذ « بن جوريون » وحزب « الماباى » منهاجا يتسم بالتبسيط ويقوم على الإيمان بأنه « من ليس معنا فهو ضدنا » وبناء على ذلك ، أمر « هاريل » رجال « شين بيت » باختراق باقى الأحزاب السياسية الإسرائيلية .

وتوجهت الأنظار فى البداية إلى اليمين وذلك كانعكاس للكراهية العميقة التى يكنها « بن جوريون » لمناحم بيجين القائد السابق لجماعة « ارجون » السرية والزعيم الحالى لحزب حيروت ..

وضع « هاريل » « بيجين » وزملاءه تحت المراقبة ، وقدم تقريرا إلى رئيس الوزراء يشير إلى أن حزب «حيروت » يعتزم تأسيس « جماعة سرية صغيرة » فى الجيش غير أن هذه الشكوك لم يكن لها أساس من الصحة ، لأن « بيجين » كان قد تحول ليصبح برلمانيا ديمقراطيا حقيقيا ، لكن كما يقول المثل العبرى فإن « هاريل » كان « يرى ظلال الجبال جبالا حقيقية » .

وفى الشهور التالية ، حطمت « شين بيت » العديد من حلقات المنشقين الصغيرة وغير الهامة المرتبطة بالمتعصبين الدينيين وباليمين السياسى .. وكانت إحداهما وهى جماعة « عهد المتعصبين » قد نذرت نفسها لإعادة مملكة إسرائيل القديمة تحت سيطرة دينية حازمة .

وأشعل هؤلاء اليهود الملتحون ، الذين يرتدون الزى الارثوذكسى الأسود ، النيران فى السيارات وأحد المطاعم ، ومحل جزارة لايبيع طعام « الكوشير » اليهودى ..

اخترقت « شين بيت » المجموعة المتعصبة وألقت القبض على أعضائها .. وكان من الواضح أن أفرادها يمثلون مجموعة من الهواة السذج غير أن تقرير « هاريل » إلى « بن جوريون » صورهم بوصفهم خطرا قاتلا على الديمقراطية فقد أراد « هاريل » أن يعرف عن رجاله أنهم أكفاء فيما يتعلق بمواجهة المخربين وكان لهاريل الفضل أيضا فى إحباط محاولة اغتيال « بن ــ صهيون بنكوس » وزير النقل وألقى القبض على « شعلتيل بن يير » وإثنين من أعضاء جماعة « ليهى » السرية السابقة على وجود الدولة ، والمشهورة باسم عصابة « شتيرن » بتهمة التآمر للقيام بأعمال عنف معادية للدين .

وزعم أنهم تأمروا لوضع قنبلة بالقرب من منزل الوزير ، احتجاجا على قيامه بفرض قيود على حركة النقل العام أيام السبت .

وكان قد منع تسيير سيارات الأوتوبيس سوم العطلة اليهودية ، فى اطار الاتفاق السياسى بين حزب الماباى والساسة الدينيين ..

وقدم « يير » للمحاكمة ، إلا أنه تم الافراج عنه لعدم توافر الأدلة ، ومن سخرية الأقدار أنه عمل بعد ذلك فى مؤسسة المخابرات .

ومع تصفية التخريب اليمينى ، ازداد اهتمام « هاريل » باليسار . وقامت « شين بيت » بتكثيف مراقبتها للحزب الشيوعى الإسرائيلى الصغير ، ولم يكن هذا الأمر محل خلاف على الاطلاق ، فالغالبية كانت تنظر إلى الشيوعيين على أنهم من الخوارج المعادين للصهيونية داخل مجتمع صهيونى وطنى ..

وقد تمادى « هاريل » فى عمله ، ضد رغبة غالبية الإسرائيليين ، عندما سلط أضواءه المعادية للتخريب فى تعقب حزب المابام ، وهو حزب اشتراكى له توجهات صهيونية لامراء فيها فبالرغم من توجهه اليسارى ، إلا أنه لم يكن خارجا عن نطاق الحدود السياسية فكان ملتزما بوجود الدولة اليهودية المستقلة وكان أكثر نشاطا من أى حزب آخر فى بناء المستوطنات اليهودية الجديدة والكيبوتزات .. وعمل أعضاؤه بإخلاص كامل فى الجيش ، ووصل العديد منهم إلى مراتب عسكرية رفيعة .

ومن ناحية أخرى ، أوقف « المابام » فى غضب كل تعاون سياسى مع « بن

جوريون » عندما توصلوا إلى قناعة مفادها أنه يرغب فى التحول بإسرائيل عن الاشتراكية .

وعندما تمادوا أكثر من ذلك بتقديسهم للدكتاتور السوفيتى « جوزيف ستالين » ، لم يجد « هاريل » أمامه دليلا أقوى من ذلك يبرر للانقضاض عليهم وقرر « هاريل » أن « المابام » يتحرك بوصفه عميلا للكتلة السوفيتية ، وانتابته الشكوك بأن الحزب يخطط لانقلاب عسكرى للاستيلاء على البلاد بسبب وجود العديد من أعضائه فى هيئة الضباط بالجيش .

وقد انكشف الهجوم السرى لوكالة « شين بيت » فيما يتعلق بعمليات التخريب المزعومة على الملأ فى ٢٩ يناير ١٩٥٣ ، عندما فتح « ناتان بيليد » سكرتير الحزب يديه ، أمام مؤتمر صحفى فى تل أبيب ، ليكشف عن جهاز ارسال لاسلكى صغير ، قائلا للصحفيين ان أداة التصنت تم العثور عليها تحت مكتب « مائير يارى » رئيس حزب المابام .

وقال « بيليد » أن الحزب كانت تساوره الشكوك منذ فترة طويلة بأن مناقشاته السرية يجرى تسريبها ، بشكل ما ، إلى « بن جوريون » .

وأضاف أنه تم العثور على الميكروفون وجهاز الارسال اللاسلكى ، ثم تم ضبط لصين بعد ذلك ، وهما يحاولان اقتحام مقر قيادة المابام بمفاتيح خاصة ، وأن أعضاء الحزب هم الذين ضبطوا اللصين ، وأنه تم تسليمهما إلى البوليس ..

وأشار إلى أن القاضى كان مترفقا للغاية معهما ، وحكم عليهما بأدنى غرامة مع الحبس لمدة أسبوعين دون أن يأمر بإجراء أى تحقيق فى الظروف الشاذة التى أحاطت بالحادث وقدم « بيليد » إيضاحا للصحفيين قائلا أن الرجلين من العاملين فى « شين بيت » ، وأن « هاريل » أرسلهما بناء على أوامر من « بن جوريون » والماباى .

وأنكر الحزب الحاكم هذه المزاعم ، إلا أن « المابام » كانت لديه معلومات من داخل الوكالة ، فقد كان للحزب جواسيسه داخل « شين بيت » فى اطار قسم الأمن الخاص بالمابام الذى زرع عملاءه فى الأحزاب الأخرى وداخل مؤسسة المخابرات وكان « هاريل » قد كشف عن جاسوس يتجسس على الجواسيس الإسرائيلية فى

بداية يناير ١٩٥١ وهو « جيرشون رابينوفيتس » أحد كبار العاملين فى « شين بيت » بسبب ميوله القوية تجاه المابام . غير أن الجواسيس الكامنين للمابام ، ظلوا فى أماكنهم ، وواصلوا تزويد الحزب بالمعلومات للدفاع عن نفسه .

وكشف « هاريل » عن مخبر آخر أيضا يعمل فى قسم الشئون العربية فى إدارة الابحاث بوزارة الخارجية ، ولحسن حظ الأمن الإسرائيلى فإن الجاسوس لم يكن عربيا ، ولم يعمل لحساب العرب ، وكان هذا الجاسوس « يعقوب بارام » الذى كان فى مكان يسمح له بالوصول إلى تقارير الموساد والمخابرات العسكرية ، وقد ضبط فى مايو ١٩٥٥ وهو يسلم وثائق سرية إلى قسم الأمن فى حزب المابام .

اختار « هاريل » ألا يوجه اتهامات جنائية إلى « بارام » حتى لايزيد من حدة النزاع بين الماباى والمابام الذى كان يعتزم بوضوح استمرار تطوير وسائله الخاصة فى معرفة مايجرى فى كل مكان فى الدولة .

وقد أدت المراقبة الدقيقة التى فرضها « هاريل » على وزارة الخارجية إلى تحقيق مكاسب أكبر وذلك بالقبض على جاسوس كان عميلا للعدو حتى من قبل وصوله إلى إسرائيل ..

كان اسمه الحقيقى « وولف جولد شتاين » وقد وُلد فى سويسرا لأبوين يهوديين يعتنقان الشيوعية إلى درجة أنهما قاما بإيواء « فلاديمير ايليتش لينين » قبل الثورة البلشفية عام ١٩١٧ .

أصبح المراهق « وولف » مفتونا بالماركسية اللينينية وجنده الجواسيس السوفيت كواحد منهم ، وتوجه إلى موسكو للحصول على تدريبات من قبل « كى . جى . بى » بنية زرعه ـــ منذ البداية ـــ داخل الحكومة الإسرائيلية ..

وقد وصل إلى إسرائيل خلال معارك ١٩٤٨ وتمكن من العمل بسهولة فى وزارة الخارجية ، والتحق بالقسم الاقتصادى الذى كان محدودا للغاية وبحاجة ماسة إلى من يعمل فيه ..

وكالعادة فقد غير « جولد شتاين » اسمه إلى اسم عبرى هو « زيف آفنى » .

وقد احتل « آفنى » مناصب هامة إلى درجة مافى الخارج على الرغم من أنه كان موظفا إسرائيليا صغيرا .

ففى بداية الخمسينيات ، التحق بالسفارة الإسرائيلية فى بروكسل كمستشار اقتصادى وكانت هناك مفاوضات سرية مع المسئولين الألمان الغربيين حول دفع تعويضات لليهود الإسرائيليين الذين عانوا من عمليات الإبادة الجماعية على يد النازى ..

وقام « آفنى » بصورة منتظمة بإبلاغ « كى جى بى » بكافة تفاصيل المفاوضات .

ثم عمل « آفنى » بعد ذلك فى بلجراد ، حيث الحق أكبر الضرر بالأمن القومى للدولة اليهودية ..

وبالرغم من أنه كان مسئولا عن العلاقات التجارية بين إسرائيل ويوجو سلافيا ، إلا أنه سمح له بالوصول إلى غرفة الشفرة والاتصالات بالغة السرية للسفارة بسبب العجز المزمن فى قوة العمل .. وتعلم « آفنى » تشغيل أجهزة التى كانت تستخدم فى كافة المراسلات بين وزارة الخارجية فى إسرائيل وبين سفارتها فى يوجوسلافيا .

وكانت رغبته فى العمل وقتا إضافيا ، والقيام بعمل الغائبين والمرضى من بين العاملين فى الاتصالات ، تلقى امتنانا كبيرا .

وسرعان ماحصل الجاسوس السوفيتى على الشفرات السرية لوزارة الخارجية الإسرائيلية ، ونقلها لوكالة المخابرات السوفيتية « كى . جى . بى » التى استطاعت حل رموز كافة الرسائل المنقولة لاسلكيا من وإلى الدبلوماسيين ورجال المخابرات العاملين تحت غطاء دبلوماسى والتابعين لإسرائيل ..

ووجد « هاريل » ، الذى كان يقوم بفحص دائم لقائمة الدبلوماسيين ، أن هناك مايدعو للشك فى « آفنى » ومايبديه من حمية وحماس ، وكان دليله فى هذا مواهبه الطبيعية فى مكافحة الجاسوسية ..

وبدا أن « سلوك آفنى » الغريب فى بلجراد مرتبط بتعرض العملاء الاسرائيليين

للخطر وتذرع « هاريل » بحجة ما ، وقام باستدعاء « آفنى » إلى تل أبيب فى ابريل عام ١٩٥٦ التى وصل إليها دون أن يعى المشاكل التى ستواجهه ، وألقت « شين بيت » القبض عليه وانهار « آفنى » اثناء التحقيق ، واعترف بكل شيء ، وقدم تقريرا مفيدا للغاية ، وأبدى تعاونا كبيرا إلى درجة أنه بعد الحكم عليه بالسجن لمدة ١٥ عاما ، تم زرعه فى زنزانة مع بعض الذين يشتبه فى خيانتهم وذلك للعمل كمخبر لوكالة « شين بيت » .

وتم الافراج عن « آفنى » بعد عشر سنوات ، وعاد إلى موطن طفولته فى سويسرا ، إلا أنه لفرط الدهشة رجع إلى إسرائيل بعد ذلك ببضع سنوات وبموافقة رؤساء المخابرات فى لجنة « فاراش » ، اختفى « زيف آفنى » إلى الأبد ، حيث انتحل لنفسه شخصية جديدة وعمل فى منطقة زراعية شمالى تل ابيب بوصفه عالما نفسيا .

اعتمد « هاريل » عادة على مواهبه الطبيعية أكثر من اعتماده على أجهزة الكومبيوتر السريعة أو على الموازنات الضخمة .. وقد ظلت « شين بيت » طوال أعوامها العشرين الأولى منظمة صغيرة جداً لاتضم سوى بضع مئات من العاملين وموارد مالية محدودة ، إلا أنه عهد إليها بالعديد من المهام الكبيرة .

وانقسمت الوكالة إلى قسمين ، قسم الدعم وقسم العمليات .. وضم قسم الدعم فروع الادارة ، التحقيقات ، الاستشارات القانونية ، التكنولوجيا ، التنسيق والتخطيط ، وتمويل العمليات .. بينما ضم قسم العمليات ثلاث إدارات هى :

الأمن الوقائى وهو المسئول عن حماية سفارات إسرائيل وممثليها الآخرين فى الخارج ، وحماية رئيس الوزراء والمسئولين الآخرين ، وتأمين صناعات الدفاع فى إسرائيل .

وإدارة الشئون العربية وهى مسئولة اساسا عن مراقبة عمليات التخريب بين الاقلية العربية التى تعيش داخل حدود إسرائيل ، والتى خضعت للإدارة العسكرية حتى عام ١٩٦٥ .

وإدارة الشئون غير العربية ، وهى أكبر الادارات وأهمها ، وهى مسئولة عن

مكافحة الجاسوسية ومراقبة الدبلوماسيين والوفود الاجنبية ، ومحاربة التخريب من قبل الشيوعيين وغيرهم من المتطرفين السياسيين .

تعلمت اسرائيل ، منذ زمن بعيد ، أن تفعل الكثير بالقليل الذى لديها فمعظم أجهزة الأمن فى العالم تحتاج إلى ثلاثين شخصا من رجالها لوضع شخص واحد تحت المراقبة طوال الاربع والعشرين ساعة .

أما فى مؤسسة المخابرات الإسرائيلية وبسبب النقص المزمن فى قوة العمل ، فإن هذه المهمة يتم إسنادها إلى مالايزيد عن عشرة من العملاء ، يتعين عليهم العمل لفترات إضافية لأقصى مدى ممكن ، كما يساعدهم أيضا عادة مبتدئون والتى تعتبر هذه المهام بمثابة تدريب لهم للمستقبل عندما يصبحون عملاء كاملين فى الاجهزة السرية .

ومن المفترض بصفة عامة ، أن الخاضعين للرقابة الذين يبدأون فى استخدام اساليب المحترفين للتهرب من المراقبة هم فى الأغلب الاعم من العملاء الأجانب .

وقد اكتشفت « شين بيت » فى وقت مبكر ، أن البلدان الشيوعية دربت بمهارة العديد من أعضاء وفودها الذين ترسلهم إلى الخارج على التهرب من المراقبة وهكذا بدأ الدبلوماسيون والزوار العاديون الذين لايعملون بالجاسوسية ، كما لو كانوا موضع للشبهات مما أضاع وقت الإسرائيليين فى تعقبهم وضللهم عن اقتفاء اثر العملاء الحقيقيين .

ومنذ بدايات « شين بيت » فى عام ١٩٤٨ ، وضعت نصب عيونها مهمة مراقبة نشاطات الدبلوماسيين ليس فقط من الكتلة الشرقية ، بل أيضا من الكتلة الغربية الصديقة ، فبعد شهور قليلة من مولد دولة إسرائيل ، اكتشف الكولونيل « إى . بى . أرشيبالد » الملحق العسكرى الأمريكى لدى تل أبيب أن تليفونه موضوع تحت المراقبة .

وبعد عام من هذا الحادث ، حاول عميل إسرائيلى ابتزاز أحد المسئولين بالقنصلية الأمريكية فى القدس ، على أمل أجباره على تسريب وثائق سرية لوكالة « شين بيت » ، حيث كان المسئول الأمريكى على علاقة غرامية بإسرائيلية تعرضت لضغوط لانتزاع المعلومات من الدبلوماسى الأمريكى .. ووصل الأمر إلى حد قيام

السلطات بتلفيق قصة حول حاجة السيدة الإسرائيلية لإجراء عملية اجهاض .

وفى عام ١٩٥٤ ، اكتشف مسئولو الامن بالسفارة الأمريكية فى تل أبيب وجود ميكروفونات مخبأة فى مكتب السفير.. وفى عام ١٩٥٦ ، اكتشف أجهزة تصنت فى جهازين للهاتف فى منزل الملحق العسكرى الأمريكى .

كما قامت « شين بيت » بمحاولات فجة لإغواء مشاة البحرية الأمريكية ، الذين يقومون بحراسة سفارتهم فى تل أبيب ، عن طريق استخدام النساء والمال .

ولم تسفر معظم هذه الجهود عن شيء ذى قيمة ، غير أن « هاريل » استمر فى الانقياد لتصوراته ، ورفض النقيد بقواعد الاتيكيت والأعراف المتفق عليها .. وأهم من كل ذلك ، وأمر كافة أعضاء مؤسسة المخابرات بتركيز أنظارهم على الاسرائيليين الذين يكشفون عن أمارات واعدة ووطنية كامنة .. وهكذا اقنع « هاريل » « بن جوريون » فى عام ١٩٥٥ بتجنيد أكثر الأعضاء موهبة فى منظمة « ليهى » السرية السابقة بالرغم من كراهية « بن جوريون » لهم ونفوره منهم .. وكان هذا الإجراء يتسم بالجرأة البالغة فى ذلك الوقت الذى كان يسود فى إسرائيل جو من التوتر السياسى البالغ .. فقد كان محظورا على الارهابيين السابقين اليمنيين تولى الوظائف المدنية او حتى التدريس على أساس انهم يشكلون خطرا على الأمن ..

وكان « هاريل » الذى راقبهم بعناية ، قد أحس أنهم قد أصبحوا محايدين ، لايشكلون خطرا حقيقيا ، وأنه ينبغى استغلال خبرتهم فى التآمر والأساليب السرية ..

وقد ضمت « شين بيت » والموساد من بين رجالها الجدد اشخاصا من بينهم « اسحاق يزرنيتسكى » الرئيس السابق لعصابة « ليهى » أو « شتيرن » والذى غير اسمه بعد ذلك ليصبح « إسحاق شامير » وليتولى فى نهاية المطاف رئيسا لوزراء إسرائيل

وتم تجنيد عدد آخر من المحاربين القدماء فى « ليهى » وضمهم إلى مؤسسة المخابرات ، ومن بينهم « يعقوب إلياف » الذى أرسل إلى أسبانيا ، و « يهوشوا كوهين » ، الذى شارك فى اغتيال وسيط الأمم المتحدة الكونت السويدى « فولك

برنادوت » ، ثم عين حارسا خاصا لبن جوريون ، و « شعلتيل بن يير » الذى اشتبه ، قبل أربع سنوات على تجنيده ، فى تآمره لنسف أحد الوزراء ، وتم إرساله إلى مصر تحت هوية مزيفة ، وأثبت أنه واحد من أكثر عملاء إسرائيل نجاحا فى الخارج و « ديفيد شمرون » الذى ألحق بمركز الموساد فى باريس ، و « الياهو بن إليسار » الذى أصبح الضابط المسئول فى أوربا عن العملاء فى الأراضى العربية وشعر هؤلاء اليمينيون بالامتنان العميق لهاريل الذى حررهم من الحجر المفروض عليهم ، ومنحهم الفرصة لاثبات جدارتهم واهميتهم بالنسبة لإسرائيل .

بذل « هاريل » مافى وسعه لبث الاحساس بالفخر لمن ينتمون إلى جماعته المتآخية ، وكان يقول لمرؤوسيه « أنتم مخلوقات نادرة » .

وبوصفهم بشراً ، فقد كانوا يستمتعون بهذا الثناء وهم بالتأكيد لم يشاركوا فى لعبة الجاسوسية من أجل المال ، فالأجور التى كانت تدفع للعاملين فى « شين بيت » والموساد كانت مماثلة لأجور الموظفين المدنيين فى إسرائيل — وهى أجور منخفضة عن المستويات الأوربية — غير انها كانت تصل إلى الضعف تقريبا بالنسبة للعاملين فى مهام خارجية .

كان العمل قاسيا وخطيرا ، ويستمر لساعات غير محدودة ، وهكذا وثق « هاريل » فى أن رجاله يعتبرون أنفسهم نوعية نادرة وعرف عملاؤه أيضا أن الرحلات الخارجية ، التى كانت سلعة نادرة فى تلك الأيام ، وغير متاحة تقريبا للإسرائيلى العادى ، من بين الامتيازات الهامشية لعملهم .

وكان العاملون فى قسم الدعم مؤهلين أيضا للاستمتاع ايضا بهذه الامتيازات ، حيث جرى ارسال الفنيين وموظفى السكرتارية والميكانيكيين إلى الخارج من وقت لآخر فى مهام لاتتطلب مهارات خاصة مثل العمل كسعاة بريد أو فى مهام الحراسة ..

وفى المقابل ، كان « هاريل » يطلب الاخلاص المطلق والالتزام الصارم بالمهام التى يعهد بها اليهم وكان يضع نفسه نموذجا يحتذى ، فالعمل فوق كل اعتبار ، وبدلا من أن ينزل فى الفنادق الفاخرة ، أو يتناول طعامه فى المطاعم الانيقة كان يختار أماكن

أكثر رخصا وتقشفا ، حتى عندما كان يسافر إلى أوربا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا .

وعندما طبقت إسرائيل ، فى الخمسينيات ، ضوابط صارمة على كمية النقد الأجنبى المسموح للمواطن العادى بحيازتها ، حصل أعضاء مؤسسة المخابرات على إذن خاص بالحصول على مائة دولار زيادة عن المقرر لكل رحلة خارجية ..

وكان من المفهوم ان هذه الأموال ستستخدم فى تمويل عمليات خاصة ، أو فى الدفع للمخبرين أو لتغطية نفقات أخرى غير عادية مثل تقديم الرشاوى .

وكان « هاريل » نفسه يعيد أية مبالغ متبقية إلى أول بنك تقع عليه عيناه لدى وصوله إلى مطار اللد بالقرب من تل أبيب ولم يكن العاملون يقدمون أية ايصالات عن نفقاتهم ، لأن لم يكن لأى شخص أن يرضى بالتوقيع على ورقة يعترف فيها بالحصول على رشوة .

وقد كانت التقارير الخطية التى يقدمونها لدى عودتهم إلى اسرائيل تفى بالغرض فالثقة كانت أساس التعامل فى المسائل المالية ، والخطيئة الكبرى كانت تتمثل فى الكذب ..

ويوضح عميل فى الموساد ذلك بقوله :

« إنهم كانوا يدربوننا على الكذب والسرقة وتدبير المكائد ضد أعدائنا ، على ألا نسمح لهذه الأشياء بأن تفسدنا نحن فمن مهامنا الدائمة أن نحافظ على مستوياتنا الأخلاقية » .

وفى حالة ضبط أحد العملاء وهو يكذب ، حتى ولو كان الأمر يتعلق بمبلغ تافه من الدولارات ، أو إذا لم يستطع أن يقدم أيضاحا مرضيا عن نفقاته ، تتم إحالته إلى هيئة تحقيق نظامية ، وهى محكمة داخلية خاصة بمؤسسة المخابرات يختار لرئاستها قاض مدنى ، بعد أن يقسم بالطبع على الحفاظ على سرية القضية .

وإذا أدين أى عامل باستغلال مهمته السرية فى تهريب أدوات منزلية ، أو أجهزة تليفزيونية أو أجهزة فيديو أو تسجيل إلى اسرائيل ، يصدر عليه الحكم بالغرامة ، ويوجه إليه إنذار ..

وفى الحالات الخطيرة ، كان يتم فصل القلة الفاسدة على الفور .

وكانت تلك هى حالة أحد العاملين فى الموساد الذى عقد صلة مع إثنين من المخبرين فى أوربا كانا يمدانه بتقارير من دولة عربية .

وظل على مدى بضعة أيام يقدم لهما الخمور والطعام وتضمن إمتاعهما ارتياد المواخير ..

ولدى عودته إلى إسرائيل ، قدم تقريرا مفصلا عن نفقاته بما فى ذلك النفقات التى دفعها لبائعات الهوى ، ولم يشعر الضابط الأعلى ، فى قيادة الموساد ، بالرضى .

وقال له :

« إننى أفهم بالتأكيد الحاجة لانفاق الأموال على العملاء ، لكن لماذا بحق الجحيم يتعين على دولة إسرائيل أن تدفع نفقات معاشرتك للبغايا » .

وتم توجيه توبيخ رسمى عنيف للضابط وقام المحاسبون فى الموساد بفحص تقارير نفقاته السابقة التى أظهرت أمورا مريبة ، وتم فصل الرجل ومن ناحية أخرى ، وصلت شكوى بأن أحد رجال « شين بيت » على علاقة عاطفية بسيدة وأنه يستخدم السيارة التى خصصتها الوكالة له فى التنقل مع فتاته فى الوقت الذى كانت الأوامر تحظر استخدام السيارات الرسمية فى التنقلات الخاصة .

وطالب منه روساؤه إنهاء علاقته العاطفية ، ومانتج عنها من شائعات .. ولو كان هذا الأمر قد وصل إلى علم « هاريل » المثالى لكان رد فعله أكثر صرامة ..

وفى الوقت الذى سيطر فيه « هاريل » على الموساد و « شين بيت » ، فإنه عجز عن أن يحول دون حدوث الفشل الهائل الذى مازال مثيرا للحيرة من جانب عملاء المخابرات العسكرية فى مصر فى منتصف الخمسينيات .. وهو الفشل الذى مازال يكتنفه الغموض الرسمى ، والذى يعتبر إلى حد بعيد أكثر الفضائح المدوية فى تاريخ إسرائيل ، والمتمثل فى سلسلة الحوادث المؤسفة والسرية المعروفة باسم عملية لافون . نسبة إلى « بنحاس لافون » وزير الدفاع الذى فقد منصبه بسببها .

فالأراضى الفسيحة لمصر كانت تشكل أرضا خصبة للتجسس بالنسبة لكل من

الموساد والمخابرات العسكرية « أمان » وطبقا للتقسيم التقليدى للعمل ، كان لوكالة « أمان » الأسبقية فى جمع المعلومات عن القوات المسلحة للدول المعادية على طول حدود إسرائيل ، بينما شملت مسئوليات الموساد العمليات السرية فى كافة الدول الأجنبية .. ولكون مصر أكبر الدول العربية المجاورة فقد كانت تحظى بالأهمية الأولى وباهتمام الفرق المزدوجة للمخابرات الإسرائيلية .

وعلى أية حال ، واجهت الوحدة ١٣١ التابعة للمخابرات العسكرية مصاعب خطيرة بسبب عملية تفتقر إلى التخطيط الجيد ، بدأت بإرسال « أفراهام دار » إلى القاهرة فى مايو ١٩٥١ ..

وبدأ « دار » عمله بصورة جيدة ، بالرغم مما كان يواجهه من جراء سفره تحت غطاء أنه بريطانى ، فقد كان حفيدا ليهودى ولد فى عدن ، كما أن بشركة الداكنة جعلت من الصعب عليه أن يبدو بريطانيا إلا أن لغته الانجليزية كانت ممتازة ، كما كانت لديه الخبرة فى العمل السرى كعميل سابق لوكالة الهجرة السرية ..

وبوصفه ضابطا فى البالماخ فى حرب ١٩٤٨ فقد كان من الضباط الذين يعتمد عليهم إلا أنه لم تكن له سمعة بارزة سواء فى القيادة أو فيما يتعلق بالقدرة التحليلية وفى مصر ، اتخذ « دار » لنفسه اسم « جون دارلنج » ، وتظاهر بأنه ممثل شركة الكترونات بريطانية .

وقال « دار » بعد ذلك بأعوام « ان اسم « دارلنج » لم يتم اختياره مصادفة ، فقد كان اسما لأحد ضباط الجيش البريطانى فى مصر ، وكان يمكن للروابط الأسرية المزعومة معه أن تكون مفيدة لى » .

بعد أن استقر « دار » تحت هذا الغطاء إلى الدرجة التى اعتقد فيها دارلنج الحقيقي أنهما أقارب ، بدأ فى تنفيذ هدفه الحقيقى الذى أرسل من أجله وهو : إقامة شبكة من العملاء « الكامنين » الذين يتم استدعاؤهم عندما يحين الوقت للقيام بالمهام السرية . وشكل « دارلنج » خليتين من الشباب اليهود المخلصين المؤيدين لدولة إسرائيل ، وتم ارسالهم سرا إلى اسرائيل للتدريب فى عام ١٩٥٢ كان معظم هؤلاء الصهاينة المصريين من الهواة ، وواجه المعلمون فى الوحدة ١٣١ متاعب فى الدروس

التى ألقوها عليهم حول وسائل الجاسوسية . فالخبر السرى والنشرات اللاسلكية الشفرية ، ووسائل المراقبة ، كانت تماثل فى صعوبتها علم الفيزياء النووية بالنسبة لعملاء الدرجة الثانية هؤلاء .. غير أنه لايبدو أن أحدا فى مؤسسة المخابرات الاسرائيلية قد اعترض عليهم ..

إلا أنه كانت هناك استثناءات قليلة ، فمن بين أكثر طلبة الجاسوسية براعة كان « إيلى كوهين » الذى اعتبر بعد عشر سنوات أفضل جواسيس الدولة اليهودية .

أنشأت « مارسيل نينيو » ، وهى إحدى العميلات من النساء ، شركة سياحية فى مصر بتمويل سرى إسرائيلى ، وعملت كأداة اتصال بين الخليتين المصريتين ، وكانت مشهورة بشخصيتها المفعمة بالحيوية وبجمالها الصارخ .. كان الضباط الوطنيون فى الجيش المصرى قد أقاموا علاقات سرية فى أوائل ١٩٥٢ مع « كير ميت [كيم] روزفلت » و « مايلز كوبلاند » أكبر عميلين لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وتآمروا للاطاحة بالملك فاروق ونجحوا فى ذلك فى شهر يوليو عام ١٩٥٢ ..

وأعلن زعماء الانقلاب الجمهورية ، ودعوا رجال وكالة المخابرات المركزية لتدريبهم .

وفى ١٩٥٤ ، ظهر على السطح رئيسهم الحقيقى العقيد جمال عبدالناصر ، وأصبح رئيسا للجمهورية وقدمت وكالة المخابرات المركزية المساعدة لحماية أمنه الشخصى .

وكانت المخابرات الإسرائيلية واعية بتلك العلاقة السرية الخاصة ، ولم تكن راضية عنها على الاطلاق ..

وظل المجندون الإسرائيليون « كامنين » لمدة ثلاث سنوات ، غير أن كلمة السر المتفق عليها من قبل تم ارسالها لاسلكيا من تل أبيب إلى القاهرة فى يونيو ١٩٥٤ للبدء فى تنفيذ عملية « سوزانا » .

وأخيرا ، بدأت الخلايا السرية للوحدة ١٣١ فى العمل لافقاد الحكومة الوطنية العربية الجديدة مصداقيتها .

وعلى أية حال لم يعد « دار / دارلنج » ضابط الحالة المسئول عن العملية ، بعد أن حل محله « أفراهام سايد ينفرج » .

كان « سايد ينفرج » ابنا لسياسى يهودى فى النمسا مات فى معسكر اعتقال نازى .. وانتقل ابنه إلى فلسطين ، وغير اسمه ليصبح « إيفرى إل ـــ عاد » . وأظهر كفاءة متميزة فى معركة البالماخ حول القدس فى عام ١٩٤٨ وأصبح « ميجور » وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، إلا أن مستقبله العسكرى انتهى بعد أن نهب ثلاجة فى قرية عربية محتلة وتمت محاكمته عسكريا ..

وبحلول نهاية ١٩٥١ ، التقى وهو منبوذ ، وعاطل ومطلق ، بافراهام دار ، و « موردخاى بن ـــ زور » من الوحدة ١٣١ .

ووجدا فيه خامة رائعة للقيام بمهمة خطرة فى أرض الأعداء ، لأنه لم يكن لديه مايفقده كما أن من شأنه أن يشعر بالامتنان تجاه الفرصة التى ستتيح له رد اعتباره ..

استعارت المخابرات العسكرية هوية عضو فى الكيبوتز من أصل ألمانى يدعى « بول فرانك » لينتحلها المجند الجديد ، الذى توجه إلى ألمانيا الغربية لقضاء تسعة أشهر فيها لسد أية ثغرات فى غطائه ، حتى أنه أجرى هناك عملية جراحية مؤلمة للغاية ليتخلص من ختانه ، لكيلا يمكن الكشف عن هويته كيهودى ، إذا تجرد من ملابسه ..

وقد أبلغ الجراح الألمانى أنه ليس يهوديا وأنه لايمكن أن يحتمل أن تعتقد شريكته فى المضاجعة أنه يهودى ، وتعاطف معه الطبيب تعاطفا تاما ..

وأبحر الجاسوس الإسرائيلى إلى مصر فى ديسمبر ١٩٥٣ بوصفه رجال الأعمال الثرى « بول فرانك » ، وانضم بسرعة إلى الجالية الألمانية المتنامية فى مصر ، التى كانت تضم ذوى الماضى النازى الذين يحاولون الهرب من ماضيهم .

وقد ارتكب « فرانك » ، بوصفه الضابط المسئول عن شبكة التجسس فى القاهرة ، كافة الأخطاء التى يمكن تصورها ، حيث كان يعرف جميع عملائه ، وليس فقط القلة البارزة وقام بزيارتهم فى منازلهم ، وكان يمكن لهم ولأسرهم التعرف

عليه إذا ماحدث شيء سيء ، على الرغم من أنهم كانوا يطلقوا عليه اسم « روبرت » .

وفى ٣٠ يونيو ١٩٥٤ ، توجه إلى الإسكندرية ومعه كلمة السر التى طال انتظارها وكانت عملية « سوزانا » تعنى التخريب .. ولم تكن الأهداف التى ستتعرض للقنابل أهدافا عسكرية مصرية ، بل دور عرض سينمائية ، ومكاتب بريد ، ومنشآت أمريكية وبريطانية .. وذلك بهدف إثارة غضب واشنطن ولندن ضد المصريين ، وتصوير الحكومة الجديدة فى القاهرة على أنها حكومة غير مستقرة ولا يعتمد عليها ..

وبدأت المهمة الشاذة بتفجير مكتب للبريد فى الاسكندرية بالقنابل .. وقام « فيليب ناثانسون » وهو أصغر العملاء الصهاينة سنا ، ١٩ عاما ، و « فيكتور ليفى » بحمل الأجهزة الحارقة البدائية فى أكياس للنظارات .

لم تحدث سوى أضرار طفيفة فحسب ، وحظرت الرقابة العسكرية المصرية نشر أى شيء عن الانفجارات ، ونتيجة لذلك لم يحدث أى تشويه لصورة مصر بأى شكل من الأشكال ..

وبعد أسبوع ، وصلت تعليمات أكثر جرأة بالشفرة السرية من خلال برنامج لراديو إسرائيل ، وأصدر « فرانك » أوامره لفريقه بوضع القنابل فى مكتبتى مركز الاستعلامات الأمريكى بالقاهرة والاسكندرية ..

وفى هذه المرة نشرت الصحف المحلية والدولية أنباء الانفجارات ، وعم السرور الوحدة ١٣١ فى تل أبيب ..

وفى ٢٢ يوليو ، انفجرت قنبلتان فى القاهرة وكانت واحدة منهما مازال فى جيب فيليب ناثانسون » وساعده ضابط بوليس مصرى فى اطفاء الحريق الذى شب فى سرواله ، ثم ألقى القبض عليه ومثلت تلك الحادثة نهاية عملية « سوزانا » التى ظلت تطارد مؤسسة المخابرات فى إسرائيل لسنوات عديدة ..

كان « ناثانسون » أول من انهار أثناء التحقيق وكما حدث فى العراق ، لم تجد سلطات الأمن المصرية أية صعوبة فى القبض على شبكة الجاسوسية غير المحترفة

والمشكلة من يهود محليين فى الأعم الغالب يعرفون بعضهم البعض اجتماعيا ، ولم يقوموا حتى بحماية أنفسهم عن طريق اخفاء أسمائهم عن بعضهم البعض ..

وسرعان ما ألقى القبض على « نينيو » وهى أداة الاتصال ، التى تعمل وكيلة سياحية .. وألقى القبض أيضا على عميل سرى كان يعمل تحت غطاء ماكر ، ولم يكن ذلك العميل سوى « مائير [ماكس] بينيت » .

ولد « ماكس » فى المجر عام ١٩١٧ لأسرة يهودية تقليدية من ألمانيا ، وفى ١٩٣٥ هاجرت أسرته بصورة غير مشروعة إلى فلسطين وأصبح عميلا لوكالة الهجرة ، ثم جنده « أفراهام دار » فى المخابرات العسكرية التى أوفدته إلى عديد من الدول فى مهام متنوعة بسبب اتقانه لست لغات .. وعندما أوفد إلى مصر فى عام ١٩٥١ ، كان قد وصل إلى رتبة « ميجور » ومنح غطاء ألمانياً ، مثله فى ذلك مثل « سايدينفرج » ، وكان اختياره كألمانى اختيارا موفقا لسبب بسيط يرجع إلى أن اسرائيل كان لديها العديدون ممن يتحدثون الألمانية ، وأن أحدا لم يكن ليتوقع أن يعمل ألمانى من أجل الدولة اليهودية ، كما أن هناك أيضا سببا أقوى يرجع إلى المساعدة التى كانت تقدمها مخابرات ألمانيا الغربية فى تلفيق حكايات التغطية وامداد العملاء بجوازات السفر والوثائق المطلوبة الأخرى ..

ومن المثير للسخرية ، أن مهندس العلاقة الخاصة بين الدولة اليهودية وبين ألمانيا « الجديدة » ، كان من المتعاطفين فى الماضى مع النازية ، وهو الجنرال « رينهارد جيهلين » الرئيس السابق لقوة المخابرات الألمانية الخاصة التى كانت مسئولة عن الجبهة السوفيتية خلال الحرب العالمية الثانية .

وبعد هزيمة الرايخ الثالث ، ألقى الأمريكيون القبض على « جيهلين » ، إلا انهم بدلا من تقديمه للمحاكمة بوصفه مجرم حرب ، أفرجوا عنه هو وهيئة العاملين معه ..

وكانت المخابرات الأمريكية والبريطانية قد علمت ببرنامج العمل الذى وضعه للتواطؤ بين ألمانيا وأمريكا للعمل ضد روسيا السوفيتية .

ووضعه آسروه على قمة جهاز المخابرات الجديد لألمانيا الغربية ..

واقام الجنرال الألمانى السابق فى جيش هتلر علاقات عمل عميقة مع إسرائيل الموطن الجديد لليهود الناجين من عمليات الإبادة النازية ..

واعتقد بعض العاملين فى المخابرات الإسرائيلية أنهم يستغلون بنجاح الشعور بالذنب لدى الألمان بعد إبادة ستة ملايين يهودى فى المحرقة إلا أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، كانت لها وجهة نظر تتسم بالشك فيما يتعلق بتقييم رجال المخابرات المحترفين مثل « جيهلين » وفى علاقاته بإسرائيل .

حيث اعتقد الأمريكيون أن مهنة العمل السرى فى المخابرات تتطلب فصلا تاما بين العواطف وبين التقدير المنطقى للمصالح ..

ووصلت وكالة المخابرات المركزية إلى استنتاج مفادة أن المخابرات الإسرائيلية حصلت على مكاسب ملموسة ، سلبا وايجابا ، من جراء تعاملها مع الألمان الغربيين .. كان هناك مبدأ العصا والجزرة أى الترهيب والترغيب ..

وفى تقدير الأمريكيين ، فإن الجزرة كانت تتمثل فى تدفق المعلومات السرية التى يحصل عليها الإسرائيليون من الآلاف العديدة من المهاجرين الذين يصلون من الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية . فوكالات المخابرات الاسرائيلية كانت لديها خبرة عميقة فى استخدام أية معلومة مفيدة حتى ولو بدت أنها ذات قيمة مباشرة ضئيلة فيما يتعلق بالصراع فى الشرق الأوسط وعندما تكون المعلومة ذات فائدة للألمان الغربيين عن طريق إلقائها الضوء على الأوضاع العسكرية والدبلوماسية لكتلة السوفيتية ، فإن الإسرائيليين يعقدون صفقة مع الألمان الغربيين .

واعتقد الجواسيس الأمريكيون أيضا أن هناك عصا أو ترهيبا يتمثل فى قيام المخابرات الإسرائيلية بجمع معلومات مشينة حول النشاط النازى السابق لكبار الساسة فى ألمانيا الغربية ، وأن الاسرائيليين أوضحوا بطريقة لا لبس فيها أنه يمكن تسريب مالديهم من فضائح إلى المجال العام إذا لم يتعاون معهم الألمان تعاونا كاملا ..

وأشار العملاء الأمريكيون فى تقاريرهم إلى أن مثل هذا الابتزاز مقدر له النجاح وبخاصة فيما يتعلق بالألمان الغربيين الذين ينتابهم الفزع من وجود هياكل عظيمة فى خزائنهم حتى ولو كان الإسرائيليون لايملكون فى واقع الأمر ذخيرة كافية .. وهكذا

يظل التهديد قائما .. وسواء كان « ماكس بينيت » واعيا أم غير واع بتلك العلاقة السرية واسعة النطاق والدوافع المختلطة وراءها ، إلا أنه استفاد منها وهو فى طريقه إلى مصر ..

ووفقا لرواية تغطيته ، تظاهر « ماكس بينيت » بوصفه نازيا سابقا يعمل وكيلا لشركة ألمانية لانتاج الأطراف الصناعية ، ثم أصبح بعد ذلك كبيراً للمهندسين فى شركة فورد للسيارات فى مصر ..

ووراء الستار ، كان « ماكس بينيت » رجل مخابرات بارعا .. وكان أهم عميل لشركة فورد الجيش المصرى ، مما أتاح له فرصة كبيرة للتعرف على العسكريين ودخول القواعد العسكرية ..

وكان من المفروض ألا تعرف زوجته المقيمة فى إسرائيل مكان وجوده .. وأخذ يبعث برسائله إلى الوطن إلى عنوان فى لندن أولا .. إلا أن احد العاملين معه أخطأ ذات مرة ونسى أن يزيل طوابع البريد المصرية ، وهكذا علمت زوجته « جين بينيت » بمكان إقامته فجأة ، وآمنت بأن الأمر كله يفتقر إلى البراعة .

على أية حال ، نفذ « بينيت » المهام الموكولة إليه بإتقان ، وكانت إحدى هذه المهام قاتلة كما ذكر « افراهام دار » بعد ذلك بسنوات يقول « دار » .
« لقد ارتكب العاملون معه خطأً غبيا ، فبعد أن انقطع الاتصال بينهم وبين شبكة « سايد ينفرج / فرانك » ، اختاروا أسهل الطرق لتقديم الأموال إليهم ، وهكذا التقى « بينيت » بمارسل نينيو وبفرانك وسلمهما النقود ، على الرغم من أن قواعد العمل فى المخابرات تقضى بحظر أية اتصالات بين شبكتين مختلفتين » .

وذكرت « نينيو » فى التحقيق ماتعرفه عن « بينيت » واقتحم المصريون منزله وجردوه من ملابسه ، وعندما اكتشفوا ختانة ضربوه بقسوة . وفى ٢١ ديسمبر ١٩٥٤ ، قطع « ماكس بينيت » رسغيه فى زنزانة السجن بالقاهرة ومات قبل يوم واحد من تقديمه للمحاكمة ..

ولابد أنه تحقق من أنه محكوم عليه بالموت بوصفه اكبر جاسوس اسرائيلى وفضل الا يتعرض للاذلال والمهانة .. ومع مواصلة إسرائيل إنكار تورطها فى العملية نقل

جثمان « بينيت » إلى ألمانيا الغربية لدفنه غير أنه أعيد إلى إسرائيل جوا وبصورة سرية فى عام ١٩٥٩ ، حيث أعيد دفنه من جديد ولم توضح أية علامة على قبره توضح هويته كما لم تبلغ السلطات أرملته بمسالة إعادة دفنه إلا قبيل وصول جثمانه بيوم واحد ورفضت مؤسسة المخابرات كافة الطلبات التى تقدمت بها أسرته لمعرفة ملابسات وفاته ولم تعترف اسرائيل رسميا بأن « بينيت » كان عميلا لها الا فى عام ١٩٨٨ ، خلال الحفل الذى أقيم فى مكتب وزير الدفاع فى تل أبيب ، ومنح فيه رتبة « الليفتنانت كولونيل » .

لم تقدم السلطات الاسرائيلية أية مساعدة للعملاء الأخرين الذين ألقى القبض عليهم فى عملية « لافون » ، حيث شنق إثنان من اليهود المصريين فى ١٩٥٥ ، وحكم على أربعة آخرين بالسجن لمدد طويلة .. ورفضت اسرائيل حتى قبول العرض المصرى بمبادلتهم بأسرى الحرب المصريين خلال حملة السويس عام ١٩٥٦ ..

وقد عارض « موشى ديان » رئيس الأركان الصفقة خشية أن تتسبب فى إخراج إسرائيل .

وفى عام ١٩٦٨ ، وبعد حرب الأيام الستة ، تمت مبادلة « مارسيل نينيو » و « فيليب ناثانسون » « روبرت داسا » ، و « فيكتور ليفى » بالآلاف من أسرى الحرب المصريين ..

وظل الأربعة ، وبعد مرور أكثر من عشرين عاما ، يشكون من أنه جرى التخلى عنهم ، وثارت مناقشات علنية حامية فى الصحافة الاسرائيلية ، جرى خلالها تبادل الاتهامات والمزاعم المتناقضة ..

كان العضو الوحيد الذى تمكن من الافلات من القبض عليه هو « بول فرانك » ، الذى وصل به الأمر إلى حد التجاسر على البقاء فى مصر لمدة أسبوعين آخرين ، وعند عودته إلى إسرائيل اتخذ « فرانك » لنفسه اسم « إيفرى آل — عاد » من جديد ، وأرسلته « أمان » فى مهمة جديدة للتجسس العسكرى فى أوربا ..

وكان « إيسر هاريل » هو الوحيد الذى اعترض على ذلك بسبب شكوكه فى أن

يكون « إيفرى آل ــ عاد » قد أصبح عميلا مزدوجا مثلما حدث لديفيد ماجن منذ بضع سنوات ..

فقد آثار هروب « آل ــ عاد » السهل من مصر الشكوك .. وبالنسبة لإيسر هاريل فإن المقدرة على اكتشاف عدم الولاء كانت مجرد حاسة شم تقريبا لا أكثر . أرغم « جيلبى » على التخلى عن رئاسة « أمان » بسبب عملية لافون ، لكن الميجور جنرال « يهوشافات هاركابى » ، الذى حل محله ، ظل مؤمنا بقدرة « ايفرى آل ــ عاد » .

وبعث « هاريل » الذى واصل الاعتماد بإصرار عنيد على مواهبه الطبيعية ، برجاله من « شين بيت » إلى أوربا لمتابعة « آل ــ عاد » دون ابلاغ « هاركابى » وقدم رجال « شين بيت » تقريرا يفيد بأن « ال ــ عاد » اتصل بضابط من مكتب الملحق العسكرى المصرى فى بون ، وأعطاه وثائق سرية عن المخابرات الإسرائيلية واستنتج « هاريل » من ذلك أن عميل « امان » خائن واستمر رجال « سين بيت » فى التحقيق معه لمدة تسعة شهور ، ثم قدم للمحاكمة فى يوليو ١٩٥٩ ، بتهمة التجسس لحساب مصر ..

وفى محاولة لكى ينجو بجلده ، رجع « آل ــ عاد » إلى الوراء قليلا ليتحدث عن تاريخ مؤسسة المخابرات ، واعترف بأنه ساعد على إخفاء الحقيقة حول عملية لافون وقال أن ضباط الوحدة ١٣١ تآمروا لإلقاء اللوم على « لافون » وزير الدفاع بسبب فشل عملية سوزانا فى مصر .

لم تؤد تبرئة ساحة « إيفرى آل ــ عاد » بشأن أمور غير متعلقة بقضيته إلى مساعدته فى المحكمة وصدر عليه الحكم بالسجن لمدة عشر سنوات فى واحدة من أكثر المحاكمات سرية فى تاريخ إسرائيل ، وحظرت الرقابة العسكرية على الصحافة نشر تفاصيل القضية ، أما أسماء الأشخاص المتورطين فيها فكانت مثل الفاكهة المحرمة ..

وآشارت الصحافة إلى مجمل العملية بانها « إيسيك بيش » أى « مهمة عفنة » ، وإلى « جيلبى » بوصفه « الضابط الكبير » وإلى « بن زور » بوصفه ضابط الاحتياط ، وإلى « إيفرى آل ــ عاد » بوصفه « الرجل الثالث » فى اشارة غامضة

إلى الفيلم المثير الذى يحمل الاسم نفسه ومع كل هذا ، لم يتمكن المحققون فى « شين بيت » من تحطيم معنويات « آل ـــ عاد » وإجباره على الاعتراف بأنه ساعد المخابرات المصرية ، أو إقراره بأنه خان زملاءه فى القاهرة والاسكندرية وعقب الافراج عنه ، سافر إلى كاليفورنيا ، ونشر كتابا اتهم فيه « هاريل » بالتشهير به ..

كان لعملية لافون ردود فعل تخطت مجرد الفشل فى عملية سرية واحدة ، أو القبض على خلية للجاسوسية فقد تحقق ساسة إسرائيل ، للمرة الأولى ، من أن وضع الأمن على رأس الأولويات القومية يمكن أن يكون بالغ الخطورة .. وبعد أن تركوا الأمن والديمقراطية ليحققا بنفسيهما التوازن فيما بينهما ، اكتشفوا أنه لاتوجد قوة طبيعية يمكنها تحقيق التوازن دون تحركهم الايجابى فى الموضوع وانهم بوصفهم قادة لدولة ديمقراطية ، يتعين عليهم أن يصلوا إلى الحل قبل أن تميل كفة الميزان نهائيا لصالح الأمن .

وأشارت العملية بصورة مقلقة إلى أنه قد تم وضع سلطات واسعة بين يدى قادة شباب وجسورين ، ولايمكن السيطرة عليهم وجرى النظر إلى « المهمة العفنة » ، على مدى عشرات السنين بعد ذلك ، على أنها علامة تحذير .. ولم يقال للرأى العام الإسرائيلى عما كان « عفنا » بالضبط فى مؤسسة مخابرات وطنهم ، وفى الوقت الذى ساد فيه الاضطراب مؤسسة المخابرات والحكومة ، تمكن « هاريل » من الافلات ومن تعزيز مواقعه ، فقد كان القوة التى يعتمد عليها لاجتثات التخريب فى الداخل وحماية مصالح إسرائيل فى الخارج ..

وفى الوقت نفسه ، تطورت إسرائيل لتصبح قوة إقليمية هائلة ، فبعد أن كانت أمة وليدة انتزعت استقلالها بالكاد من بريطانيا ، أصبحت الدولة اليهودية لاعبا فعالا وهاما فى لعبة السياسة الدولية .

وقد أدى استخدام وسائل الاستفزاز الشاذة ، وبصفة خاصة فى مصر ، فى محاولة لتحويل قوى الغرب ضد العرب إلى نتائج عكسية تقريبا ، وذلك عندما تكشف تورط إسرائيل فيها .. غير أن الحقائق السياسية تتحدث عن نفسها :

فإسرائيل كانت الدولة القائدة المرتقبة من بين دول الشرق الأوسط ، وذلك من

ناحية القوة والصمود ، ونوع الاستقرار الذى يسعى إليه الغرب ، واختارت الولايات المتحدة وبريطانيا ان تكسب صداقة إسرائيل والأهم من ذلك فرنسا .

وبالرغم من الاذلال الذى تعرضت له المخابرات العسكرية فى عملية لافون ، فإن العلاقة مع الفرنسيين كانت ذات طبيعة عسكرية كاسحة ، مما حدا بين جوريون أن يجعل الجنرال « هاركابى » ووزارة الدفاع تتوليان مسئوليتها فى عام ١٩٥٦ ..

واحتج « هاريل » على ذلك بدعوى أن الموساد ينبغى أن تكون لها السيطرة المنفردة على العمليات السرية مع الدول الأجنبية ، إلا أن رئيس الوزراء وضع ثقته فى الأجهزة العسكرية لتسيير التعاون مع فرنسا ، واتجه فى سبيل تحقيق ذلك إلى الجنرال « ديان » ، و « شيمون بيريز » كبير معاونى وزير الدفاع ، وحتى لآشر بن ناتان » الرجل الذى نظم قبل خمس سنوات « تمرد الجواسيس » .

الفصل الثالث

النضج النووى ولاكام

● « احزم حقائبك على الفور » .. كانت تلك رسالة لاسلكية ، بعثت بها قيادة الموساد فى تل أبيب فى سبتمبر ١٩٥٦ وتلقى الرسالة فى الوقت المناسب « آشر بن ــ ناتان » الجاسوس الاسرائيلى السابق فى أوربا ، والذى أصبح الآن المدير العام لشركة تملكها حكومته فى افريقيا .

كانت الشركة هى « ردسى إنكودا » ، ومقرها فى جيبوتى ، وهى مستعمرة فرنسية نائية فى القرن الافريقى ، والتى يمكن الوصول إليها من اليمن بواسطة رحلة بالقارب عبر مضيق باب المندب ..

وبحكم اطلالها على شبه الجزيرة العربية ، فإن جيبوتى كانت موقع تصنت مثاليا للمخابرات الاسرائيلية ، لكن الوظيفة الرسمية لبن ــ فاتان كانت شراء اللحوم الاثيوبية وشحنها على امتداد البحر الأحمر إلى ميناء « إيلات » الجنوبى فى اسرائيل ..

وقامت شركة « ردسى إنكودا » باستخدام جزارين حسب الطقوس وحاخامات لضمان أن لحم البقر والضأن مطابق للطعام وفقا للشريعة اليهودية « كوشير » . تم تكليف « بن ــ ناتان » بالتوجه إلى جيبوتى فى عام ١٩٥٣ ، بعد أن غفر له « بن جوريون » رئيس الوزراء تمرده فى وقت سابق .. وكانت مهمته السرية هى مراقبة حركة الشحن والنقل البحرى والتصنت على الاتصالات فى منطقة القرن الافريقى الاستراتيجية وفى الدول العربية المجاورة .

وقد تغافلت السلطات الفرنسية عن الجانب التجسسى فى نشاطات شركة اللحوم .. كانت الرسالة اللاسلكية إلى « بن ـــ ناتان » علامة على مزيد من التعمق فى علاقة اسرائيل بفرنسا ..

طار « بن ـــ ناتان » إلى تل أبيب ، وفقا للتعليمات ونقل فور وصوله بالسيارة مباشرة إلى وزارة الدفاع .

وهناك استقبله المدير العام الشاب للوزارة « شيمون بيريز » الذى كلفه بمهمة جديدة قائلا له :

« أن الرجل العجوز « بن جوريون » يريدك أن تتوجه بسرعة إلى باريس لتجديد اتصالاتك من أيام القسم السياسى ، ولتخدم كممثل خاص لوزارة الدفاع فى أوربا بأسرها ومن الأفضل ألا توجه أسئلة كثيرة .. فكل شيء سيتضح خلال وقت قصير للغاية » .

وبعد قرابة شهر ، بالتحديد فى ٢٢ أكتوبر اعتقد « بن ـــ ناتان » أن الدخان قد انقشع أخيرا .. حيث علم بسرعة لماذا هو موجود فى فرنسا .

ففى فيللا خاصة فى « سيفر » ضاحية باريس جلس إلى مائدة خشبية كبيرة مع مجموعة متباينة إلى درجة أنه اضطر إلى أن يقرص نفسه ليصدق مايراه أمامه .. حول المائدة جلس أكثر من ١٢ رجلا من بينهم اسرائيليان شهيران : « ديفيد بن جوريون « بوصفه رئيسا للوزراء ووزير الدفاع ، و « موشى ديان » رئيس هيئة الأركان العامة للجيش ، وعصابة عينة السوداء تذكار دائم لخسارته عينه اليسرى عام ١٩٤٢ ، بينما كان يعمل لحساب المخابرات البريطانية ضد قوات فيشى الفرنسية الموالية للنازى فى سوريا .

ركز « بن ـــ ناتان » بالدرجة الأولى على عديد من الرجال الذين لم يشهد وجوههم من قبل إلا فى الجريدة السينمائية ..

كانوا جلوسا فى مقاعدهم ، « جى موليه » رئيس الوزراء الفرنسى ، « موريس بورج مونورى » وزير الدفاع ، « كريستيان بينو » وزير الخارجية ، وعديد من المساعدين والمستشارين بعضهم يرتدى لباسا عسكريا والآخرون بالملابس المدنية ..

وفى مواجهتهم « سلوين لويد » وزير خارجية بريطانيا العظمى ، ويحيط به مستشاروه .

لم يكن مؤتمر « سيفر » مجرد حديث غير ذى جدوى فهؤلاء الرجال كانوا يخططون لحرب ، سوف تعرف فى اسرائيل باسم حملة سيناء وفى أنحاء العالم باسم « حرب السويس » ببساطة .

فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، بدأت قوات المظلات والقوات البرية الاسرائيلية التحرك داخل مصر ، عبر سيناء ، وصوب قناة السويس ووفقا لخطة « سيفر » ، أصدرت فرنسا وبريطانيا إنذارا لجيشى مصر واسرائيل يقضى بتجميد مواقع قواتهما فى اماكنها على مسافة عدة أميال من ضفتى قناة السويس .

ووفقا لما تم ترتيبه مسبقا ، فإن إسرائيل وافقت ، لكن مصر رفضت ..

واستخدم الفرنسيون والبريطانيون هذه الذريعة ، الرفض المصرى للانذار ، لاسقاط قوات مظلات فى منطقة القناة فى الخامس من نوفمبر ، واستولوا على الممر المائى الاستراتيجى ..

وفى الوقت نفسه ، استكمل الجيش الاسرائيلى غزو سيناء فى غضون أربعة أيام فقط .. وبدأ ان هدف مؤتمر « سيفر » قد تحقق وأن الشهور العديدة التى أمضاها رجال الجيش والمخابرات فى التخطيط قد أثمرت ..

تحددت أهداف اسرائيل فى الحرب فى تدمير الجيش المصرى المزود بأسلحة سوفيتية ، وكسر الحصار الذى أعلنه الرئيس ناصر على الطريق إلى إيلات عبر البحر الأحمر .. وكان هناك أيضا الهدف المصرح به علنا وهو وقف هجمات الفدائيين الفلسطينيين انطلاقا من قطاع غزة التابع لمصر ..

وأمل « انتونى إيدن » رئيس وزراء بريطانيا ، الذى حركته كراهيته العميقة لناصر إلى استعادة سيطرة بريطانيا على القناة ، التى كان الزعيم المصرى قد أممها .. وتوقع « إيدن » أن الإذلال سيطيح بعبد الناصر ، الذى كان يركب موجه الراديكالية والتطرف فى الشرق الأوسط والموجهة ضد المصالح الغربية ..

اهتمت فرنسا أساسا بوقف « الناصرية » لأنها كانت تقدم الالهام لجبهة التحرير الوطنية فى الجزائر ، والتى كانت تقاتل قوات الاحتلال الفرنسى ..

وحتى قبل مؤتمر « سيفر » ، فإن فرنسا قد بدأت تسليح اسرائيل للحرب القادمة . فمنذ إبريل ١٩٥٦ ، وصلت طائرات النقل والسفن الفرنسية فى ظلمة الليل ، وقامت بتفريغ كميات ضخمة من الأسلحة : دبابات ، طائرات مقاتلة ، مدافع ، وذخائر .. تطلب المشروع تعاونا مخابراتيا وثيقا .

فقام « يهو شافات هاركابى » رئيس المخابرات العسكرية «AMAN» بالتوجه إلى فرنسا بصورة متكررة لإجراء مباحثات مع نظرائه فى المخابرات العسكرية والمدنية الفرنسية .. ولتنظيم الاتصال ، تمركز ممثل دائم للمخابرات العسكرية الاسرائيلية فى فرنسا وعلى الرغم من أن « إيسر هاريل » حاول الاصرار على أن الموساد ينبغى أن تحتكر على الأقل الاتصالات مع وكالات المخابرات المدنية فى الخارج ، إلا أنه اضطر للابتعاد عن الصورة خلال اعداد مخططات الحرب .

انغمست اسرائيل وشركائها فى ترويج بعض المعلومات المضللة فقبل بضعة ايام من الهجوم على سيناء ، أكد عملاء المخابرات الاسرائيلية أهمية نشر ايحاءات زائفة بأن اسرائيل تخطط للهجوم على الأردن ردا على هجمات الفدائيين الفلسطينيين انطلاقا من هناك .

وكعملية عسكرية ، فإن حملة سيناء وبصفة خاصة من جانب اسرائيل قد تم تنفيذها بطريقة رائعة .. وكمناورة سياسية ، فإنها كانت اخفاقا ..

اعتقدت المخابرات الاسرائيلية ، الفرنسية والبريطانية أن ناصر سيخضع للضغط الدولى المتزايد ، ويرجع ذلك جزئيا إلى اعتقادهم أن التحالف الثلاثى الجديد سيمتد بطبيعة الحال ليضم الولايات المتحدة .. وبدلا من ذلك ، فإن الولايات المتحدة أظهرت ازدراء كاملا لغزو السويس وأجبرت الدول المعتدية الثلاث على الانسحاب ، مبرهنة مرة واحدة والى الأبد على أن الولايات المتحدة قوة عظمى ، بينما لم تعد فرنسا وبريطانيا مؤهلتين للقبيهما القديم كقوتين عظميين ..

بدأت اسرائيل سحب قواتها فى نوفمبر بينما كانت، لاتزال تحتفل بانتصار جيشها

فى سيناء ، وتمت إعادة الأجزاء النهائية من الأرض المحتلة ، وهى شرم الشيخ وغزة ، إلى مصر فى مارس عام ١٩٥٧ ..

وقد لحق ضرر بالغ بصورة اسرائيل كدولة تقدمية ، اشتراكية ، وتسعى للسلام .. واقتنع العالم بأن اسرائيل اشتركت فى مؤامرة استعمارية سيئة التقدير .. لكن الاسرائيليين كانوا يعرفون بالضبط مايفعلون ، لقد انضموا إلى مؤامرة السويس الثلاثية ، قبل أى شىء ، لأن بن جوريون كان يتحرق شوقا لأن تصبح اسرائيل دولة نووية ..

فقيمة العلاقات العامة كانت صفرا ، لكن كانت هناك قيمة كبيرة للأهداف الاستراتيجية لرئيس الوزراء فى دعم تحالف قوى مع فرنسا تحت اسم « جسر فوق البحر الأبيض المتوسط » ..

وقد مكن هذا الجسر الاسرائيليين من الحصول على كل مايحتاجونه تقريبا لانتاج قنبلة نووية ..

كانت القوة النووية هدفا تعلق به بن جوريون منذ بداية إنشاء الدولة .. فهى ستمثل الاستقلال الحقيقى فى العالم المعاصر .. فتوليد الكهرباء دون الاعتماد على الفحم والبترول المستورد يمكن أن يكون نافعا لكن تنمية امكانية عسكرية نووية كان أكثر أهمية ، فمن شأنه أن يجعل اسرائيل قوة لايمكن منافستها فى الشرق الأوسط .. ويمكن أن يكون الضمان النهائى للوجود المستمر للدولة اليهودية ..

بعد مرور سبعة شهور فقط بعد الاستقلال استدعى رئيس الوزراء خبيرا من فرنسا يدعى « موريس سوردان » ، ووصفه « بن جوريون » فى يومياته فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٨ ، بأنه بانى الفرن النووى الفرنسى ..

ولد « موريس سوردان » يهوديا فى القرم الروسية فى عام ١٩١٣ ، وانتقل إلى فلسطين تحت اسم « موشى سوردان » لكنه استقر فى وقت لاحق فى فرنسا ، حيث درس الفيزياء ، وعمل بعد الحرب العالمية الثانية مع لجنة الطاقة النووية فى باريس والتى كانت تقوم بانتاج القنبلة النووية الفرنسية ..

ويعيد « سوردان » للأذهان أن بن جوريون كان مهتما جدا بالموضوع ، الذرة ، وأنه اهتم للغاية بالتفاصيل ..

لم يسفر اجتماع « بن جوريون ــ سوردان » عن شيء ، لكن بن جوريون ومجموعة مستشارية الشبان رفضوا التخلى عن الفكرة .. فقد شعروا أن امتلاك طاقة نووية ، سيعوض حجم اسرائيل الصغير ومواردها البشرية الضئيلة . بالنسبة لفكرة قنبلة نووية اسرائيلية فإن الجنرال « ديان » كان متحمسا بالطبع .. فقد رأى فى الترسانة النووية رادعا ضد هجوم عربى شامل ، دون الحاجة الى تمركز دبابة فى كل ساحة اسرائيلية .

فقد اقتنع رئيس الأركان أن الاحتفاظ بجيش دائم ضخم ، سيؤدى إلى افلاس الدولة .

قال « ديان » :
« نحن نحتاج لأن يكون لدينا جيش صغير كفء ورخيص ومحترف ، للأمن المستمر وللاشتباكات المحدودة ، مع أسلحة نووية للمواجهة العامة .. وإلا فسوف نواجه الركود الاقتصادى » . شكل مجلس وزراء اسرائيل لجنة الطاقة النووية الاسرائيلية فى عام ١٩٥٢ وكان رئيسها « إرنست ديفيد بيرجمان » وهو كيميائى لامع ، ولد فى ألمانيا عام ١٩٠٣ ثم انتقل إلى فلسطين فى أوائل الثلاثينيات وأسس الفيلق العلمى لجيش اسرائيل وبينما كان يجرى أبحاثا عن السرطان وأمور أخرى ، كان « بيرجمان » مدير القسم العلمى لوزارة الدفاع ومؤيد بارز للخيار النووى ..

فى كل مناسبة تقريبا ، بحث « بن جوريون » ومستشاروه العلميون ، العسكريون والسياسيون امكانات شراء مفاعل نووى ..

وسنحت الفرصة فى عام ١٩٥٥ ، عندما وفر برنامج « الذرة من أجل السلام » ، الذى تبناه الرئيس الأمريكى « دوايت أيزنهاور » ، مفاعلا نوويا صغيرا للأبحاث لاسرائيل طاقته خمسة ميجاوات ، وأقيم فى « ناحال سوريك » على مسافة عشرة أميال جنوبى تل أبيب .. وكانت المنشأة عرضة لعمليات تفتيش أمريكية ،

وعلى أية حال فقد كانت صغيرة جدا إلى درجة لايمكنها معه انتاج أى شيء له استخدام عسكرى محتمل ..

وفى نفس ذلك العام ، اقتنص « شيمون بيريز » فرصة للحصول على شيء أكبر يمكن أن يأتى من فرنسا ، حيث تولت حكومة « جى موليه » الاشتراكية مقاليد السلطة فى إبريل .

اتخذ « موليه » خطا متشددا تجاه الجزائر وهكذا كان لديه الكثير مما يتفق مع وجهات نظر اسرائيل المعادية للناصرية .. وقد أسهم فى ذلك أيضا حقيقة أن اسرائيل لديها ادارة اشتراكية .. وكلما ذهب « بيريز « إلى فرنسا ، وقد كان ذلك معتادا .. ، فإنه يثير امكانية شراء مفاعل .. كان يتصرف كدبلوماسى ، ضابط مخابرات ، ومشترى أسلحة ..

لم تهتم « جولدا مائير » وزير الخارجية بهذا النشاط المفرط وكانت شكواها ضد « بيريز » أنه يحول وزارة الدفاع إلى وزارة خارجية مستقلة ثانية .

ولكن كان هناك ماهو أكبر من ذلك بالنسبة لاحتجاجها ، فمائير والحرس القديم لحزب « الماباى » الحاكم لم يكونوا يريدون أن تصبح اسرائيل دولة نووية ..

وعلى أية حال ، فإن « بيريز » كان يتمتع بمساندة كاملة من « بن جوريون » ، ولهذا كان « بيريز » قادرا على التصميم والمثابرة فى جهوده .. ومن إبريل ١٩٥٦ وحتى حملة سيناء فى اكتوبر ، أصبحت مطالبة « بيريز » بمفاعل نووى جزءا متمما للتواطؤ السرى بين الدولتين ..

جاءت نقطة التحول فى ٢١ سبتمبر عام ١٩٥٦ فى فيللا ريفية على مسافة مايقرب من مائة ميل جنوبى باريس ، تقع بين مزارع فرنسية .

اجتمع « بيريز » هناك مع « بورج — مونورى » وزير الدفاع الذى كان مشغولا بالتخطيط للهجوم على مصر .. وكان الفرنسيون مخدوعون بفكرة أن اسرائيل ستشارك ، ويأملون أن قوات اسرائيل ستقوم بالمهمة الشاقة لحسابهم وتكتسح الجيش المصرى بعيدا عن السويس ..

وفى ذلك اليوم الخريفى ، سعى « بورج ــ مونورى » لضمان المشاركة الاسرائيلية عن طريق الاستسلام فى النهاية لمطالب بيريز المتكررة فى المجال النووى .

وباسم الحكومة الفرنسية ، عرض وزير الدفاع على الاسرائيليين « قطعة حلوى » فى صورة مفاعل ..

وللمرة الأولى فى التاريخ الانسانى ، وافقت دولة على تقديم الخبرة الفنية النووية إلى دولة أخرى بدون الاحتياج إلى ضمانات أو القيام بعمليات تفتيش .

والآن فقط ، فهم « بن ــ ناتان » لماذا قد تم استدعاؤه من افريقيا ، وأعيد تعيينه فى وزارة الدفاع كممثل أوربى : لم يتم ارساله إلى باريس للمساعدة فى الاستعدادات لغزو السويس ، لكن للاسهام فى امتلاك مفاعل نووى اسرائيلى ثان . ولتعزيز حجج « بيريز » ، حاول « بن ــ ناتان » التأثير على وزارات فرنسية متعددة للحصول على مفاعل كبير ، وليس مجرد منشأة صغيرة مثلما قد يكون فى ذهن الفرنسيين ..

وحتى التعاون الوثيق فى اطار حملة السويس » سيناء لم يحل الموضوع النووى تماما .. فبحلول خريف عام ١٩٥٧ كان الوقت يمر بالنسبة لجماعات الضغط الاسرائيلية لأن الجمهورية الرابعة الفرنسية كانت على حافة الانهيار ..

كان الشعب قد ضاق بعدم الاستقرار السياسى وقد اثار غزو السويس الارتباك والحيرة وتصاعدت النداءات المتزايدة للعودة الى سلطة بطل الحرب العالمية الثانية الجنرال « شارل ديجول » ..

بعد الفوز بموافقة الادارة الاشتراكية ، خشى « بيريز » و « بن ــ ناتان » من أن خلفاء الحكومة المهتزة قد يرفضون المطلب النووى لاسرائيل .. ولحسن حظ الاسرائيليين ، فإن « بورج ــ مونورى » قد تقدم ليشغل منصب رئيس الوزراء ، وكان عازما على الوفاء بتعهداته قبل أن يغادر المسرح ومع ذلك ، كان بيريز لايشعر بالارتياح ، وقام بجولات مكوكية بين وزارات الحكومة فى باريس ليكتشف أن العديدين داخل البيروقراطية الفرنسية يمانعون فى منح الاسرائيليين مايريدون ..

كتب « بينو » وزير الخارجية إلى « بيريز » يقول أنه لاتوجد سابقة فى التاريخ

للعون الذى يطالب به ، وأن الأمريكيين سيقطعون العون النووى عن فرنسا اذا اكتشفوا ذلك ، وأن الروس قد يردون بتوريد أسلحة نووية إلى مصر .

وبالنظر إلى أن الوقت كان يمر بالنسبة للحكومة الاشتراكية احتج « بيريز » بانفعال بان اسرائيل تحتاج المساعدة لمواجهة المستقبل ، والمخاطر غير المنظورة ، وطلب « بينو » أن تقوم اسرائيل على الأقل بالتشاور مع فرنسا عندما يكون المفاعل جاهزا لبدء التشغيل ، ووافق بيريز .

وقد اقتنع وزير الخارجية بذلك .. اضطر « بيريز » لمواصلة اندفاعه لتجاوز الحواجز البيروقراطية ، فى مواجهة وزير الطاقة « بيير جيلومات » الذى أصر فى عناد على أن الاتفاق المقترح له عواقب دبلوماسية تتجاوز نطاق سلطاته وتدخل « بورج — مونورى » رئيس الوزراء وحسم المسألة باقتراع فى مجلس الوزراء فى الثانى من اكتوبر عام ١٩٥٧ ..

وفى آخر يوم له فى منصبه ، وبالتحديد قبل بضع ساعات من خسارته لافتراع على الثقة فى الجمعية الوطنية ، منح « مونورى » اسرائيل ماتريد .

وفى الثالث من اكتوبر ، وقع « بورج — مونورى » و « بينو » وزير الخارجية على وثيقتين بالغتى السرية مع « بيريز » و « بن — ناتان » : حلف سياسى يحدد اطار التعاون العلمى بين الدولتين ، واتفاق فنى لتوريد مفاعل نووى كبير طاقته ٢٤ ميجاوات إلى جانب الفنيين والخبرة الفنية اللازمة .. وأبرق « بيريز » هذه الانباء إلى « بن جوريون » فى رسالة شفرية من السفارة الاسرائيلية .. ورد رئيس الوزراء ببرقية إلى باريس يقول فيها :

« تهانئى على انجازك الهام »

وحتى بعد الحصول على المفاعل النووى كبير الحجم كان هناك قلق متنام بين العلماء الاسرائيليين وبعض كبار الساسة من أن سباق تسلح نوويا خطيرا يمكن أن يتبع ذلك ..

وعندما ناقش مجلس وزراء « بن جوريون » المسألة ، فإنه فعل ذلك بممانعة

كبيرة وبدون أى حماس تقريبا من جانب الوزراء الذين أحسوا أن المشروع سيكون باهظا للغاية ، وينطوى على مخاطر من الناحية الدبلوماسية .

واستقال سبعة من الأعضاء الثمانية فى لجنة الطاقة النووية الاسرائيلية احتجاجا فى نهاية عام ١٩٥٧ .

وادعوا أن هناك تأكيدا مبالغا فيه على الجانب العسكرى فى الامكانية النووية الناشئة لاسرائيل ، وقاموا بتشكيل لجنة عدم إضفاء الصفة النووية على صراع الشرق الأوسط وجرت مناقشات ساخنة خلف الأبواب المغلقة ، لكن الموضوع غلفته السرية إلى درجة أن المجادلات لم تنفجر أبدا فى العلن ..

ولم يبد أن هذا قد أزعج « بن جوريون » و « بيريز » فقد كان مازال لديهما البروفيسور « بيرجمان » كعضو وحيد فى لجنة الطاقة النووية الاسرائيلية ، وجعلاه مسئولا عن مشروع المفاعل وعلى أية حال ، فقد كانا مسرورين لأن عددا أقل من الناس هم الذين ستكون لهم الآن ميزة معرفة ماتفعله اسرائيل وقد اعتبر ذلك سر أسرار الدولة اليهودية وتعرض البرنامج النووى لإجراءات أمن أكثر من أى شىء آخر فى تاريخ دولة تنتشر فيها السرية بالفعل ..

ولعلمه أن المعرفة هى السلطة ، أصر « بيريز » على ابعاد البرنامج النووى عن أيدى الآخرين .. فقد كان هذا مشروعه الخاص الأثير .. لذلك لم يطلب من مؤسسة المخابرات القائمة ، كما كان متوقعا ، أن تهتم بالأمن والجوانب السرية للمفاعل ..

وبدلا من ذلك ، اعتقد ان اسرائيل القوة النووية تحتاج إلى وكالة مخابرات نووية فحتى ذلك الوقت ، كانت مسئولية الحصول على المعلومات الفنية والعلمية من الخارج من اختصاص وكالة المخابرات العسكرية والموساد .

وعلى أية حال ، أنشأ « بيريز » وكالة سرية جديدة للموضوعات النووية فى عام ١٩٥٧ ، وجعل المسئول عنها رجلا يدعى « بنيامين بلومبيرج » .. كان « بلومبيرج » ضابطا متمرسا ، بعد أن غادر « الكيبوتز » فى شمالى اسرائيل ليخدم الهاجاناه ، وهو الجيش السرى قبل الاستقلال وبعد حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ،

انضم الى « شين بيت » الذى كلفه بأن يكون كبير ضباط الأمن بوزارة الدفاع

واقترح « آموس مانور » ، مدير « شين بيت » بعد عام ١٩٥٣ ، أن « بلومبيرج » ينبغى أن يحصل على مرتبه من وزارة الدفاع من أجل التنظيم الادارى .. وفضل « بلومبيرج » أن يبقى على جدول مرتبات « شين بيت » ومن الواضح أنه رغب فى أن يشعر بسحر الانتماء إلى البوليس السرى بدلا من العادية النسبية لوظيفة فى وزارة .

وعلى أية حال ، كانت واجباته الحفاظ على الأمن داخل وزارة الدفاع ، وفى المصانع العاملة فى مشروعات العتاد الحربى ..

وكان المفاعل الكبير الجديد هو كذلك بالضبط : منشأة دفاعية .. بدا « بلومبيرج » الرجل المناسب لضمان أنه سيظل سرا ، ولمراقبة مدى جدارة العاملين فيه بالثقة والاعتماد .

وبالنسبة لمراقبة المثرثرين ، فإن « بلومبيرج » لم يكن يحتاج أبدا لمحاضرات أو ارشادات حول كيفية الالتزام بالصمت ، فقد كان هو نفسه الكاهن الأعلى للسرية .

وعندما بدأ وظيفته الجديدة ، بدعوة من بيريز ، انتقل الى مكتب متواضع فى وزارة الدفاع . ولإخفاء عمله ، اطلق على وحدته الجديدة اسم « مكتب المهام الخاصة » .

وبعد بضعة أعوام ، تغير الاسم إلى « مكتب الاتصال العلمى » أو SLB وقد أطلق المطلعون القليلون الذى يعرفون الوكالة ، اسم « لاكام » أو « Lakam » عليها .. وهى الكلمة المركبة من أوائل حروف الكلمات التى تكون اسمها باللغة العبرية .

وقد نقلت « لاكام » بعد ذلك من مبنى وزارة الدفاع إلى موقع سرى فى قلب تل أبيب وهو مبنى مكاتب فى شارع « كارلباخ » . ومدعوما تماما من جانب « بيريز » ، سعى « بلومبيرج » إلى إخفاء وجود الوكالة حتى عن الأفرع الأخرى لمؤسسة المخابرات .. حتى عن « إيسر هاريل » ..

ويتذكر « هاريل » ذلك قائلا فى غضب :

« لقد أنشئت لاكام من وراء ظهرى وبدون علمي .. كانت لدى شكوك ، وكنت أعلم ان شخصا ما يدور حول وزارة الدفاع متعاملا فى موضوعات عديدة ، وأنه عندما كان يرى أحدا من الموساد فإنه يعمد إلى العبور إلى الجانب الآخر من الشارع .. لقد كانت جهازا غامضا تشكل بأسلوب تامرى » .

وبلغ الخداع إلى حد أنه حتى « بن جوريون » لم يكن يعلم عن إنشاء الوحدة التجريبية التى نمت منها لاكام » .

شعر « بيريز » أنه لايحتاج إلى إذن من « هاريل » لإنشاء الوكالة الخاصة للأمن النووى ، حتى ولو كان « هاريل » رئيس الأجهزة الأمنية الموثوق فيه من جانب « بن جوريون » .

وأهم من كل شيء ، فإن المفاعل الجديد من فرنسا كان أكثر سرية من أية موضوعات سابقة بالغة السرية ..

ومهما كان الأمر ، فمن الصعب الاعتقاد بأن رئيس الوزراء لم يكن يعلم شيئا عن « لاكام » لأن « بن جوريون » كان القوة المرشدة خلف المشروع النووى ، واهتم اهتمام شخصيا بالصناعات الأخرى المتعلقة بالدفاع فى اسرائيل ..

وقد استخدمت ، لاكام فى نهاية المطاف لمساعدة هذه الصناعات أيضا ..

لم ينزعج « بلومبيرج » من جراء حسد الآخرين أو شكاواهم .. وكان همه الوحيد أن ينأى بمشروع المفاعل عن أية عمليات لتسريب المعلومات ..

ولم تكن تلك مهمة سهلة ، مع وجود مئات الفنيين ومستشارى الانشاءات الفرنسيين العاملين فى إسرائيل لبناء المنشأة الجديدة كان الموقع المختار فى صحراء النقب ، وسط التيه ، فى منتصف الطريق بين البحر الميت وبئر سبع ، عاصمة النقب ، التى أشارت اليها التوراة بوصفها واحة استمتع بالعيش فيها النبى ابراهيم .

تحدثت عقود العمل الفرنسية عن مناخ دافىء وظروف صحراوية ، الأمر الذى لم يفد إلا قليلا فى إخفاء موقع المشروع النووى ..

لم يكن « بلومبيرج » فقط الذى أصبح قلقا بشأن الأمن فى النقب ، بل أيضا المخابرات الفرنسية ..

فلم يثق الفرنسيون ثقة كاملة فى الاسرائيليين المعروفين بطبيعتهم لحب الثرثرة ، وبعثوا بعملائهم الخاصين للحفاظ على السرية ولاصطياد أى تسرب للمعلومات .

وقد تظاهر جاسوس من باريس بأنه قس واختبر عمدة بئر سبع بسؤاله عن التطور الجارى فى النقب ، وأبلغ العمدة القس الزائر ، وهو فخور بالازدهار الجارى فى صحرائه بأكثر من طريق ، عن المفاعل النووى الفرنسى الذى يجرى بناؤه على مقربة .

وبعث القس ــ الجاسوس ببرقية خطيرة جدا إلى مقر قيادته ..

ولإخفاء ثلاثة أعوام من الانشاءات الكبيرة بالقرب من ديمونة بلدة المهاجرين استخدمت اسرائيل رواية للتغطية اقترحها « بلومبيرج » ، ومفادها أن مصنعا للنسيج يجرى بناؤه هناك .. وبينما حمى رئيس لاكام السر على الأرض ، فإن عاصفة متجمعة نشأت بطريق الجو ..

فخلال مهمة استطلاعية على ارتفاع عال فى عام ١٩٦٠ ، صورت طائرة أمريكية نفاثة من طراز « ى ــ ٢ » المنشأة ولم يجد محللو المخابرات الأمريكية أية متاعب فى التعرف على غرضها الحقيقى .. ومنذ تلك اللحظة ، تشمم جواسيس أمريكيون الأخبار حول ديمونة ، وأصبح زعماء الولايات المتحدة السياسيون قلقين ..

واستنادا إلى معلومات سرية من مصادر فى واشنطن ذكرت الصحافة الأمريكية والبريطانية أن اسرائيل تنتج قنبلة نووية ..وطالبت الحكومة الأمريكية الاسرائيليين بالحقيقة الكاملة ..

وكانت هناك أيضا ضغوط من الرئيس « ديجول » فى باريس .. فقد بدأ الموقف الفرنسى تجاه الشرق الأوسط فى التغير فور أن تولى مقاليد السلطة فى عام ١٩٥٨ .

وهدف ديجول إلى التصالح مع العالم العربى حتى أنه عرض الاستقلال على الجزائر

وهى تغييرات فى السياسة تمت على حساب اسرائيل . وبالإضافة إلى ذلك ، تشكك فى أن مفاعل ديمونه موجه للاستخدامات العسكرية ، وقد ضايق ذلك الرئيس الفرنسى بدرجة كبيرة ..

أمر « ديجول » وزير خارجيته ، فى مايو ١٩٦٠ ، بابلاغ السفير الاسرائيلى لدى باريس بأن فرنسا لن تورد مزيدا من اليورانيوم إلى ديمونه .. لم يكن الرئيس يريد أن تنتج اسرائيل البلوتونيوم فى مفاعلها ، لأن ذلك يمثل خطوة صوب تصنيع قنبلة نووية ..

وواصل « شيمون بيريز » المحب لفرنسا تفاؤله ، وعلى مدى أسابيع عديدة رفض التصريح بأن الجسر فوق البحر الأبيض المتوسط قد أصبح مزعزعا جدا ..

وأخيرا تم الاعتراف بالخطر الذى يواجه أكثر مشروعات الدفاع سرية فى اسرائيل وطار « بن جوريون » إلى باريس ، دون مهلة كافية للاستعداد ، ليرى « ديجول » فى ١٣ يونيو ١٩٦٠ ..

وفى قصر الاليزيه ، سأله الرئيس الفرنسى بفظاظة : « لماذا تحتاج اسرائيل لمفاعل نووى على الاطلاق ؟ » ووعد « بن جوريون » بأنه سيكون فقط للاستخدامات السلمية ، وأنه لن يتم إضافة أية منشأة إلى ديمونة لاستخلاص البلوتونيوم الذى يصلح لصنع أسلحة نووية ..

وعاد « بن جوريون » إلى اسرائيل ليكتشف أن الضغط من فرنسا ، الولايات المتحدة والصحافة الأجنبية مازال يتنامى ، فأعد رئيس الوزراء أول تأكيد علنى بأن اسرائيل قد لحقت بالعصر النووى ..

ومن على منصة الكنيست فى ٢١ ديسمبر ١٩٦٠ أعلن أن اسرائيل تبنى مفاعل ابحاث نوويا ثانيا ، وأكد لبرلمان اسرائيل أنه للاغراض السلمية فقط .

كان ذلك هو الاعلان الذى سعى « ديجول » للحصول عليه .. وهكذا وافق الفرنسيون الآن على ارسال الأجزاء الاخيرة المطلوبة لاستكمال عملية الانشاء ..

للحفاظ على العلاقة الهشة مع فرنسا ، كان الاسرائيليون مستعدون لفعل حتى

مالا يمكن أن تفعله أية مؤسسة مخابرات إلا نادرا : مثل « حرق » مصدر سرى ..

ففى ١٦ مارس ١٩٦١ ، علم الكولونيل « عوزى ناركيس » الملحق العسكرى بسفارة اسرائيل لدى باريس بمؤامرة لقتل الرئيس ديجول » .

وكان مصدر المعلومات هو « كلود آرنود » وهى ينتمى إلى طائفة « الجيزويت » وكولونيل سابق فى المقاومة الفرنسية ضد النازى ..

وبعد الحرب ، أصبح ضابطا فى وكالة المخابرات الخارجية لفرنسا ، لكنه استاء من سياسات « ديجول » فى الجزائر ..

استقال « آرنود » من المخابرات ، وانضم الى طائفة كاثوليكية غامضة تقوم بخدمات التجسس للفاتيكان .

وبوصفه معروفا بأنه « الرجل ذو الألف وجه » ، تصادق « آرنود » مع الكولونيل « ناركيس » وبدأ يتبادل المعلومات مع الاسرائيليين ..

ولم يتضح أبدا تماما للاسرائيليين ، دافع « آرنود » لاعطاء « ناركيس » معلومات سرية حول المؤامرة ضد « ديجول » .

خان « آرنود » رفاقه أعضاء طائفته الكاثوليكية السرية عندما ذكر أنهم يحاولون تجنيد مسلح عربى لقتل الرئيس .

وكان « آرنود » وزملاؤه اليمينيون يعارضون انسحاب القوات الفرنسية من الجزائر ، لكنه من الواضح اعتبر الاغتيال مسألة محظور الخوض فيها ..

ومن المحتمل أنه كان من الملائم بدرجة كافية بالنسبة له أن يتم الامساك بالقاتل المزمع وهكذا يتم توجيه اللوم إلى الجزائريين . وأحبطت المؤامرة فى مرحلة مبكرة جدا ، على أية حال ، ولم يتمكن « آرنود » حتى من حماية سريته الخاصة .

فقد كان « ناركيس » سريعا فى نقل المعلومات بواسطة برقيات شفرية عاجلة إلى وزارة الدفاع فى تل أبيب ، وكانت مهمة وكالة المخابرات العسكرية « أمان » تحليل مثل تلك التقارير ..

وتناقش رؤساء المخابرات والساسة حول ماذا ينبغى عمله .

ويتذكر « إيسر هاريل » أن « شيمون بيريز » ، والجنرال « زفى تسور » رئيس أركان الجيش وافقا على توصية « ناركيس » بألا تحذر اسرائيل « ديجول » لأنه لايوجد تأكيد على صحة المعلومات ..

وفى تطور غريب ، بعث « ناركيس » برسالة برقية أخرى لحث زملائه على عدم التصرف مثل « يهوذا الاسخريوطى » الذى خان المسيح ، وهى فكرة شاذة ، واضعا فى الاعتبار أن القاتل المزمع سيكون من الصعب عليه أن يصبح صديقا لاسرائيل

كان « هاريل » قد ضاق منذ زمن بعيد بأن وكالة المخابرات العسكرية « أمان » تسيطر على العلاقة برمتها مع فرنسا ، وكان ذلك أحد الأسباب التى جعلته يتخذ موقفا معارضا للجيش . فأصر « هاريل » على أنه يتعين إخطار الفرنسيين بالمؤامرة .. وحسم « بن جوريون » المسألة لصالحه ..

تم ابلاغ « ديجول » بخطة القتل ، وإن كان ذلك قد أرجىء لمدة أسبوعين ، لكنه عندما علم طالب بمعرفة مصدر المعلومات ..

ومن أجل الحفاظ على العلاقات الطيبة ، وافقت اسرائيل على أن تقول كل شىء ..

ألقى الفرنسيون القبض على الكولونيل « أرنود » واستجوبوه ، لكنهم عجزوا عن اثبات أية اتهامات ، وهكذا تم اطلاق سراحه . وغضب « أرنود » من الاسرائيليين ، وفقدت « أمان » بائعا ثمينا للمعلومات السرية .. كانت العلاقة السرية بين الحكومتين أكثر أهمية بكثير ..

ومع تعهد الفرنسيين بشكل محدد بتوريد المواد المتبقية اللازمة لاستكمال مفاعل ديمونه ، فإن الأمر كان كما هو معتاد بالنسبة لاسرائيل على الجبهة النووية ، مجرد علاقة عمل .. أو لأنها ستصبح علاقة أكثر سرية كما هو معتاد تقريبا .

يمكن لمفاعل الماء الثقيل ، فى ديمونه ، وطاقته ٢٤ ميجاوات ، أن ينتج كمية

كافية من البلوتونيوم على الأقل لصنع قنبلة واحدة فى حجم قنبلة هيروشيما كل عام ، وتبلغ قوتها ٢٠ كيلو طن ، لكن السؤال الحاسم تحدد فى عما إذا كان الفرنسيون سيساعدون اسرائيل أيضا فى الحصول على مصنع لاعادة المعاملة قادر على إستخراج البلوتونيوم من قضبان الوقود المستخدم فى المفاعل أم لا ..

وقد أشار « فرانسوا بيران » ، ابن عالم حاصل على جائزة نوبل ورئيس لجنة الطاقة النووية الفرنسية من ١٩٥١ إلى ١٩٧٠ ، إلى أن اعادة المعاملة كانت جزءا غير مباشر من الاتفاق الأصلى عام ١٩٥٧ .. ورفضت لجنته ، فى ظل السياسة الجديدة لديجول ، تزويدا اسرائيل بمصنع لإعادة المعاملة . لكنها لم تعرقل محاولات اسرائيل للحصول على مصنع من الأماكن الأخرى ..

وسمحت لجنة « بيران » أيضا لشركة خاصة اسمها « سان جوبان » ، والتى تورد تلك المصانع إلى المفاعلات العسكرية لفرنسا ، ببيع تكنولوجيتها وخططها لمشروع ديمونه ..

وقد قصدت رئاسة ديجول ، بصفة عامة ، أن تواجه اسرائيل مهمة أكثر صعوبة فى الحصول على ماتحتاجه للتنمية النووية ..

وقد قبلت « لاكام » ، التى يرأسها « بلومبيرج » ، التحدى بتوسيع نطاق نشاطاتها .

فلم تعد مهتمة فقط بأمن المشروع النووى بل أصبحت « لاكام » أيضا مشتركة فى تحديد الأجزاء والمواد وشرائها لحساب ديمونه ..

وقد زادت السرية ، التى تغلف هذه المعاملات والصفقات ، من التعاون مع الوكالات السرية الأخرى فى اسرائيل .

وبدأت الجراح القديمة فى مؤسسة المخابرات فى الالتئام ..

وأدخل « بلومبيرج » عادات العمل الخاصة بوكالة سرية محترفة : مثل الفصل والتخصص والقدرة على العمل تحت غطاء فى الميدان .

وعلى الرغم من أنه لم يكن عضوا فى لجنة « فاراش » التى تضم رؤساء أجهزة

المخابرات ، إلا ان وكالته « لاكام » كانت بالطبع جزءا من مؤسسة المخابرات .

كان الغطاء الذى اختارته « لاكام » واقعيا وليس خيالا علميا .. حيث تم ارسال العاملين فى الوكالة بوصفهم ملحقين علميين فى السفارات الاسرائيلية الكبيرة فى اوربا والولايات المتحدة ويقدمون تقاريرهم مباشرة إلى مقره الرئيسى فى تل أبيب ، وليس من خلال وزارة الخارجية كما هو معتاد بالنسبة للدبلوماسيين .

وطلب من المستشارين العلميين شراء كل مطبوعة متاحة فى هذا المجال ، وإقامة علاقات اجتماعية ومهنية مع العلماء فى الدول التى يعملون فيها ..

وطلب من العلماء الاسرائيليين الذين يسافرون إلى الخارج فى إجازات أو مشروعات بحثية ، أن يقدموا خدمات لوكالة « لاكام » على الرغم من أنهم لم يعرفوا عادة الجهة الطالبة بالتحديد ..

وعلى أية حال ، فمن أجل حكومتهم كانوا يفتحون عيونهم على أحدث التطورات فى مجالاتهم ، ويحصلون على الكتيبات والخطط والمطبوعات .

ولم تكن هناك حاجة لممارسة الضغط لاقناع معظم العلماء ، فمؤسساتهم تتبع الحكومة الاسرائيلية ، والجامعات مرتبطة على نحو وثيق بمؤسسة الدفاع أو تتمتع بتمويل حكومى .

والعلماء مثل معظم الاسرائيليين ، يربون على حب الوطن ..

وفى حالات قليلة ، طلب من اسرائيليين يقومون بأبحاث فى الخارج أن يسرقوا موادا علمية .. وقد حدث هذا فى الغالب بأسلوب يتسم بالهواية ، الأمر الذى يعرض كلا من العلماء وأولئك الذين يعملون كضباط حالة لهم للخطر .. وضباط الحالة هم بصفة عامة الملحقين العلميين الذين يتمتعون بحصانة دبلوماسية تحول دون مقاضاتهم .

ويحكى عالم اسرائيلى كبير ، كان يدرس فى معهد أوربى غربى له مكانته ، بأنه قام سرا وبانتظام بتصوير وثائق عديدة .. وارسالها إلى الوطن ومرة كل أسبوع ، كان الملحق العلمى فى السفارة الاسرائيلية يقدم إليه لأخذ الوثائق .

وعلى أية حال ، فإن الملحق وهو على مايبدو أحد رجال لاكام ، أظهر عدم احساسه بالمسئولية إلى حد غير معقول ..

فقد كان يأتى متأخرا عن مواعيد اللقاءات وفى بعض الأحيان ، لايظهر مطلقا .. وكان الاسرائيليان محظوظين لأن الدولة المضيفة لم تتشكك فى شىء ..

وكان من المهم ألا يتم اكتشاف النطاق العريض لمثل هذا التجسس ، لأن اسرائيل كانت تركز كثيرا من طاقتها على صنع اصدقاء فى الخارج ..

لقد جعلت حملة سيناء فى عام ١٩٥٦ اسرائيل موضعا للخوف والاحترام .. فحتى بمجرد الأسلحة التقليدية وحدها ، اكتسح الاسرائيليون المصريين جانبا بسهولة مع أن المصريين كان لديهم أكبر الجيوش العربية .

وعلى الرغم من أن همسات القوة النووية وغزو السويس أدت إلى تدمير الصورة الطيبة لاسرائيل وسط الدول النامية وأدت الحقيقة التى مفادها أن الدولة اليهودية أصبحت قوة عظمى إقليمية إلى تحويل اسرائيل إلى قوة يحسب حسابها ، فهى شريك يتعين التودد إليه ، وصديق مرغوب فيه فى منطقة استراتيجية لكنها غير مستقرة إلى حد سيء السمعة .

هدفت اسرائيل إلى إقامة صداقات فى العلن ، كلما كان ذلك ممكنا ، لكنه أصبح من الواضح بسرعة أن الأجانب يفضلون الروابط السرية .

وهكذا فإن معظم العمل الدبلوماسى يتسم بالدقة والحرج ولايمكن تركه للعمل العلنى للخارجية الاسرائيلية .

وتولت مؤسسة المخابرات المهمة السرية لتشكيل تحالفات للاسهام فى ضمان الأمن القومى ..

الفصل الرابع

تحالفات استراتيجية

● قال « ديفيد بن جوريون » لمدير وكالة المخابرات المركزية : « نحن مهتمون جدا بالتوصل إلى أتفاق تعاون معكم » حدث هذا فى مايو ١٩٥١ ، فى المقر القديم لوكالة المخابرات المركزية الذى كان يقع فى مواجهة نصب « لنكولن » التذكارى فى العاصمة واشنطن ..

فقد تصادف أن رئيس الوزراء كان فى الولايات المتحدة فى زيارة خاصة ، وهى أول زيارة من نوعها بعد أن انتصرت اسرائيل فى حرب الاستقلال ..

كان « بن جوريون » يسهم فى جمع الأموال لبلاده بتوقيعه شخصيا على المبيعات الأولى لسندات اسرائيل فى الولايات المتحدة . وقد استخدم الزيارة فى أغراض دبلوماسية أيضا .

اجتمع « الرجل العجوز » مع الرئيس « هارى ترومان » وتم ترتيب مأدبة غداء سرية له مع مدير وكالة المخابرات المركزية الجنرال « والتر بيديل سميث » ومساعدة « ألن دالاس » .

وحتى قبل أن يغادر « بن جوريون » اسرائيل ، فإن « روفين شيلوح » الذى كان مازال رئيسا للموساد ، اقترح أن يدعو رئيس الوزراء إلى تعاون مخابراتى بين البلدين ..

كانت فكرة بعيد المدى والأثر : فاسرائيل ، التى تحكمها الأحزاب اليسارية ،

كانت تعتبر دولة اشتراكية كما اعتبر الكيبوتز ، المزرعة التعاونية الاسرائيلية الفريدة ، تجسيدا للحلم الشيوعى ، واقتصاد اسرائيل أيضا كان مرتكزا على مبادىء الملكية العامة والجماعية لمعظم وسائل الانتاج ..

علاوة على أن القاموس القومى الاسرائيلى كان يعتبر كلمتى « الرأسمالية » و « السوق الحرة » ، من بين الكلمات البغيضة والملوثة ..

ولكن المزعج بصفة خاصة ، من وجهة نظر أمريكية ، كان الانطباع والاعتقاد بأن المشاعر الاسرائيلية تميل إلى السوفيت ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى العون الهام الذى قدمته الكتلة الشرقية فى الأيام الأولى للدولة الجديدة .

فلولا الخطاب المؤيد لإقامة دولة يهودية الذى ألقاه « اندريه جروميكو » السفير السوفيتى لدى الأمم المتحدة ، ربما لم يصدر القرار رقم ١٨١ والذى يقضى بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما يهودية والاخرى عربية ..

كما قامت تشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ، بأوامر من موسكو ، بتقديم الأسلحة إلى اسرائيل وتدريب الطيارين الاسرائيليين على أراضيها . وأكثر من ذلك ، فإن استعداد رومانيا والمجر وبولندا للسماح لمواطنيها اليهود بالهجرة ، كان له تأثير هام على دولة اسرائيل التى تعانى من فقر فى مواردها البشرية ..

نحى « شيلوح » معتقدات بقية المؤسسة جانبا بحثه على أن تتخلى اسرائيل عن توجهها الموالى للسوفيت ، وأن تستند سياستها الخارجية بدلا من ذلك إلى روابط قوية مع أمريكا .

كان هدفه النهائى ترتيب معاهدة دفاع مع واشنطن ، وأن تنضم اسرائيل الى منظمة حلف شمال الأطلنطى التى تقودها أمريكا . وكخطوة أولى لتحقيق ذلك ، اقترح إقامة اتصالات بين وكالة المخابرات المركزية وبين الموساد .

لم يكن « بن جوريون » وكبار المسئولين فى الحكومة يعتقدون أن هناك فرصة كبيرة لقبول اقتراح « شيلوح » ، لكنهم شعروا أنها محاولة جديرة ببذل الجهد فى سبيلها ..

وقد اندهش « بن جوريون » عندما وافق « بيديل سميث » و « دالاس » فى سرور على الفكرة .. لم يكن ذلك هو الاجتماع الأول بين الجنرال الأمريكى وبين « الرجل العجوز » ، فقد التقيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، عندما زار « بن جوريون » الناجين من الإبادة فى المخيمات الألمانية للأشخاص المشردين ..

وقد رافق « بيديل سميث » ، الذى كان آنذاك رئيسا لأركان الجنرال « إيزنهاور » قائد القوات المتحالفة فى أوربا ، الزعيم الصهيونى فى جولته التفقدية .

خلفت إبادة ستة ملايين من اليهود ، فى أوشفيتز ، تريبلينكا ، وداتشو وغيرها من معسكرات الموت النازية ورؤية مئات الألوف من اللاجئين الذين نجوا ، انطباعا لاينمحى لدى كثير من الجنود الأمريكيين الذين خدموا فى أوربا خلال الحرب .

وكانت اسرائيل ، من جانبها ، واعية تماما بكيفية اقحام ذكرى « الهولوكوست » ، عندما يبدو الابتزاز العاطفى أمرا ضروريا .

فالتعاطف والاحساس بالذنب اللذين يشعر بهما بعض قادة الغرب يمكن أن يكون مفيدا عندما تطلب الدولة اليهودية عونا سياسيا وعسكريا ..

وشدد الدبلوماسيون الاسرائيليون مرارا على ضرورة أن يصبح بلدهم قويا لكيلا تحدث ابدا إبادة جماعية أخرى . كان ذلك استغلالا محدودا لأهوال حقبة الحرب .. الأهوال التى لامثيل لها فى التاريخ الانسانى ، لكن ذلك حقق هدفه .

ومن بين الذين اقتنعوا بذلك « بيديل سميث » و « دالاس » . وفى واشنطن ، توصل « بن جوريون » إلى تفاهم مع رئيس وكالة المخابرات المركزية لبدء المباحثات بسرعة للمضى قدما بالتعاون .. وبعد شهر ، وبالتحديد فى يونيو ١٩٥١ ، تم ارسال « شيلوح » إلى واشنطن لبحث التفاصيل النهائية لاتفاق رسمى لكنه سرى .

عقد « شيلوح » اجتماعات مطولة مع « بيديل سميث » ، و « ألن دالاس » ، ومع « جيمس انجلتون » بصفة خاصة ..

لقد تأثر « أنجلتون » على نحو عميق بالابادة الجماعية لليهود على يد النازى ، وكان رجلا يتابع بلا كلل أى موضوع يستأثر باهتمامه بعد طفولة غير سعيدة فى

« أريزونا » ، حيث كان المفترض أن المناخ سيساعده على التغلب على مرضه بالسل ، انتقل « انجلتون » إلى ايطاليا فى عام ١٩٣٣ وهو فى السادسة عشرة من عمره ، عندما حصل أبوه على وظيفة فى ميلان .. وبعد بضعة أعوام فى الخارج ، عاد « أنجلتون » إلى الولايات المتحدة للالتحاق بجامعة « ييل » ، حيث أصدر مجلة أدبية ساهم فيها مجموعة من المبرزين ومن بينهم « عزرا باوند » ، و « ارشيبالد ماكليش » وفى عام ١٩٣٤ ، جنده أحد مدرسيه فى « ييل » للعمل فى إدارة مكافحة الجاسوسية التابعة لمكتب الخدمات الاستراتيجية « **OSS** » الذى كان مشهورا بأنه آهل بالشواذ والمثقفين .. وكانت الوظيفة محبوكة على مقاس « أنجلتون » ، فهو يمتلك ذهنا ينزع إلى الشك والارتياب ، يبحث دائما عن المعانى الخفية التى تتجاوز تلك المعانى التى تلتقطها العين المجردة .

خدم « أنجلتون » فى مكتب الخدمات الاستراتيجية فى بريطانيا وإيطاليا ، حيث قام بتجنيد المخبرين وكشف النقاب عن دوائر التجسس النازية والفاشية .

وكان عملاء وكالة الهجرة من بين أفضل مصادر معلوماته فى ايطاليا ، حيث كانوا متورطين فى تهريب اليهود إلى فلسطين ..

وقد أعجب « أنجلتون » بصفة خاصة بمقدرة الجماعات السرية اليهودية وممثليها فى أوربا .. وكان من بينهم « تيدى كوليك » ..

وعلم « أنجلتون » ان بعض الجهود الأولى لدعم الروابط بين الحركة السرية الصهيونية وبين جواسيس أمريكا تم احباطها من جانب البريطانيين ، الذين كانوا مازالوا يحكمون فلسطين .

وعندما توصل « شيلوح » ووكالة المخابرات المركزية إلى اتفاق التعاون فيما بينهما فى عام ١٩٥١ ، شعر « أنجلتون » بالسرور : لقد أرسى الاتفاق الاساسى لتبادل المعلومات الاستراتيجية بين وكالة المخابرات المركزية وبين الموساد ، وألزمت الجانبين بتقديم تقارير إلى بعضهما بعضا حول الموضوعات ذات الاهتمام المشترك ..

وتعهدت اسرائيل والولايات المتحدة بألا تتجسسا على بعضهما البعض ، وإلى

تبادل ضباط الاتصال الذين سيتمركزون فى سفارتى الدولتين فى واشنطن وتل أبيب .

وعلى أية حال ، لدعم اتفاق التعاون كان لابد للجانبين من التغلب على عقبة كبيرة محددة ..

فأنجلتون ، الذى تمت ترقيته رئيسا لمكافحة التجسس فى وكالة المخابرات المركزية ، كان معارضا للشيوعية بشكل مرضى ..

وعلى الرغم من إعجابه بالعملاء السريين اليهود فى أوربا ، إلا أنه اعتقد أن اسرائيل ، بقيمها الاشتراكية وروابطها مع الكتلة السوفيتية ، تشكل مخاطرة امنية كبيرة ..

شعر « أنجلتون » بالقلق من أن تمكن هجرة اليهود من أوربا الشرقية ، الجواسيس السوفيت من اختراق اسرائيل ، واستخدامها كمنصة لاطلاق الجواسيس إلى الغرب ..

ويمكن للسلطات الشيوعية بسهولة ابتزاز اليهود الذين يتوجهون إلى اسرائيل عن طريق التهديد بإيذاء أقاربهم الذين تركوهم خلفهم ..

وأشارت مذكرة لوزارة الخارجية الأمريكية إلى أن اختلاط الأجناس الأوربية فى فلسطين يقدم فرصة فريدة للتغلغل السوفيتى فى منطقة ذات أهمية استراتيجية كبرى ..

ونصحت المذكرة الملحقين العسكريين الأمريكيين لدى اسرائيل بضرورة ملاحظة النشاطات السوفيتية وضرورة أن يكونوا معتادين تماما على التاكتيكات السوفيتية ..

واعتقدت واشنطن أيضا أن الروس يخترقون جيش إسرائيل ..

كان « شيلوح » واعيا بمخاوف الأمريكيين ولم يقدم وعودا فحسب فى مواجهة ذلك فقد أقنعهم « شيلوح » بأن مؤسسة المخابرات الاسرائيلية تنتابها بالفعل نفس المخاوف .

وفى أواخر عام ١٩٥١ وبينما لايزال « شيلوح » رئيسا للموساد ، أبلغ وكالة المخابرات المركزية أن وكالات الأمن الاسرائيلية متيقظة .

وقد كانت وكالة الهجرة و « شين بيت » التى يرأسها « إيسر هاريل » ، تقومان بالفعل بفحص دقيق للمهاجرين الجدد الذين يصلون من وراء الستار الحديدى ..

لكن ما أقنع « انجلتون » ووكالة المخابرات المركزية فى النهاية هو قناعة اسرائيل بأنه لاينبغى الخشية من المهاجرين الجدد لكن يتعين استخدامهم .

فقبل أى شيء ، فإن اليهود قدموا من مختلف مناحى الحياة ، ولديهم معرفة حميمة بالجيش ، والعلوم ، الاقتصاد ، والسياسات فى الاتحاد السوفيتى.

وبدأت اسرائيل تقدم هذه البيانات إلى الولايات المتحدة ، ووافقت حتى على المخاطرة ببعض عملائها فى الكتلة السوفيتية ، بسماحها لوكالة المخابرات المركزية باستخدامهم ..

وعلى الرغم من الجهود من جانب اسرائيل لاسترضاء الأمريكيين بأوراق اعتماد قوية لمناهضة للشيوعية ، إلا أن عادات مؤسسة المخابرات الأمريكية استمرت على حالها ..

وكان أسوأ سيناريو يدور فى أذهان صائدى الجواسيس فى أمريكا ، هو قيام العملاء السوفيت بشق طريقهم إلى المواقع الرئيسية للسلطة والنفوذ فى الغرب ؛ رؤساء وزارات ، رؤساء ، ورؤساء لأجهزة المخابرات .

كان « آموس مانور » ، رئيس « شين بيت » ، ملائما للصورة المخيفة التى رسمها الأمريكيون المتشككون ، وذلك بسبب أصوله الأوربية الشرقية ، وصعوده السريع بعد وصوله إلى اسرائيل ..

اعتقد مكتب التحقيقات الفيدرالية أنه من المرجح أن يكون خدعة سوفيتية .. وحاول مكتب التحقيقات الفيدرالية منع « مانور » حتى من زيارة الولايات المتحدة فى مهمة عمل رسمية .

لكن وكالة المخابرات المركزية ، التى تعتبر مكتب التحقيقات الفيدرالية والعاملين

فيه مجرد رجال شرطة وليس جهازا خطيرا للأمن المحلى ، نفت هذه المزاعم وتبنت زيارة « مانور » من أجل سهولة الاتصال ..

وبعثت إدارة مكافحة الجاسوسية ، التى يرأسها « أنجلتون » بخبرائها إلى اسرائيل لتقييم خطر التغلغل السوفيتى .. وقد أثارت كل مهمة مشكلات لاسيما بالنسبة لرئيس مركز وكالة المخابرات المركزية فى السفارة الأمريكية لدى تل أبيب .

اكتشف رئيس مركز الوكالة ، الذى كان يشعر بأنه الخبير بالأحداث والشخصيات المحلية ، أن الزيارات من المقر الرئيسى للوكالة تبذر الفوضى والشكوك والشائعات فى جميع الاتجاهات ففى مناسبة واحدة على الأقل ، أثار زائر من وكالة المخابرات المركزية ، كان يقصد الاعراب عن القلق بشأن عميل كبير معين فى المخابرات الاسائيلية ، الارتباك فى صفوف الموساد و « شين بيت »

وكشف النقاب عن شكوكه للوكالة الخطأ . ولم يؤد هذا الى إثارة ارتباك رئيس مركز وكالة المخابرات المركزية فقط ، بل أدى إلى احراج وإرباك واغضاب اعضاء عديدين فى مؤسسة المخابرات الاسرائيلية وبصفة خاصة المتغطرس « إيسر هاريل »

فهنا كان الأمريكيون يقتحمون حلبته الخاصة ويشككون فى فعاليته ، ويمضون فى طريق قد ينتهى عند بابه هو .. والتشكيك فيه شخصيا .

ومهما كان الأمر ، فقد أحس « هاريل » أن الأمريكيين ليسوا مهتمين حقا بالتعاون الثنائى . فهم يريدون ، على حد قوله ، نقل كل شيء تعلمه المخابرات الاسرائيلية إليهم دون تبادل حقيقى للمعلومات .

وتشكك « هاريل » أيضا فى أن وكالة المخابرات المركزية قد تنظم انقلابا فى اسرائيل ، على غرار العملية السرية التى قامت بها الوكالة فى جواتيمالا فى عام ١٩٥٣ ولكن « شيلوح » تبنى كالمعتاد وجهة نظر مختلفة ، وحتى بعد أن ترك الموساد عمل مستشارا خاصا لبن جوريون لشئون الاستراتيجية الإقليمية والدولية .. وأقنع « بن جوريون » بأنه يتعين دفع الثمن فى مقابل التحالف مع الولايات المتحدة ، وبالفعل تم استجواب المهاجرين الجدد وتقديم المعلومات إلى الأمريكيين إلى أن تم الفوز بثقة وكالة المخابرات المركزية .

زود الأمريكيون اسرائيل بالفعل بمعدات تكنولوجية خاصة من أجل توفير احتياجات المخابرات الاسرائيلية ، ومن بينها أجهزة تصنت ووسائل الكترونية لحل الشفرة . ولمراقبة التعاون ، تم تعيين إثنين من أمهر رجال المخابرات فى واشنطن ، وكانا حليفين لشيلوح وهما : الكولونيل « حايم هيرتزوج » الرئيس السابق لوكالة المخابرات العسكرية والذى أصبح مجرد ملحق عسكرى ، وصديق « شيلوح » الحميم « تيدى كوليك » الذى أصبح مستشارا فى السفارة الاسرائيلية كان « كوليك » لديه خبرة بالفعل ، قبل ١٩٤٨ ، فى شراء الأسلحة للصهاينة وفى تنظيم شبكات المتعاطفين الأمريكيين .

وفى تلازم مع الجهد الرامى لأن تصبح حليفا للولايات المتحدة ، قامت المخابرات الاسرائيلية أيضا بإقامة استراتيجية أقرب إلى الوطن .

لقد تعلم « شيلوح » خلال السنوات الأولى لقيام دولة اسرائيل أنه من المثير للدهشة أن الاتصالات السرية يمكن إنشاؤها مع الدول المجاورة التى تعتبر معادية من الناحية الرسمية ..

وبوصفه الدبلوماسى السرى الأكبر لبن جوريون ، شارك « شيلوح » بنفسه فى اجتماعات مع الملك عبدالله عاهل الأردن ومع رئيس وزرائه ، وكبار المسئولين الأخرين ، ورجال الجيش ..

وتوصلوا إلى تفاهم ضمنى تم بموجبه اجهاض مشروع قيام الدولة الفلسطينية ، وفقا لاقتراع الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ، قبل مولدها ، حيث اجتاحت اسرائيل جانبا من الأرض العربية بينما استولى جيش الملك عبدالله على الضفة الغربية للأردن فى عام ١٩٤٨ .. وعلى النقيض من مصر والدول العربية الأخرى ، لم تكن هناك أية محاولة جادة من جانب الأردن لتدمير اسرائيل ..

ولم يصبح الملك عبدالله ، عميلا ذا نفوذ فقط بالنسبة لاسرائيل فى العالم العربى ، لكنه كان أيضا عميلا مدفوع الأجر ..

فقد حصل من اتصالاته اليهودية على عشرة آلاف دولار أمريكى مقابل خدماته ولولا اغتياله فى يوليو عام ١٩٥١ ، لقام بتوقيع معاهدة سلام مع اسرائيل ..

وفى سوريا ، استولى العقيد « حسنى الزعيم » رئيس هيئة أركان الجيش على مقاليد السلطة فى مارس ١٩٤٩ .. وعرض السلام على إسرائيل لكن الأحداث لم تسعفه بتحقيق ذلك ولم يتم توقيع معاهدة سلام ..

فقد تبين بعد عشرات السنين ، أن « حسنى الزعيم » كان اسمه فى كشف مرتبات المخابرات الأمريكية والفرنسية وحتى وكالات المخابرات الاسرائيلية وقد ساعده عملاء وكالة المخابرات المركزية بالفعل فى تدبير انقلابه ..

وكانت لاسرائيل اتصالات أخرى أقيمت على الرشوة داخل القيادة المصرية والعراقية .

وعلى أية حال ، فقد تحقق « شيلوح » من أن قدرة العملاء الاسرائيليين على الوصول إلى الزعماء العرب ، لايمكن أن تغير الحقائق السياسية والاستراتيجية الأساسية فى الحياة فى الشرق الأوسط ، وأن الدائرة الضيقة من الدول العربية ستواصل كراهيتها لدولة اسرائيل ، واستمرار حالة الحرب .

وعلم « شيلوح » أيضا ان هناك عوامل جغرافية وعرقية أخرى فى الشرق الأوسط .. فالدائرة الداخلية الضيقة للدول العربية محاطة بدائرة خارجية من الدول غير العربية ، كما أن الدول العربية ذاتها لديها أقليات عرقية ودينية ..

وأنه يمكن إقامة صداقات مع الدول غير العربية المحيطة بالدول العربية ، ومع الأقليات التى عانت ، مثل اسرائيل والغرب ، من انبعاث القومية العربية ، والراديكالية ..

ويمكن ايجاز الفكرة الكامنة خلف هذه الخطة بالقول المأثور : « أعداء عدوى هم أصدقائى » . كانت أية قوة تعارض وتكافح القومية العربية تعتبر حليفا محتملا لاسرائيل ، مثل الأقلية المارونية فى لبنان ، الدروز فى سوريا ، الأكراد فى العراق ، والمسيحيين فى جنوبى السودان . الذين عانوا جميعا من نير الأغلبيات المسلمة فى بلادهم ..

كما أن شعب إيران ، على الرغم من أنه مسلم ، كانوا يفخرون دائما بذكر أنهم

فارسيون وليسوا عربا وعرفت فكرة الحفاظ على اتصال مع أولئك جميعا « بالتحالف المحيطي » أو التحالف الخارجي ، بين صناع القرار الاسرائيليين .. وكانت مؤسسة المخابرات هي المسئولة عن ذلك الجانب الخفي من السياسة الخارجية للدولة ..

وفي سعيهم لإقامة روابط مع الأقلية الكردية في العراق ، تبع العملاء الاسرائيليون خطو أقدام « شيلوح » نفسه الذي عمل مع الأكراد تحت غطاء صحفي في الثلاثينيات .

وكان الأكراد ، وهم شعب يعيش في الجبال ، يناضلون باستمرار للحصول على الاستقلال عن الحكومة المركزية في بغداد ، وقد جاء معظم العون النشط والمباشر لهم من الموساد في الستينيات عندما قام المستشارون العسكريون الاسرائيليون بتدريب رجال حرب العصابات الأكراد وقد اعتلى « آرييه [لوفا] إلياف » الوزير بمجلس الوزراء الاسرائيلي ، وهو عميل سابق له شهرة تصل إلى حد الأسطورة تقريبا بوكالة الهجرة ، بنفسه متن بغل فوق قمم الجبال في عام ١٩٦٦ لتسليم مستشفى ميداني إلى أصدقائه الأكراد ..

وعبر الحدود تجاه الشرق ، في إيران ، اعترفت السلطات في طهران بـ « صهيون كوهين » التابع لوكالة الهجرة بوصفه الممثل الفعلي للحكومة الاسرائيلية .

لم ينشيء شاه ايران علاقات دبلوماسية رسمية مع اسرائيل مطلقا ، بوصفه زعيما لدولة اسلامية لكن الشاه احترم نضال إسرائيل ضد الدول العربية الأكبر ، وأصدر تعليماته إلى شركة الخطوط الجوية الوطنية الإيرانية بنقل اللاجئين اليهود من العراق من طهران مباشرة إلى تل أبيب .

كان هدف اسرائيل الرئيسي من روابطها مع إيران تشجيع وجهات النظر المؤيدة لاسرائيل والمعارضة للعرب بين مسئولي الحكومة الإيرانية . وكانت العلاقة عميقة وتشمل كل شيء .

فقد ساعدت الموساد و « شين بيت » في تدريب رجال الجيش الإيرانيين وعملاء السافاك ، وهي منظمة المخابرات وأمن الدولة في طهران وقدم رجال السافاك مرارا إلى اسرائيل ، وساعد الإيرانيون في نقل العون إلى التمرد الكردي ضد العراق .

لقد لقيت الموساد غالبا المساعدة من وكالة المخابرات المركزية ، و « إم أى ٦ » وهى وكالة المخابرات البريطانية فيما وراء البحار أو قامت بالتنسيق معهما ..

أصبح الأمريكيون متحررين من وهم ناصر وغيروا رأيهم بشأن التواطؤ السرى بعد معارضتهم غزو السويس فى عام ١٩٥٦ .

قويت الجهود الأمريكية والبريطانية ، لاجتذاب اسرائيل للمشاركة فى تحالف سرى موال للغرب ، بصفة خاصة فى عام ١٩٥٨ عندما حققت المشاعر القومية العربية ، المناوئة للغرب والموالية لناصر ، مكاسب مؤثرة .. فقد أوشك الناصريون على السيطرة على لبنان ، وفى العراق استولى العقيد « عبدالكريم قاسم » على مقاليد السلطة بعد « نورى السعيد » وأفراد الأسرة المالكة الهاشمية وواجه الحكام الملكيون الهاشميون فى الأردن تهديدات مماثلة .

نصحت واشنطن ولندن إسرائيل بالمشاركة فى تجمعين للتعاون وهما : « المنظومة الشمالية » لتحالف خارجى وتربط إسرائيل بتركيا وإيران ، و « المنظومة الجنوبية » وتربط إسرائيل بإثيوبيا .

وكانت كل تلك الدول متورطة فى نزاعات على الحدود مع الدول العربية ، وتخشى التخريب الشيوعى وعلى رأس قائمة هذه الدول ، كانت تركيا ..

فى ديسمبر ١٩٥٧ ، اجتمع « عدنان مندريس » رئيس الوزراء التركى مع « إلياهو ساسون » المبعوث الاسرائيلى الخاص ، ورتبا جلسة متابعة لمسئولى المخابرات فى الدولتين فى يونيو ١٩٥٨ .

ورأس « شيلوح » الفريق الاسرائيلى على الرغم من أنه لم يتقلد أى منصب رسمى فى الموساد على مدى سنوات بعد استقالته من منصبه كأول مدير للوكالة فى سبتمبر ١٩٥٢ .. فقد كان « بن جوريون » رئيس الوزراء و « جولدامائير » وزيرة الخارجية يعتقدان أن « شيلوح » هو أفضل شخص يناسب المهام الدبلوماسية السرية .

ثم طار « بن جوريون » بنفسه إلى أنقرة فى ٢٨ أغسطس وبرفقته « مائير » ورئيس الأركان لرؤية « مندريس » .

وكان المبرر الرسمى لوجود طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية الاسرائيلية « العال » فى دولة اسلامية ، هو أنها واجهت مشاكل فى المحركات أجبرتها على الهبوط فى تركيا ..

تمثلت النتيجة المحددة لكل تلك المباحثات فى اتفاق رسمى لكنه بالغ السرية للتعاون الشامل بين الموساد وبين وكالة الأمن الوطنى التركية « TNSS » .

واتفقت الموساد على ميثاق مماثل فى الفترة نفسها تقريبا ، مع السافاك فى إيران .

فى نهاية عام ١٩٥٨ ، أقامت الوكالات السرية الثلاث شبكة تعاون رسمية اطلق عليها اسم « ترايدنت » ، والتى عقدت اجتماعات نصف سنوية بين رؤساء الوكالات الثلاث ..

وكان من بين الاهتمامات المشتركة لها تقديم تقارير حول أنشطة الجواسيس السوفيت فى انحاء الشرق الأوسط وساعدت تركيا الموساد عن طريق اطلاعها على المعلومات التى جمعها عملاء وكالة الأمن الوطنى التركية فى سوريا والتى تتعلق بنوايا النظام العربى المتطرف هناك تجاه اسرائيل ..

وعلى غرار الدروس التى تلقاها رجال السافاك ، قامت الموساد بتدريب العملاء السريين الأتراك على أساليب مكافحة التجسس ، واستخدام الأجهزة الفنية ..

وحاول الدبلوماسيون السريون لاسرائيل تحقيق نجاحات مماثلة على صعيد المنظومة الجنوبية للتحالفات الخارجية .

وقد اهتمت الموساد اهتماما كبيرا بالسودان بحكم موقعه الجغرافى جنوبى مصر مباشرة حيث يوجد خصم اسرائيل الرهيب جمال عبدالناصر وفور تولى عبدالناصر القيادة فى مصر فى عام ١٩٥٤ كان السودان يمر بمرحلة انتقالية تمهيدا لاستقلاله فى ظل ادارة بريطانية ــ مصرية مشتركة .

انزعج الساسة فى العاصمة السودانية « الخرطوم » من تدخل ناصر فى حملتهم الانتخابية بشعارات تدعو لوحدة وادى النيل ، والتى اعتبرت تهديدا بأن مصر ستبتلع السودان ..

وهرع أعضاء حزب الأمة الشعبى ، وحركة المهدية الوطنية إلى لندن ، على أمل الحصول على ضمانات بالمساندة البريطانية ضد مصر وكان من المرجح أن يؤدى اعتزام ناصر تأميم قناة السويس ، وطرد القوات البريطانية من منطقة القناة إلى مساعدة السودانيين على الفوز بتعاطف بريطانيا .

واتكل السودانيون على كراهية « انتونى ايدن » رئيس الوزراء لناصر ..

وعلى أية حال ، فإن الوفد السودانى لم يشعر بالرضى من رد لندن ..

بدا رجال المخابرات فى « إم أى ٦ » أو « MI6 » متعاطفين ، لكن الدبلوماسيين من وزارتى الخارجية والكومنولث حاولوا بدلاً من ذلك التودد إلى ناصر .

وتصادف أن السودانيين ذكروا لرجال « إم أى ٦ » أنهم مستعدون حتى للتعاون مع الشيطان لوقف سياسة مصر التوسعية ، وأدى ذلك برجال المخابرات البريطانية إلى اقتراح أنه ينبغى عليهم حقا التعامل مع شيطان العالم العربى المعروف باسم إسرائيل .

وأحال البريطانيون السودانيين إلى دبلوماسى اسرائيلى يدعى « موردخاى جازيت » .

وكان « جازيت » يعمل آنذاك سكرتيرا أول فى السفارة الاسرائيلية فى لندن ، وقد سبق له العمل فى وقت سابق كعميل للقسم السياسى لوزارة الخارجية .. ولم يستقل اثناء « تمرد الجواسيس » وواصل العمل فى الوزارة حتى بعد حل القسم السياسى .

التقى « جازيت » فى سرور مع « صادق المهدى » وساسة آخرين من السودان فى فندق « سافوى » ، وتم بحث مخططات متعددة للتعاون المناوىء لناصر ..

وحصل السودانيون ، الذين يعانون من الفاقة ، على فائدة تحددت فى الاستعانة بخبراء اسرائيليين لتطوير زراعة القطن فى السودان .

وتعاقب ساسة عديدون وأحزاب متعددة على الحكم فى الخرطوم ، لكن الاتصالات السرية بين السودان وإسرائيل استمرت . وبلغت هذه الاتصالات

ذروتها باجتماع سرى فى أغسطس ١٩٥٧ فى فندق « بلازا أثينيه » فى باريس بين « جولدا مائير » وزيرة خارجية اسرائيل وبين « عبدالله خليل » رئيس وزراء السودان .

وانتهت الاتصالات فجأة فى العام التالى بعد أن أطاح الجيش بعبد الله خليل . وبالنظر إلى مدى أبعد ناحية الشرق ، اكتشف الاسرائيليون ، الأمريكيون ، والبريطانيون أن أثيوبيا فى الخمسينيات أكثر استقرارا وموالية للغرب ، ولها أهمية استراتيجية رئيسية ، فهى تشرف على الممرات البحرية فى البحر الأحمر المؤدية إلى السويس وإيلات .

كان الامبراطور « هيلا سيلاسى » يتولى مقاليد السلطة منذ أكثر من عقدين ويدعى أنه ينحدر من قبيلة عبرية قديمة فى يهودا ، ويستخدم شعارها الأسد الملكى كشعار له .. لقد أعجب « هيلا سلاسى » بالدولة اليهودية ..

وبعد افتتاح قنصلية اسرائيلية فى إثيوبيا جاء المستشارون الزراعيون فى أعقاب الدبلوماسيين ، وجاء أساتذة الجامعات الذين ساهموا فى انشاء جامعة أديس أبابا وكان من المحتم أن يعقبهم المستشارون العسكريون ورجال المخابرات .

وساعد الاسرائيليون الامبراطور فى تدريب قوات أمنه ، وتم التصريح لإسرائيل ببناء موقع تصنت قوى الذى قام بالتقاط الاتصالات اللاسلكية العربية .. وأدارت الموساد مركزا كبيرا لعملائها فى العاصمة الإثيوبية .

وكان عملهم مماثلا لمهام المخابرات التى يقوم بها « آشر بن ــ ناتان » كرئيس لشركة اللحوم الاسرائيلية فى جيبوتى المجاورة قبل أن يتوجه إلى فرنسا للمساعدة فى التخطيط لغزو السويس ، ولكنه كان أوسع نطاقا .

أيدت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وقدرتا اسهامات اسرائيل الاستراتيجية فى إنشاء تحالفات خارجية ، لكن انجاز اسرائيل الحقيقى واختراقها لقمة مستويات المخابرات الغربية جاء بضربة موفقة غير متوقعة فى أوربا ..

فقد استطاع الاسرائيليون التفوق على كافة جواسيس وكالة المخابرات المركزية ،

و « إم أى ٦ » والجواسيس الفرنسيين ، والهولنديين ، البلجيكيين وغيرهم من الجواسيس الغربيين ، الذين كانوا ينطلقون فى أنحاء أوربا الشرقية بحثا عن خطاب ولم يكن ذلك سوى الخطاب السرى الذى وجهه الزعيم السوفيتى الجديد « نيكيتا خروشوف » إلى المؤتمر الخاص للحزب الشيوعى فى موسكو فى فبراير عام ١٩٥٦ .

أنهى الخطاب حقبة « ستالين » بالكشف للمرة الأولى عن تفاصيل أهوالها : معسكرات اعتقال الجولاج ، المحاكمات الصورية وأعمال القتل .

كان من المتعين فهم خروشوف ، الذى برز من القيادة الجماعية ليصبح الديكتاتور السوفيتى الجديد ، بصورة أفضل وأصبح من الضرورى بيان قائمة الأضرار المحددة التى ألحقها الراحل « ستالين » بالاتحاد السوفيتى . فكلمات الزعيم السوفيتى « خروشوف » يمكن أن تستخدمها الدعاية الغربية لاضعاف إيمان الشرق بالستالينية والشيوعية .. وسعيا للحصول على نص الخطاب ، حاولت وكالات المخابرات الغربية رشوة الشيوعيين من الدول التابعة للكتلة السوفيتية ، الذين حضروا مؤتمر موسكو ..

لكن معظم الضيوف الأجانب تم استبعادهم من حضور جلسة الثالث والعشرين من فبراير التى وجه خلالها خروشوف ادانته المفاجئة والمثيرة لستالين .

وسمح لكل وفد من الخارج بأن يبعث بزعيمه فقط إلى قاعة المؤتمر ، وكان هؤلاء الزعماء من غلاة الشيوعيين ومن الموالين بإخلاص للكرملين وبالتالى لم يكونوا على استعداد أبدا لتقديم الأسرار إلى الجواسيس الرأسماليين ..

ولا عجب ، أن يتذكر « ألن دالاس » فى وقت لاحق يوم ١٧ إبريل بوصفه تاريخ واحد من أعظم الانجازات فى حياته العملية كمدير لوكالة المخابرات المركزية .. ففى ذلك اليوم ، ١٧ إبريل ١٩٥٦ ، تلقى « دالاس » نسخة مطبوعة من الخطاب الروسى من « جيمس أنجلتون » رئيس إدارة مكافحة التجسس ، الذى ذكر أن النص الكامل الكبير قد قدمه الاسرائيليون .

وكان الرجل الذى تتجسد الموساد فى شخصه ، وهو « إيسر هاريل » ، هو

المسئول الوحيد الذى يؤكد ، بشكل مدون ، أن اسرائيل الصغيرة هى التى استطاعت أن تفعل هذا الصنيع الكبير لوكالة المخابرات المركزية .

كتب « هاريل » يقول :

« قدمنا لنظرائنا الأمريكيين وثيقة تعتبر واحدا من أكبر الانجازات فى تاريخ المخابرات ، وهى الخطاب الكامل السرى للسكرتير الأول للحزب الشيوعى السوفيتى » .

وعلى الرغم من أن « هاريل » أكد دور إسرائيل فى الحصول على خطاب خروشوف لحساب الغرب إلا أنه لم يكشف النقاب عمن وضع يده أو وضعت يدها على الخطاب بالتحديد ، أو كيفية ذلك » .

وتشير الرواية المثيرة للدهشة التى ظهرت بعد ذلك إلى أن « هاريل » ببساطة لم يعرف أبدا المصدر الذى وضع يده على الخطاب .

وكان من الصعب تتبع الأثر بعد مرور عشرات السنين ، لكن كانت هناك إشارات تقود إلى بولندا وإلى شيوعى يدعى « ستيفان ستازيفسكى » ، وشغل منصب رئيس الحزب فى وارسو فى الخمسينيات وكشف فى الثمانينيات وبشكل يدعو للدهشة عن أنه نزع نقاب السرية عن خطاب« خروشوف » الذى أثار الذعر ..

ووفقا لما ذكره « ستازيفيسكى » ، فإن قيادة الحزب السوفيتى بعثت بنص الخطاب إلى قلة مختارة من الشيوعيين فى الدول التابعة الأوربية الشرقية .

وقد حمل رسول نسخة واحدة ، تقع فى ٥٨ صفحة باللغة الروسية ، إلى « ادوارد أوتشاب » السكرتير الأول للحزب الحاكم فى بولندا .

فلم يقدر له حضور مؤتمر موسكو وصدم بما قرأه والذى تضمن تأكيدا كاملا لأسوأ المزاعم كلها التى سبق أن وجهت إلى ستالين .

وبدأ الأمر مثل إتباع مسيحى ورع لم يعد يؤمن بالمسيح .

أشرك « أوتشاب » ، فى حذر وعلى نحو سرى ، عددا قليلا من كبار الشيوعيين البولنديين فى الاطلاع على ذلك التجديف القادم من موسكو .

وفى أول الأمر ، اضطروا لقراءة النسخة الوحيدة التى أغلق عليها خزانته ..

وأمر « أوتشاب » ، فيما بعد ، بترجمتها إلى البولندية ، وتم ارسال عدد محدود ومعدود من النسخ إلى رؤساء الحزب المحليين ، ومن بينهم « ستازيفيسكى » .

قرر رئيس حزب وارسو أنه يتعين الاطلاع على الخطاب على نطاق أوسع ، وهكذا أمر باعداد ألوف النسخ وتوزيعها ..

وقال أنه أعطى النص لثلاثة من مراسلى الصحف الغربيين ، ومن بينهم صحفى يدعى « فيليب بن » ..

ولد « فيليب بن » بولنديا يهوديا فى « لودز » عام ١٩١٣ تحت اسم « نوربرت نيتسفيسكى » وأصبح صحفيا فى سنوات مراهقته ، وتحول إلى جندى عندما غزا جيش هتلر بولندا فى عام ١٩٣٩ ..

خدم « نيتسفيسكى » فى الجيش الحر البولندى وهرب مع وحدته المقاتلة طالبا اللجوء إلى الاتحاد السوفيتى ، وتم إرساله فيما بعد إلى الشرق الأوسط للاتصال بالقوات البريطانية . لكن هويته اليهودية فرضت نفسها فى عام ١٩٤٣ ، فاستقر فى فلسطين ، وأخذ يكتب للصحف العبرية وتخلى عن اسمه البولندى ، واتخذ لنفسه اسما يتناسب بشكل أفضل مع الثقافة الاسرائيلية الوليدة .. وهو « فيليب بن » .

و « بن » تعنى إبن ، وفيليب هو الاسم الأول لأبيه .

وخلال استقلال اسرائيل فى عام ١٩٤٨ والأعوام المثيرة التالية ، كتب « بن » عن العالم الخارجى أكثر مما كتب عن الشرق الأوسط والأزمات الأقرب إلى الوطن .

وقد كشف أعمدته عن لمحات من الذكاء واستخدمت صحيفة « لوموند » الفرنسية ذلك الاسرائيلى الألمعى فى عام ١٩٥٢ .

وكانت أوربا الشرقية مجال تخصصه الذى برز فيه .. بنى « بن » شبكة ممتدة من المصادر ، وازدادت شهرته عن شهرة الصحفى العادى ..

ويتذكر « موشى أفيدان » ، الذى كان سفيرا لاسرائيل فى بولندا فى

الخمسينيات ، أن الدبلوماسيين الآخرين فى وارسو اعتادوا الاتصال بالسفارة للحصول على المعلومات ويبررون ذلك بأن « صحفيكم الاسرائيلى يعرف كل شيء » .. وكانوا يقصدون بذلك « بن »..

وقد أثارت تقاريره عن اضراب العمال فى « البوسنة » فى اكتوبر عام ١٩٥٦ ، والتى نشرت فى « لوموند » وصحيفة « معاريف » الاسرائيلية ، ضجة دفعت السلطات البولندية إلى طرده من البلاد .

وكان هناك سبب آخر لذلك ، وهو علاقته الغرامية مع إمرأة شابة بولندية جذابة تدعى « فرانكا تورونسيك » .

وقام « بن » الذى كان متزوجا آنذاك ، بتهريب عشيقته خارج بولندا ، بعد أعلنت السلطات البولندية أنه شخص غير مرغوب فيه .

ونعت البولنديون « بن » بانه عميل للمخابرات الاسرائيلية والأمريكية .

وتعيد « حنا تيكيسنيسكى » ، شقيقة « بن » ، إلى الأذهان أنه كان دائما رجلا غامضا .

وتوافق على ذلك « فرانكا تورونسيك » ، التى ظلت فى اسرائيل بعد أن شاركت « بن » بقية حياته .. وتقول :
« هذا صحيح ، فقد علم كيف يكتم الأسرار ، ولم يكن يقول أى شيء حتى لى » .

وبعد أن عمل مراسلا فى الأمم المتحدة فى نيويورك لسنوات عديدة ، توفى « بن » فى عام ١٩٧٨ .. وعلى الرغم من أنه كتب ألوفا عديدة من الكلمات للاستهلاك العام ، إلا أن روايات لم تذع لاحصر لها دفنت معه ..

وإحدى هذه الروايات التى احتفظ بها « بن » سرا ، وفقا لرئيس الحزب الشيوعى فى وارسو « ستازيفيسكى » ، هو دوره فى إذاعة خطاب « خروشوف » السرى ويقول أحد الذين زاملوا « بن » لمدة طويلة من « معاريف » أنه ليس من المستحيل ، بل من الطبيعى فقط ، أن يكون « بن » قد ساعد وكالات الأمن فى بلاده بتقديم معلومات من المدن العديدة التى زارها .

وإذا كان « ستازفيسكى » قد أعطى « بن » نص خطاب « خروشوف » حقا ، فإنه من المحتمل جدا أن يكون قد وصل إلى المخابرات الاسرائيلية ومنها إلى وكالة المخابرات المركزية وليس إلى « معاريف » وقرائها الاسرائيليين .

وعلى أية حال ، فإن « ستازيفيسكى » ادعى أيضا أنه أعطى النص إلى « فلورا لويس » وزوجها « سيدنى جراسون » الصحفيين بجريدة « نيويورك تايمز » .

وتقول « فلورا لويس » وهى تعود بذاكرتها التى لاتخونها إلى عام ١٩٥٦ ، أنها قد سمعت هى و « جراسون » شائعات حول خطاب هام لخروشوف وأنهما لم يتمكنا من الحصول على نصه ، على الرغم من أنهما بذلا أقصى مافى وسعهما من جهد لكن « ستازيفيسكى ، مازال يصر على أنه أعطى بنفسه نص خطاب خروشوف إلى « فيليب بن » فهل كان « بن » العميل السرى الذى قدم الخطاب إلى اسرائيل ، وهكذا رفع الدولة اليهودية وأدخلها إلى مصاف التحالفات الكبرى للمخابرات الدولية ؟

إن رجلا واحدا فقط هو الذى يعرف الحقيقة الكاملة وهو سيد الجواسيس الاسرائيليين الذى استطاع أن يظل خفيا طوال حياته .. إنه « آموس مانور » الرئيس الشرفى لجهاز « شين بيت » طوال معظم سنوات « هاريل » كرجل وحيد مسئول عن المخابرات .. بعد صعوده من بين صفوف الأمن الاسرائيلى ، خدم « مانور » كرئيس لـ « شين بيت » لمدة أحد عشر عاما حتى تقاعد عن عمله فى العالم السرى فى عام ١٩٦٤ .

وخلال عمله كرجل أعمال وكعضو فى مجالس متحدة متعددة بعد ربع قرن من الزمان فإن « مانور » نادرا مايتحدث إلى الصحفيين .

ويقـول :

« لم أناقش عملى مطلقا ، ولن أتخلى الآن عن عادتى » .

وأعظم أعماله ، الذى مازال غير معروف حتى الآن ، يعد الحصول على خطاب خروشوف السرى .

وربما يمثل الأمر صدمة لمحللى المخابرات فإن « شين بيت » وهى وكالة الأمن المحلى ، كما هو مفترض ، هى التى أنجزت هذا العمل الفذ .. وليست الموساد المشهورة بشبكة جواسيسها المنتشرة فى أنحاء العالم لكن « مانور » كانت لديه مصادر ممتازة فى أوربا الشرقية ، ومن الواضح فى الاتحاد السوفيتى نفسه ، والتى تقدم تقاريرها إلى « شين بيت » وليس الموساد ، لأن المهمة الأساسية لهذه المصادر كانت تعقب محاولات الكتلة السوفيتية لاختراق اسرائيل بالعملاء ..

لقد كان أحد عملاء « مانور » فى الكتلة السوفيتية هو الذى بعث بخطاب خروشوف بلغته الأصلية الروسية إلى مقر قيادة « شين بيت » فى يافا المجاورة لتل أبيب خلال الأسبوع الثانى من ابريل عام ١٩٥٦ .

وبينما كان عمله الأساسى هو أن يكون امتدادا لوظيفة « شين بيت » فى مكافحة الجاسوسية ، إلا أنه تصادف أن يتمكن من الوصول إلى نص خطاب خروشوف ، فقام بإمراره بسبب غرابته ..

لم يكن « مانور » يعرف الروسية ، وطلب أحد كبار معاونيه ، الذى هاجر إلى اسرائيل من روسيا ، ترجمة الصفحات الخمسين إلى العبرية .

وكلف « مانور » أيضا كبار خبراء « شين بيت » فى شئون الاتحاد السوفيتى بقراءة النص وتقدير مدى أصالته وموثوقيته .

فقد كانت للمخابرات السوفيتية « كى جى بى » شهرة راسخة بالفعل فى تسريب معلومات مضللة عن طريق تلفيق الوثائق .

وفى يوم الجمعة الموافق الثلاثين من نفس الشهر إبريل ، جلس رئيس « شين بيت » فى مكتبه فى يافا ، وقرأ خطاب « خروشوف » .

لقد سمع على مدى أسابيع أنه خطاب هام وانه غنيمة سعى وراءها وكالة المخابرات المركزية وآخرون ..

وبالفعل كان خطابا قويا ، يكشف النقاب عن كثير من السياسات الاتحاد السوفيتى التى تبدو مستحيلة الاختراق .

وعندما فرغ من قراءة النص ، وضع « مانور » النسخة العبرية فى محفظته الجلدية إلى جانب الرأى الاجماعى لمحلليه المتخصصين فى الشئون السوفيتية ، الذين أعلنوا أن الخطاب حقيقى .

انتقل « مانور » بسيارته مباشرة إلى منزل « بن جوريون » رئيس الوزراء فى تل أبيب وأعطاه الترجمة العبرية وتحليل « شين بيت » .

اجتمع « مانور » و « بن جوريون » ثانية يوم السبت وعندما اقتنع رئيس الوزراء تماما بأن الخطاب أصلى ، أصدر تعليماته بإمراره فورا إلى الأمريكيين .

وعند ذلك فقط ، توجه « مانور » بسيارته إلى منزل « إيسر هاريل » ، وليبلغه للمرة الأولى بحكاية النص ، ويريه له دون أن يذكر اسم المصدر على أية حال .

كانت اسرائيل تتطلع دائما للتأثير فى الأمريكيين ، وهكذا وبعد يومين فقط من قرار « بن جوريون » ،الشخصى باطلاع الأمريكيين على خطاب « خروشوف » ، طار رسول من المخابرات الاسرائيلية بنص الخطاب إلى « جيم أنجلتون » فى واشنطن .

أحس رئيس الوزراء بالغريزة أن هذا يمكن أن يكون إنجازا ضروريا لجعل إسرائيل حليفا استراتيجيا للولايات المتحدة له احترامه ..

وأحس « بن جوريون » أيضا أنه إذا قامت اسرائيل بالاعلان عن الخطاب السرى ، فإنها ستلحق مزيدا من الضرر بعلاقاتها المتوترة بالفعل مع السوفيت الذين سبقوا أن أحسنوا إلى الدولة اليهودية .

لم تتم قراءة نص خطاب خروشوف باهتمام كبير فى مقر قيادة وكالة المخابرات المركزية فحسب ، بل قام الأمريكيون بتسريبه إلى صحيفة « نيويورك تايمز » ثم جرت إذاعة كلماته العشرين ألفا بجميع لغات الدول الشيوعية خلال راديو « أوربا الحرة » وراديو « الحرية » . كما تم ربط نسخ مطبوعة لنص الخطاب فى بالونات لتحلق عبر الستار الحديدى إلى داخل دول الكتلة الشيوعية وبهذه الطريقة ، وصلت ألوف من النسخ إلى داخل بولندا . وربما كان ذلك هو أضخم توزيع لخطاب « خروشوف » يتذكره « ستاز يفسكى » الرئيس السابق للحزب فى وارسو .

ومن ناحية أخرى ، ربما كان « فيليب بن » هو رجل « مانور » فى أوربا الشرقية : عيون وآذان وكالة « شين بيت » المناوئة للشيوعية فى قلب الكتلة الشيوعية .

وعلى الرغم من أن « آموس مانور » فى السبعينيات من عمره إلا أنه ليست لديه أية نية لكشف النقاب على الاطلاق عن اسم البطل .

ومن المعروف أن « مانور » يشعر بالضيق لأن « هاريل » حاول أن يدعى الفضل للموساد فى ذلك ولم تكن الموساد بل « شين بيت » هى التى حصلت على خطاب الكرملين السرى . ولكن من أرسله من أوربا إلى « شين بيت » ؟

ومن واقع الأمر ، فإن الإجابات فى عالم الجاسوسية تقود دائما إلى إثارة مزيد من الأسئلة .

لم يتم ابلاغ الأمريكيين بالعملية المحددة التى حصلت بواسطتها اسرائيل على النص المحير . وفى حدود علم « ألن دالاس » مدير وكالة المخابرات المركزية ، فإن الموساد هى التى فعلت ذلك خاصة وأن الموساد كانت قد أبدت تواً براعة .

وكافأ « دالاس » كلا من الموساد و « أنجلتون » بجعل الأخير مسئولا عن « حساب إسرائيل » وهو مسمى العلاقة الثنائية فى الوكالة وبالإضافة إلى وظيفته كرئيس لادارة مكافحة الجاسوسية .

أصبح « أنجلتون » أكبر مناصر لاسرائيل فى دوائر المخابرات والدفاع الأمريكية ، وبالنظر إلى النزعة الموالية للعرب بين معظم العاملين فى وزارة الخارجية والبنتاجون ، وبعض العاملين فى وكالة المخابرات المركزية ، أصبحت صداقة « أنجلتون » بمثابة واحة للاسرائيليين وسط الصحراء الأمريكية .

كان « أنجلتون » قادرا حتى على الرد على المعلومات أو تحريفها ، والواردة من مصادر أخرى ، والتى من المحتمل أن تؤذى اسرائيل ..

فعندما بعث الملحق العسكرى الأمريكى فى تل أبيب تقريرا فى أكتوبر ١٩٥٦ مفادة أن إسرائيل تخطط للهجوم على مصر ، ادعى « انجلتون » أن المعلومات ليست

دقيقة وبقصد أو دون قصد ، فإن الصديق الكبير لاسرائيل فى واشنطن ، ساهم فى الحفاظ على ستار الدخان الذى حجب الاستعدادات لغزو السويس .

أصبح الاعجاب بالدولة اليهودية مرضا بالنسبة لأنجلتون ، الذى وقع أسيرا لسحر المخابرات الاسرائيلية ..

وأصر ، بحماس مفرط ، على أن يكون المسئول الوحيد عن « الحساب » ..

ووفقا لما ذكره مدير لاحق لوكالة المخابرات المركزية فإن أنجلتون كانت لديه مسئولية هامة واحدة غير مكافحة التجسس ، وهى إسرائيل ، والتى أدارها على نحو تقليدى بنفس الطريقة المنفصلة تماما مثل مكافحة الجاسوسية ..

غضب « أنجلتون » عندما حاول آخرون فى الوكالة الاتصال بالاسرائيليين بدون علمه .

ووصلت غيرته إلى ذروتها فى عام ١٩٧١ عندما زار واشنطن « بيتر رايت » نظيره فى مكافحة التجسس فى « MI5 » أو « إم أى ٥ » وهى وكالة الأمن الداخلى فى بريطانيا ..

وقدم « أنجلتون » شكوى رسمية إلى سير « مارتن فورنيفال جونز » مدير « MI5 » يتهم فيها « رايت » بالقيام بمفاوضات سرية ، من وراء ظهره فيما يتعلق باسرائيل والشرق الأوسط ، مع مسئولين آخرين فى وكالة المخابرات المركزية .

لكن البريطانيين لم يكلفوا أنفسهم مشقة الرد على الرسالة .

وفى مناسبات أخرى ، لم يخف « أنجلتون » شكوكه فى لورد « فيكتور روتشيلد » سليل الأسرة المصرفية اليهودية الشهيرة والمقيم فى لندن ..

وكان « روتشيلد » عميلا سابقا للمخابرات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية ، واحتفظ بروابط وثيقة مع مستخدميه السابقين فى لندن ، فى الوقت الذى أقام صداقات خاصة مع رؤساء مخابرات إسرائيل .

الحساب : العلاقة الثنائية بين المخابرات الأمريكية والمخابرات الاسرائيلية .

واستاء « أنجلتون » من اتصالات « روتشيلد » واعترف الاسرائيليون الذين عملوا مع « أنجلتون » بأن شخصيته كانت غير عادية وربما تتسم بالخبل لكنهم أعربوا عن تقديرهم له لأنه حطم حائط الشكوك الأمريكى تجاه إسرائيل مما مهد الطريق للتعاون الاستراتيجى الحيوى .

وفى نوفمبر ١٩٨٧ ، بعد عام من وفاة « أنجلتون » أقامت اسرائيل نصبا تذكاريا لصديقها الأمريكى موضع التقدير والاحترام فعلى مرمى البصر من فندق الملك داود - حيث أحب دائما أن يقيم خلال عشرات الزيارات التى قام بها إلى القدس ثم نقش عبارة على حجر ضخم بالعبرية والانجليزية والعربية : فى ذكرى الصديق العزيز « جيمس [جيم] أنجلتون » ..

وأزيح الستار عنه فى احتفال شهده رؤساء مؤسسة المخابرات الاسرائيلية الحاليين والسابقين .

وفى مشاركة منه فى عملية استرجاع الذكريات خلال الاحتفال ، أشار « تيدى كوليك » ، عمدة القدس الحالى ، إلى كيفية مقابلته لأنجلتون للمرة الأولى خلال جولة له فى مقر قيادة وكالة المخابرات المركزية فى سبتمبر ١٩٥٠ .

وبعد دقائق ، قال « كوليك » أنه تصادف أن التقى ببريطانى يعرفه يدعى « هارولد [كيم] فيلبى » وأدى شعوره بالدهشة الشديدة . إلى أن يسرع عائداً إلى مكتب « أنجلتون » وسأله :

« ماذا يفعل فيلبى هنا ؟ »

فأجاب « أنجلتون » :

« إن كيم صديق مفيد لنا وهو ممثل وكالة « إم أى ٦ » البريطانية فى الاتصال مع وكالة المخابرات المركزية » .

لم يُكن « كوليك » محبة أبدا لفيلبى ، ومن الممكن أن يرجع ذلك جزئيا إلى أن والد « فيلبى » اعتنق الاسلام واستقر فى المملكة العربية السعودية بوصفه مستشارا خاصا للأسرة المالكة هناك .

لكن الأكثر صلة بالموضوع أن « كوليك » أحس أنه يتعين عليه أن يخبر « أنجلتون » بأنه قد عرف « فيلبى » فى النمسا فى الثلاثينيات ، وأن « فيلبى » كان آنذاك يساريا بلا جدال ..

وقد شهد « كوليك » حفل زفافه إلى شيوعية يهودية فى فيينا .. ويعد ذلك جانبا من الماضى الذى اخفاه « فيلبى » لدى انضمامه إلى المخابرات البريطانية ..

أهتم « أنجلتون » بما قاله صديقه الاسرائيلى الجديد لكنه لم يتخذ أى إجراء إلى أن هرب الدبلوماسيان البريطانيان الكبيران « جاى بيرجس » و « دونالد ماكلين » إلى موسكو فى عام ١٩٥١ فأبلغت وكالة المخابرات المركزية وكالة « إم أى ٦ » أن فيلبى » قد تصرف أيضا على نحو يثير الشكوك وأنه لن يجد أى ترحيب كمسئول عن الاتصال فى واشنطن .

وأصبحت عداوة « أنجلتون » الشديدة للشيوعية مرضية ، وشن عملية بحث عن الخونة الآخرين فى وكالات المخابرات الغربية . ولكنه أعرب عن ندمه دائما لأنه لم يقتف أثر فيلبى باهتمام أكثر بعد المعلومات السرية التى قالها له « كوليك » ..

وهناك قرينة أخرى لم يتم الالتفاف إليها مصدرها إمرأة بريطانية خلال زيارة لها إلى إسرائيل فى عام ١٩٦١ .

كانت « فلورا سليمان » ابنه مصر فى يهودى ثرى من روسيا القيصرية انتقل إلى انجلترا . وعملت لحساب سلسلة متاجر « ماركس آند سبنسر » .

وكانت صهيونية متحمسة مثل مستخدميها .. وفى حفل كوكتيل بالقرب من تل أبيب ، التقت بصديقها القديم لورد « فيكتور روتشيلد » وتحدثت « فلورا » بقسوة عن « كيم فيلبى » ، الذى كان آنذاك مراسلا لصحيفة بريطانية فى بيروت ، وأدانت موضوعاته الصحفية المعادية لاسرائيل والمؤيدة للعرب .

لكن ملاحظة صغيرة أدلت بها « فلورا » أثارت اهتمام « روتشيلد » .. قالت : « كالمعتاد ، فإن كيم يفعل مايقوله له مستخدميه فى روسيا » .

ورد « روتشيلد » على ذلك معربا عن دهشته لكن « فلورا سليمان » أخبرته

كيف أن « فيلبى » قد حاول تجنيدها فى عام ١٩٤٠ للعمل لحساب المخابرات السوفيتية ، وأنه وصف لها عمله بأنه سرى وخطير ، وعندما لم توافق ، طلب منها ألا تخبر أحدا بذلك ..

ووصل ذلك إلى الموساد وإلى المخابرات البريطانية لكن « إم أى ٦ » لم تواجه الموضوع بالسرعة الكافية ..

وفى لبنان ، سمع « فيلبى » بالشكوك حوله واختفى ببساطة فى يناير ١٩٦٢ ، ليظهر فى موسكو فى نهاية ذلك العام بوصفه جنرالا حاصلا على أوسمة فى « كى . جى . بى » أو « لجنة أمن الدولة » وهى وكالة المخابرات السوفيتية ..

وقد شعر البريطانيون ، الذين تألموا من عمليات الهروب الثلاث المحيرة ، بالتأثير والاعجاب لأن الاسرائيليين كانوا يعلمون قدرا كبيرا ..

ومثل « أنجلتون » فى الولايات المتحدة ، فإن كبار رجال المخابرات البريطانية ، ومن بينهم « موريس أولد فيلد » وكيل رئيس « إم أى ٦ » و « بيتر رايت » وكيل وكالة « إم أى ٥ » ، أعربا عن تقديرهما لقدرات الموساد .

وقد تحققت المخابرات فى بريطانيا من أن اسرائيل ليست ببساطة دولة من الدرجة الثالثة من دول العالم الثالث ، ولكنها دولة عظمى فى عالم المخابرات .

ووقع ضباط اتصال الموساد فى لندن اتفاق تعاون رسميا ، مماثلا للميثاق الذى أبرم بين الموساد ووكالة المخابرات المركزية .

ومن وجهة نظر اسرائيل ، فإن « أولد فيلد » أصبح النسخة البريطانية لأنجلتون ..

ولد « أولدفيلد » الطفل الأكبر بين أحد عشر طفلا لأسرة إنجليزية فقيرة تعمل بالزراعة ، وأظهر ميلا لعمل المخابرات خلال تمركزه فى السويس خلال الحرب العالمية الثانية .

كان يعرف الشرق الأوسط ، ويعرف أيضا « تيدى كوليك » وقد التقيا فى أواخر الأربعينيات وأصبحا صديقين حميمين .

وأبلغ « أولدفيلد » « كوليك » أنه قد أعجب دائما بالصهيونية .. ، وتأثر « كوليك » للغاية بشخصية « أولدفيلد » ، وأثمرت صداقتهما مكاسب هامة فى السبعينيات ، عندما أصبح « أولد فيلد » مديرا لوكالة « إم أى ٦ » واسمه الشفرى « سى » وتأثر الروائيان « إيان فليمنج » و « جون لوكار » كثيرا بأولد فيلد ، فشخصية « M » أى « إم » فى سلسلة جيمس بوند التى كتبها « فليمنج » وشخصية « جورج سمايلى » التى ابتدعها « لوكار » جاءتا على نسق الحياة الحقيقية لرئيس « إم أى ٦ » .

عمل « أولد فيلد » دائما على التأكد من حماية مصالح إسرائيل فى المؤسسة البريطانية ، حيث أظهر الموظفون المدنيون والدبلوماسيون عداء يمكن تلخيصه بأنهم « مستعربون » .

واستطاع مدير المخابرات أن يشير إلى الفوائد المحددة التى جنتها بريطانيا من الروابط السرية مع الدولة اليهودية .

أظهر الإسرائيليون موهبتهم فى اكتشاف جوانب الخلل الأمنى فى قضية « روى جينلون » وهو ضابط أمن يعمل مع شرطة الفرسان الكندية الملكية « RCMP » ، وهى تعادل « شين بيت » أو مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكى .. وبعض أعضاء شرطة الفرسان الكندية يتم تعيينهم فى الخارج كعملاء مخابرات ، وجرى ارسال « جينلون » إلى سفارة كندا فى موسكو فى عام ١٩٥٩ .

وسرعان ما اكتسب « جينلون » سمعة وسط الدبلوماسيين فى العاصمة السوفيتية بأنه زير نساء .

وعندما قاومت النساء فى السفارة الكندية محاولاته للتودد إليهن بإزدراء ، سمعت « كى جى بى » عن حالة الاحباط التى يشعر بها .

ونصب البوليس السرى الروسى ، المشهورون بكفاءتهم ، شركا تقليديا للكندى . واستخدموا ، كطعم ، عميلة شابة وجذابة تطلق على نفسها اسم « لاريسا فيدوروفنا دوبانوفا » ، وعن طريق المصادفة المختلقة ، وجد « جينلون » نفسه جالسا إلى جوار « دوبانوفا » فى مسرح باليه البولشوى ..

وبالمصادفة أيضا ، كانت « دوبانوفا » تتحدث الانجليزية بطلاقة .

وانزلق « جيندون » والسيدة الجميلة فى علاقة غرامية على مدى عدة شهور ، إلى أن أبلغته أنها حامل .

ورتب ضباط « كى جى بى » على عجل حفل زفاف سريا وغير قانونى ، وأصبحوا الآن يضعون « جيندون » حيث يريدون أن يكون بالضبط ..

وتحت التهديد بالأ يرى « دوبانوفا » ثانية أمد « جيندون » المخابرات السوفيتية بالشفرات الدبلوماسية لكندا ، وتمكنوا حتى من زرع أجهزة تصنت الكترونية فى السفارة الكندية .

وتم نقله فى وقت لاحق من موسكو إلى سفارة بلاده فى واشنطن ، وواصل « جيندون » العمل لحساب « كى جى بى » .

أبلغته زوجته ، التى لم تحمل أبدا ، أنها أجهضت ، وسمحت لها السلطات السوفيتية بزيارته فى أمريكا من حين لآخر فقط وبالقدر الكافى الذى يجعل مهتما بمواصلة التجسس .

وانكشف خيانة « جيندون » فقط عندما نقل إلى سفارة كندا فى تل أبيب فى أوائل الستينيات ..

كان تليفونه مراقبا مثل معظم الدبلوماسيين الأجانب فى إسرائيل . وعلمت وكالة « شين بيت » بتصرفاته لأن « جيندون » كان لامباليا ، ويتحدث مع السوفيتى المسئول عنه بالتليفون .

وأبلغت المخابرات الاسرائيلية وكالة « إم أى ٦ » ثم أخطر البريطانيون شرطة الفرسان الكندية الملكية ، الذين سارعوا باستخدام ذريعة لإغراء « جيندون » بالذهاب إلى لندن ومن هناك اقتاده ضباط الأمن إلى أوتاوا حيث اعترف بجريرته .

وفى مقابل تعاونه الكامل معهم ، لم يقدم للمحاكمة .. كان إرساء روابط قوية مع المخابرات الأجنبية واحدا من أكبر الانجازات المبكرة للمخابرات الاسرائيلية ، إلى جانب تشكيل تحالفات تكنولوجية ، استراتيجية ، وخارجية للدولة اليهودية . تلك

كانت المساهمات الاساسية لمؤسسة المخابرات فى ظل ارشادات « شيلوح » وعلى آية حال ، فإنه عندما توفى « شيلوح » فجأة بنوبة قلبية فى مايو ١٩٥٩، بينما هو يعد العدة لمهمة سرية أخرى إلى تركيا وإيران ، فإن مصيره كان النسيان الكامل وبسرعة .

وكان حلفاؤه السياسيون قليلين ، وأعداؤه كثيرون كما مال للعمل بمفرده ، ولم يكن يبالى بالشهرة ومهما كان الأمر ، فإن « شيلوح » وأفكاره الضخمة أصبحت اثارا تنتمى إلى الماضى ..

ومع أن المخابرات الاسرائيلية لم تتعد الحادية عشر من عمرها إلا بالكاد ، إلا أنها كانت قد بلغت سن الرشد بطرق شتى .

وأصبح الوقت مناسبا لإيسر هاريل ليعود للظهور على خشبة المسرح ويسلط الأضواء على المهام اليومية التفصيلية للدفاع سرا عن الوطن .

وفى الوقت الذى قام فيه « إيسر هاريل » بالبحث عن الخونة ، إلا أنه لم يتم العثور على أحد منهم فى الهيئات الدبلوماسية الاسرائيلية كما لم يتم اكتشاف جواسيس معادين مطلقا داخل مؤسسة المخابرات الاسرائيلية .

ويعلق « ويليام كولبى » المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية على ذلك بقوله : « لا عجب فى ذلك فى بلد تعيش حالة حرب بصفة دائما ، ففى الغرب الأمريكى لايمكنك أن تتوقع لجوء أى من رعاة البقر إلى الهنود الحمر » .

ويرجع ذلك إلى عنصر آخر أيضا وهو اليقظة الدائمة التى تتسم بالتشكك ..

ويعود الفضل إلى « إيسر هاريل » فى تحقيق سجل ممتاز فى مكافحة التجسس .

فخلال مسئوليته الكاملة عن الموساد وإشرافه الاقل إحكاما على « شين بيت » لمدة تزيد على عشر سنوات ، أظهر أسلوبا شخصيا إلى حد كبير فى توجيه الأمن الاسرائيلى فقد امضى هاريل معظم وقته يشن حملات صليبية تستند ، بدرجة كبيرة ، إلى هواجسه الذاتية .

الفصل الخامس

هاريل .. الصليبى

● بالإضافة إلى كافة مميزاته الأخرى ، فإن لإيسر هاريل ميزة أخرى جعلت منه شخصية معقدة تجلس على عرش المخابرات الاسرائيلية . فبإمكانه أن يتجاهل الازدراء والتوبيخ ، وأن يقنع نفسه تماما بأنه مؤهل بصورة فريدة لمهمة الدفاع عن إسرائيل .

ولم تقف الاحباطات الصغيرة ، مثل استبعاده من الاستعدادات لحملة السويس فى ١٩٥٦ ، وتشكيل وكالة التجسس التكنولوجى « لاكام » من خلف ظهره ، وإقصائه عن التحالفات الاستراتيجية الخارجية [المحيطية] لإسرائيل ، حائلا دون تقدمه ، فبدلا من أن يحملق إلى الوراء فى غضب ، كان يفضل التطلع إلى الأمام يحدوه الأمل .. كرس « هاريل » نفسه لخدمة مصالح إسرائيل وتدعيم سلطة « بن جوريون » السياسية العليا .

وقد قيم « هاريل » التهديدات القائمة ووصل إلى نتيجة مؤداها أن مجلة « هاعولام هازية » أو « هذا العالم » واسعة الانتشار والناطقة بالعبرية ، تشكل خطرا واضحا وآنياً على رئيس الوزراء ، وعلى حزب الماباى ، وعلى مجمل النظام بأسره ، وأعلن « هاريل » الحرب على المجلة الأسبوعية .

وكانت المجلة التى تقدم مزيجا من الشائعات الممتعة والفضائح الجنسية ،

والتحقيقات الصحفية ، تدافع عن المصالحة مع الفلسطينيين العرب ، وعن وجهة نظر غير تقليدية بشكل عام للحياة فى إسرائيل .

وقد دعا رئيس تحرير المجلة « يورى أفنيرى » « بن جوريون » إلى أن يعرب عن رحابة صدره بالسماح بقيام دولة فلسطينية ، بالرغم من انتصار إسرائيل فى حرب الاستقلال وكان هذا يعتبر محض هرطقة فى بداية الخمسينيات .

مثل « بن جوريون » ، وطريقته فيما يتعلق بالسيطرة المركزية للحكومة ، هدفا طبيعيا للحملات المسمومة للمجلة .

وأعرب الحزب الحاكم فى المقابل عن كراهيته لأفنيرى ونظمت المؤسسة السياسية للماباى حملة مقاطعة لها عولام هازية . غير أن المجلة احتفظت بقرائها الأوفياء لدرجة أن توزيعها زاد بصورة أكبر عندما غطت المجلة بشكل بارز ، فى عام ١٩٥٦ ، أنباء الفساد ضد رئيس بوليس تل أبيب .

وكانت العناوين الرئيسية للفضيحة أكثر مما يحتمله « هاريل » بوصفه خادما مخلصا لرئيس الوزراء وفوق ذلك ، فقد تصادف أن رئيس البوليس لم يكن سوى « آموس بن جوريون » ابن رئيس الوزراء .

ووجه « أفنيرى » أيضا مدفعيته الكلامية ضد « شين بيت » ذاتها ، مما أثار حنق « هاريل » لأنه فى ذلك الوقت لم يكن أحد ليكتب عن الأجهزة السرية الإسرايلية .

وبدلا من أن تذكر « هاعولام هازيه » اسم « شين بيت » فإنها كانت تشير ببساطة إلى « جهاز الشر » .

صورت المجلة وكالة « شين بيت » بوصفها وحشا ينتهك الحقوق المدنية بقسوة ، وألقت اللوم على « شين بيت » فيما يتعلق بكل ماهو ردىء تقريبا فى إسرائيل ، وعندما تعرض « أفنيرى » للضرب على يد مجموعة من المظليين كانوا خارج الخدمة ، ألقى باللوم على الجهاز السرى ، وعندما اختفى أحد كتاب المجلة بسبب علاقة غرامية ادعت « هاعولام هازيه » أن الرجل تم اختطافه من قبل « جهاز الشر » .

لم يغضب أسلوب « أفنيرى » الغريب « هاريل » فقط بل أغضب أيضا « آموس مانور » الرئيس الشرفى لشين بيت الذى شكا من إستفزازات وأكاذيب المجلة ، ووضع هيئة تحريرها تحت المراقبة ، بأمل الكشف عن الفساد فيما بينهم .

وردت « هاعولام هازيه » بإجراء تحقيقات صحفية وإن اتخذت طابعا غريبا ، لأنه من غير المسموح به قانونا ذكر اسم أى عامل فى هيئة المخابرات فى أى مطبوعة ..

قرر « إيسر هاريل » اطلاق سلاح غير مألوف وهو إصدار مجلة أسبوعية تحت اسم « ريمون » أى « الرمان » فى أول أغسطس ١٩٥٦ .

وحاول « هاريل » بدون طائل إخفاء اسم مالك المجلة الجديدة التى كانت صورة عكسية لمجلة «أفنيرى» ..

فبدلا من عرض « هاعولام هازيه » للأحداث الجارية الذى يتسم بعدم الاحترام ، عرضت ريمون خط المؤسسة الرسمية ، بالإضافة إلى إشاعات ممتعة عن صناعة العروض الفنية بهدف زيادة المبيعات إلا أن الكتابات والجهد المتسم بالتقليد لم يكن أبدا فى جاذبية الأصل .

وشنت « ريمون » حربا كلامية ضد « هاعولام هازيه » إلا أن هذا أيضا لم يؤد إلى زيادة مبيعات العديد من أعداد المجلة ..

كان « مانور » يشعر دائما بعدم الارتياح إزاء مشروع مجلة رئيسه « هاريل » ، غير أن أحدا لم يكن يمكنه أن يتحدث عن ذلك مباشرة مع « هاريل » حتى تحدثت أرقام التوزيع ..

وبعد تبادل كريه للمطاعن بين المجلتين ، خسرت المخابرات حرب التوزيع . وبعد ثلاث سنوات من المبيعات المنخفضة ، أصبح من المستحيل أن تتحمل « شين بيت » تمويل مجلة « ريمون » أكثر من ذلك ، وأغلقت المجلة أبوابها .

تمكن هاريل من ابتلاع كبريائه كناشر محتمل وذلك بسبب سمعته الهائلة كصائد للجواسيس .. فقد احبط محاولات الشيوعيين لاختراق الدوائر الحاكمة

الإسرائيلية ، وفى الوقت نفسه أوقف محاولات أخرى من قبل الدول العربية وعملائها .

وفى ذات الوقت تقريبا الذى كشف فيه « هاريل » عن « جولد شتاين / أفنى » بوصفه جاسوسا سوفيتيا فى وزارة الخارجية الاسرائيلية ، ألقى القبض أيضا على « ميرى فرانسيس هاجن » .

كانت « هاجن » صحفية امريكية تعمل فى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك ، وكانت معجبة بالعديد من المندوبين العرب ، ووافقت على التجسس على إسرائيل من داخلها من أجل خطيبها الدبلوماسى السورى « جلاب الخيلى » . وفى ١٩٥٦ ذهبت إلى إسرائيل كمراسلة أجنبية ، وبدأت فى إرسال تقاريرها الى المخابرات السورية . وبدت مهتمة بصورة غير عادية بالحدود الإسرائيلية .. وبدأت « شين بيت » تراقبها على مدار الأربع والعشرين ساعة ..

وألقى رجال « هاريل » القبض عليها ، وتمت محاكمتها أمام محكمة سرية ، ولم يسمح لزملائها المراسلين بحضور المحاكمة .. وادينت بتهمة التجسس فى ٢٧ أغسطس ١٩٥٦ . وقضت ثمانية شهور فى أحد السجون الإسرائيلية . عادت « هاجن » الساذجة إلى نيويورك حيث وجدت لفرط دهشتها أن « الخيلى » لايرغب حتى فى أن يراها فجهود العرب لاختراق إسرائيل لم تكن ، على أية حال ، جهودا جادة .. وقد لاحظ كل من الاسرائيليين ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن أجهزة مخابرات الدول العربية تفتقد القدرة على الاحتمال والاجتهاد المطلوبين للعمليات بعيدة الأمد ، وهى التى تشكل ركيزة أعمال التجسس الجيدة .

فالصبر الجميل والاهتمام بالتفاصيل مطلوبان ، إلى جانب المنطق الهادىء واستبعاد التداخلات العاطفية .

وقد اعتقد المحللون الإسرائيليون والأمريكيون أن قادة الجاسوسية العرب يفتقدون مستوى المهارات المطلوب ..

ومن ناحية أخرى ، نظر إلى الاتحاد السوفيتى بوصفه يمتلك قدرا هائلا من المهارات الطبيعية للتجسس وهى القدرة على البقاء والانتظار ، والدقة فى تجميع

التفاصيل الدقيقة التى تكمل اللغز والفصل الكامل للعواطف عن العمل .

وباختصار ، فإن الروس لاعبو شطرنج ممتازون ولديهم أكثر القطع تهديدا على رقعة التجسس الدولى ..

كان « هاريل » ، وهو نفسه ذو أرومة روسية ، يقدر مواهب خصومه فى الكتلة السوفيتية ، وكان يعلم أن بعضا منهم يتجسسون فى اسرائيل ..

وأحس بأن الأمريكيين كانوا بدون شك على حق عندما حذروا من أن عديدا من العملاء الشيوعيين قد تم زرعهم بين اليهود القادمين من شرق أوربا .. ولم يكن هناك الكثير الذى يمكن أن يقوم به بشأن هؤلاء الذين يعملون فى وظائف صناعية صغيرة أو فى المستوطنات الزراعية ، الذين كانوا يبعثون بتقارير بالبريد عن الحياة فى الدولة اليهودية إلى موجهيهم ومراقبيهم فى المخابرات السوفيتية « كى جى بى » فى الخارج كان « هاريل » الذى يهدف إلى الكمال ، يتمنى من أن يتمكن من القبض عليهم جميعا ، غير أنه ركز على أجتثاث الجواسيس الذين قد يكونوا قد وصلوا إلى مواقع هامة فى إسرائيل من جذورهم .

وقد اتخذت حاسته السادسة ، كصائد للجواسيس الذين طمروا فى المجتمع الاسرائيلى ، وهواجسه تجاه حزب المابام ، أبعادا جديدة عندما اكتشف أن إثنين من أعضاء الحزب اليسارى جاسوسين للاتحاد السوفيتى ..

وفى القضية الأولى ، اشتبهت إدارة مكافحة التجسس فى « شين بيت » فى « أهارون كوهين » ، وهو خبير للمابام فى شئون الشرق الأوسط ، حيث كان يلتقى بانتظام مع دبلوماسى سوفيتى يعمل فى تل أبيب ، ومن المعروف أنه ضابط فى المخابرات السوفيتية « كى جى بى » .

وقد ألقى القبض على « كوهين » فى عام ١٩٥٨ ، غير أن زعماءه فى الحزب شعروا بغضب بالغ واندفعوا لمساندة « كوهين » ، واتهموا « هاريل » بتشويه سمعة صديقهم .. واعترف الجاسوس المتهم بأنه كان يلتقى مع الروس ، غير أنه أصر على أنه لم يقدم لهم أية أسرار وأدين وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ، غير أن المحكمة العليا الاسرائيلية خفضت الحكم بعد ذلك إلى النصف .

كان عضو المابام البارز الثانى الذى ألقى القبض عليه بتهمة التجسس قريبا من رئيس الوزراء بدرجة تثير الصدمة .. فقد حاز الليفتنانت كولونيل « إسرائيل بير » على ثقة « بن جوريون » التى لاشك فيها ، لكن أميط النقاب عن أنه تخلى عن حزبه وعقيدته .

ولد « بير » فى فيينا فى عام ١٩١٢ ، وكان اشتراكيا منذ وقت مبكر من عمره ، وتحكى قصة حياته التى رواها عن قتاله للفاشيست فى الشوارع قبل أن يزحف النازى على النمسا فى عام ١٩٣٨ ..

وقال أنه درس فى الأكاديمية العسكرية فى فيينا وتطوع فى « الفرقة الدولية » التى حاربت الجنرال « فرانكو » فى اسبانيا .

وتوجه إلى فلسطين عام ١٩٣٨ ، ورحب به « الهاجاناه » على أساس ماكان يزعمه من خبرة قتالية .. وساعدته آراؤه الاشتراكية وتعليمه الليبرالى ، وخبرته فى المسائل العسكرية ، على أن يصادق القادة العسكريين اليهود .

وعقب الاستقلال فى ١٩٤٨ ، اقترب « بير » من الحصول على منصب نائب رئيس أركان الجيش .

لكنه على مايبدو شعر بخيبة أمل وغضب ، فاستقال من عمله ، واشتغل مراسلا عسكريا لصحيفة إسرائيلية .

وفى الوقت نفسه تقريبا ، نقل انتماءه السياسى من المابام حيث كان عضوا فى إدارة الأمن بالحزب إلى حزب « بن جوريون » ــ الماباى ــ الأكثر اقترابا من الوسط .. وصادق شخصيات قيادته فى الدفاع ومن بينها « شاءول أفيجور » ، « شيمون بيريز » ، وحتى رئيس الوزراء نفسه .

وقبل مضى وقت طويل ، سلم « بن جوريون » يومياته الشخصية إلى « بير » وطلب منه كتابة التاريخ الرسمى لحرب الاستقلال :

وأدت هذه الوظيفة المؤقتة دورها بوصفها مركزا ممتازا للمراقبة ، وسمحت لبير بالاطلاع على أكثر الوثائق سرية وحساسية حول دفاع إسرائيل .

وبدأت الشكوك تحوم حول « بير » فى عام ١٩٥٦ .. ولم يكن الجنرال « موشى ديان » يتحدث إلا بصيغة شبه فكاهية عندما أشار إلى المؤرخ العسكرى قائلا : ماذا يفعل هذا الجاسوس هنا ؟ » .

كان ذلك قبيل مغادرة « بن جوريون » و « ديان » ومرافقوهما مباشرة إسرائيل فى طريقهم إلى فرنسا لإجراء المحادثات السرية فى « سيفر » التى أدت إلى ارسال القوات الإسرائيلية والبريطانية والفرنسية إلى السويس .. واندهش « ديان » عندما وجد « بير » متواجدا فى موقع التجمع السرى بالرغم من أنه لم يكن من المقرر أن يطير إلى باريس .

أضمر « هاريل » شكوكه فى نفسه ، وأمر بمراقبة « بير » غير أن « آموس مانور » الرئيس الاسمى لوكالة « شين بيت » تردد فى اتخاذ إجراء ضد صديق رئيس الوزراء ، وبوصف « هاريل » المسئول الأول عن وكالات المخابرات ، فقد اضطلع بالمسئولية وأمر بإلقاء القبض على « بير » ، إذا أمكن ضبطه متلبسا ، وتم ذلك فى ٣١ مارس عام ١٩٦١ ..

وألقى القبض على « بير » بواسطة « شين بيت » وضباط من البوليس وهو يسلم وثائق إلى « فيكتور سوكولوف » وهو ضابط تابع لوكالة المخابرات السوفيتية ويعمل تحت غطاء أنه دبلوماسى سوفيتى فى تل أبيب ..

وكان الملف يحتوى على مقطتفات من يوميات « بن جوريون » وتقرير سرى من مؤسسة عسكرية إسرائيلية ..

كان « بير » قد لفت نظر « هاريل » عندما أقام صلات لم يؤذن له بها مع الجنرال « رينهارد جيهلين » رئيس وكالة المخابرات الألمانية الاتحادية « BND » وقد تمتع « جيهلين » ووكالته بمكانة خاصة فيما يتعلق بخطط منظمة خلف شمال الأطلنطى للدفاع عن أوربا ..

وخلال الحرب العالمية الثانية ، عمل « جيهلين » فى وحدة المخابرات العسكرية التابعة لهتلر ، المعروفة باسم « Abwehr » ، والتى كانت مسئولة عن ادارة الجواسيس فى الاتحاد السوفيتى . والآن وهو يعمل مع وكالة المخابرات المركزية ،

ووكالة المخابرات البريطانية « MI6 » فقد أحيا عملاءه الكامنين فى روسيا .

وقد وعى السوفيت التهديد الذى تشكل وكالة المخابرات الألمانية الاتحادية وأرادوا أن يكشف لهم أحد عما يفعله « جيهلين » .

وكان « بيرى » بوصفه مسئولا اسرائيليا كبيرا من شأنه أن يحظى بالثقة من جانب بون ، من المحتمل أن يستطيع اكتشاف الحقيقة لسادته الحقيقيين فى « كى جى بى » .

منح الألمان الغربيون ، الذين كانوا تملأهم الرغبة فيما بعد الحرب لإرضاء الإسرائيليين ، بير فرصة مذهلة للاقتراب من الجيش الألمانى ، ومنشآت حلف شمال الأطلنطى ، والقواعد الأمريكية وغيرها ..

وحصل « بير » لموجهيه السوفيت ، حتى على تفاصيل عقود إنشاء مواقع الصواريخ النووية الأمريكية فى أوربا ..

وكنتاج ثانوي لمغامراته الجاسوسية ، قدم للسوفيت معلومات عن مشتروات إسرائيل من السلاح ، وزيارات الضباط الإسرائيليين إلى أوربا ، والحالة المعنوية للجيش الإسرائيلى ..

وقد تشكك « هاريل » فى أن الشيوعيين زرعوا « بير » فى اسرائيل منذ البداية ، وجرى تنشيطه بناء على أوامر من مراسل وكالة « تاس » السوفيتية فى تل أبيب عام ١٩٥٦ ..

وكان الروس يدفعون إلى « بير » نقدا ، وقد بدد هذه الأموال على الفور على النساء والحانات والمطاعم ..

وتشبه قصة حياته إلى حد كبير قصة حياة الخائن البريطانى « كيم فيلبى » .. فكلاهما كان متعاطفا مع الشيوعية وجندتهما المخابرات السوفيتية فى اسبانيا أيام الحرب الأهلية كعميلين كامنين [نائمين] يتم تنشيطهما فى وقت لاحق ..

واخترق « بير » ، مثله مثل « فيلبى » ، قلب مؤسسة الأمن فى بلاده ، وأصبح ذا قيمة فائقة بالنسبة للسوفيت قبل أن ينهى عمله كصحفى ناجح ..

وعلى أية حال ، فإن الغرب لم يلق القبض على « فيلبى » أبدا ، بعكس « بير » الذى تم ضبطه ، والذى اعترف فى المحكمة أنه اخترع ماقاله عنه ماضيه وأنه لم يحصل أبدا على درجة الدكتوراه فى التاريخ ، كما كان يتفاخر ، كما أن قدمه لم تطأ إسبانيا على الاطلاق .

وقد ازدادت التكهنات حول شخصيته الحقيقية عندما أنكر ، وهو فى السجن ، الاعترافات التى أدلى بها فى المحكمة ، وزعم أن سيرة حياته الأصلية كما رواها هى التى تمثل الحقيقة ..

وحتى بدون معرفة اسمه الحقيقى أو تاريخه السابق فإن القضاة الإسرائيليين وجدوا أن الأدلة المقدمة ضده لاتقبل الجدل ، وأن محكمة تل أبيب لديها من الأسباب مايكفى لإصدار الحكم ضده بالسجن ١٥ عاما بتهمة التجسس .. وحتى يوم وفاته فى السجن عام ١٩٦٦ ظل يؤكد بإصرار أنه لم يكن جاسوسا ولكن وطنيا مخلصا يسعى فقط لأن يجعل من إسرائيل دولة محايدة بدلا من كونها دولة موالية للغرب ..

وحتى لو لم يوجد « بير » على الاطلاق ، فإن الأمريكيين كان سيظل لديهم من الأسباب مايدعوهم إلى الشك فى قدرة إسرائيل على منع الجواسيس الكامنين من اختراق مؤسسة الأمن الإسرائيلية .فإسرائيل الصغيرة كانت منذ مولدها فى ١٩٤٨ مستهدفة من قبل أجهزة التجسس السوفيتية كما كانت مصدرا كبيرا لتسرب الأسرار ..

فالروس كانوا مهتمين بموقع اسرائيل الجغرافى ، وبعلاقاتها الواسعة مع الغرب ..

وتشكل العملاء السوفيت من الدبلوماسيين والصحفيين والوفود العلمية والتجارية من أوربا الشرقية .

كان المطلوب وجود شبكة واسعة من العملاء لدعم هذا النشاط الواسع ، وكان لدى السوفيت مايقرب من ستين شخصا يعملون فى سفارتهم فى تل أبيب ، نصفهم تقريبا عملاء لوكالة المخابرات السوفيتية « كى جى بى » أو عملاء « ادارة المخابرات الرئيسية لهيئة الأركان العامة » « GRU » ..

وقد قام السوفيت بتجنيد عملاء إسرائيليين لكنهم فضلوا تجنيد غير الشيوعيين فى المؤسسة الاسرائيلية ، وذلك بسبب الشكوك التى أحاطت بالشيوعيين المحليين وخضوعهم لرقابة « شين بيت » .

وكانت زوجات الدبلوماسيين من بين أهداف التجسس .. ففى صيف عام ١٩٥٥ عادت زوجة دبلوماسى إسرائيلى كبير ، يعمل فى دولة شيوعية بأوربا الشرقية ، إلى بلادها فى زيارة .. وفى تل أبيب ، من دون كل الأماكن ، التقت بدبلوماسى سوفيتى وأحبته .

وعلمت « شين بيت » ، التى كانت تراقب الروسى ، بالعلاقة على الفور ، واستدعى رجال « هاريل » السيدة إلى مقر الوكالة وطلبوا منها قطع كل صلة لها بعشيقها .

وفى الوقت نفسه ، وبهدف حماية الزوج من الابتزاز ، تم استدعاؤه ، بدون تفسير ، إلى النمسا حيث أصيب بالدهشة عندما وجد « هاريل » بنفسه ينتظره فى غرفته بالفندق فى فيينا .

ودون أن يتلعثم ، أبلغ « هاريل » الإسرائيلى الديوث بحقائق الحياة : أن زوجته تضاجع السوفيتى وأنه ترتيبا على ذلك سيتم نقله خارج الكتلة الشيوعية ، وقد تفهم الدبلوماسى ضرورة ذلك غير أنه اضطرب بسبب الزنا والتغيير المفاجىء لمجرى حياته الوظيفية ..

وقد تم تحذير الدبلوماسيين الإسرائيليين ، قبل مغادرتهم للعمل فى أوربا الشرقية ، من التورط فى علاقات غرامية وفى الحقيقة ، فإن وزارة الخارجية رفضت إرسال أى أعزب أو أية عزباء إلى داخل الستار الحديدى ، وتم تعيين ضباط أمن من « شين بيت » فى كل سفارة لبحث أى تعرض محتمل للابتزاز .

وعلى أية حال ، فإن مثل هذه الاحتياطات لم تكن كافية أبدا عندما تتحرك الشهوات والعواطف والحماقات الانسانية ..

ففى فبراير عام ١٩٥٩ ، تلقى دبلوماسى إسرائيلى كبير فى إحدى عواصم أوربا الشرقية رسالة تقول :

سـيدى العـزيز

منذ فترة مضت ، وقعت مجموعة من الصور الحساسة فى حوزتى وهى تكشف علاقتك الحميمة مع الأنسة داجمار نوفوتنا .

وإذا استخدمت هذه الصور لابتزازك أو لابتزاز المرأة المصورة معك ، فليس هناك أدنى شك فإن هذا لن يكون أمرا طيبا لك او للانسة « داجمار نوفوتنا »

ولقد فكرت فى الأمر ، وتوصلت إلى النتيجة التالية : من الممكن أن يظل الأمر سرا بشرط أن تحضر إلى فيينا فى المستقبل القريب لتتحدث مع مساعدى ، وهو يحظى بثقتى التامة . وينبغى أن تصل إلى فيينا بحلول نهاية فبراير ..

واقترح أن تنزل فى فندق « ساش » .

وأرجو أن يصلنى ردك فى غضون أربعة عشر يوما من تاريخ تسلمك لهذه الرسالة »

وقام الدبلوماسى ، فى تحد شجاع لخطر الفضيحة المشئوم ، بإبلاغ وزارة الخارجية بمحاولة الابتزاز ، وسارع رؤساؤه إلى نقله خارج الكتلة الشرقية .

نبع سعى « هاريل » . الذى لايهدأ للكشف عن خونة إسرائيل ، من اهتمامه الصادق بأمن الأمة الممزوج بكراهيته الشخصية للشيوعية وبالإضافة إلى ذلك ، فإن « هاريل » ــ مثله فى ذلك مثل « شيلوح » من قبله ــ أراد أن يثبت للولايات المتحدة أن إسرائيل شريك يعتمد عليه .

وبوصفه متصلبا بطبعه ، مثل الصليبى الذى يسعى دوما نحو الكمال ، فقد حاول « هاريل » أن يثبت أنه يمكن أنْ يكون اكثر قداسة من البابا نفسه .

وإذا كان « ألن دالاس » فى وكالة المخابرات المركزية وشقيقه « جون فوستر دالاس » فى وزارة الخارجية الأمريكية يريان شخصا أحمر اسفل كل مرقد فإن « هاريل » كان بسبيله إلى أن يوضح أنه ينبغى إزالة حتى اللون الوردى من غرف النوم الاسرائيلية .

ولذلك فإن « هاريل » أحس بخيبة الأمل عندما اكتشف ، فى عام ١٩٦٠ ، أن

البروفيسور « كورت سيتا » اخترق المجتمع العلمى الاسرائيلى .

ولد « سيتا » عام ١٩١٠ فى إقليم السوديت بتشيكوسلوفاكيا لاسرة ألمانية غير يهودية ، ودرس فى براج واظهر عبقرية فى الفيزياء والرياضيات .

وألقى الجستابو القبض عليه ، وسجن فى معسكر اعتقال « بوخنفالد » لأن زوجته كانت يهودية .

وواجه تجربة رهيبة مع عدد من الشيوعيين البارزين الذين كانوا معه فى معسكر الاعتقال ..

وعندما عمل هؤلاء مع المخابرات التشيكية فى أعقاب الحرب ، قاموا بتجنيد صديقهم « سيتا » ليصبح جاسوسا .

درس « سيتا » الفيزياء النووية فى بريطانيا ، ثم قام بعد ذلك بتدريسها فى جامعة « سيراكوز » فى نيويورك .

وقد قام مكتب التحقيقات الفيدرالية « **FBI** » بالتحقيق معه لاعتقاده بأنه عميل شيوعى ، وعرض عليه استئجار خدماته كعميل مزدوج ..

وهكذا أحيطت مغادرته للولايات المتحدة قاصدا البرازيل فى ١٩٥٣ بظروف غامضة .

وبعد عامين ، وجهت إليه الدعوة لإلقاء محاضرات فى معهد « تكنيون » فى حيفا ، واكتشف أنه يحب المعهد ، والبلد ، والشعب ، أو هكذا قال عندما قبل بسرور منصب رئيس قسم الفيزياء فيه .

وقد أتاح نجاح « سيتا » الباهر فى إسرائيل ، وبوصفه أجنبيا غير يهودى ، فرصة ذهبية للتشيك وسادتهم السوفيت .

وقام ضابط مخابرات يعمل تحت غطاء دبلوماسى ، فى السفارة التشيكية فى تل أبيب ، بمقابلة البروفيسور بصورة متكررة فى الفترة من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٠ وحصل منه على كم هائل من المعلومات .. واستمر الأمر على هذا النحو حوالى خمس سنوات غير أن « شين بيت » كشفت فى نهاية المطاف عملية التجسس ..

وفى ليلة ١٦ يونيو ١٩٦٠ ، وكانت ليلة صافية وباردة بعض الشيء ، قرع رجلان باب فيللا « سيتا » فى شارع « حوريب » بإحدى ضواحى حيفا المنعزلة التى تقع على البحر الأبيض المتوسط كما تطل سان فرانسيسكو على الخليج الواقعة عليه .

وكان أحد الرجلين من « شين بيت » ، والاخر من الفرع الخاص للبوليس الوطنى ، واقتادا « ستيا » بعيدا للتحقيق معه بتهمة التجسس .

وقد صدم أصدقاؤه وتلامذته وزملاؤه فى كل من معهد « تكنيون » وفى القيادة السياسية الإسرائيلية . من جراء القبض عليه ، ولم يصدقوا الاتهامات الموجهة إليه الا بصعوبة ، إلا أن البعض منهم صدم مرة أخرى ، عندما حضروا المحاكمة ، لسماعهم كيف كان جاسوسا ضارا .

وقد ركز « سيتا » على لجنة الطاقة النووية الإسرائيلية التابعة للبروفيسور « بيرجمان » .. وجاء القبض على « سيتا » ، سواء بالمصادفة أو بغيرها ، قبل يومين فقط من تشغيل المفاعل النووى الإسرائيلى فى « ناحال سوريك » .

ويرى المحللون الإسرائيليون تشابها بين نشاطه ونشاط « جوليوس وإيثيل روزنبيرج » فى الولايات المتحدة و « كلاوس فوكس » فى بريطانيا ، الذين أفشوا أسرار بلادهم النووية للكتلة السوفيتية .

وحكم على « سيتا » بالسجن لمدة خمس سنوات غير أن إسرائيل سارعت ، لتجنب الحرج ، بالعفو عنه ليبدأ حياة أكاديمية جديدة فى ألمانيا الغربية .

وبذل « هاريل » والأجهزة السرية الاسرائيلية جهودا لإصلاح الضرر الذى لحق بسجلهم كصائدين للجواسيس الكامنين ، وهو السجل الذى كان معصوما من الخطأ حتى حادث « سيتا » .

وزعموا أنه مجرد سمكة صغيرة ، عمل على نطاق ضيق بالتجسس تحت ضغط الابتزاز ، بعد أن هدده البوليس السرى التشيكى بالحاق الأذى بوالده الكهل الذى كان مازال يحيا هناك ..

وأصر « هاريل » على أن « سيتا » لم يمد الشيوعيين سوى بمعلومات غير هامة لاتمس المسائل النووية .كما ألقى باللائمة أيضا على مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكى « FBI » لعدم إبلاغه اسرائيل من قبل بكل مايعرفه عن « سيتا » ، ولو كانت « شين بيت » قد أبلغت بطريقة مناسبة لكان ضبط فى وقت مبكر ..

أمكن لهاريل أن يجد السلوى والنجاح فى جهوده المتواصلة لاحضار مزيد من المواطنين إلى إسرائيل فإلى جانب همومه لاصطياد العملاء الكامنين وتتبع الجواسيس ، شكلت الهجرة اليهودية أحد اهتماماته الدائمة ..

وكان « روفين شيلوح » ، أول رئيس للموساد ، قد بادر منذ البداية بادخال مؤسسة المخابرات فى عملية الهجرة ، غير أن « هاريل » طور ذلك ليصبح فنا رفيعا .

وعقب بضع سنوات من عدم النشاط النسبى على جبهة الهجرة حدث إيقاظ جديد فى عام ١٩٥٣ للوعى العرقى بين أكبر جاليتين يهوديتين شكلتا خزانين لمواطنى إسرائيل فى المستقبل ، وكان ذلك فى الكتلة السوفيتية وفى العالم العربى ..

وكان المحارب القديم « شاءول أفيجور » رئيس وكالة الهجرة قد وجد نفسه بلا عمل بعد حل وكالة الهجرة السرية فى عام ١٩٥٢ . وعاد إلى كيبوتز « كينيريت » على ساحل بحر الجليل ، وهو يشعر بالإحباط بعد أمضى عقدين فى العمل السرى النشط من أجل شعبه .. ووجد « أفيجور » بعض المساعدة من « موشى شاريت » وزير الخارجية ، وشقيق زوجته الذى أصبح فى ديسمبر ١٩٥٣ رئيسا للوزراء عندما بدأ « بن جوريون » اعتكافه عن منصبه لمدة عامين ..

فقد اتصل « شاريت » تليفونيا بإيسر هاريل ، وطلب منه أن يفعل شيئا من أجل « أفيجور » .

وقال له رئيس الوزراء الجديد : « أعد شاءول إلى العمل »

بدا « هاريل » ممانعا ، إلا أن رغبته فى الحفاظ على علاقات ودية مع « شاريت » ، جعلته يوافق على إنشاء منظمة جديدة أطلق عليها ببساطة اسم « مكتب الاتصال » . وأصبح « أفيجور » رئيسا له ، غير أن الغموض أحاط بالتفاصيل الخاصة به ، مثل الجهة التى يتبعها .. فقد اطلق على « أفيجور » لقب

غامض هو « مساعد الشئون الخاصة ، لوزير الدفاع » إلا أن مقر المكتب كان موجودا فى وزارة الخارجية فى الوقت الذى كان تابعا فيه لمكتب رئيس الوزراء من الناحية الإدارية .

تحددت الواجبات الأولى لمكتب الاتصال فى إدارة الصراع ، داخل إسرائيل وخارجها ، للسماح لليهود بمغادرة الاتحاد السوفيتى .

وعمل « مكتب الاتصال » على ضمان تجميع كافة اليهود تحت سقف واحد لتحقيق ذلك الهدف ..

لم يكن هناك أى خلافات أو مجادلات حقيقية بين وكالات المخابرات المتعددة لمنع أو إرجاء مولد الوكالة المتخصصة فإعادة اليهود السوفيت إلى وطنهم الصهيونى كان مهمة تحوز الاجماع وبوصفها نتاجا حقيقيا للوحدة والهدف المشترك ولم يأت توقيت إنشاء هذه الوكالة صدفة أو لمجرد تقديم خدمة لافيجور ولشقيق زوجته « شاريت » بل نتيجة لحسابات سياسية هادئة . فطوال الفترة التى احتفظت فيها إسرائيل بعلاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتى والدول التابعة له ، لم تكن راغبة فى إثارة ضيق الكتلة السوفيتية كما حاولت أن تخفف من حدة المسألة اليهودية إلا أن إسرائيل قررت ، عقب إنتهاء الحرب الكورية ، انتهاج خط موال للغرب بوضوح وأحست أنها لن تخسر شيئا من وراء ذلك ..

وثبت أن ذلك كان صحيحا ، وذلك بعد أن توقفت الهجرة من المجر ورومانيا وبولندا ، وبعد أن وردت تقارير مزعجة عن العداء للسامية إبان حكم ستالين ..

ولكى ينفذ « مكتب الاتصال » مهمته ، كما هو واضح من اسمه ، وهى الحفاظ على الاتصال باليهود ، بعث « مكتب الاتصال » بدبلوماسييه الخاصين إلى الاتحاد السوفيتى حيث توجد ثانى أكبر جالية يهودية فى العالم ، وهى تضم ثلاثة ملايين يهودى ، وهى تلى فقط الجالية اليهودية فى الولايات المتحدة والتى تتشكل من ستة ملايين يهودى .

اختار « أفيجور » ممثليه بعناية تامة ؛ فتعين أولا أن يكونوا من المتطوعين الذين تحدوهم « بواعث صهيونية قوية ، وأن يكونوا على دراية بالتقاليد والعادات اليهودية

لأن جل عملهم سيتركز على الالتقاء مع اليهود فى المعابد ، ومن العار على إسرائيل أن تبعث بممثلين غير مؤهلين للعبادات الدينية التقليدية ..

وتعين على دبلوماسى « مكتب الاتصال » أن يكونوا فى سن صغيرة نسبيا ليتحملوا المشاق البدنية والعقلية للمهام المنوطة بهم .

فوجودهم فى موسكو يمكن أن يكون غير مريح تماما ، فهؤلاء الرجال والنساء عليهم أن يسافروا إلى كافة أرجاء الاتحاد السوفيتى عبر طرق طويلة ومرهقة . وتم تفضيل المتزوجين الذين لديهم أسر ، فإسرائيل لم ترغب فى وجود أى أعزب فى سفاراتها ، لأنها شعرت أنهم سيكونون أكثر عرضة للافساد عن طريق الإغراءات الجنسية . كما كان على المرشحين أن يتحدثوا اللغة الروسية بصورة معقولة ..

وكان أحد رجال « أفيجور » فى موسكو ، هو « اريه [لوفا] إلياف » ، الذى عمل طويلا معه من قبل فى وكالة الهجرة السرية ، كمبعوث سرى . وتم إرساله إلى الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٥٨ كسكرتير ثان فى السفارة الإسرائيلية .

وبالإضافة إلى عمله كعضو فى الفريق القنصلى والتعامل فى الممتلكات والعلاقات الثنائية ، كشف « إلياف » فى مذكراته عن عمله الذى اشتمل على دس التقاويم اليهودية التى يمكن وضعها فى الجيب والمعاجم العبرية ــ الروسية الصغيرة فى جيوب ستراث اليهود فى المعابد .

كما قام الدبلوماسيون أيضا بتوزيع كتب الصلوات والكتاب المقدس [التوراة] ، والصحف الإسرائيلية والكتب باللغة العبرية ، على الرغم من معرفتهم بأن السلطات السوفيتية تعتبر تلك الأعمال من أعمال « الدعاية المعادية للدولة » .

علمت وكالة المخابرات السوفيتية « كى جى بى » طبيعة وظيفة « إالياف » بدرجة أو بأخرى ، ورتب البوليس السرى لاغوائه فى الوقت المناسب .. فذات يوم و « إلياف » فى طريقه من موسكو إلى جامعة لينجراد ، لاحظ وجود سيدة شابة جذابة للغاية فى محطة قطار العاصمة ..

وكانت ذات طابع أوربى يندر وجوده إلى حد بعيد فى موسكو ، وكان من الصعب مقاومة التطلع إليها .

والتقى بها مرة ثانية مساء اليوم نفسه فى الفندق فى لينينجراد .

وعلى الرغم من أنه كان على ثقة تامة من أن المرأة قد أرسلت لتعرضه للخطر ووضعه فى مخالب ابتزاز « كى . جى . بى » ، إلا أن « الياف » قرر أنه لن يمكن أن يتعرض للأذى إذا ماقام بمغازلتها فقط ، ووثق فى أنه يمكن أن يصمد فى مواجهة أية إغراءات أخرى .

وطلب « إلياف » من المرأة الغامضة أن تراقصه ورحبت بذلك بحماس ، ولم يكن الإسرائيلى يعرف شيئا عن رقصة التانجو مطلقا التى رقصها تلك الليلة . لكنه أحس بدفء المرأة عندما تعلقت به ، وكانت القبلات الحارة على شفتيه بمثابة دعوة لمزيد من الاستمتاع ..

عند هذه النقطة ، قرر « إلياف » أن الأمور ذهبت إلى مدى بعيد جدا ، وأن اللعبة قد تصبح خطيرة .. فهرب من أحضان المرأة إلى مأواه الانفرادى فى غرفة فندقة ، وأغلق الباب بالمزلاج حتى صباح اليوم التالى .

فقد كان يعرف أنه لو ضبط مع هذه المرأة فأن التمثيلية التى ستعقب ذلك قد تتضمن ظهور « زوج مخلوع » يهدد بقتله ، ثم وساطة العاملين فى الفندق ، وأخيرا التوصل إلى « ترتيبات » سعيدة تتطلب أن يصبح « إلياف » عميلا مزروعا لوكالة المخابرات السوفيتية فى سفارته .

وهناك أساليب سوفيتية أخرى تتمثل فى استخدام الكاميرات الخفية لتصوير الأهداف المطلوب تجنيدها أثناء ممارستهم للجنس ، واستخدام الفيلم للابتزاز .

وهناك رواية متداولة بين الدبلوماسيين الإسرائيليين وغيرهم بأن الرئيس الأندونيسى « سوكارنو » كان على علاقة غرامية مع عميله لوكالة « كى جى بى » وعندما عرض عليه العملاء السوفيت الصور التى تكشف تورطه ، لم يعر الأمر اهتماما .. ويقال أنه أشار إلى اللقطات بلا مبالاة وقال :
« يسرنى أن أحصل على ست صور من هذه اللقطة و ١٢ صورة من تلك » .

نبع اهتمام المخابرات السوفيتية الخاص بالدبلوماسيين التابعين لمكتب الاتصال ، من

أن وكالة « كى جى بى » كانت واثقة من أن هؤلاء الإسرائيليين جواسيس وهكذا حاول السوفيت الحصول على معلومات بشأنهم حتى قبيل مغادرتهم إسرائيل متوجهين إلى بعثاتهم .

ففى مارس ١٩٥٨ ، أبلغت إسرائيل السفارة السوفيتية لدى تل أبيب أن الليفتنانت كولونيل « موشى جات » سيرسل إلى موسكو للعمل كسكرتير ثان فى السفارة الإسرائيلية هناك . وطلب « مكتب الاتصال » تأشيرة لدخوله وهنا طلب دبلوماسى سوفيتى يعمل كعميل سرى من أحد مخبريه الإسرائيليين تقريرا عن « جات » ، إلا إنه لسوء حظ رجل المخابرات السوفيتية ، فقد كان الإسرائيلى الذى طلب منه التقرير عميلا مزودجا ، وأبلغ الأمر على الفور لضابط الحالة المسئول عنه الأصلى فى إدارة مكافحة التجسس فى « شين بيت » .

وعندما كان يصل الدبلوماسيون التابعون لمكتب الاتصال إلى الاتحاد السوفيتى ، كانت السلطات هناك تفرض عليهم قيودا مشددة على انتقالاتهم بشكل خاص وتحاول منعهم من مقابلة اليهود .

ويقول « إلياف » فى مذكراته : « إن رجال كى جى بى » كانوا يتابعوننا على مدار الأربع والعشرين ساعة عندما نروح ونجىء حتى داخل منازلنا وغرفنا فالمتابعة العلنية والسرية ، والمراقبة الالكترونية والبصرية ، كانت جميعها متاحة لوكالة « كى جى بى » وبالاضافة إلى ذلك فقد تعرض كل العاملين منا تقريبا لإجراءات أشد ، بدءا من تعريضنا لفضائح مدبرة من « مواطنين غاضبين » ، وحتى تدبير الهجمات ضدنا وتهديدنا بالسجن » .

كانت السلطات السوفيتية تعرف أن المعابد ، فى حالة غياب أية مؤسسات يهودية أخرى ، لن تكون أكثر من مجرد بيوت للعبادة ، فحاولوا إبعاد الدبلوماسيين الإسرائيليين عن اليهود القلائل الذين يحضرون قداس السبت والأعياد الدينية .

وفى حالة أخرى ، ركزت وكالة « كى جى بى » اهتماما خاصا على « إلياهو هزان » ، وهو سكرتير ثان آخر فى السفارة فى موسكو .

وقد اكتشف الإسرائيلى فى نهاية المطاف أن الخادمة التى تعمل فى شقته عميلة

لوكالة « كى جى بى » ، ولم يكن هذا بالأمر المستغرب ، لكن إصابة زوجته بنوبة من التسمم الغذائى كان أمرا مستغربا حقا .

فقد عانت من اضطرابات شديدة فى المعدة عقب وصولها هى وزوجها إلى « أوديسا » على البحر الأسود للقاء مصدر معلومات يهودى فى سبتمبر ١٩٥٥ .

ونقلت « روث هزان » على الفور إلى المستشفى بعد خروج زوجها مباشرة لاجتماعه .

عندما عاد « هزان » إلى فندقه ، أوقفه رجل « كلأ جى بى » وطلبوا منه أن يرافقهم ، واحتج على احتجازه محتمياً بحصانته الدبلوماسية ، لكن البوليس السرى تجاهل الأعراف الدولية وأتهمه بالتورط فى نشاطات معادية للسوفيت .

وأبلغوه أن بعض الكتب التى سلمها لليهودى السوفيتى تعتبر من كتب الدعاية المحظورة ، واستمر التحقيق معه لعدة ساعات ، وركزوا أسئلتهم على لقاءاته مع اليهود ضاعف السوفيت من ضغوطهم ، وطلبوا من « هزان » العمل معهم وأبلغوه أن خامته حامل بطفل منه – وهو أمر مستحيل من الناحية الفسيولو.ية من جهة نظر إسرائيل – وهددوه بنشر الفضيحة مالم يوقع على بيان بأن تطوع للتجسس لحسابهم ، وأكدوا له أنه إذا لم يتعاون فإن « زوجتك لن تشفى من اضطرابات المعدة التى تعانى منها » .. وبذلك أصبح واضحاً أن السم قد دس لها .

أنهارت مقاومة « هزان » ، ووافق على أن تصبح عميلاً للسوفيت ، وظلت وكالة « كى جى بى » تعطيه التعليمات على مدى ثلاثة أيام ، وقدمت له دفعة مالية أولى قيمتها ١٥٠٠ روبل لنفقاته .. وشعرت زوجته « روث » بالتجسس ثم عادوا معا من أوديسا إلى موسكو ، وظل « هزان » يعانى لمدة يومين من وخز الضمير . وأحس زملاءه فى السفارة بأنه متوتر ومرعوب .. فدعاه السفير « يوسف أفيدار » لتبادل الحديث معه ، فأعترف له « هزان » لما اقترفه ..

ووضع « هزان » بصحبة أحد زملائه الدبلوماسيين ، على متن أول طائرة متجهة إلى إسرائيل وهناك فصل على الفور من وزارة الخارجية ، غير أنه لم تتخذ أية إجزاءات تأديبية ضده ..

وفى أواخر ١٩٥٥ ، عندما كان (موشى شاريت) يعمل وزيراً للخارجية ، كتب فى يومياته يقول : « أنه لأمر مخجل ألا يتمكن أحد رجالنا من المقاومة بل أنهار أمام التهديدات وتحطم .. هذه وصمة عار لنا » وفى الشرق الأوسط ، وهو ميدان المعركة الآخر للهجرة السرية ، بحث الدبلوماسيون البدلاء لإسرائيل عن سبل للعودة إلى العمليات المثيرة التى أدت إلى خروج يهود العراق واليمن .

وكانت الموجة البشرية الكبيرة التالية لليهود السفارديم [الشرقيين » متوقعة أن تأتى من مصر فى نوفمبر ١٩٥٦ .. ففى بداية حملة السويس/سيناء ، بعث « شاءول أميخور » بمجموعة صغيرة من رجال إلى مصر ، وانحصرت مهمتهم فى الاستفادة من العمليات العسكرية المشتركة مع البريطانيين والفرنسيين لإقامة صلات مع اليهود المصريين وتدبير أمر خروجهم سراً إلى إسرائيل .

وفى ٩ نوفمبر ، توجه « لوفا إلياف » و « أفراهام دار » ، الذى كان مسئولاً عن شبكة التجسس الإسرائيلية فى ١٩٥١ ، إلى مصر وبرفقتهما فتى لاسلكى يتبع وكالة المخابرات العسكرية « أمان » على متن طائرة عسكرية فرنسية ، وهم يرتدون الذى العسكرى الفرنسى ، ووصلوا إلى بورسعيد عند مدخل قناة السويس .

وبدأت عملية « توشيا » أى المكر بأمل أن يتمكن عملاء المخابرات من الأتصال باليهود المصريين وإقناع غالبيتهم بالهجرة إلى إسرائيل .

وتحددت الخطة بالنسبة إلى « إلياف » و « دار » وفنى لاسلكى فى التقدم مع القوات البريطانية والفرنسية فى زحفها إلى القاهرة والأسكندرية اللتين تضمان جاليتين يهوديتين كبيرتين يقدر عددهما بالآلاف .

وعندما أوقفت القوات البريطانية والفرنسية غزوها ، وجد الإسرائيليون الثلاثة أنفسهم لايستطيعون الخروج من بورسعيد ، حيث لم يكن هناك سوى مائتين من اليهود معظمهم من المنسنين ..

غير أنه كان مازال أمامهم عمل ليؤدوه ، فقد توجه « إلياف » و « دار » إلى المعبد المحلى حيث أخفيا .

ففى الثانى من مارس ١٩٥٦ ، انتهى الحكم الاستعمارى الفرنسى للمغرب ، وحتى ذلك الوقت وعلى مدى ثمانى سنوات ، كانت بوابات الخروج فيها مفتوحة وانتقل خلالها حوالى مائة ألف يهودى مغربى إلى إسرائيل .

وخلال الأيام الأولى للاستقلال ، خضعت الحكومة الجديدة لضغوط الدول العربية الشقيقة ، وحظرت خروج اليهود .

وأعلن الرئيس المصرى عبدالناصر بمرارة أن المهاجرين اليهود يتحولون على الفور إلى جنود إسرائيليين يقتلون العرب ..

ومن الطبيعى أن مصير المائة ألف يهودى المتبقين فى المغرب ، كان مصدر قلق بالغ فى إسرائيل .

وكان « هاريل » المسئول عن مؤسسة المخابرات قد تنبأ بذلك قبل عامين ، عندما كان المغرب مازال تحت الحكم الفرنسى .

وتأهبا لأى توقف غير متوقع لحملة الهجرة ، كان « هاريل » قد أنشأ بنية أساسية سرية للنشاط الصهيونى فى المغرب .

وجندت الموساد فريقا من أعضاء الكيبوتزات ومن ضباط الاحتياط من ذوى الأصل المغربى الذين يتحدثون العربية والفرنسية . وكانوا جميعا من وحدات قتالية والافضلية لمن كانت له خبرة فى الأنشطة السرية .

هويتهما إلى حد ما ، وعرضا على اليهود ترلاتيب خروجهم من مصر بطريقة آمنة .. وأكتشف يهود بورسعيد أن « الفرنسيين » اللذين التقوا بهما ، هما عميلان سريان إسرائيليان ..

وحزم ٦٥ شخصاً منهم حقائبهم ، ونقلوا إلى الميناء وصعدوا على متن مركبتين للإنزال تابعتين للبحرية الفرنسية .

وبعد أن أبحرت المركبتان مسافة بضعة أميال داخل البحر الأبيض المتوسط ، التقيا بسفينتين تابعتين لسلاح البحرية الإسرائيلية الصغير .

وجرت عملية تمويه بمساعدة العملاء السريين الفرنسيين ، لتبدوا السفينتان على أنهما سفينتا الصيد الايطاليتان « أفروديت » وكاستيللو ديل مير .. ونقل البحارة الفرنسيون المسنين والنساء من مركبتى الإنزال إلى السفينتين الإسرائيليتين حيث أستقبلهم « شلومو هليل » العميل المتمرس والذى كان مسئولاً عن عمليات وكالة الهجرة السرية فى العراق .

ورست السفينتان بعد يوم واحد فى حيفا .. وبعد يومين ، عاد « إلياف » و « دار » وفنى اللاسلكى إلى إسرائيل بنفس الطريقة التى ذهبوا بها إلى مصر وذلك بمساعدة المخابرات الفرنسية .

لم يكن الخروج الصغير من بورسعيد سوى مغامرة على نطاق صغير من السهل تنفيذها بفضل المساعدة الفرنسية أما عمليات الترحيل السرى لليهود من الدول الأخرى فقد اشتمل على عشرات الألوف .. وكانت المغرب أبرز مثال على ذلك .

كان ضابط المخابرات المسئول عن الشبكة الإسرائيلية فى المغرب هو « شمويل توليدانو » وعرف وسط زملائه باسم « أمنون » وهو اسم مستعار أطلق عليه عندما ترك الخدمة العسكرية فى « أمان » ليصبح عضوا فى الموساد عام ١٩٥٤ .

عمل « توليدانو » تحت غطاء دبلوماسى فى السفارة الإسرائيلية فى باريس ، حيث تركز عمله على حماية المصالح اليهودية فى مختلف أنحاء العالم ، وهى مهمة لامثيل لها فى أية وكالة مخابرات فى العالم .

تحدد الهدف الأصلى لوحدة « توليدانو » ، التى أطلق عليها اسما شفريا هو « الاطار » فى تنظيم اليهود المغاربة الشباب للدفاع عن جاليتهم ، إذا شن عليهم جيرانهم العرب مذابح منظمة أو مضايقات أخرى .

وعندما انتهت الهجرة المشروعة لليهود المغاربة تحت الحماية الفرنسية فى عام ١٩٥٦ كلفت وحدة « الاطار » بالبحث عن سبيل لتجديد الهجرة بوسائل غير مشروعة ..

وشكل هذا ، من المحتمل دون وعى من « هاريل » ، تكرارا للنمط الذى حدث

فى العراق حتى سقوط الشبكة هناك .. إلا أن عملاء الموساد ، كانوا فى هذه المرة قادرين على التعلم من أخطاء الماضى ، كما كانوا مؤهلين بشكل أفضل للمغامرة ..

وطبقا للنمط الذى ابتكره « شيلوح » فى عام ١٩٥٢ فإن مسئولية تشغيل « الاطار » كانت مشتركة بين الموساد والوكالة اليهودية ..

وعندما ثارت الشكاوى أوقفها « هاريل » ، الذى لم يكن يريد الوقوع فى شرك الانشقاقات على الطريقة العراقية ، عن طريق قيامه فى فبراير ١٩٦٠ بفصل « شلومو هافيليو » نائب « توليدانو » وتعيين « إليكس جاتمون » القائد السرى لوحدة « الاطار » فى المغرب ..

وحتى ذلك الوقت ، غادر المغرب إلى اسرائيل مايقرب من ١٨ ألف يهودى . وأقام عملاء الموساد عدة مقار للقيادة فى المدن الكبرى فى تلك الدولة الجديدة بشمال إفريقيا .. وبدأوا فى استخدام الوثائق المزورة وعدد آخر من وسائل الخداع لترتيب ترحيل اليهود الذين يرغبون فى المغادرة إلى أرضهم الموعودة من قديم الزمان .

وبالنسبة لليهود المتدينين فى شمال افريقيا بدا العملاء الاسرائيليون كما لو كانوا مبعوثى العناية الإلهية ..

وصدرت التعليمات لليهود بأن يتجمعوا فى أماكن مختلفة فى المدن الكبرى ، ومن هناك جرى نقلهم بسيارات النقل والأجرة إلى الحدود .. ولتمهيد الطريق ، دفعت الموساد نصف مليون من الدولارات رشاوى للمسئولين المغاربة .. وكانت إحدى الطرق المفضلة يمر عبر طنجة التى كانت فى ذلك الوقت مدينة دولية ، ومن هناك إلى إسرائيل ..

وبعد ذلك استخدمت مدينتين فى اسبانيا كقاعدتين للمشروع الذى حظى بالتعاون التام من قبل الجنرال « فرانشيسكو فرانكو » ، وهو تعاون نبع ، كما تعتقد الموساد ، من الشعور بالذنب بسبب علاقات إسبانيا الوثيقة مع « هتلر » و « موسولينى » ، وأيضا بسبب طرد اليهود الاسبان فى عام ١٤٩٢ .

وقامت الموساد أيضا بشراء معسكر سابق للجيش على الساحل الجنوبى

لإسبانيا كان يقع داخل مستعمرة جبل طارق البريطانية وتحولت أرض وثكنات المعسكر إلى معسكر لاستيعاب المهاجرين المغاربة .

وعلمت السلطات البريطانية ، بالطبع ، بكيفية استخدام قاعدتهم العسكرية القديمة ، إلا أنها غضت البصر عما يحدث . ومنذ الوقت الذى يصل فيه المهاجرون اليهود إلى المعسكر ، أصبحت الوكالة اليهودية المسئولة عن أوضاعهم ، وإبحارهم إلى ميناء مرسيليا فى فرنسا ، ثم نقلهم بعد ذلك على متن سفن أكبر إلى إسرائيل .

وفى العاشر من يناير عام ١٩٦١ ، حدثت مأساة عندما غرقت سفينة صيد اسمها « بيسيز » وهى مزدحمة باللاجئين اليهود السريين فى عاصفة هبت بين الساحل المغربى وجبل طارق وغرق فى الحادث ٤٣ مابين رجل وإمراة وطفل مع فنى لاسلكى تابع للموساد ..

وقد أثارت الكارثة تعاطفا عالميا ، إلا أنها أدت أيضا إلى حدوث ردود فعل حادة من قبل السلطات المغربية ، التى كشفت الشبكة السرية ، وألقت القبض على عشرات من الصهاينة الناشطين وعرضت العملية بأسرها للخطر .

وطلبت إسرائيل من حكومتى فرنسا والولايات المتحدة ومن المنظمات الخيرية الدولية ممارسة ضغوط على المغرب . ومن حسن الحظ ان الملك الحسن الثانى كان قد تم تتويجه فى بداية شهر مارس وكانت له مصلحة كبرى فى كسب تأييد الغرب بالإضافة إلى أنه لم تكن له مصلحة على الاطلاق فى أن يظهر كما لو كان يضطهد الأقلية اليهودية . وتعاون الملك .

وهكذا فمن سخرية الأقدار ، أصبح لحادث غرق السفينة تأثيرا ايجابيا ، وذلك بالاسراع بهجرة اليهود من المغرب ، وتنظيم المشروع بأسره على نحو أفضل ..

وأطلق على العملية الجديدة لإعادة توطين اليهود المغاربة اسما دينيا هو « ياخين » ، وهو اسم أحد العمودين الرئيسين اللذين كانا يدعمان الهيكل المقدس الذى بناه الملك « سليمان » فى القدس .. وقد نظرت إسرائيل إلى الهجرة كعمود رئيسى يدعم وجودها كدولة يهودية .

كانت عملية « ياخين » مشروعا مشتركا بين المغرب وإسرائيل وفرنسا . وانتشر عملاء الموساد فى كافة الأحياء اليهودية تقريبا فى المغرب ، ودعوا الناس إلى الهجرة للحياة فى موطنهم القديم .. واتسم رد الفعل بالايجابية بدرجة أذهلتهم ..

أعطى رجال الموساد التعليمات بشأن الوصول إلى نقاط الالتقاء ، ثم نقلوا اليهود بسيارات النقل والاوتوبيسات إلى الموانىء المغربية ، ومن هناك تلتقطهم السفن والطائرات ، وقد ساعدت فرنسا فى تنسيق ترتيبات النقل .

وبفضل مشروع « ياخين » ، غادر المغرب أكثر من ٨٠ ألف يهودى . وأدى التعاون الإسرائيلى المغربى إلى نتيجة غير عادية فى بلد عربى آخر ـــ هو تونس ، التى تقع على مسافة تبعد أقل من ألف ميل إلى الشرق .

ففى صيف ١٩٦١ ، طلبت الحكومة التونسية من فرنسا ، حاكمها الاستعمارى السابق ، إغلاق قاعدة « بنزرت » البحرية ..

وخلال الأزمة التى أعقبت ذلك ، ألقى التونسيون القبض على عدد من المواطنين الفرنسيين بالإضافة إلى بضع عشرات من اليهود فى « بنزرت » .

وبدأ عملاء الموساد فى المغرب يشعرون بالخوف على اليهود التونسيين ، ورتبوا أن تقوم السفن الحربية الفرنسية ـــ مثلما حدث فى بورسعيد ـــ بالابحار بالقرب من ساحل شمال إفريقيا ـــ لنقل ألف يهودى من ساحل « بنزرت » وتم نقلهم فى البداية إلى فرنسا ثم إلى إسرائيل بعد ذلك .

وفى الوقت الذى كانت عملية المغرب تسير فيه بأقصى سرعتها ، تعين على « هاريل » أن يلتفت إلى مهام أخرى ، من بينها إلقاء القبض على الرجل الذى يذكر بوصفه المسئول عن أكثر الانحرافات حدة عن المستويات الشخصية الرفيعة المقررة بالنسبة لعملاء المخابرات الاسرائيلية ، ومعاقبته .

وكان اسم هذا الرجل هو « موردخاى [موتكى] كيدار » .

جرى تجنيد « كيدار » فى صيف ١٩٥٦ بواسطة وكالة المخابرات العسكرية للقيام بمهمة فى مصر .

وقد أعطى الكولونيل « يوفال نعمان » الخبير التكنولوجي لوكالة المخابرات العسكرية ، والمختص عادة بابتكار أدوات جديدة للتجسس ، تعليماته الاخيرة إلى كيدار » فى مقهى « تعام توف » أو « المذاق الطيب » فى تل أبيب ..

وكان على العميل الجديد أن يطير أولا إلى الأرجنتين لقضاء شهور عديدة يبنى خلالها قصة حياة للتغطية قبل التسلل إلى مصر لحساب الوحدة ١٣١ وهى قسم العمليات التابع لوكالة المخابرات العسكرية ..

ولد « كيدار » فى بولندا فى بداية الثلاثينيات تحت اسم « موردخاى كرافيتسكى » .. وهجرته أمه ، وأحضره جدة إلى فلسطين .. وعاش فى « حاديرا » وهى بلدة زراعية تقع على الطريق الساحلى بين تل أبيب وحيفا وفى شبابه ، أبدى دلائل الذكاء الشديد والمواهب القيادية ، بالإضافة إلى بنيته القوية وأظهر ميولا إجرامية واضحة ..

وفى حرب عام ١٩٤٨ ، خدم « كيدار كرافيتسكى » فى البحرية الإسرائيلية الصغيرة لكنه تغيب بدون إذن بسبب مشكلات متعلقة بالنظام العسكرى ..

وفى بداية الخمسينيات ، أصبح زعيما لعصابة صغيرة ولكنها عنيفة فى « حاديرا » وهى بلدة تقع شمالى تل أبيب .

وقامت عصابته الاجرامية بسرقة السيارات والتعامل فى الممتلكات المسروقة الأخرى .. وربط البوليس بين اسمه وبين عمليات السرقة المسلحة وارتكاب جرائم القتل .. وتم القاء القبض عليه ، إلا أن السلطات لم تعثر على دليل كاف لتقديمه إلى المحاكمة .. فأعضاء عالم الجريمة المنظمة فى « حاديرا » كانوا يخشونه أكثر مما يخشون رجال البوليس ويرفضون التعاون مع السلطات .

وانتقل بعد ذلك إلى تل أبيب ، وأصبح من المترددين على مقاهى البوهيميين المتعددة ، وأخذ يبتز النساء ويحيا حياة بذخ وتبذير ، دون أن يدرى أحد من أين له بهذه الأموال .

وعلى المستوى الشخصى ، عانى من التوتر والاضطراب وبدأ يتردد على الطبيب النفسانى الدكتور « ديفيد رودى » .

والأمر الذى كان لايعلمه « كيدار » أن الطبيب البارع كان على جدول مرتبات مؤسسة المخابرات ، وكان مشهورا فى أجهزة المخابرات بالمقابلات التمهيدية الغريبة التى يجريها مع المجندين المحتملين ، حيث كان يطبق بأسنانه على غليونة ويبدأ أسئلته قائلا على سبيل المثال :
« كم مرة تمارس فيها الجنس شهريا ؟ » أو « إلى أى مدى اعتدت على ممارسة العادة السرية قبل أن تفقدى بكارتك ؟ » .

وكان يتم ملاحظة رد فعل العميل المحتمل عندما يواصل الدكتور « رودى » أسئلته بسؤال أكثر جدية كقوله : « هل تسمح بأن تخبرنى لماذا ترغب فى القيام بمهمة قد لاتعود منها ؟ » .

وباختصار ، قام الدكتور « رودى » بمعجزة الإعلان عن أن « كيدار » صالح للتوافق مع المجتمع الانسانى .. وقدمه بعد ذلك إلى « يهو شافات هاركابى » رئيس وكالة المخابرات العسكرية الذى جند « كيدار » للعمل فى الوحدة ١٣١ .

وبقدر علم أصدقاء « كيدار » وأسرته ، فإنه اختفى بعد وقت قصير من حملة « سيناء / السويس » .

وبدات زوجته وابنه الصغير ، اللذان هجرهما ، يتلقون بطاقات بريدية منه من أماكن مختلفة من العالم .

وفى نوفمبر ١٩٥٧ ، تم استدعاء « كيدار » إلى إسرائيل ، التى عاد إليها بالدرجة الأولى على طائرة من شركة « العال » .

واقتادوه إلى حجرة صغيرة فى مطار اللد فى تل أبيب ، وطلبوا منه كتابة تقرير روتينى عن نشاطه ، وفجأة دخل الحجرة ثلاثة من رجال البوليس المسلحين ، وقبضوا عليه ..

وعلى مدى ١٨ شهرا ، وحتى مايو ١٩٥٩ ، لم يعرف أحد تقريبا ، حتى فى مؤسسة المخابرات ، ماحدث له فقد اختفى للمرة الثانية كما لو كانت الأرض قد ابتلعته .

وحتى حراس سجن الرملة ، لم يعرفوا من هو نزيلهم الجديد أو السبب فى إبقائه فى الحجز الانفرادى المطلق ..

وبعد مرور نصف عام من الحبس الانفرادى ، سمح له بالسير لمدة نصف ساعة يوميا فقط فى فناء السجن ، ثم نقل إلى زنزانة أكبر غير أنه لم يسمح له برؤية أى سجين آخر وبدأت الشائعات تنتشر داخل سجن الرملة وخارجه حول السجين « إكس » الذى لايعرف له اسم آخر ..

ويقول « إيفرى العاد / فرانك » الضابط السابق المسئول للوحدة ١٣١ فى مصر ، والذى نجا من فضيحة « لافون » وسجن بعد ذلك فى الرملة ، أنه كان يعرف هناك فعط باسم « إكس ٤ » ..

ففى الزنزانة المجاورة له ، كان ينزل « كيدار » وهو مكبل بالأصفاد ، ولايمكن سماعه عبر الجدران السميكة .. غير أنهما كانا يلعبان الشطرنج ذهنيا عن طريق التعبير عن تحريك القطع بالدق على الجدار باستخدام إشارات « مورس » وذات مرة دق له « كيدار » على الجدار قائلا :

« لا تدعهم يوهنون عزيمتك ، لأنك إذا سمحت لهم بتحطيم معنوياتك ، فسوف تنهار » .

وبعد أن أشارت إليه الصحافة الإسرائيلية . عدة مرات وبصورة مبتورة بسبب الرقابة أكدت الحكومة فقط أن رجلا مازال مجهول الاسم ــ وفهمت الصحف من ذلك أنه مرتبط بالوكالات السرية ــ قد القى القبض عليه ، وأجريت له محاكمة سرية وحكم عليه بالسجن لمدة عشرين عاما .. ورفض « كيدار » الاعتراف بالجرائم التى اتهم بارتكابها ولم ينكسر ، واحتفظ بلياقته البدنية وأصبح من أتباع فلسفة « إيان راند » .

وبعد أن أمضى ١٧ عاما فى السجن ــ من بينها سبع سنوات دون رفيق فى زنزانته ــ أطلق سراحه فى عام ١٩٧٤ وطالب بإعادة التحقيق .. غير أن البوليس والادعاء ومؤسسة المخابرات رفضوا ذلك جميعا .

وقد التزمت الحكومة الاسرائيلية بالصمت التام حول قضية « كيدار » ، التى

ظلت واحدا من أكثر الأسرار التى تم كتمانها على أفضل نحو .

فالشيء الذى كانت السلطات ترغب فى إخفائه هو حقيقة أن « كيدار » لم يحكم عليه بالسجن لمجرد ارتكابه أفعال إجرامية ، بل لأنه ارتكب جريمة قتل فى الخارج خلال قيامه بمهمة لصالح مؤسسة المخابرات .

فقد قام « كيدار » وهو فى الأرجنتين بقتل رجل أعمال يهودى ، فى نوفمبر ١٩٥٧ ، وسرق أمواله بعد أن طعنه بوحشية ثمانين طعنة ..

وكان هذا الرجل هو أداة اتصال « كيدار » والمعنى بترتيب قصة تغطيته قبل القيام بمهمته فى مصر ..

وتم العثور على معظم الأموال التى سرقها « كيدار » فى جيوبه عند وصوله إلى تل أبيب ..

ومن المستحيل تحديد الطبيعة المعينة للمشاجرة أو الدافع الآخر للقتل بسبب السرية والغموض اللذين مازالا يكتنفان « كيدار » وجريمته ..

ومن الواضح أنه كان اختيارا سيئا لمهمة تجسس حساسة ، غير أن رئيس وكالة المخابرات العسكرية الذى اختاره ، وهو البروفيسور « هاركابى » ، داعية السلام النشط فى القدس ، يقول فحسب « أن الناس الذين يتم تجنيدهم لهذه العمليات ليسوا أنا ساغير معقدين .. فهناك دائما قصة ما » .

وقد كشف « إيسر هاريل » ، الذى كان مسئولا عن استدعاء « كيدار » وتقديمه للمحاكمة ، أنه كان هناك بحث جدى لقتل « كيدار » ببساطة للتغطية على الجريمة وحينئذ ماكانت ستوجد هناك سوى فرصة ضئيلة لحدوث اشتباك دبلوماسى مع الارجنتين أو لمواجهة مؤسسة المخابرات لأى حرج وكتب « هاريل » يقول :

« لقد كنت مصمما منذ البداية على ألا نضع القانون فى أيدينا ، فهناك قضاة ومحاكم ، فالأجهزة البريطانية قد تصفى الناس ، ونحن لا نفعل ذلك » .

وأضاف « هاريل » فى فخر :

« خلال الفترة التى توليت فيها المسئولية الأولى عن مؤسسة المخابرات ، لم يعدم خائن واحد . » .

ومن وجهة نظر « هاريل » ، فقد قدمت قضية « كيدار » دليلا جديدا على صحة حجته القديمة بأن إدارة العملاء السريين هو عمل أخطر من أن يترك لوكالة المخابرات العسكرية .

أراد « هاريل » أن يكون الأمر برمته للموساد وفى النهاية ، تم التوصل إلى اتفاق يقضى بأن تبقى مسئولية العمليات فى البلاد العربية فى أيدى المخابرات العسكرية ، على أن يسمح لهاريل بأن يمد نطاق عمل قسم العمليات الصغير الخاص به ليصبح مسئولا عن بقية العالم .

وقد أسس « هاريل » وحدة العمليات بحماسه العنيد المعروف ، وبوصفه مسئولا ، من الناحية العملية ، عن كل من « شين بيت » والموساد ، فقد أصر على أن تكون الوحدة الجديدة متاحة لكل من الوكالتين ، وبأن تستخدم أفضل العناصر البشرية فى كلتيهما .

وقد قاد هذا القسم « رافى إيتان » و « أفراهام شالوم » الذى كان يطلق عليه من قبل اسم « بندور » ، والذى سيظهر كل منهما بعد ذلك فى عمليات متعددة تتسم بالبراعة وتثير الفضيحة .

وفى الأعوام التالية ، استمتع « هاريل » باستخدام لعبته الجديدة ، فعندما بدأ قسم العمليات نشاطه كان « هاريل » يظهر غالبا على المسرح ليفحص الخرائط والخطط ، ويشرف على التغييرات التى تحدث فى الدقائق الأخيرة ، ويستمتع بالإثارة ..

وبدأ عملاؤه يتحركون فى جميع أنحاء العالم ، فى لندن ، باريس ، جنيف ، روما ، إنتويرب ، جوهانسبيرج ، ونيويورك .

والآن ، وقد أصبح « إيتان » و « شالوم » وغيرهما من العملاء الميدانيين رهن إشارة « هاريل » أصبح بامكانه أن يتابع هدفا يقع بعيدا عن موارده المتاحة ..

ولكونه يتوق إلى الكمال ، فقد أزعجته حقيقة أن أسوأ أعداء الشعب اليهودى مازالوا مطلقى السراح ، فعلى الرغم من أن عددا قليلا من مجرمى الحرب النازيين مثلوا كمتهمين أمام محكمة « نوزمبرج » فى عام ١٩٤٦ ، إلا أن آلافا غيرهم قد هربوا من العدالة .. وسمحت المخابرات الغربية لبعضهم بالمعاونة فى الحرب ضد الشيوعية .

واعتقد « هاريل » بأنه ينبغى على إسرائيل أن تقدم أسوأ النازيين للعدالة ..

وكان من المعروف أن إثنين منهم ، على وجه الخصوص ، قد تمكنا من الافلات بعيدا وهما : « إدولف أيخمان » الذى أدار « الحل النهائى » لهتلر ، الذى ضمن مصرع ستة ملايين من اليهود بكفاءة نادرة : والدكتور « جوزيف مينجل » المعروف بتجاربه الطبية الوحشية فى معسكر الموت فى « أوشفيتز » .

وأوضح « هاريل » لمصادر معلوماته فى المخابرات الألمانية الغربية أن أية معلومات بشأن « أيخمان » أو « مينجل » ستكون موضع ترحيب بالغ ..

وفى أواخر عام ١٩٥٧ ، بدت المعلومات السرية التى وردت من « فريتز بوير » المدعى العام اليهودى لولاية « هيس » ، مقنعة حيث ذكرت أن « أيخمان » يعيش فى الأرجنتين .

وبعث « هاريل » بعدد من أعضاء قسم عملياته الجديد إلى الأرجنتين للقيام بعمليات بحث عن مهندس عمليات القتل الجماعى النازية ببطء وفى مثابرة .

وكانت تلك هى أبعد نقطة سافر إليها رجال المخابرات الإسرائيلية حتى ذلك الوقت .. وكان فرق عملاء المخابرات الإسرائيلية فى « بوينس أيرس » وغيرها من الأماكن فى أمريكا الجنوبية باهظة التكاليف .. لكن « هاريل » كانت لديه ميزانية لوحدة عملياته وكان ذلك هو المكان الذى ينفقها فيه .

وفى حوالى بداية عام ١٩٦٠ ، عثر رجال « هاريل » على « أيخمان » بناء على معلومات جديدة من « بوير » فى ألمانيا .

كان النازى السابق يعيش مع زوجته وأبنائه الأربعة فى « بوينس أيرس » تحت

اسم « ريكاردو كليمنت » .. وأبلغ « هاريل » « بن جوريون » ، الذى عاد مرة أخرى رئيسا للوزراء ، وحصل على موافقته بسرعة على اختطاف « أيخمان » لكى يمكن تقديمه للمحاكمة فى إسرائيل : وتم اختيار أكثر من عشرين رجلا بالإضافة إلى سيدة واحدة على الأقل من كل من الموساد .و « شين بيت » كفريق اختطاف ، والقيام بأدوار المساندة والمراقبة .. ولم يفرض على أى منهم الاشتراك فى العملية ، فجميعهم ينبغى أن يكونوا من المتطوعين .

فكان جميعهم تقريبا قد فقدوا أقارب لهم فى عمليات الإبادة ، ويكرهون « أيخمان » .

وقد حذرهم « هاريل » بأن عليهم التحكم فى عواطفهم وبسبب التعقيدات التنفيذية والسياسية وحتى الشخصية للعملية ، فقد طار « هاريل » بنفسه الى باريس لإقامة مركز تجميع واعداد لعملية الاختطاف ثم توجه إلى الارجنتين لتحمل المسئولية الكاملة والشخصية للعملية .

وتوجه أمهر مزيف فى الموساد إلى أوربا حيث أعد الجوازات والوثائق الأخرى المزيفة لجميع العملاء حتى يمكنهم التوجه إلى « بوينس أيرس » على رحلات جوية متفرقة وتحت أسماء لن تستخدم بعد ذلك مطلقا .

ولكيلا يتركوا أى أثر خلفهم ، توجه المزيف أيضا إلى الأرجنتين ومعه كافة أقلامه وأوراقه الخاصة لتزويد كافة الإسرائيليين بهويات جديدة ، واعداد هوية كذلك لأيخمان نفسه حتى يمكن تهريبه إلى الخارج .

وتم تأجير نصف دستة على الأقل من « المنازل الآمنة » والسيارات فى « بوينس أيرس » ، كما تم تخصيص سيدة عميلة للقيام بالدور التقليدى كربة بيت لطهى الطعام وترتيب مقر الاقامة الذى سيتم فيه احتجاز السجين النازى ..

وقد حظى « إيتان » ، « شالوم » ، وزميلهما « زفى مالكين » بشرف اختطاف « أيخمان » بالقوة .

فقد أمسكوا به ، فى ١١ مايو ١٩٦٠ ، بالقرب من منزله ودفعوا به إلى المقعد الخلفى للسيارة ..

ولم يبد « كليمنت » أية مقاومة ، واعترف على الفور بأنه « أيخمان » وتم توقيت عملية الاختطاف لتتوافق مع زيارة رسمية لوفد إسرائيلى للأرجنتين ، حيث شارك العديد من الضيوف الأجانب فى احتفالات بمرور ١٥٠ عاما على استقلال الأرجنتين .

كانت طائرة شركة « العال » قد نقلت أعضاء الوفد إلى الأرجنتين فى ١٩ مايو على أن تعود إلى تل أبيب فى وقت متأخر من الليلة التالية .

وذكر « هاريل » وبعض رجاله ، بعد ذلك ، أن أكثر مهماتهم صعوبة تمثلت فى اطعام « أيخمان » والعناية به لمدة تزيد على تسعة أيام فى انتظار وجود رحلة جوية إلى إسرائيل للعودة .

وقد قاموا باستجواب سجينهم ، وكانوا يحدقون فيه أحيانا فى دهشة لاكتشافهم كيف يمكن أن يبدو الشخص الذى يجسد الشر كما لو كان شخصا عاديا ..

ووقع الرجل الأصلع ، الذى يعتمد على نظارته فى القراءة ، فى خضوع على بيان يوافق فيه على محاكمته أمام محكمة إسرائيلية ..

وعلى أية حال ، فقد شعر المختطفون بالقشعريرة وهم يستمعون إلى « أيخمان » وهو ينتقل من الحديث بالألمانية إلى ترتيل صلاة بالعبرية « شيما » وهى الصلاة التى كان اليهود يرتلونها وهم يتجهون إلى ملاقاة حتفهم فى غرف الغاز النازية :

« واسمع ياإسرائيل ، الله هو إلهنا ، الله واحد » ووفقا لما قاله * هاريل » فإن « أيخمان » « قال لنا أنه كان صديقا عظيما لليهود . وشعرنا بالحنق

وبدأ بعض رجالى فى نسيان الأوامر بألا يمسوه وأرادوا قتله ، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك . وبدأ هو فى التوسل للحصول على مزايا صغيرة » وقال الأسير أيضا أنه سيكشف عن كافة أسرار هتلر إذا أبقى الإسرائيليون على حياته .

ووعده « هاريل » بأنه سيتم توكيل أفضل محام متاح للدفاع عنه خلال محاكمته .

لم يمض « هاريل » سوى وقت قصير فى المنزل الآمن حيث كان « أيخمان » مربوطا فى أحد المخادع بالسلاسل ..

فقد ابتكر بدلا من ذلك أسلوبا تجسسيا آمنا ، يمكن أن يطلق عليه اسم « مقر القيادة المتنقل » حيث أبلغ كبار عملائه أين يمكن أن يجدوه خلال ساعات محددة من اليوم ، وبدأ فى التنقل من مقهى إلى آخر فى العاصمة الأرجنتينية المبنية على الطراز الباريسى .

ولم يكن من المرجح لأى أجنبى أن يتذكر أنه رآه فى أى موقع محدد ..

وفى ٢٠ مايو ، أقام « هاريل » مقرا للقيادة فى مقهى مطار « إيزيزا » ، مضحيا بالحذر الواجب من أجل الاشراف على العملية من موقع الأحداث ، وكان يجلس إلى مائدة ومعه المزيف ليفحص ويوزع وثائق الهوية التى يحتاجها عملاؤه للرحيل الامن والموثوق به من « بوينس أيرس » .

وفى المنزل الآمن ، ارتدى « أيخمان » والرجال الذين سيرافقونه زى العاملين فى شركة الخطوط الجوية الإسرائيلية « العال » ..

وقام طبيب تابع للموساد ، متخصص فى التخدير ، بحقن مجرم الحرب فى ذراعه بمهدى قوى ولم يثر « عضو طاقم الطائرة » الذى يبدو نائما أية تساؤلات ، وهم يصعدون إلى متن طائرة الركاب الإسرائيلية تلك الليلة إلى جانب الشخصيات الاسرائيلية البارزة غير المشكوك فيها التى حضرت احتفالات الأرجنتين، ومن بينهم « ابا إيبان » الذى كان أنذاك وزيرا للتعليم .

لم يتم ابلاغ القائد الحقيقى لطائرة « العال » بأى شىء عن الراكب ذى السمعة السيئة الذى يطير معه حتى بعد إقلاع الطائرة من « بوينس أيرس » من الدقائق الأولى من يوم ٢١ مايو ..

وبناء على توصية من « هاريل » لم تتوقف الطائرة لإعادة التزود بالوقود إلا فى

أبعد مدينة يمكن تصورها خارج خط سير الطائرة الأصلى ..

وقد استنفذت أخر نقطة من الوقود لكى تصل الى « داكار » فى السنغال ، حيث لايوجد أحد فى غرب إفريقيا يمكن أن يقوم بتحريات حول الألمانى ــ الارجنتينى المفقود ..

وأعيد تزويد الطائرة بالوقود بسلام ، ووصلت الطائرة الخاصة التى تحمل النازى الموصوم إلى تل أبيب فى السابعة من صباح ٢٢ مايو ليواجه العدالة الإسرائيلية ..

وأقدم « بن جوريون » رئيس الوزراء على خطوة نادرة وأشاد بمؤسسة المخابرات فى اليوم التالى عندما أبلغ الكنيست « أجهزة الأمن الإسرائيلية قد عثرت على أدولف أيخمان وأنه سيمثل أمام المحكمة قريبا فى اسرائيل »

ورد البرلمان الاسرائيلى بتصفيق إجماعى . وبدأت الإجراءات القضائية بعد مرور عام تقريبا ، فى ١١ إبريل ١٩٦١ ، مع تغطية صحفية وتليفزيونية عالمية واستمع الرجل ، وهو فى قفص الاتهام الزجاجى ، إلى الشهود الذين وصفوا جرائمه وجرائم آلة القتل النازية الإسرائيلية بطريقة تمزق نياط القلب

وادعى « أيخمان » أنه كان ينفذ الأوامر فقط ، إلا أنه أدين بتهمة ارتكاب جرائم ضد الانسانية وتم شنقه فى سجن الرملة فى ٣١ مايو ١٩٦٢ وكان هو الشخص الوحيد الذى أعدم فى إسرائيل بالاضافة الى الكابتن « مائير توبيانسكى » الذى أعدم رميا بالرصاص بناء على تعليمات « إيسر بيرى » رئيس وكالة المخابرات العسكرية فى عام ١٩٤٨ .

وكان اختطاف « أيخمان » ، والثناء الشعبى الهائل الذى حظيت به مؤسسة المخابرات الاسرائيلية من أمجد أيام « هاريل » بكل تأكيد ..

وعلى الرغم من مرور مايقرب من ثلاثين عاما على ذلك كان يشاد به فى أى مكان يتوجه إليه بوصفه « الرجل الذى ألقى القبض على أيخمان » .

وكانت أكثر عمليات « هاريل » جسارة نموذجا تاما للمهارات البشرية

للمخابرات التي تميزت وتفوقت فيها إسرائيل ، ودون أية أدوات تكنولوجية فى هذه القضية بالتحديد .

ولم يكشف « هاريل » إلا بعد مرور عشرات السنين ، عن ان الفريق العامل معه كان على وشك القبض على « جوزيف مينجل » فى الليلة نفسها التى اختطف فيها « أيخمان » .

ويقول « زفى مالكين » ، الذى أصبح فيما بعد كاتبا تحت اسم مستعار هو « بيترمان » ، أنه ضغط على « أيخمان » للحصول على معلومات عندما طلب منه أن يقول لهم « أين يوجد صديقك مينجل .. ومن المؤكد أنك تعرف أين يعيش » .. إلا أن « أيخمان » أصر على أنه لا يعرف شيئا .. واضطر « مالكين » أن يبلغ هاريل بما حدث قائلا : « لقد حاولت معه كل شيء ، واعتقد أنه ليست لديه أية فكرة عن مكان وجود مينجل ، أو أنه لايرغب فى أن يقول شيئا » .

وعلى أية حال يقول « هاريل » أنه كان يشك فى أن « أيخمان » الذى يعيش فى حى شعبى فقير ، كان يتلقى العون من « مينجل » الأمر ، فقد حصل الإسرائيليون على عنوان توجهوا إليه وهو مسكن فاخر فى بوينس أيرس كان يعيش فيه « مينجل » ..

وبعد أن قام الاسرائيليون بفحص وتفتيش المبنى اكتشفوا أن « مينجل » وأسرته هربوا من المسكن قبل أسبوعين فقط من اختطاف « أيخمان » ..

وعلى مايبدو فإن الطبيب السادى قد أصيب بالفزع من التقارير التى نقلت حديثا عن خطاب لأحد صائدى النازيين فى نيويورك ، وقال فيه أنه يمكن العثور على « مينجل » فى العاصمة الارجنتينية وطبقا لهاريل ، فإن مجرم الحرب الطبى ، انتقل إلى باراجواى ثم إلى البرازيل بعد ذلك .

وبالرغم من ذلك ، فقد استمرت محاولات القبض على « مينجل » ، وعندما ذكرت السلطات البرازيلية فى عام ١٩٨٥ أن الطبيب النازى قد مات ، بعد سنوات من إصابته بمرض السرطان ، بعثت الموساد سرا بإخصائى فى علم

الأمراض لفحص هيكله العظمى ، وليؤكد أنه يمكن شطبه اسم الطريدة من على رأس قائمة المطاردين مرة واحدة وإلى الأبد .

لم يكن « هاريل » يرغب فى الاكتفاء بالمجد الذى حققه فى عملية « أيخمان » وواصل الضغط للامساك بمزيد من مجرمى الحرب النازيين فالأمر بالنسبة له كان مهمة مقدسة ، تتمثل فى رد الدين للملايين الستة من اليهود الذى قتلوا وهى المهمة التى جعلت الإسرائيليين أفذاذا ولا مثيل لهم بين المخابرات الغربية الشقيقة .

فالأجهزة السرية للدول الأخرى تحاول فقط الامساك بالاشخاص من الأعداء الذين يشكلون خطرا فعليا او محتملا على الدولة التى تدافع عنها تلك الأجهزة .. أما « هاريل » فقد رغب فى أن تشن الموساد حملة مطاردة عالمية هائلة للمجرمين من دول أخرى الذين عملوا فى دولة ثالثة او رابعة ضد شعب وليس ضد المصالح الأمنية لدولة إسرائيل التى لم تكن قد وجدت بعد وقت ارتكاب هذه الجرائم .

وتوصل « هاريل » إلى حل فريد من نوعه فى عالم لم يفعل شيئا ضد النازى سوى إدانتهم فى المحاكم .. فالاسرائيليون اعتزموا العثور عليهم .. وشكل « هاريل » وحدة خاصة لتنسيق مهمتها المحددة اصطياد النازيين الذين عذبوا اليهود أو قتلوهم ، برئاسة ضابط الموساد « شمويل توليدانو » الذى أثبت كفاءة كبيرة فى ترتيب عملية خروج اليهود المغاربة فى منتصف الخمسينيات .

وقد ساعد المسئولون الألمان الغربيون الإسرائيليين فى وضع قائمة النازيين العشرة المطلوب القبض عليهم أكثر من غيرهم .. وقامت وحدة « توليدانو » ، من بين أهداف أخرى ، بالبحث عن الدكتور « مينجل » ، ومارتن بورمان ، نائب هتلر ورئيس الجستابو « هينريش موللر » ، و « ليون دى جريل » وهو بلجيكى خدم بحماس كضابط فى قوات العاصفة النازية ..

وقد أثارت مطاردة « دى جريل » فضيحة غريبة حيث علم « زفى ألدوبى » ، وهو عميل سابق فى « شين بيت » ، أن الموساد تبحث عن البلجيكى النازى ..

وراودته الأحلام فى أن يسرق هذا المجد بطريقة أو بأخرى .. فاتصل بإيجال موسينسون وهو كاتب إسرائيلى شهير عمل من قبل نقيبا فى قوة البوليس ، وجنده

للقيام بعملية اختطاف وأعطاه الانطباع بأنها مهمة رسمية لصالح الحكومة ..

كان « ألدوبى » يعمل آنذاك صحفيا لبعض الوقت واستغل صلاته لتجنيد الأصدقاء القدامى فى الأجهزة السرية الفرنسية بما فيهم الحارس الشخصى للرئيس « ديجول » .

تطلع «ألدوبى » إلى أن يبيع الرواية فى نهاية المطاف كسيناريو لأحد الأفلام ، كما تلقى مقدمات مالية من مجلات شهيرة للغرض نفسه وبدأ الفريق الذى تم تلفيقه بطريقة غريبة العمل فى اسبانيا .

وتعقبوا « دى جريل » حتى الفيللا التى يقيم فيها بالقرب من « سيفيل » ، وهم يخططون لاختطافه ، بالطريقة التى اختطف بها « أيخمان » ، على أن يقوموا بتسليمه بعد ذلك للسلطات البلجيكية التى كانت قد حكمت عليه غيابيا بالاعدام .

وحداهم الامل أيضا فى أن يقودهم فى النهاية إلى « بورمان » بعد أن ضبطوا رسائل متبادلة بينهما ..

وعقب العديد من الرحلات الاستطلاعية ، تم القبض على « ألدوبى » وشريكه الفرنسى « جاك فنستون » عند عبورهما الحدود من فرنسا إلى إسبانيا ، فى ١٤ يوليو عام ١٩٦١ ، للقيام بعملية الاختطاف .. وبعد ذلك بأيام قليلة ، ألقى البوليس السرى الإسبانى القبض على « موسينسون » على ظهر اليخت الذى كان من المقرر نقل « دى جريل » إليه بعد اختطافه .

ويعيد « موسينسون » إلى الأذهان ماحدث قائلا : « من المحتمل أننا كنا مراقبين طوال الوقت .. فألدوبى ثرثار كبير ، وكان يتحدث عن العملية بالتليفون كما أن صديقاته ، وهن كثيرات ، كن يعلمن بالعملية »

احتجز الإسبان « ألدوبى » و « فنستون » وعذبوهما وأصدروا ضدهما حكما بالسجن لمدة سبع سنوات وكان « موسينسون » أكثر حظا فقد أفرج عنه بعد

بضع ساعات فقط .. إلا أنه مازال يجهل السر وراء اطلاق سراحه بعد مرور أكثر من عشرين عاما ..

وكان عميل للموساد قد أبلغه آنذاك أن تدخل رئيس وزراء إسرائيل كان وراء حظه السعيد .. وقيل له أن « بن جوريون » كان معجبا بكتاباته وأن « الرجل العجوز » اتصل هاتفيا بالجنرال « فرانكو » وقال له : « لاتمس موسينسون ، واطلق سراحه »

كان لهذه الأحداث الغريبة تأثيرا سلبيا مجددا على المخابرات الإسرائيلية ، فقد شعرت العديد من الدول الأوربية بالانزعاج حيال عملاء إسرائيل بعد العملية الفاضحة التى استهدفت « دى جريل » لكن « هاريل » واصل ارسال رجال وحدة العمليات المشتركة ، التابعة للموساد و « شين بيت » ، فى مغامرات خارجية ، وكان يضيف اسمه إلى قائمة العاملين إذا ماكانت العملية مثيرة للاهتمام على نحو خاص .

كانت عملية المطاردة الكبيرة التالية هى فى الواقع عملية مطاردة صبى صغير .. فقد طافت المخابرات الاسرائيلية بالكرة الأرضية بحثا عن صبى يبلغ العاشرة من عمره ويدلل باسم « يوسيل » ..

كان « يوسف شوماخر » فى الثامنة من عمره عندما اختطفه عام ١٩٥٩ جده ، وهو يهودى تقليدى ، أحس بالانزعاج لأن والدى « يوسيل » يلقنانه تعليما علمانيا .. وساعد الرجل العجوز ، فى عملية ، زملاؤه الأعضاء فى « نيتورى كارتا » أو [حراس القلعة] الذين يعارضون الصهيونية بعنف لأنهم لايعتقدون أن اليهود يستحقون دولة إلا بعد قدوم المخلص المنتظر .

وتم تهريب « يوسيل » إلى الخارج ، متنكرا فى هيئة فتاة صغيرة ، ونقل من منزل آمن إلى آخر فى أوربا ثم بعد ذلك إلى نيويورك .. وقد احتلت قصته العناوين الرئيسية فى الصحف الاسرائيلية ، على الرغم من أنه بدا أن احدا لايعرف مكانه ..

وكانت اللازمة البسيطة فى الأغنية الشعبية التى تتناول هذه القضية ، تتردد

دون توقف فى إسرائيل بأسرها وتتساءل : « أين يوسيل ؟ » .

وانتشرت النكات التى تسخر من السلطات الرسمية لعجزها عن تعقب الطفل ..

شعر « هاريل » ، الذى ألقى القبض على « أيخمان » ، بالتحدى الذى يواجه للعثور على إبرة بشرية وسط كومة من القش .. وأحس بالانزعاج الشديد وهو يرى الصحافة والساسة المعارضين وهم يسخرون من « بن جوريون » ومجلس وزرائه بسبب فشلهم فى العثور على الطفل الصغير .. وشن « هاريل » العملية « تايجر » ، وكلف فريق العمليات المشتركة بالبحث عن « يوسيل » بالرغم من التحفظات التى أبداها نوابه فى « شين بيت » والموساد .

وصدرت التعليمات لكبار العملاء فى الخارج بوقف أية نشاطات أخرى ، بما فيها البحث عن « مينجل » ، للبحث عن الصبى والعثور عليه وقد حدث ذلك بالفعل ..

فى البداية ، نقل « هاريل » مقر قيادته إلى باريس فترة من الزمن لاستجواب ليهود المتدينين الذين يبدو أنهم ساعدوا على إخفاء الصبى المفقود وناشدهم بأن يضعوا فى الاعتبار المعاناة التى يكابدها والدا « يوسيل » ، وقد أدت الحيلة فعلها على سيدة عضو فى « نيتورى كارتا » تدعى « روث بن ـــ ديفيد » التى أخرجت الصبى من إسرائيل على متن سفينة بعد أن وضعت شعرا مستعارا على رأسه ، وأطلقت عليه اسم « كلودين » ..

وقدمت السيدة العنوان الذين يمكن أن يعثروا فيه على « يوسيل » فى نيويورك ..

وفى يوليو ١٩٦٢ ، كان أكثر الصبية المطلوبين فى إسرائيل مقيما فى مسكن يهودى غيور فى بروكلين .

وتم ابلاغ « مكتب التحقيقات الفيدرالية » « **FBI** » بذلك على الفور ، وأعيد « يوسيل » تحيطه آيات النصر إلى والديه فى إسرائيل .

وقد يبدو الأمر سخيفا ، غير أنه تم توجيه الشكر الحار ثانية للأجهزة السرية ، واستمتع المدافعون السريون عن اسرائيل بالمديح والثناء ..

وفى الوقت نفسه تقريبا ، الذى عثر فيه على « يوسيل » الصغير ، عهد « هاريل » بمهمة أخرى إلى « شمويل توليدانو » ، صائد النازى ورجل المغرب المتمرس ، فى أمريكا الجنوبية للمرة الثانية فعملية القبض على « أيخمان » فى بوينس أيرس عام ١٩٦٠ ، حققت مجدا للموساد فى العالم بأسره إلا أن هذه العملية الجريئة أدت أيضا إلى زيادة حدة العداء للسامية فى الأرجنتين ، وعرضت النصف مليون يهودى المقيمين هناك للخطر ..

وتحدثت التقارير عن زيارة كبيرة فى عدد الهجمات على اليهود من جانب « تاكورا » أو « ريد » وهى جماعة فاشية أرجنتينية تضم بين صفوفها العديد من ابناء وبنات كبار ضباط البوليس والجيش .

وفى أول يوليو عام ١٩٦٢ ، اختطف أعضاء « تاكورا » الطالبة اليهودية « جارسيا سيروتا » ووشموا على صدرها رسما للصليب المعقوف .

وقد أثار الحادث موجات من الصدمة بين الجاليات اليهودية فى الأرجنتين ، وكتبت الصحف الاسرائيلية مقالات افتتاحية تحث الحكومة على ارسال المعونة « لأشقائنا اليهود » ..

ولم يكن « هاريل » بحاجة إلى أى تشجيع .. وصدرت التعليمات إلى « توليدانو » بإحضار الناشطين اليهود الشباب من الأرجنتين والبلاد المجاورة إلى إسرائيل لتلقى تدريبات مكثفة فى الدفاع عن النفس ..

وكان ذلك مشروعا سريا للموساد . وأصبح التركيز الجديد على النازيين والعداء للسامية ، مثلهما فى ذلك مثل اصطياد الجواسيس الشيوعيين ، هاجسين آخرين بالنسبة إلى « هاريل » ، الأمر الدى أدى إلى سقوطه فى النهاية ..

وبدأ « هاريل » يركز ، من بداية الستينيات ، على وجه الخصوص على وصول علماء الصواريخ الألمان إلى مصر والذى كان يعتبر نذيرا بالخطر ..

فقد كان الرئيس « عبد الناصر » يريد من الألمان مساعدته على انتاج صواريخ أرض ــ أرض يمكن استخدامها فى أية حرب مقبلة ضد إسرائيل.

واعتقد « هاريل » أن الألمان مشتركون مرة أخرى فى محاولة كبيرة لإبادة اليهود ، ورد على ذلك بالعملية « ديموقليس » ، كسيف مسلط على عنق أى عالم ألمانى يعمل لحساب المصريين .

وقام عملاء إسرائيل بإرسال خطابات ملغومة إلى العلماء الألمان المشتركين فى مشروع الصواريخ وإلى أسرهم .

وجرت عمليات تهديد مماثلة فى أنحاء القارة الأوربية ..

وكان « هاريل » يلجأ فى ذلك إلى أسلوب ناجح سبق استخدامه فى عام ١٩٥٦ ، عندما أرسلت خطابات ملغومة ، بناء على أوامر « هاركابى » رئيس وكالة المخابرات العسكرية ، إلى الضباط المصريين المسئولين عن تسلل الارهابيين من قطاع غزة إلى إسرائيل ..

وقد قتل إثنان من كبار الضباط المصريين فى عمليات الاغتيال الأولى المناهضة للارهاب على يد المخابرات الإسرائيلية .

وفى الحملة ضد العلماء الألمان ، وقعت إصابات قليلة وحملة تهديد واسعة .. وشعر « هاريل » بأن حملته يمكن أن تنجح ، لكن علاقته مع « بن جوريون » توترت تماما ، لأن رئيس الوزراء واصل حثه على عدم إثارة ضيق الحكومة الالمانية الغربية .. وكان « بن جوريون » يقول فى الواقع :

« ارفعوا أيديكم عن الألمان » .

وتمادى « هاريل » بصورة غير عادية لاجبار العلماء على الخروج من مصر ، ففى خطوة أثارت انزعاج العديد من رجال الموساد ، أرسل « هاريل » فريقا إلى مدريد للاجتماع مع الضابط النازى السابق « أوتو سكورزنى » الذى كان صديقا لبعض الألمان فى القاهرة .

وأقنعه عملاء الموساد ، بعد أن احتالوا عليه بتقديم أنفسهم كممثلين لوكالة مخابرات تابعة لحلف شمال الأطلنطى ، بحث أصدقائه على الخروج من مصر من أجل المصالح الغربية .

فقد كان من المثير للدهشة أن تلجأ الموساد ، بعد عامين بالكاد من اختطافها « أنجمان » من الأرجنتين ، باستخدام نازى بأية طريقة . لكن « هاريل » اعتبر « سكوزرنى » ، مثلما حدث فى محاكمات نورمبرج بعد الحرب ، مجرد محارب ألمانى قديم وليس مجرم حرب ..

وقد أدى استخدام عميل آخر غير عادى إلى نهاية عملية ديموقليس بشكل مأساوى .. ولم يكن هذا العميل سوى نمساوى يدعى الدكتور « أوتو جوكليك » ..

وكان تجنيده انجازا حقيقيا من جانب « هاريل » لأن « جوكليك » كان — وهو مايمكن الكشف عنه الآن — بالفعل واحدا من علماء الصواريخ الذى يعملون لحساب « عبد الناصر » فى مصر .

وبوصفه مغامرا أكثر منه خبير صواريخ ، أقنع « جوكليك » المصريين أن بمقدوره انتاج قنبلة كوبالت ذات طاقة كبيرة لحسابهم ..

وقبل فى سرور راتبا مغريا فى مصر ، بينما أخذ يعمل فى المشروع دون ان يحقق أى نجاح حقيقى ..

وأغرى « هاريل » « جوكليك » على العمل لحسابه بدلا من العمل مع مصر لكى يمكنه ، كما قال الاسرائيليون العالمون ببواطن الأمور ، أن يضيف كومة من الأموال الاسرائيلية إلى الكومة التى حصل عليها بالفعل من مصر .

كان النمساوى هو رجل الموساد داخل مصر ، وعندما غادر القاهرة ، توجه الى اسرائيل بطريق الجو ليقدم تقريرا كاملا عن مشروع الصواريخ السرى ..

وحذر « جوكليك » من أن مصر تندفع بقوة نحو تحقيق هدف بالغ الخطورة وهو انتاج ماوصفه الخبراء بقوة ضاربة نووية — بيولوجية — كيمائية .

وأن هذه الأسلحة وهى من أسلحة الدمار الشامل يمكن وضعها فى رؤوس حربية تنقلها الصواريخ الألمانية التصميم ..

وقد تطابقت حكاية النمساوى تماما مع مخاوف « هاريل » .. وكعادته فى الكتمان ، والتى تلقى الثناء من رجال المخابرات المحترفين ، لم يبلغ « هاريل » أحدا آخر من مؤسسة الدفاع والأمن بشأن وجود « جوكليك » فى إسرائيل .. لكن « شيمون بيريز » وكيل وزارة الدفاع اكتشف عن طريق مصادره أن « هاريل » يخفى امر العالم النمساوى .. وأصر « بيريز » على لقاء « جوكليك » لكى يمكن لكبار المسئولين فى الوزارة استجوابه .

ورفض « هاريل » ، محتجا بالتقاليد التى تسود مؤسسة المخابرات الإسرائيلية ، بأنه من الأمور النادرة أن تتقاسم الوكالات مصادرها السرية فيما بينها .

فالمعلومات يجرى اقتسامها وتبادلها ، لكن ليس العملاء انفسهم ، الذين يصبحون فى وضع أكثر أمنا كلما قل عدد من يعرفونهم ..

على أية حال ، شكا « بيريز » إلى « بن جوريون » وهدد بالاستقالة .

وبوصفه رئيسا للوزراء ، أمر « الرجل العجوز » « هاريل » بتقديم « جوكليك » إلى وزارة الدفاع ، وبوصفه أيضا وزيرا للدفاع عهد « بن جوريون » بمهمة الاستجواب إلى « بنيامين بلومبيرج » رئيس وكالة « لاكام » باللغة السرية ..

ولأن هيئة العاملين مع « بلومبيرج » تضم علماء فإنه سيكون فى وضع يسمح له بالحكم على رأى « هاريل » بأن مصر على وشك امتلاك أسلحة نووية بيولوجية ــ كيمائية من شأنها ان تهدد وجود إسرائيل ..

وقد أدى هذا بالطبع إلى ازدياد شعور « هاريل » بالاستياء تجاه « بلومبيرج » و « بيريز » ..

ورفض محللو بلومبيرج ، دون أن يعرف أحد منهم أنهم ينتمون إلى وكالة

تدعى « لاكام » ، معلومات « جوكليك » حول المخاطر المزعومة لمشروع الصواريخ المصرى ..

وتوصلوا إلى أن المؤهلات العلمية للنمساوى تثير الشكوك ..

لكن « هاريل » كان مازال موقنا من أن عبدالناصر يخطط لتدمير إسرائيل . واستمر فى إيمانه بصدق « جوكليك » .. وبعث به مع إسرائيلى يدعى « يوسف بن ـــ جال » فى مهمة سرية إلى سويسرا .

وتحددت مهمتهما فى تخويف إبنة « بول جوركا » أحد العلماء الألمان العاملين فى مشروع الصواريخ المصرى .

وقاما بإبلاغ « هايدى جوركا » أنه إذا لم يغادر أبوها القاهرة على الفور فقد يترتب على ذلك عواقب وخيمة ..

وأبلغت « هايدى » البوليس السويسرى الذى ألقى القبض على عميلى الموساد خارج أحد فنادق مدينة « بازل » فى ١٥ مارس ١٩٦٣ .

وكان عميلان إسرائيليان قد ألقى القبض عليهما قبل ذلك ببضعة أسابيع فى ألمانيا الغربية ، بالقرب من منزل أحد علماء الصواريخ .

ومن حسن حظ الموساد أن علاقاتها الحميمة مع المخابرات الألمانية الغربية « BND » اقنعت مخابرات ألمانيا الغربية بترتيب إطلاق سراح الإسرائيليين فى هدوء .

إلا أن « جوكليك » و « بن جال » لم يواتهما حسن الحظ نفسه فى سويسرا ، وشكلت محاكمتها حرجا علينا لاسرائيل ، وصدرت أحكام ضدهما بالسجن ، وإن كان لفترة قصيرة .

ولكن المصائب لاتجيء فرادى ، فقد كانت تلك هى البداية فقط ..

وقرر « هاريل » أن ينتهج المواجهة العلنية ، اعتقادا منه أن الألمان والمصريين لن يتوقفوا ، ورأى أنه من المطلوب القيام ببعض الإيضاحات خلال المحاكمة فى سويسرا .

وكان يأمل فى أن يقنع العالم ، أو على الأقل الشعب الإسرائيلى ، بأن ورثة الجيل النازى يستخدمون الآن مصر كقاعدة تشكل خطرا مميتا على الدولة التى بناها الناجون من الإدارة الجماعية .

وتم إرسال عملاء الموساد فى مهمات لاطلاع الصحفيين فى مختلف الدول الأوربية .

وقام ثلاثة من الصحفيين الإسرائيليين البارزين ــ بإيعاز من « هاريل » ــ بمهمة خاصة تتعلق جزئيا بالعمل لصحفهم ، وتتعلق من ناحية أخرى بمهمة تجسس لمعرفة المزيد من العلماء الألمان .

وكانت تلك واحدة من المرات القليلة ، وربما المرة الأولى ، التى استخدمت فيها الموساد الصحفيين الإسرائيليين كعملاء لها ..

وشكل ذلك الخطأ الكبير الثانى لها ريل فالمقالات التى نشرت نتيجة للمهمة شبه المخابراتية أثارت الذعر بين الشعب الإسرائيلى بشأن الخطر الصاروخى القادم من مصر .

وجن جنون « بن جوريون » ، ووبخ « هاريل » بسبب تسريبه للمعلومات بدون إذن إلى الصحف وألقى باللائمة عليه لافساده الروابط المتنامية بين إسرائيل وألمانيا الغربية . وهى الروابط التى كانت موضع اهتمام خاص من « بن جوريون » ، و « بيريز » والدائرة المحيطة بهما ، كبديل محتمل لفرنسا بعد أن فترت علاقة ديجول بإسرائيل ..

لم يعر « هاريل » اهتماما كبير للمجادلات الدبلوماسية أو لأهمية ألمانيا الغربية بالنسبة للسياسة الخارجية الجديدة لبن جوريون .. وواصل فى اصرار حملته لكن « الرجل العجوز » لم يكن ليسمح لأى شيء بالوقوف فى وجه إقامة روابط أفضل مع بون وكان ذلك هو خطأ « هاريل » الفادح الثالث .

وطلب « بن جوريون » إنهاء حملة « هاريل » الصليبية الخاصة . لكن « هاريل » رفض ذلك ، وسعى إلى الحصول على مساندة الأعضاء الآخرين فى حزب الماباى .. وحاول تجنيد وزيرة الخارجية « جولدا مائير » و « ليفى

أشكول » وزير المالية للوقوف إلى جانبه .. وذلك فى الوقت الذى كانت الخلافات السياسية حول فضيحة « لافون » ـ وهى الأسرار المتعلقة بالتخريب فى مصر ـ قد وصلت ذروة حدتها .

وللمرة الأولى منذ عام ١٩٤٨ ، انضم « هاريل » إلى خصوم « بن جوريون » ووجد نفسه فى معسكر الأعداء ، وكان مازال يأمل فى تخطى قرار الفيتو الذى وضعه « بن جوريون » وتجديد حربه المقدسة ضد العلماء النازيين .. وكان هذا فى عيون « بن جوريون » يرقى إلى مرتبة الخيانة ..

وخلف الكواليس ، كان انعدام الثقة يتزايد بين « بن جوريون » رئيس الوزراء ، و « هاريل » حول مسائل أخرى .. فلم يكن « بن جوريون » سعيدا بحماس « هاريل » فى تعقب « إسرائيل بير » الذى كان يعمل فى مكتب رئيس الوزراء ..

وقد انعكس القبض عليه فى عام ١٩٦١ بالسلب على « بن جوريون » نفسه .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن « هاريل » راضيا على الاطلاق عن قيام « بن جوريون » بجعل « شيمون بيريز » مسئولا عن المشروع النووى السرى ، وعن « لاكام »

وبدأ رئيس الوزراء يشعر بالقلق تجاه السلطات الواسعة التى يتمتع بها « هاريل » .

والآن ، وبسبب العلماء الألمان ، حدثت شروخ عميقة فى العلاقة بين الصديقين القديمين ، واندفعت مياه الفيضان إلى هذا الصدع لتدمر الثقة التى كانت يوما ما راسخة بينهما ..

وفى ٢٥ مارس ١٩٦٣ ، وعقب القبض على « جوكليك » و « بن ـ جال » فى سويسرا بتسعة أيام قدم « هاريل » استقالته ، وكان يأمل فى ألا يقبلها « بن جوريون » ، وأن يطلب منه الاستمرار فى تحمل مسئولياته .. وبدأ فى الاقتناع بالاسطورة التى خلقها حول نفسه ..

فالصبى الصغير القادم من فايتبسك قد أصبح لاعبا أساسيا فى مباراة الشطرنج العالمية . واجتمع مع شخصيات قوية النفوذ مثل « آلان دالاس » كاتم أسرار الرئيس « أيزنهاور » والجنرال « بختيار » رئيس السافاك ، والذى أصبح أيضا رئيسا لوزراء إيران ..

واعتقد « هاريل » أنه يتعين أن يتمتع بنفس السلطات وأن يصبح حتى عضوا فى الوزارة .. أو على أقل تقدير ، فإنه اعتقد أنه لا يوجد من يحل محله كمسئول أول عن مؤسسة المخابرات الاسرائيلية .. إلا أن « بن جوريون ، كان يعتقد غير ذلك ..

لقد كانت تلك نهاية حقبة ، فقد سقط الصليبى العظيم على حد سيفه هو ..

الفصل السادس

آميت يعيد تشكيل الموساد

سلم رسول من الجيش رسالة للميجور جنرال « مائير ياميت » جاء فيها :

« عليك بالاتصال فورا بمكتب رئيس الوزراء » ..

قرأ « ياميت » الرسالة قبل أن يطويها بعناية ، ووضعها فى جيب سترته العسكرية العلوى .. كان ذلك فى السادس والعشرين من عام ١٩٦٣ اثناء قيامه بجولة فى الوحدات العسكرية بالقرب من البحر الميت .. وبالطبع فقد فعل ماأبلغ به ، وهرع إلى أقرب تليفون ، وطلب مكتب « بن جوريون » ورد عليه المساعد العسكرى الأول لرئيس الوزراء قائلا : « الرجل العجوز يطلب مقابلتك على الفور ، وسوف نرسل طائرة لاحضارك » ..

وبعد حوالى ثلاث ساعات ، وصل « آميت » إلى مكتب رئيس الوزراء فى تل أبيب ، وهو فرع للمكتب الرئيسى فى القدس ، وهو مبنى ضيق مكون من ثلاث طوابق حجرية ، وسطح من القرميد الأحمر ، وشرفة صغيرة أمامية ..

كان « آميت » يعرف المكان جيدا ، حيث يقع مكتب « بن جوريون » وسط مبان مماثلة فى الشوارع التى تصطف على جوانبها الأشجار فى « كيريا » وهى المنطقة العسكرية التى تضم مقر الأركان العامة للجيش ، ومقر قيادة مؤسسة المخابرات الوليدة ..

صافح « بن جوريون » « آميت » ، ثم سلمه نسخة من رسالة أرسلت منذ

بضع ساعات إلى « إيسر هاريل » ، تتضمن موافقة رئيس الوزراء على استقالته .

ودون أن يتوقف ليسأل « آميت » عما إذا كان يرغب فى تولى منصب جديد ، قال « بن جوريون » ببساطة :

« سوف تكون الرئيس الجديد للموساد » ..

كان هذا أمرا ، ووافق « آميت » ..

شعر الجنرال « آميت » بالدهشة للعرض المفاجىء بالرغم من أنه كان يعتقد أن الوقت قد حان لرحيل هاريل بعد ١٢ عاما من استحواذه على سلطات استثنائية فيما يتعلق بمؤسسة المخابرات .

كان هناك قرار آخر مثير للدهشة اتخذه « بن جوريون » وهو أن « آميت » لن تكون له سلطات « هاريل » ، فلن يكون هناك رجل واحد مسئول عن مؤسسة المخابرات بعد الآن يتولى مسئولية التجسس فى الخارج ومسئولية مكافحة الجاسوسية فى الداخل ..

فقد تقرر أن يتولى رئاسة « شين بيت » رجل آخر ..

ومع ذلك ، فقد كان « آميت » يتولى منصبين فى هذه اللحظة ، فقد كان قد تم تعيينه منذ عام رئيسا لوكالة « أمان » تتويجا لخدمته الطويلة فى السلك العسكرى ..

ولد « آميت » فى طبرية عام ١٩٢٦ تحت اسم « مائير سلوتزكى » وشب بوصفه اشتراكيا ، وانضم إلى كيبوتز « ألونيم » فى الجليل الأدنى ، وانضم إلى حركة الهاجاناه السرية ، وأصبح قائدا لسرية حرب ١٩٤٨ ..

وعقب الحرب ، أحس بالتمزق بين قيم الجماعية وبين التزامه بالدفاع عن اسرائيل .. وبدلا من العودة إلى الكيبوتز اختار البقاء فى الجيش .. وهو جيش الدفاع الاسرائيلى الجديد ..

وفى الخمسينيات ، تولى « آميت » قيادة وحدات من المشاة والدبابات ، وكان من الرجال الذين طوروا مبدأ « اتبعونى » « **Follow me** » وهو الذى أصبح

ماركة مسجلة للجيش الإسرائيلي .. فالضابط فى جيش الدفاع الإسرائيلي لايبقى فى المؤخرة بل يتقدم قواته فى المعركة ، ضاربا المثل فى الشجاعة .

وأصبح « آميت » صديقا حميما للجنرال « موشى ديان » ، وخدم كمساعد له فى حملة ١٩٥٦ ، ودرس العلوم النظرية بعد ذلك ، وحصل على درجة علمية فى الاقتصاد من جامعة كولومبيا فى نيويورك .

وعندما عرض عليه منصب رئيس « أمان » فى عام ١٩٦٢ فمن المحتمل أنه فكر فى الأمر مرتين ، فالوظيفة الاستخباراتية لم تجلب لشاغلها سوى الحظ السيء ، فقد أجبر ثلاثة من قادة « أمان » الأربعة على ترك مناصبهم : أولهم « إيسر بيرى » فى عام ١٩٤٩ لانتهاكه الحقوق المدنية ، ثم « بنيامين جيلبى » فى ١٩٥٥ بعد إشرافه على عملية التخريب الغبية فى مصر و « يهوشافات هاركابى » فى عام ١٩٥٨ بعد فشله فى انجاز تدريبات التعبئة الوطنية لقوات الاحتياط ..

وحل محل هاركابى الجنرال « حاييم هيرتزوج » الذى يعد قصة نجاح حية .. وكان « هيرتزوج » قد حل محل « بيرى » فى رئاسة « أمان » فى وقت سابق وفى عام ١٩٥٨ عاد إليها مرة أخرى لتجديد صورة المخابرات العسكرية وصقلها ، وتمكن من اعادة الاعتبار إليها إلا أن « هيرتزوج » نفسه لم يتمكن من البعد بوكالته خارج الظلال الكثيفة التى ألقتها الموساد خلال سنوات « هاريل » كرجل مسئول وحيد ..

ومع سعى « هيرتزوج » للتقاعد من الخدمة العامة مرة أخرى فى ١٩٦٢ ، عرضت رئاسة « أمان » على « آميت » بالرغم من معارضة « هاريل » الذى أعلن أنه من الخطأ اختيار رجل بدون خبرة فى أعمال المخابرات إلا أنه من المحتمل أيضا ان يكون قد أحس بمدى المنافسة التى تمثلها سمعة « آميت » كجنرال يمتلك مجموعة من التابعين المخلصين .. ولكن تأثير « هاريل » على « بن جوريون » كان قد تضاءل بالفعل وحصل « آميت » على المنصب ..

وعقب توليه السلطة فى مقر قيادة « أمان » فى كيريا حاول « آميت » التخفيف من العداء والمنافسة بين وكالته والموساد التابعة لهاريل .. وأوضح أنه

لامكان للخصومات عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن الدولة اليهودية ، واقترح أن تعمل جميع الأجهزة السرية فى تعاون تام ..

وبعد مرور خمسة أسابيع من محاولة المصالحة ، وصل التوتر والكراهية بين رئيسى الوكالتين إلى درجة الاحتدام ، فلم يكن ما بينهما هو مجرد اختلاف فى الآراء ، بل إن كلا منهما كانت له عقليته المختلفة تماما عن الآخر ، فهاريل كان متخصصا فى العمليات و « آميت » كان خبيرا فى الاستراتيجية العسكرية ، فهاريل كان يسعده التنقل السريع عبر أوربا لعدة شهور لاقتفاء اثر « يوسيل شوماخر » أو أية فريسة أخرى ، ينام خلالها فوق الأسرة الصغيرة ، ويبقى فى الشوارع مرتعشا لمتابعة عملية المراقبة .. وكان ضباط المخابرات العسكرية يجدون أن أساليب الموساد مثيرة للضحك لأن جواسيس إسرائيل فى الخارج كانوا لايقدمون إلا أقل القليل عندما يتعلق الأمر بمعرفة القدرات العسكرية للبلدان العربية .

وقد توقع كبار القادة العسكريين فى الجيش نتائج أفضل بكثير عن تولى « آميت » رئاسة الموساد ، فقد كان واحدا منهم ، وأصبح من المؤكد أن الكفاءة فى العمل والتنسيق سيجرى تدعيمها بدوره المزدوج فى كل من الموساد وأمان ، إذ لم يسبق لاحد ان تولى هذين المنصبين معا ..

لم تتسم المهمة الجديدة بالسهولة ، فقد وضع « آميت » سابقة لامثيل لها بوصفه أول شخص ينضم إلى الموساد لها من خارج الوكالة ذاتها ...

كما واجهته أيضا صعوبة تتمثل فى أن يحل محل شخص أمضى ١٢ عاما فى تشكيل كل من الموساد و « شين بيت » على هواه ، فلم يكن غالبية العاملين فى الموساد راغبين أو قادرين على نسيان « هاريل » الذى كان فى نظرهم بمثابة أسطورة عصره ، والأب الروحى للجهاز السرى ..

وعندما دخل « آميت » لأول مرة مقر الموساد ، الذى لم يكن بعيدا عن مكتبه العسكرى فى أمان ، فإن الاستقبال كان باردا بصورة ملحوظة ، فعلى خلاف مرؤسيه الجدد الذين كان يرتدون الملابس المدنية ، كان « آميت » يرتدى رداءه

العسكرى كجنرال ، وكان عليه فى البداية أن يواجه « هاريل » الذى كان « لاذعا مثل ليمونة » كما ذكر « آميت » بعد ذلك .. فلم يقل سوى كلمات روتينية قليلة ثم وقف ببساطة بعد ذلك وغادر المكان ، وانفجر ثلاثى سكرتارية هاريل فى البكاء ..

وفى اليوم التالى ، السابع والعشرين من مارس ١٩٦٣ ، وصلت برقية تلكس غير شفرية إلى مكتب رئيس الموساد الجديد ، أعربت عن خيبة الأمل لرحيل « هاريل » عن مؤسسة المخابرات ، وأكدت على « ضرورة بذل كافة الجهود للعمل على عودته » ..

ووقع على الاعلان العدد الأكبر من كبار الجواسيس العاملين فى أوربا وطلب آميت من معاونيه أن يستوثقوا من أن الرسالة واردة من « شمويل توليدانو » رجل المغرب المتمرس والمغامرين الآخرين وهم « اسحاق شامير » رئيس العمليات فى باريس ، و « موردخاى ألموج » و « يوسف [جو] رعنان » .

وكان « توليدانو » والآخرون قد فكروا فى تقديم استقالة جماعية ، إلا انهم قرروا فى النهاية الاكتفاء بارسال برقية التلكس شديدة اللهجة . غير أن احتجاجهم كان اقل حدة من « تمرد الجواسيس » الذى حدث منذ ٢٢ عاما عند إعادة تنظيم « القسم السياسى » فى وزارة الخارجية ..

لم يشعر « آميت » بالتعاطف أو ضرورة التزام الصبر مع كاتبى الرسالة والموقعين على الطلب ، فقد جاء من موقع له تقاليد مختلفة يحترم التسلسل العسكرى للقيادات ، فإذا سقط قائد فى المعركة أو رحل لأى سبب آخر ، فمن الممكن بل ومن الواجب أن يحله محله قائد آخر ..

اتسم رد فعل رئيس الموساد الجديد بالقوة بهدف وقف انتشار الاستياء ، وكتب لهم يقول « أنه لا أقبل سلوككم ، ولست معتادا على الاحتجاجات الجماعية » ..

ودفع الدم الفاسد داخل الجهاز السرى بأميت إلى اصدار أوامره بالتحقيق فى عملية التخريب التى قام بها هاريل ضد العلماء الالمان فى مصر .. وتشكلت لجنة

وزارية للتحقيق فى الموضوع ، وسمح لهاريل بالاطلاع على ملفات الموساد قبل التقدم للادلاء بشهادته ، ولم يتوقف أبدا الخلاف بين الشخصيات والأساليب .. فبعد مرور عشرات السنين كان من الصعب أن يقول « آميت » و « شامير » الذى أصبح رئيسا للوزارة كلمة طيبة عن بعضهما بعضا ، كما أن « آميت » و « جو رعنان » لم يخفيا عداوتهما عندما أصبح كل منهما رئيسا للمجموعات الاقتصادية الاسرائيلية فى السبعينيات .. إلا أن النفور المتبادل بالغ الحدة كان بين « آميت » و « هاريل » الذى أصبح مثل الخمر المعتقة يكتسب قوة مع مر السنين .

ومع ذلك ، فقد طار « آميت » فى عام ١٩٦٣ إلى باريس فى مهمة للمصالحة مع رجاله من أوربا ، كما دعا أيضا أحد رجال « هاريل » المفضلين للعمل كنائب له وهو « ياكوف كاروز » الذى كان يعمل رئيسا لقسم الاتصال والعمل السياسى فى الموساد ، والذى عمل مع الوكالة منذ أيامها الأولى « كدبلوماسى بديل » .. وقد قبل عرض « آميت » وهو إجراء أدى إلى تخفيف حدة الغضب الذى كان يشعر به المخلصون لهاريل ..

وقد أدى التغيير فى الحكومة الإسرائيلية إلى التخفيف من حدة التوتر أيضا

ففى يونيو ١٩٦٣ ، وعقب مرور ثلاثة أشهر من اجبار « بن جوريون » « هاريل » على التخلى عن منصبه .. استقال « الرجل العجوز » نفسه من منصبه كرئيس للوزراء بعد أن أرهقته الصراعات الداخلية للسلطة فى حزب الماباى حول عملية « لافون » ..

فقد أدى فشل المخابرات الاسرائيلية فى مصر إلى تآكل مكانه « بن جوريون » ، والى اسقاطه فى النهاية عقب مرور تسع سنوات على القبض على شبكة التخريب .. وأسس « بن جوريون » حزبا سياسيا جديدا ينتمى إلى الوسط مع أعوانه « موشى ديان » و « شيمون بيريز » اطلق عليه اسم « رافى » .. واختار الماباى الذى ظل مسيطرا على الأغلبية فى الكنيست « ليفى اشكول » رئيسا للوزارة الجديدة .. وأبدى « أشكول » اهتماما بالغا بالمخابرات ، فقد كان

يشعر بالرهبة التامة إزاء عمل الموساد ، وكان يطرى من وقت لآخر على « آميت » لما يقوم به عملاؤه ، وفى المقابل عمل « آميت » على زيادة ميزانية الموساد عن طريق « أشكول » الذى كان وزيرا للمالية قبل توليه رئاسة الحكومة وهو الأمر الذى مكنه من استئجار عدد من الرجال والنساء التابعين له والاسراع بإصلاحاته فى الجهاز السرى ..

واستمر « آميت » محتفظا بمنصبيه ، متنقلا بين مكاتب الموساد وأمان فى تل أبيب حتى شهر ديسمبر ١٩٦٣ ..

واستخدم هذه الفترة الانتقالية لإعادة تنظيم هيكل الموساد .. وضم ذراع عمليات « أمان » من القوات الخاصة ، وهى الوحدة « ١٣١ » إلى الموساد ، وكانت سمعتها قد تلطخت بعد عملية لافون ، واحتاجت إلى هوية جديدة باندماجها فى وحدتى العمليات الصغيرتين للموساد .. وبسبب العجز المزمن فى القوى العاملة ، عملت الوحدة ١٣١ كفرق للعمليات لتدعيم مبعوثى « هاريل » فى العالم ، وكفرع لتجميع المعلومات عن طريق الجواسيس العرب والأجانب العاملين تحت سيطرة الضباط الإسرائيليين .. وكان من المتوقع أن يعترض « اسحاق شامير » رئيس الوحدة الأوربية على هذا الاندماج ، إلا أنه استقال بدلا من ذلك وفى الواقع ، فإن كبار مسئولى العمليات الميدانية الأربعة ، الذين وقعوا على رسالة الاحتجاج إلى « آميت » فى ثانى يوم لتوليه رئاسة الموساد ، قد تركوا الوكالة له خلال عامين من إرسالهم للبرقية .. فقد أيقنوا أنه لم يبق لهم أى أمل فى الترقية ، بعد أن رفعوا رايات الانشقاق .

وأعلن « توليدانو » ، بعد أن ترك الموساد ، أنه كان يأمل فى أن يصبح رئيسا للوكالة ، وكان عليه أن يستقر فى منصب مستشار الشئون العربية لرئيس الوزراء « أشكول » وهو منصب مناسب له من ناحية أنه يجيد الحديث باللغة العربية ، إلا أنه لم يكن المنصب المناسب لرجل اعتاد على العمل السرى ..

وبالنسبة لشامير ، فقد واجه صعوبات فى الانتقال من حياة السرية التى عاشها منذ فترة ماقبل مولد دولة إسرائيل فمنذ قيادته لعصابة شيترن السرية ضد البريطانيين والعرب وتجواله فى أوربا اثناء عمله فى الموساد اكتسب ملكات

الزاهدين المطلوبة فى العمل السرى ، فقد كان متشككا ، يرضى بالقليل من المتع ولديه الرغبة فى العمل الشاق .

ويذكر واحد من رفاقه فى الموساد أن شامير كان انطوائيا ، متفانيا فى قضيته ، مجدا فى عمله ، وأنه علم نفسه الفرنسية بالرغم من صعوبتها ، ويمكنك الاعتماد عليه دائما ، إلا أنه لا يتقدم بأفكار ذكية .. وأنه يحضر إلى عمله فى الصباح ويعود فى نهاية اليوم الى زوجته « شولاميت » وطفليهما .. وقد انجذبت « جيلادا » بالمثل إلى العمل السرى أما ابنه « يير » فقد أصبح ضابطا برتبة « كولونيل » فى سلاح الطيران .. وعقب مغادرته للموساد ، افتتح « شامير » مصنعا إلا أنه فشل ولم يكن امامه سوى بدائل محدودة من بينها الدخول فى العمل السياسى عام ١٩٧٢ فى سن متأخرة نسبيا بعد أن بلغ الخامسة والخمسين .

وقد اعتاد دائما الذوبان بصورة غير مرئية وسط الجماهير وكان على هذا الرجل القصير ذى الشارب الصغير الذى لا يبتسم إلا نادرا أن يتعلم كيف يمكن ان يصبح شخصية عامة ..

وحتى بعد ان أصبح أستاذا فى فن السياسة ، ووصل إلى منصب رئيس الوزراء ، فقد ظل محتفظا بذكريات حميمة من أيام التوتر الدرامية أثناء عمله كعميل سرى ، ويتذكر ذلك قائلا : « أن أيامى فى الموساد كانت أسعد أيام حياتى ، وأنه لايمكن مقارنتها حتى بالسياسة ورئاسة الوزارة » .

قام « ياميت » بتعيين رجاله محل الذين تركوا العمل ، وأحضر العديد منهم من « أمان » ومن بينهم « ريهافيا فاردى » رئيس قسم جمع المعلومات العسكرية .. كما قام أيضا برفع رتبة الملحقين العسكريين فى السفارات الاسرائيلية بالخارج ولتدعيم هيبتهم ، أو كل إلى البعض منهم مهمة رئاسة مراكز الموساد فى الوقت نفسه .

وقد هدف الرئيس الجديد إلى تحويل الموساد إلى منظمة جادة وحديثه للمخابرات ، مركزا على ما تعتبره « أمان » المهمة الرئيسية :

وهى جمع المعلومات العسكرية والسياسية من الدول العربية وكان يعتبر الموساد

هيئة لجمع المعلومات التى تمكنها بعد ذلك من تجنب القيام بالعمليات الاستعراضية التى كان يعتبرها مضيعة للموارد ..

أراد « آميت » ، الذى تأثر بدراساته للاقتصاد وادارة الأعمال فى الولايات المتحدة ، أن يحاكى طريقة الادارة وعقلية ادارة الأعمال الأمريكية ، وقام بنقل مقر الموساد إلى حى حديث فى مبنى يقع فى قلب تل أبيب بدلا من مجمع كيريا حيث تقع وزارة الدفاع .. وخصص لنفسه مكتبا فاخرا على الطراز الأمريكى مؤثثا بأثاث حديث وجدرانه مكسوة بألواح خشبية ..

شعر عدد من قدامى العاملين فى الموساد بالسخط وهم يشاهدون الميزانية التى يتم انفاقها على وسائل الترف التى كان « هاريل » يعارضها .. فقد فضلوا عليها المكاتب المتواضعة القديمة .

وبدأ المنشقون داخل الموساد فى اطلاق موجة جديدة من الشائعات مماثلة للموجه التى أدت إلى اسقاط « آشر بن ناتان » ورجاله فى القسم السياسى عام ١٩٥١ .. وألمحوا إلى أن « آميت » يبدد الأموال وأنه يسرب البعض منها لافساد مرؤوسيه .. وانتشرت الروايات حول الحياة المترفة التى يمارسها كبار المسئولين فى الموساد الذين ينزلون فى الفنادق الفاخرة ، ويتناولون طعامهم فى أفخم المطاعم فى الخارج .

وشعر « آميت » بالامتعاض من طاحونة الشائعات ، وحاول وقفها ، إلا أنه من ناحية أخرى تشبث بأسلحته والأثاث والسجاد ، فقد كان فى سبيله لتحديث الموساد ، والذى تمثل جزء منه فى تجديد مقرها ..

وغير « آميت » أيضا من طريقة الموساد فى التجنيد ، فبدلا من الاعتماد على توصيات الأصدقاء على طريقة « شبكة الأصدقاء القدامى » البريطانية فضل استخدام أساليب أكثر انتظاما من مجرد .. « الاحساس » الموفق بأن أحد المعارف القدامى الذى التحق بالمدرسة أو وحدة الجيش المناسبة هو النوع الصحيح من الزملاء الذين يمكن أن يصبحوا جواسيس وبذل رئيس الوكالة الجديد جهودا لاختيار المرشحين المفضلين ليس فقط من الجيش بل من الجامعات ، ودوائر الأعمال ، وبين المهاجرين الجدد ..

وتم التأكيد على العثور على عملاء يبدون كأوربيين فى السلوك والمظهر الخارجى ، وهى الصفات المستهجنة عموما فى المجتمع الإسرائيلى .

وكان « شارلى مايوركاس » واحدا من الذين بدا أنه يمكن أن يدخلوا فى القائمة ، فهو من مواليد استانبول لأب نشأ فى سويسرا وأم من أصل نمساوى .. وعندما بلغ من العمر سبعة عشر عاما ، غادر تركيا ليتجنب الخدمة العسكرية هناك وسافر إلى فرنسا لدراسة الطب ، لكنه تحول بعد عام إلى دراسة التجارة .. وفى عام ١٩٦٥ ، توجه هذا اليهودى التركى إلى إسرائيل ، ولم تكن تدفعه إلى ذلك دواعى أيديولوجية ، بل لأنه اكتشف أن الوكالة اليهودية مستعدة لدفع نفقات دراسته فى الجامعة العبرية ..

وداخل حرم الجامعة بالقدس ، لفت « مايوركاس » نظر رجال الموساد الذين اقترحوا عليه الانضمام إلى الوكالة ، فوافق بحماس ، وبعد ثلاث سنوات من التدريبات الأساسية ، اكتشف رؤساءه أنه شاذ جنسيا ، وفصل على الفور من الموساد ..

وشكا قائلا : « أردت أن أخدم الدولة ، فهاجمونى بعد ذلك بهذا الموقف ، وهل هناك إسرائيلى آخر يملك ما أملك من عطاء ، بخلفية لأسرتى ، وإجادتى لثمانى لغات ، ومعرفتى بكافة أنحاء أوربا ؟ » ..

وقد تعاطف معه الكثير من زملاء الموساد ، إلا أنهم كانوا غير راغبين فى المجازفة بما كان يعتبر ، على مستوى العالم ، مخاطره غير ضرورية فى عالم الجاسوسية .. لشعورهم بالقلق الدائم من التعرض للابتزاز الجنسى والتعقيدات المحفوفة بالمخاطر إزاء ذلك ..

ولم يكن وضع النساء فى الموساد أفضل من ذلك ، ويوضح أحد كبار العاملين « أن المرأة لايمكنها أن تجمع المعلومات فى العالم العربى ، فالطريقة المختلفة التى تعامل بها المرأة فى المجتمع العربى تمنعنا من تشغيل النساء كواحدة من أفراد العمليات أو كضابطة حالة فلا يمكن للعرب أن يقبلوا النساء ، فإذا رأوا إمرأة مثلها سيقفزون من النافذة » ..

فغالبية النساء فى الموساد يعملن فى الشئون الادارية أو فى الخدمات ، فالموساد كانت تحجم دائما عن إرسال النساء فى مهام طويلة خارج البلاد ، حتى ولو كانت من المهام الأقل خطورة مثل العمل كضابطة اتصال مع وكالات الأمن فى الدول الأخرى ..

وقد أثر عدم المساواة هذا ، بالنسبة للذين يتم ارسالهم إلى الخارج ، على فرص الترقية على الجبهة الداخلية لأن مناصب صناعة القرار كان تحجز عادة لذوى الخبرة فى العمل الميدانى ، الأمر الذى أصبح يشكل دائرة مفرغة بالنسبة لنساء الموساد .. فهؤلاء اللواتى يبدأن عملهن سكرتيرات يمكن أن يصبحن مديرات .. ولكن مديرات مكاتب وليس كقائدات للتآمر والمؤامرات الخارجية .

إلا أن لكل قاعدة استثناء ، فعلى سبيل المثال كانت « ليلى كاسيل » أسطورة حية .. ورغم مرور سنوات على وفاتها فى عام ١٩٧٠ إلا أن الرجال الأكبر سنا فى الموساد مازالوا يتحدثون عن مواهبها الخارقة .. وكانت قد انضمت إلى الوكالة فى ١٩٥٤ ، بعد سنوات من الخبرة فى وكالة « شاى » قبل قيام إسرائيل ..

كانت « كاسيل » تتحدث العبرية والانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية بطلاقة ، كما كانت على معرفة بالعربية والايطالية .. ويذكرون أنها كانت جذابة وذكية وجديرة بالثقة وشعر « هاريل » أنه يستخدم كلا من قدراتها العقلية وجمالها فى المهمات المختلفة فى أوربا ، إلا أنه لم يكشف أبدا عن الطبيعة المحددة لعملها .

أدت التغييرات التى جرت فى الوكالة تحت قيادة « آميت » إلى حدوث بعض التحسن فى الفرص المتاحة أمام النساء فمطالب الرئيس الجديد الخاصة بالتحلى بالمهارة وخبرة المحترفين ساعدت على إعطاء النساء فرصة أكثر عدلا للتعيين لإدارة مكاتب تغطى مناطق ، أو مواضيع معينة ، وهن النساء اللواتى شققن طريقهن ببطء إلى مراتب أعلى حتى أصبحن مسئولات فى النهاية عن مجال معين من الخبرة .

و « مدير المكتب » هو نقطة الاتصال بين العاملين فى الميدان والمكتب الرئيسى

فى تل أبيب ، ويقوم بتزويد الأفراد فى الخارج بكافة مايحتاجونه لتنفيذ مهامهم .. فرجل المكتب ينقل الأوامر ، ويتلقى كافة المواد التى جمعت من ميدان العمل ..

وعلى سبيل المثال ، فإن مكتب شرق افريقيا يجمع « ناتج » عمليات التجسس المرسلة من مركز الموساد الكبير فى نيروبى وأيضا من العملاء فى الدول المجاورة لكينيا ..

ولا يجرى إرسال أية سيدة فى مهمة إلى الخارج إلا عندما تتطلب مهمة معينة إرسالها ، وذلك بعد استكشاف كافة الوسائل الأخرى واستبعادها ، وبالرغم من الاحجام المماثل الذى يشعر به الجيش الإسرائيلى بالنسبة لتعريض مجنداته للقتال المباشر ، فإن رؤساء المخابرات كانوا يعرفون أن استخدام المرأة يمكن أن يكون له مزايا كبيرة فإذا عملت بمفردها فإنها لاتثير عادة إلا أقل الشكوك .

وإذا عملت مع زميل لها ، فإنه من المعتقد أن الأثنين اللذين يبدوان متزوجين او متحابين يجذبان انتباها أقل من الرجال الذين يعملون فرادى فى عمليات المراقبة ..

وقد قامت الموساد بإرسال النساء للعمل بغرض الايقاع الجنسى ، ولكن بصورة محدودة أيضا وذلك لسببين اولهما أن رؤساء المخابرات فضلوا استخدام النساء غير المتزوجات لمثل هذه المهام ، وثانيهما أن هؤلاء النسوة كان لايتم استخدامهم فى الغالب الأعم فى هذا الأمر إلا مرة واحدة فقط ..

وكانت الموساد تتردد قبل اصدار الأمر لعملائها من الرجال والنساء بالدخول فى علاقات جنسية لتحقيق مهامهم .. وقد يكون هذا ناتجا عن الآثار المتبقية من عهد « هاريل » ، ويذكر عنه توبيخه لرجل متزوج من العاملين معه شوهد وهو يعانق عدد من السكرتيرات فى مقر قيادة الموساد ..

غير أن التفكير فى مسألة الجنس قد تغير ، ففى الوقت الذى لم تكن هناك ضغوط على العميلات لاستغلال ملكاتهم الجنسية ، كان من المتوقع من جانبهم استخدام الجنس كأحد الأسلحة العديدة فى ميدان العمل .. وإذا كان الابتزاز

الجنسى أو الايقاع فى حبائل الجنس هو جزء لايتجزأ من المهمة ، فإن الموساد كانت تلجأ غالبا لاستئجار بائعات الهوى المحترفات .

وقد أثبت عدد من بغايا إسرائيل وطنية مدهشة بالرغم من عدم إبلاغ الوكالة السرية لهن بأية تفاصيل عن العملية أو حتى عن شخصية الرجال الذين صدر لهن الأمر بمضاجعتهم .

وعلى سبيل المثال ، فإنه من الممارسات الشائعة أن كلا من الموساد و « أمان » كانتا تقومان بتهريب العملاء العرب التابعين لهما لاستخلاص المعلومات منهم عبر الحدود إلى إسرائيل ، وإحضارهم إلى مدينة هادئة .. وهناك كان يتم استجوابهم مطولا ، ثم يكافأون على عملهم بتقديم بائعات الهوى إليهم .. وأحيانا كان يتم تصويرهم فى أوضاع شاذة لامكان اخضاعهم للابتزاز ، وذلك بهدف تأمين إخلاصهم فى المستقبل .

وتتضاءل حدة التردد بالنسبة لارسال الرجال من الموساد إلى الخارج للقيام بعمليات اصطياد جنسى .. وكان يتم اختيار الرجل المناسب الوسيم عادة لإقامة علاقات صداقة .. تتحول فى العادة إلى علاقة حميمة مع الطابور الدولى من سكرتيرات السفارات ومضيفات الطائرات ، لأن هؤلاء يمكنهن تقديم معلومات ثمينة حول الدبلوماسيين والمطارات والمدن فى العالم العربى ..

وكانت هذه الترتيبات تنتهك من حين لآخر ، فقد كان أحد الضباط الإسرائيليين على علاقة جنسية عاصفة مع أهم عملائه فى الشبكة التى يديرها ، وهى إمرأة أوربية شابة . كانت تقدم له المعلومات ، ويضاجعها .

وبعد بضع سنوات تولى ضابط آخر المسئولية فى أوربا وأحس مدير المكتب المختص بالدهشة ، وهو يقرأ التقرير الأول للرجل الجديد ، الذى أشار فيه إلى أن « المصدر النسائى » أعربت عن دهشتها بل أنها قد أعلنت تذمرها ، وقد شكت من أنه لايرغب فى مضاجعتها ..

واكتشفت قيادة الموساد أن جيلين من ضباط الحالة كانوا يستخدمون المرأة بأكثر من طريقة ، وأنها اعتقدت أن ممارسة الجنس معهم هو جزء لايتجزأ من

عملية استخدامها من قبل الإسرائيليين .. وقررت الموساد عدم توجيه اتهامات نظامية للضباط السابقين على اساس أنها لن تكون ذات فائدة تذكر .

وخلال تولى « مائير آميت » رئاسة الوكالة ، تم إجراء تحسينات على استخدام الجنس والممارسات العملية الأخرى للموساد ، كما شهدت مرحلة « آميت » وضع العديد من المبادىء الخاصة بالأشخاص والهياكل التنظيمية التى ميزت الوكالة السرية لسنوات مقبلة ..

ومن بين أقسام الموساد الثمانية ، كان أكثرها أهمية أقسام جمع المعلومات ، والتخطيط الميدانى والتنسيق ، والابحاث ، والعمل السياسى والاتصال .. أما الأقسام الأخرى وهى التدريب ، الميزانية ، قوة العمل ، التكنولوجيا ، العمليات التقنية .. فإن عملها يتركز على تقديم الدعم والمعاونة للأقسام الرئيسية الأخرى .

وتم تنظيم قسم جمع المعلومات والقسم السياسى على أسس إقليمية ، ووظيفيَة ، وهما يتميزان بخبرة تخصصية عالية ..

وتحتكر الموساد بصورة فعلية عملية جمع المعلومات من خارج إسرائيل ، وذلك باستثناء بعض الأهداف العسكرية المعينة التى لاتكون عادة بعيدة عن حدود إسرائيل التى قد تتجسس عليها أمان ..

وقد تغيرت طريقة عمل الموساد مع مرور الوقت وتغيرت شخصياتها .

فقد كان « هاريل » يؤمن إيمانا عميقا فى قدرة الموهبة الطبيعية

وكانت الموهبة الطبيعية التى يتمتع بها ممتازة بدون شك .. ولم يخف ازدراءه للأجهزة الالكترونية ، بالرغم من كون إسرائيل موطنا لعدد من أعظم المخترعين فى العالم ..

شعر « هاريل » بالفخر دائما من أن الموساد التابعة له ، على عكس وكالات المخابرات الاخرى فى الغرب ، كانت تنظيما يعتمد على المصادر البشرية والذكاء البشرى .

وواصلت الموساد ، تحت رئاسة « آميت » الاعتماد على المصادر البشرية ، إلا

أنه أضيف إليها قدرات أخرى ، حيث حصلت على أعداد ضخمة من أجهزة الكمبيوتر المتقدمة ، وذلك على نفس الأسس التى جرت لتحويل « أمان » للاعتماد على أجهزة الكمبيوتر تحت رئاسة « هيرتزوج » و « آميت » وخليفته الكولونيل « أهارون ياريف » الذى كان مسئولا عن قسم جمع المعلومات فى « أمان » عندما كان « آميت » رئيسا لها ..

آمن « آميت » بأن الحقائق المجردة وتحليلها بصورة منظمة يجب أن يحل محل الاعتماد على الحدس البشرى ، وذلك حتى يمكن تحسين القدرة على تجميع المعلومات التى تحصل عليها الموساد من دول المواجهة العربية التى تقع على حدود اسرائيل وبمراجعة عمل وكالات المخابرات التى عملت كوحدات مستقلة ، والتى زرعها « هاريل » عقب الفشل المخجل للوحدة « ١٣١ » التابعة لوكالة « أمان » فى مصر ، وجد « آميت » أن سجلها كان متفاوتا من حيث جودة الأداء ..

كان « شعلتيل بن يير » واحدا من الجواسيس الناجحين للموساد

وقد عاش فى مصر تحت غطاء محكم من ١٩٥٨ حتى ١٩٦٢ .. وهو مولود لعائلة يهودية على الحدود الفلسطينية / اللبنانية وتعلم منذ صباه أن يبدو كما لو كان عربيا .. وفى نهاية الثلاثينيات عندما كان مجرد مراهق صغير انضم إلى منظمة « إرجون » السرية المتطرفة التابعة لمناجم بيجين ، وأرسل فى مهمات بدا فيها كما لو كان شابا عربيا يعمل فى تجارة الماشية والأغنام ..

وأحس والد « بن يير » بالمخاطر المتضمنة ، وأرسل ابنه إلى مدرسة بحرية فى فرنسا معتقدا أن أوربا ستكون أكثر أمنا إلا انه لم يمض وقت طويل قبل أن يهجر « بن يير » الصغير المدرسة ويهرب مع إمرأة أكبر منه سنا ، غير أنه تعلم الفرنسية بامتياز ، وعند عودته إلى فلسطين التحق بمدرسة اسكتلندية وتعلم الحديث بالانجليزية كما لو كان اسكتلنديا ..

وخلال الحرب العالمية الثانية ، حارب مع وحدة كوماندوز بريطانية فى مصر ، ثم مع عصابة « شيترن » التابعة لاسحاق شامير ضد البريطانيين ، وذلك قبل أن يلتحق بالجيش الاسرائيلى للاشتراك فى حرب عام ١٩٤٨ ..

وفى عام ١٩٥٥ ، عندما كان عاطلا عن أى العمل باستثناء التسكع فى حانات تل أبيب ، سمع أن « شامير » والأصدقاء الآخرين فى المنظمة السرية اليهودية الذين كانوا معه قبل قيام الدولة قد انضموا إلى الموساد .. وسعد « بن يير » بالانضمام أيضا إليهما .. وتخفى دون أية مصاعب فى شخصية « فرانسوا رينانكير » بوصفه مواطنا بلجيكيا يعمل خبيرا عالميا فى الماشية ..

وتمكن « بن يير / رينانكير » من الحصول على دعوة من الحكومة المصرية للحضور إلى القاهرة كمستشار فى تربية الماشية ..

وذات يوم قرب نهاية الخمسينيات ، دق جرس التليفون فى شقة المؤلف الاسرائيلى « آموس كينان » فى باريس ، وانطلق صوت لم يسمعه منذ سنوات قائلا : « إيسى شارلى » وهو أحد أسماء « بن يير » الحركية .. وظل « كينان » يستمع لدقائق معدودة ثم هرع خارجا للقاء صديقه القديم فى عصابة « شتيرن » على ظهر قارب سياحى فى نهر السين .. ولفرط دهشته وجد الكاتب أن « بن يير » تخلى عن شاربه ، كما رفض الحديث بأية لغة سوى الفرنسية ..

وأسر الإسرائيلى الغامض إلى كينان قائلا : « أنا الآن خبير فى الماشية ويجب أن تناديني باسم فرانسوا من الآن فصاعدا .. اننى أحضر إلى باريس مرة فى الشهر لقضاء ليلة واحدة ، على أن أتوجه الى بروكسل فى اليوم التالى ، ومن هناك أتوجه إلى القاهرة ، وليس هناك من أتحدث معه .. أن عملى صعب وقد تدربت عليه ، وحتى لو ناديتنى فى منتصف الليل بالعبرية فلن استيقظ من نومى .. ولا أحد فى مصر يمكنه أن يتخيل اننى افهم العربية أيضا .. وفى بلجيكا يعتقدون أننى بلجيكى .. فلهجة أهل جنوب فرنسا تماثل لهجتهم .. ومن أجل دواعى الأمن ، فإننى أقول للناس أيضا أننى قضيت زمنا من الحرب فى جنوب فرنسا » .

وفى مصر كان « بن يير / رينانكير » واحدا من أكثر العملاء جسارة ، فقد كان مسئولا عن رسم خرائط المطارات المصرية ، وتقديم معلومات تفصيلية عن المنشآت العسكرية وكان الأمر محفوفا بالمخاطر ، إلا أنه كان واحدا من العملاء الإسرائيليين الذين أتموا مهمتهم وعادوا إلى ديارهم .. فلم يقبض عليه أبدا ، ولم

يتسبب فى أية فضائح ، وكانت ميزته العظمى أنه كان بالفطرة ذئبا وحيدا ، شبكة جاسوسية من رجل واحد ، إلا أنه أيضا لم يكن قادرا على الحفاظ على توحده المطلق وانتهك محاذير الأمن بالتحدث إلى « كينان » ..

وعند عودته إلى إسرائيل فى عام ١٩٦٢ وجد أن الحياة « العلنية » مملة للغاية .. فقد أصبح شخصا عاديا بلا فائدة مع عملاء ميدان سابقين يفتقرون لأى نوع من الإثارة ، وانتقل إلى كندا بعد أن غير اسمه وغادر إسرائيل بعد أن قدم مساهمته لها .

وهناك قصة جاسوسية تفتقر لأية نهاية سعيدة ، هى قصة « جاك ليون توماس » وهو أرمنى نشأ فى القاهرة وعمل لصالح المخابرات الإسرائيلية دون أن يعرف ذلك فى البداية . وقد كان شابا متعلما وسيما ذا شعر أسود فاحم ، ضليعا فى العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية وانتقل إلى بيروت فى عام ١٩٥٦ ، ثم توجه بعد ذلك إلى ألمانيا الغربية وعمل فى العديد من المشروعات التجارية .

وفى عام ١٩٥٨ ، التقى فى ألمانيا بشاب لبنانى يدعى « إميل » وأصبحا صديقين حميمين ، يستمتعان سويا بالتردد على حانات ومطاعم كولونيا وبون حيث كان « إميل » ، الذى كان واضحا أنه من الأثرياء ، يدفع الحساب دائما .. وكانا يتحدثان عن العمل والنساء ، وعندما ينتقل الحديث إلى السياسة كان « توماس » لايخفى كراهيته لعبد الناصر رئيس مصر .

وذات مساء قدم « إميل » إلى « جاك » قدرا هائلا من المال واقترح عليه العودة إلى مصر للمساعدة فى الاطاحة بالدكتاتور الفاسد ..

وقيل لتوماس أنه سيعمل لحساب إحدى دول حلف الأطلنطى وكان يطلق على هذه الطريقة التى برعت فيها الموساد بصفة خاصة اسم « التجنيد المزيف » .. وهكذا لم يذكر اسم إسرائيل على الاطلاق .. وابتلع توماس ، الذى كان مفتونا بالغرب ، الطعم الذى قدم له ..

وفى مسكن صغير فى كولونيا ، قام اشخاص مجهولون بتدريبه على أسس عمليات التجسس من تصوير الوثائق وتحميض الأفلام وإخفاء الصور السلبية

[النيجاتيف] فى أنابيب معجون الأسنان ، وصناديق الأحذية أو الكتب والكتابة بالحبر السرى ، وتوصيل الرسائل الشفرية إلى شركاء مجهولون عن طريق « صناديق البريد المهجورة » ..

وعاد توماس ، يحدوه حماس بالغ ، إلى القاهرة فى يوليو ١٩٥٨ وبدأ فى تجنيد المخبرين فى شبكته ، وكان يسافر من وقت لآخر إلى ألمانيا الغربية للالتقاء برؤسائه الذين واصلوا الزعم بانهم مسئولون كبار فى حلف الأطلنطى .. وكان الضابط المسئولون عنه يزودونه بالمال وبالأوامر الجديدة فى مقابل المعلومات العسكرية التى يجلبها معه ..

وخلال إحدى رحلاته ، التقى الشاب الأرمنى بإمرأة ألمانية تدعى « كاثى بندهوف » ، وبعد علاقة عاطفية عاصفة تزوجها وانتقلت معه إلى القاهرة ، وألحقها بشبكته لتصبح حاملة رسائله ..

وفى النهاية كشف ضابط الحالة ، وهو الضابط المسئول عن « توماس » فى كولونيا عن الحقيقة وقال له :

« إننى استخدمك لصالح المخابرات الإسرائيلية » ..

ولم يؤد هذا الكشف إلى إصابة « توماس » بالدهشة ، كذلك لم يدهش رؤساؤه من الإسرائيليين من هذا الافتقاد للمفاجأة فقد كانوا يعرفون أنهم يتعاملون مع رجل يتسم بالذكاء ، كما أن « توماس » كانت تراوده الشكوك فى أنه يعمل لصالح إسرائيل والآن وقد عرف بالتأكيد هذه الحقيقة ، فإن الأمر لم يعن بالنسبة له شيئا ، فمازال يشعر بالكراهية تجاه ناصر ، وعاد إلى عملياته الجاسوسية فى القاهرة بحماس أعظم ..

وبالتدريج اتسعت شبكته ، وقام بتجنيد أثنين من الأرمن ، وراقص يهودى فى ناد ليلى ، وعميل آخر من أصدقاء طفولته أصبح ضابطا فى سلاح المدفعية ..

وأرسلت « كاثى » إلى امستردام حيث دربتها الموساد على استخدام جهاز ارسال لاسلكى بمهارة فائقة ..

وتم اختيار رواية الأرض الطيبة لبيرل بك بوصفه كتاب الشفرة وتلقى الزوجان على الفور علاوة مالية كانت ترسل عن طريق بنك بلجيكى بوصفها « مساعدة من الأقارب من ألمانيا » .

وجمعت الشبكة أدوات التجسس الخاصة بها التى تكونت من خمس أجهزة تصوير ، وحقيبة بها جيب سرى ، وآلة حلاقة كهربائية بها جزء سرى لاخفاء الوثائق ، وقداحة سجائر خاوية لاخفاء الصور السلبية ، وجهاز راديو حديث للارسال والاستقبال مخبأ فى حمام مسكنهما بحى جاردن سيتى من القاهرة .. وكانت « كاثى » تقوم كل عدة أيام بالاتصال بتل أبيب لارسال المعلومات وتلقى الأوامر الجديدة فى الوقت نفسه ..

وفى مايو ١٩٦٠ ، تلقى الزوجان أمرا صدر كتمهيد لهدف كبير سيأتى فيما بعد .. فقد كان عليهما أن ينتقيا ضابطا مصريا يمكن لهما أن يقوما بتجنيده بعد ذلك فى شبكتهما .. وحذرتهما الرسالة بوضوح بأن ينتظرا حتى صدور تعليمات أخرى ، إلا أنهما كانا قد أصيبا بالفعل بأكثر الأمراض المهنية إيذاء للجاسوس وهو الثقة المفرطة بالنفس .. وقاما بمفاتحة شاب من أصل قبطى يدعى « عاطف حنا كيرلوس » .

وبدا أن « كيرلوس » قد التقط الطعم ، إلا أنه قام فورا بإبلاغ قائده بماحدث .. ونصب عملاء مكافحة الجاسوسية المصريين كمينا للشبكة الإسرائيلية ، وقاموا فى البداية بتزويد « توماس » بمعلومات زائفة ، الذى أعتقد انه يرسل معلومات ذات فائدة إلى تل أبيب ..

وبدأ « توماس » — بالغريزة المفضلة عند إيسر هاريل — فى الاحساس أن الأرض تحترق تحت قدميه ، واعد العدة لحل الشبكة وهروب كافة افرادها ، وحصل على جوازات سفر مزورة له ولزوجته التى تمكنت من الهرب مع الراقص اليهودى إلا أن « توماس » والأعضاء الآخرين فى الشبكة ألقى القبض عليهم فى ٦ يناير ١٩٦١ .

وادعى « توماس » أمام محكمة القاهرة أنه كان يتجسس لحساب إسرائيل بدافع

المغامرة والحصول على الأموال ، ولأنه يكره النظام الناصرى ، وقال : « أنا لست خائنا .. اننى لم اعتبر نفسى أبدا مصريا ، فنحن الأرمن مضطهدون فى مصر لأننا أقلية » .

وقد أدانته المحكمة العسكرية وإثنين من الذين جندهم بتهمة التجسس والخيانة ، وأعدم الثلاثة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٢ .. وكشف الادعاء أثناء المحاكمة أن شبكة « توماس » بذلت جهودا جادة لتقديم مليون دولار لطيارين مصريين من سلاح الطيران ، إذا وافقوا على الهروب إلى إسرائيل أو قبرص على إحدى طائرات « الميج » السوفيتية الصنع ..

ولم يستسلم قادة المخابرات ، واندفعوا فى جهودهم للحصول على طائرة سوفيتية الصنع بدافع من الجنرال « عيزر وايزمان » قائد سلاح الطيران المفعم بالنشاط .. وجرى التفكير فى عدد من الوسائل الممكنة التنفيذ المتملة فى زرع عميل كطيار فى أحد اسلحة الطيران العربية أو رشوة طيار عربى .

ولكن كيف يمكن رشوة طيار يحيا حياة رغدة مثل تلك التى تقدمها أية قوات مسلحة عربية ؟

وكانت الفكرة السائدة أن هذا الطريق ، بالرغم من صعوبته ، يعتبر أفضل فرص النجاح أمام إسرائيل .. وقد جمعت « أمان » والموساد بالفعل كمية هائلة من المعلومات عن القوات الجوية لمصر والأردن وسوريا والعراق .. وسجلت ملفات المخابرات الإسرائيلية كافة المعلومات الدقيقة عن الطيارين فى تلك الدول ، ورتبتها وتم تخزينها فى أجهزة كمبيوتر « أمان » وأجهزة « آميت » الجديدة .. وكانت المعلومات شاملة للغاية إلى درجة أن المسئولين عنها كانوا يشعرون كما لو كانوا يعرفون مئات الطيارين العرب معرفة شخصية ..

ولهذا السبب يرجع احساس الإسرائيليين بخيبة الأمل عندما هرب إليهم طيار مصرى فى النهاية بطائرته السوفيتية الصنع ، لأنهـا كانت طائرة تدريب من طراز « ياك » لاتثير إلا اهتماما ضئيلا لدى هؤلاء الذين كانوا يتحرقون شوقا لوضع أيديهم على طائرة مقاتلة ..

وبالرغم من خيبة الأمل الواضحة لدى المخابرات الإسرائيلية ، فقد استقبل النقيب « عباس حلمى » استقبالا حارا فى إسرائيل فقد مثلت المعلومات التى قدمها لوكالة « أمان » إضافة هامة للمعلومات التى جرى تجميعها بجهد بالغ عن أسلحة الطيران العربية ..

وقد استخدم « حلمى » أيضا لأغراض أخرى ، حيث أدان علنا تدخل عبدالناصر فى اليمن ، حيث كان جيشه يحاول إجبار بلد آخر على الدخول فى مجال الاشتراكية الراديكالية العربية ، كما كشف النقاب عن استخدام المصريين للغازات السامة ضد الملكيين فى اليمن ..

ومنح المرتد المصرى معونة مالية ووظيفة طيبة فى اسرائيل ، إلا أن لم يكن قادرا على التأقلم على الحياة فى الدولة اليهودية .. وقرر « عباس حلمى » الانتقال إلى أمريكا الجنوبية بعد أن رفض نصائح رجال المخابرات المتعاملين معه فى تل أبيب .

وزودته الموساد بوثائق هوية جديدة ، ومنحوه مبلغا ضخما من المال لمساعدته على بدء حياة جديدة فى الأرجنتين ..

وبمجرد وصوله إلى « بوينس أيرس » ارتكب « عباس حلمى » عددا من الأخطاء القاتلة منتهكا بذلك التعليمات التى زوده الإسرائيليون بها .

ففى البداية أرسل بطاقة بريدية إلى والدته فى مصر ، اعترضها البوليس السرى المصرى ، واكتشف عن طريقها المكان الذى يختبىء فيها .. وبعد ذلك صادق سيدة مصرية كان قد التقى بها فى ناد ليلى بالأرجنتين ، ووعدته بممارسة الجنس معه فوافق على الذهاب إلى مسكنها .

وكانت تلك هى الصيغة العربية لـ « فخ العسل » الذى يستخدمه الإسرائيليون ووكالات التجسس الأخرى . وفى مسكن السيدة ، كان العملاء المصريون فى انتظار « عباس حلمى » حيث تمكنوا من التغلب عليه ، ونقلوه فى صندوق للشحن البحرى إلى السفارة المصرية ، ومن هناك قاموا بتهريبه على متن شحن الى مصر حيث أدين بتهمة الخيانة من قبل محكمة عسكرية ، و... بالرصاص .

وبالرغم من أن حادثة « عباس حلمى » لاترجع إلى خطأ للمخابرات الإسرائيلية ، فإن ما اكتسبته من سمعة قد تلطخت بسبب القبض عليه ، ودفعت هذه الضربة المعنوية بالموساد و « أمان » إلى إعادة النظر فى خطتهم لإغواء طيار عربى آخر على الهروب بطائرة أفضل .. وجرت مناقشات عديدة حول هذا الأمر ، إلا أن « وايزمان » واصل إصراره على أن فحص طائرة « ميج » يمكن أن يكون مفتاح النصر فى الحرب .

واستمرت الجهود للايقاع بأحد الطيارين فى الشباك .. وبعد ذلك بعام ، وبالتحديد فى بداية ١٩٦٦ ، تم العثور على هدف مناسب آخر ، وكان هذه المرة طيارا عراقيا .

كان « منير رضا » من أسرة مسيحية مارونية ثرية فى العراق ، حيث يعانى غير المسلمين بصفة عامة من التمييز .

وبعد أن تلقى تدريبه على أيدى السوفيت ، أصبح طيارا فى سرب من طائرات « ميج ـــ ٢١ » وهى آخر صيحة فى عالم الطيران العسكرى السوفيتى .

وقد كان الإسرائيليون على علم بخلفية حياة « منير » وذلك بفضل قصاصات الصحف ووسائل الاتصال العراقية التى كانوا يعترضونها ويتصنتون عليها ، وبفضل العملاء على أرض بغداد . وعلم الاسرائيليون أن « منير » كان يشعر بالامتعاض والقلق إزاء الغارات وقصف القوات الجوية للقرى الكردية فى الشمال فى اطار قمع تلك الأقلية ..

تم اختيار العملاء الإسرائيليين لهذه المهمة بعناية بالغة وأرسلوا إلى بغداد ، عن طريق أوربا ، للاتصال بالطيار وبأسرته .. ومن بين كافة العملاء الذين أرسلوا لمشروع « منير » ، وهم عديدون لانه اصبح بسرعة مشروعا له أولوية قصوى ، كان أكثرهم نجاحا سيدة إسرائيلية ولدت فى الولايات المتحدة ، وتحمل جواز سفر أمريكى واتخذت صورة السائحة الغنية ، وحضرت عددا من حفلات كبار المسئولين ، وتمكنت من اخضاع الطيار العراقى لسحرها ، بالرغم من أنه كان متزوجا ولديه طفلان .. واتخذت السيدة الاسرائيلية موقفا شائعا للجاسوسات

الاسرائيليات عبر السنين حيث رفضت ممارسة الجنس مع « منير » فى العراق ، وكان عليه أن يذهب معها إلى أوربا ليحصل على مكافأته هناك ووافق الطيار على مرافقتها الى باريس حيث يمكن ممارسة الحب فى الهواء الطلق ..

وبعد قضاء يومين فى باريس ، وافق « منير » على الطيران مع الفاتنة إلى إسرائيل حيث قالت له « أن لها هناك بعض الأصدقاء المهمين » ..

وقد ساورت الطيار العراقى بعض الشكوك إلا أنه على مايبدو لم يكن يأبه كثيراً بذلك ، وخلال أربع وعشرين ساعة امتلك جواز سفر مزيفا قدمته الموساد فى باريس وسافر إلى تل أبيب على إحدى طائرات « العال » ..

وجرت معاملة « منير » فى إسرائيل بوصفه شخصية هامة جدا واصطحبوه فى جولة إلى قاعدة جوية إسرائيلية حيث التقى هناك مع ضباط من « أمان » والموساد ، وعرضوا عليه مليون دولار وإيواء أسرته الكبيرة كلها إذا هرب إلى إسرائيل على متن طائرة « الميج ـــ ٢١ » الجديدة ..

ولإثبات جدية العرض الذى قدموه ، رتب عملاء المخابرات اجتماعا بين « منير » وبين الجنرال « موردخاى هود » قائد سلاح الطيران الإسرائيلى الذى كان قد حل لفوره محل « عيزر وايزمان » ..

وشعر العراق بالدهشة إزاء المعلومات التى لدى الإسرائيليين عن سلاح طيرانه ، فقد كانوا يعرفون أسماء الطيارين ومدربيهم السوفيت ، ووصفوا له بالتفصيل الدقيق حالة المطار وممراته وبرج المراقبة ، وغرفة العمليات ، وأماكن المعيشة .

وبالتنسيق مع « منير » وبموافقته تم تحديد تاريخ طيرانه الجسور بدون توقف من العراق إلى إسرائيل ..

وساعد « هود » فى التخطيط لمسار الطائرة ، وتنظيم الاتصالات يوم القيام بالضربة ..

وبعد أيام قليلة عاد الطيار مع عميلة الإسرائيلية ، التى كان يعتقد أنها حبيبته الأمريكية ، عن طريق باريس ووفقا لما تم عليه الاتفاق فى إسرائيل ، تم ايداع دفعة

نقدية باسم « منير » فى حساب ببنك سويسرى .. وبعد ذلك جرى تهريب أسرة « منير » إلى إيران بمساعدة المتمردين الأكراد الذين يعملون بصفة مستمرة مع عملاء إسرائيل ، ثم قام مركز الموساد فى طهران بنقل الأسرة جوا إلى أوربا ومنها إلى تل أبيب ..

وفى الوقت نفسه ، طار « آميت » إلى واشنطن لابلاغ « ريتشارد هيلمز » مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بأن الولايات المتحدة ستتمكن قريبا من امتاع عينيها بالنظر إلى طائرة « ميج ــ ٢١ » .

فقد كان الأمريكيون يبذلون جهودهم منذ زمن بعيد لفحص هذه الطائرة النفاثة ، والكشف عن أسرارها التكنولوجية بهدف تحسين وحداتهم المقاتلة ومحاكاة المعارك الجوية السوفيتية ..

وقد كان التخطيط محكما ، ففى ١٥ اغسطس عام ١٩٦٦ ، طار « منير » فى المسار المتفق عليه عبر الأردن هاربا من بلاده بسرعة بالغة ، وهبط بطائرته ، « الميج ــ ٢١ » فى قاعدة جوية جنوب إسرائيل .. وكانت تلك هى المرة الأولى التى تصل فيها مثل هذه الطائرة السوفيتية المتقدمة للغاية إلى الغرب وظلت القوات الجوية فى الولايات المتحدة ، وحلفائها فى حلف شمال الأطلنطى ، يشعرون لعشرات السنين بالاعجاب الشديد لهذا العمل الفذ الذى قامت به المخابرات الإسرائيلية فى ذلك اليوم .. ونظر العسكريون فى الغرب إلى عملية الحصول على الطائرة « ميج ــ ٢١ » بوصفها واحدا من الأحداث التى أظهرت الموساد فى صورة الأسطورة التى لاتقهر ..

وأدت عملية هروب « منير » ، التى كان يطلق عليها مجازاً داخل المخابرات اسم « العملية ٧ » نسبة إلى « جيمس بوند » ، إلى احساس « مائير آميت » بسعادة لاتوصف ..

فعلى خلاف عملية « عباس حلمى » ، انتهت عملية الحصول على طائرة عربية نهاية سعيدة .. وحصل « منير » وأسرته على هويات جديدة وعلى المال الذى وعده به ، وعلى كل مايحتاجونه لبدء حياة سعيدة فى إسرائيل .. وتمكنت العميلة

الأمريكية الأصل من مغادرة العراق بسلام وكال الأمريكيون وحلفاؤهم فى حلف شمال الأطلنطى ، والدول الأجنبية الصديقة الأخرى ،المديح لإسرائيل ، واستمتع الغرب بإلقاء نظرة فاحصة على طائرة « ميج — ٢١ » .

وبينما كان « آميت » يدبر مؤامرة « العملية ٧ » ، كان عليه أن يتعامل مع نكستين مدمرتين فى كل من سوريا ومصر .. بعد أن فقد أهم عميلين للموساد فى أهم عاصمتين عربيتين خلال خمسة اسابيع فقط فى عام ١٩٦٥ وهما : « إيلى كوهين » فى دمشق و « فولفجانج لوتز » فى القاهرة ..

وكان « كوهين » و « لوتز » قد أمدا المخابرات الاسرائيلية ، حتى تم القبض عليهما ، بمعلومات على غاية الأهمية من داخل مراكز السلطة العسكرية والسياسية العربية .. فقد كان الإثنان يتسمان بالقدرة والشجاعة البالغة ، وتمكنا من اختراق الدوائر العليا للقيادة فى موقعيهما ، بعد أن أصبح « كوهين » يتمتع بالثقة الشخصية للرئيس السورى ، فى الوقت الذى أصبح فيه « لوتز » صديقا للعديد من كبار الضباط فى الجيش المصرى .

ولد « إلياهو [إيلى] كوهين » فى الإسكندرية بمصر عام ١٩٢٤ .

وقام سرا بمساعدة اليهود المصريين على الانتقال إلى إسرائيل ثم اشترك بعد ذلك فى شبكة التخريب الإسرائيلية سيئة الحظ التى سحقتها السلطات المصرية فى عام ١٩٥٤ .

ويرجع الأمر للحظ وحده فى عدم القبض عليه مع أصدقائه ، وقد تمكن من العودة إلى إسرائيل عقب حملة السويس عام ١٩٥٦ وبحماس صهيونى مشتعل اتصل لفوره بالمخابرات الإسرائيلية وتطوع فى صفوفها ، وكانت الوحدة ١٣١ التابعة للمخابرات العسكرية مازالت مسئولة عن عمليات التجسس فى الدول العربية المجاورة ، وإن كان باشراف افضل عقب الفشل المزرى فى عام ١٩٥٤ .. وأعطى « كوهين » انطباعا جيدا على الدوام ..

وبالرغم من ذلك ، فإن الاختبارات النفسية النمطية لأمان ، أشارت الى علامات تدعو للقلق ، فقد اشارت النتائج إلى أن « كوهين » يتمتع بذكاء حاد ،

وشجاعة كبيرة ، وذاكرة غير عادية ، وقدرة على الاحتفاظ بالأسرار ، إلا أن الاختبارات أظهرت أيضا أنه بالرغم من « مظهره المتواضع فإن لديه إحساسا متضخما بالأهمية وكما من التوتر الداخلى » .

وأوضحت النتائج أن كوهين « لايقدر المخاطر دائما بصورة صحيحة ، ويميل للمخاطرة بصورة أبعد مما هو ضرورى » ..

وتركت المخابرات الإسرائيلية « كوهين » ليعيش حياته الخاصة لفترة من الزمن ، إلا أنه عندما زادت حدة التوتر بصورة كبيرة على طول الحدود مع سوريا فى مايو ١٩٦٠ .. فقد احتاجت « أمان » بصورة عاجلة لوجود جاسوس لها فى دمشق وكان « كوهين » هو الرجل الذى سيتولى هذا العمل ..

وبالرغم من الاحساس الطارىء بالعجلة ، فقد استمر تدريبه لمدة زادت عن نصف العام فى إسرائيل ، أعقبها مايقرب من العام فى الأرجنتين .. التى كانت فى حينه تمثل اختيارا مفضلا وإن كان نائيا لتوليف قصة سرية لتغطية الجاسوس .

وغادر « كوهين » إسرائيل فى ٣ فبراير ١٩٦١ ، ووصل إلى « بيونس أيرس » بوصفه رجل الأعمال السورى « كامل أمين دعبس » الذى اخترعته « أمان » وكان عليه أن يختلط برجال الأعمال العرب العديدين من أمريكا الجنوبية ، وحقق « كوهين » نجاحا منقطع النظير مع الأغنياء وذوى النفوذ فى الجالية السورية فى الخارج .

وفى الوقت الذى انتقل فيه إلى دمشق فى ١٠ يناير ١٩٦٢ ، كان « كوهين » مسلحا بعدد كبير من خطابات التوصية ، وأصبح الرجل الرائع الجديد فى المدينة ، الذى يتمتع بتوصية كافة السوريين فى الأرجنتين ولم يمض وقت طويل فى الواقع ، إلا وأصبح الرائد « أمين الحافظ » ، أحد أفضل أصدقائه فى بيونس أيرس ، رئيسا للجمهورية .. وتم بحث احتمال أن يتولى « كوهين » منصبا وزاريا ، وأنه قد يصبح فى نهاية الأمر وزيرا للدفاع ..

وبينما كان يمارس عمله فى الاستيراد والتصدير فقد اعتنى « كوهين » بالصلات السياسية التى كان يقيمها ، وتمت دعوته مرارا لزيارة قواعد الجيش ، وقام بجولة

كاملة زار خلالها التحصينات السورية المواجهة لإسرائيل على مرتفعات الجولان ..

وغطت المعلومات التى كان يرسلها إلى تل أبيب ، عن طريق دق إشارات مورس على جهاز تليغراف ، كافة مناحى الحياة فى سوريا ، وتمكنت المخابرات الإسرائيلية من الحصول على صورة كاملة عن بلد معادية ، كان يبدو أنها غير قابلة للاختراق ..

وكانت تقارير « كوهين » تستقبل دائما بالترحاب فى قيادة « أمان » ، فقد احتوت على معلومات هامة عن المنازعات الداخلية فى القيادة الحكومية ، بالاضافة إلى ذلك النوع من المعلومات حول العسكرية السورية والمطلوبة لادخالها فى ملفات العقول الالكترونية للمخابرات العسكرية « أمان » ..

وعن طريق تهريب الوثائق إلى الخارج عبر أوربا ، تمكن « كوهين » من ارسال وصف تفصيلى لانتشار القوات على طول الحدود مشيرا إلى مواقع كمائن الدبابات التى يمكن أن تعيق القوات الإسرائيلية عن التقدم فى حالة اندلاع الحرب ، كما قدم قائمة كاملة للطيارين السوريين ورسومات دقيقة للأسلحة التى تم تزويد طائراتهم بها ..

ولو كان هو ورؤساؤه الإسرائيليون أكثر حذرا لأصبحت فرص « كوهين » فى النجاة أفضل بكثير ..

ففى نوفمبر ١٩٦٤ ، كان « كوهين » فى إسرائيل فى إجازة فى انتظار مولد طفلة الثالث ، فقد كان يشعر بالاشتياق لأسرته ، ويرسل لها تحياته بطريقة غير مباشرة عن طريق رؤسائه دون الكشف عن مكانه اقامته ، وكان قد بدأ فى التعرف على رؤسائه الجدد ، بعد أن انتقل فريق العمليات « الوحدة ١٣١ » من « أمان » إلى الموساد ، بعد انتقال « مائير آميت » إلى منصب رئيس الموساد .

وظل « كوهين » يمد فى إجازته ، وألمح للموساد بأنه يرغب فى البقاء وذكر أنه لايشعر بالارتياح إزاء « أحمد السويدانى » رئيس فرع المخابرات فى الجيش السورى ..

ولسوء الحظ ، فإن ضباط الحالة المسئولين عن « كوهين » لم يتنبهوا لإشارات

التحذير ، فقد تجدد التوتر على الحدود ولاحت فى الافق احتمالات حقيقية للحرب ، واصبح من اللازم وجود مصدر للتجسس يعتمد عليه فى دمشق ، وضغطت الموساد على « كوهين » للعودة إلى مركزه للتجسس فى أقرب وقت ممكن ..

وخلال الشهرين التاليين ، غفل « كوهين » عن قواعد الاحتراس ومن المحتمل أن السهولة التى لاتصدق التى أصبح بها صديقا لأعلى المستويات قد جعلته يشعر بالرضى عن الذات وعلى الفور استأنف رسائله الشفرية ـــ والتى تعنى أن مجموعة مكافحة الجاسوسية السورية الماهرة يمكنها أن تربط بين استئناف تلك الرسائل وبين عودة « كوهين من الخارج » ..

والأكثر من ذلك أن الرسائل أصبحت أكثر ترددا ، ففى غضون خمسة أسابيع ، أرسل ٣١ رسالة باللاسلكى إلى تل أبيب ، وأرتكب أخطاء ترجع إلى إحساسه بالارهاق أو الرغبة غير الواعية فى الموت ، فقد كان يبعث برسائله فى وقت واحد هو الثامنة والنصف صباحا . مما يجعل من السهل تعقب جهاز إرساله بالأجهزة الالكترونية ..

وكان « كوهين » يبعث أحيانا برسالتين فى يوم واحد ، وعلى سبيل المثال فقد وجهت إليه تل أبيب سؤالا ذات صباح نصه :

« ماذا حدث لمجموعة طائرات « ميج ـــ ٢١ » التى كانت فى حالة استعداد ؟ » وفى الرابعة من بعد ظهر اليوم نفسه بعث « كوهين » برد تفصيلى :

« لقد مات أحد طياريهم عندما اصطدمت طائرته بطائرة صغيرة على الأرض عقب حادث لها أثناء التدريب فى الجو ، وتم إنزال الثالث إلى الأرض بسبب الملاحظات التى ابداها وتحط من قدر قائده . » .

وأصبح « كوهين » فى أغلب الأحيان لا يتسم بالمسئولية أثناء بث رسائله كما لو كان يسعى إلى حتفه عامدا .. وكان على الضباط المسئولين عنه فى تل أبيب أن يقوموا بكبح جماحه ، إلا أن أحدا منهم لم يفعل ذلك .. فقد كانت المادة التى يرسلها جيدة للغاية ولايمكن وقفها ..

وقام رجال المخابرات التابعين للسويدانى ، بتوجيه أجهزة البحث عن أجهزة الارسال التى يقوم بتشغيلها المستشارون السوفيت فى الغالب ، باقتحام مسكن « كوهين » فى الثامن من يناير عام ١٩٦٥ ، والقبض عليه متلبسا وهو يدق مفاتيح التشغيل فى جهاز الارسال ..

وحاول « السويدانى » خداع إسرائيل باجبار « كوهين » على إرسال معلومات وهمية تم حل شفرتها ، وبعد ثلاثة أيام من هذه اللعبة دون الحصول على رد من تل أبيب ، توقف السوريون عن القيام بها وبعثوا ببرقية أخيرة موجهة إلى « ليفى أشكول » رئيس الوزراء نصها كالتالى :

« نقوم باستضافة كامل [كوهين] ورفاقه لفترة زمنية محدودة ، وسنتيح لكم أن تعرفوا مصيره فى المستقبل » ..

وجرى القبض على عدة مئات من السوريين الذين صادقهم « كوهين » وشعر الرئيس « أمين الحافظ » بالاحراج لأنه عرف الرجل دون أن يعلم حقيقة أمره .. واعترف « كوهين » بأنه جاسوس إسرائيل إلا أنه رغم تعذيبه لم يقل شيئا آخر يمكن أن يساعدهم فى شىء

..

وفشلت نداءات إسرائيل إلى بابا روما والدول الأوربية فى تخفيف الحكم على « إيلى كوهين » الذى أصدرت ضده محكمة سورية حكما بالاعدام ، وتم شنقه علنا فى ميدان بدمشق وسط تهليل حشد كبير فى ١٨ مايو ١٩٦٥ ..

وإذا كان لإسرائيل جاسوس ثمين وضع فى مكان ممتاز مثل « كوهين » ، فإنه من الأمور بالغة الأهمية أنه كان لهم جاسوس آخر فى الوقت نفسه فى مصر هو « فولفجانج لوتز » .

ولد « لوتز » فى مانهايم بألمانيا عام ١٩٢١ ، وأمه كانت ممثلة يهودية أما والده فقد كان مسيحيا يعمل مديرا لأحد مسارح برلين ..

ومن حسن حظه إنه لم يجر ختانه ، وتم الطلاق بين والديه ، وصعد هتلر إلى

قمة السلطة ، وأحضرته والدته إلى فلسطين بحثا عن حياة آمنة بوصفهما من اليهود .. وغير « فولفجانج » اسمه إلى « زيف جور — آرييه » ، وكلمة « زيف » تعنى بالعبرية « الذئب » .. وأثناء دراسته فى مدرسة « بن شيمين » الزراعية شرق تل أبيب أبدى ولعا بالجياد إلى درجة أن أصدقاءه أطلقوا عليه اسم التدليل « سوس » ، وهى كلمة عبرية تعنى « الجواد » ..

وانضم « لوتز / جور آرييه » إلى منظمة الهاجاناه السرية عام ١٩٣٧

وحارب مع البريطانيين خلال الحرب العالمية الثانية ، وتسلل خلف خطوط الألمان فى شمال أفريقيا ، وكان يجيد العربية والانجليزية بالإضافة إلى الألمانية والعبرية ..

وفى ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، كان ملازما فى الجيش الاسرائيلى ، وحارب من أجل استقلال بلاده ، وعند ترقيته إلى رتبة رائد ، كان قائدا للسرية التي استولت على المواقع المصرية فى حملة السويس فى عام ١٩٥٦ .. ولم تتصل به « أمان » إلا بعد ذلك ، فقد ترك انطباعا قويا لدى ضباط المخابرات العسكرية بعد أن اكتشفوا أنه لا يشبه الإسرائيليين .. وكما ذكر بعد ذلك فإنه قال عن نفسه « لقد كنت أشقر قصيرا ، ممتلئا ، سكيرا ، وأمثل صورة مصغرة لضابط ألمانى سابق »

وتساءل القائمون عن التجنيد فى « أمان » عما إذا كان بمقدوره أن ينحى يهوديته جانبا إلى درجة اقناع الآخرين بأنه نازى سابق .. وعند قيامهم بتدريبه ، الذى كان مكثفا ومرهقا ، علموه أن ينسى أنه الآن « جور آرييه » ، وأن يعود إلى ألمانيا للبدء فى بناء قصة للتغطية .. وذلك فى خطوات مماثلة للتى قام بها « ماكس بينيت » منذ عشر سنوات ..

وكان على « لوتز » أن يقوم بدور رجل أعمال ألمانى خدم من قبل فى جيش هتلر فى شمال أفريقيا ثم قضى بعد ذلك أحد عشر عاما فى تربية خيول السباق فى استراليا ..

وقد أمره المسئولون عنه فى « أمان » بالتوجه إلى مصر فى ديسمبر ١٩٦٠ بعد أن زودوه برأسمال كاف — وهو مبلغ كبير بالمستويات الإسرائيلية — لاقامة

حظيرة جياد .. وأحسوا أنه من غير المحتمل أن تقوم المخابرات العامة المصرية بالتنقيب بصورة عميقة فى خلفية الألمانى الثرى .. وكان الأمر تحوطه المخاطر كما يتذكر « لوتز » إلا أنه كان « واحدا من العملاء السريين القلائل الذين عملوا باسمهم الحقيقى ، وبأوراق صحيحة » ..

كان « لوتز » الذى يتسم بالمرح والجاذبية الشديدة ضيفا يلقى الترحيب به فى الحفلات التى تقام لكبار الضباط والشخصيات الهامة فى المجتمع المصرى .. وكان يدخن معهم الحشيش ، ويشجعهم على الحديث عما يتعلق بعملهم فى الدفاع ، ويرسل تقارير تفصيلية إلى تل أبيب عن طريق جهاز لاسلكى صغير مخبأ فى كعب حذاء كبير « بوت » لركوب الخيل .

وقد تم استخدام « لوتز » ايضا فى حملة « إيسر هاريل » المشئومة ضد العلماء الألمان فى مصر ، فقد زود قيادة الموساد بعناوينهم فى القاهرة ، كما أرسل لهم العديد من الرسائل المجهولة التى تنذرهم بالتخلى عن برنامج الصواريخ المصرى حفاظا على أمنهم الشخصى .. وقام أيضا بتخزين كميات من المتفجرات التى كان من الواضح أنها ستستخدم فى الطرود الناسفة ..

وكل بضعة أشهر ، كان الجاسوس يتوجه إلى أوربا لتقديم تقرير إلى ضابط « أمان » المسئول عنه ..

وفى باريس مثلا ، كان يطلب رقما معينا يحفظه فى ذاكرته من تليفون عمومى ، ويقول لوتز :

« بعد أن أذكر كلمة السر يقال لى أن أتوجه لأقابل صديقا فى مقهى معين الساعة الثالثة .. وفى الحقيقة فإن الساعة الثالثة فى مقهى إكس تعنى الساعة الثانية فى مقهى واى » .

وفى قطار ليلى من باريس ، التقى « لوتز » ، فى يونيو ١٩٦١ ، « بسيدة طويلة بالغة الجمال شقراء ذات عينين خضراوين ، وقوام أنثوى اشعر دائما بضعف إزاءه » على حد قول « لوتز » ..

وبعد اسبوعين فقط تزوج « فولفجانج لوتز » من « فالترود » والأمر الذى لا

يصدق أن عميلا مدربا موثوقا به يمكن ان يقدم على مثل هذا الأمر ، إلا أن « لوتز » يقول أنه لم يشاور رؤساءه الإسرائيليين ، وأنه قام ببساطة باصطحاب زوجته معه إلى القاهرة ..

وذكرت بعض التقارير ، التى لم تتأكد بعد ، أن فراو « لوتز » الجديدة كانت ببساطة جزءا من قصة تغطيته .. وأن الجنرال « رينهارد جيهلين » رئيس مخابرات ألمانيا الغربية قام ، كجزء من تعاونه السرى مع إسرائيلى ، بتعيين « فالترود » عميلة المخابرات الألمانية ، للعمل مع « لوتز » فى مصر .. ويعزز هذا الاحتمال من الحقيقة التى لايعرفها الكثيرون وهى أن لوتز الذى عاش تجربة الطلاق مرتين من قبل فى حياته ، كانت له زوجة ثالثة فى اسرائيل كان مازال مقترنا بها .

ويقول « لوتز » أنه عندما أبلغ زوجته الجديدة أنه جاسوس يهودى استحسنت الفكرة ووافقت على مساعدته ، واتفقا على شفرة فيما بينهما .. يقول « كنا نشير إلى إسرائيل بوصفها سويسرا وإلى المخابرات الإسرائيلية على أنها « العم أوتو » .

وكانا يقومان سويا من حظيرة الجياد الخاصة بهما الواقعة بالقرب من قاعدة تجارب صاروخية بمراقبة الضباط النازيين السابقين والعلماء الألمان الذين يساعدون المصريين على تطوير أسلحتهم الجديدة ..

وعندما ضبط ذات مرة وهو متسلل داخل القاعدة ، استعان « لوتز » بكافة أصدقائه من العسكريين المصريين والبوليس السرى ..

وعندما أحس قائد القاعدة بالحرج ، اصطحب مربى الخيول الألمانى فى جولة لمنشآت القاعدة ، وقال له بفخر :

« نحن أيضا سيكون عندنا رائع عربى عظيم ذات يوم .. إن الإسرائيليين لديهم جهاز مخابرات ممتاز ، ويجب ألا يعلموا أى شىء عن « الصواريخ حتى نضرب الضربة النهائية .. والآن دعنى أقوم بجولة معك هنا » ..

اكتشف « لوتز » أيضا أعمالا تتسم بالهواية من الجانب الإسرائيلى

فقد التقى فى حفلات القاهرة بـ « كارولين بولتر » التى كانت تزعم أنها زوجة نصف مجرية ونصف هولندية لعالم آثار ألمانى .. وكانت تتبادل الأحاديث مع العلماء الألمان ، وتحاول بطريقة لبقة الحصول على معلومات عن مشروع الصواريخ المصرى .. ولاحظ « لوتز » أنها عندما تفرط فى الشراب فإن لسانها يزل بالحديث باللغة اليديشية بدلا من الألمانية ، ثم ضبطت بعد ذلك وهى تلتقط بعض الصور لمنزل أحد العلماء ..

وبعث « لوتز » برسالة إلى تل أبيب قال فيها أنها إذا كانت السيدة « بولتر » عميلة إسرائيلية ، فمن الأفضل سحبها على الفور .. وبالفعل اختفت بعد ذلك .

وفى ذلك الوقت ، انتقلت مسئولية تشغيل « لوتز » فى تل أبيب من « أمان » إلى الموساد فى عام ١٩٦٣ ، وذلك بعد انتقال « مائير آميت » من الجهاز العسكرى إلى الموساد كرئيس لها .. ولم يعرف الضباط المسئولون فى مقر الموساد كيف يتعاملون على الفور مع حالة تعدد الزوجات الواضحة لعميلهم البارز ، وانتظروا طويلا قبل ابلاغ زوجته فى تل أبيب أن « لوتز » تزوج مرة أخرى .. كما لم يكن الضباط المسئولون سعداء أيضا بالعادات التى جبل عليها عميلهم ، فقد كان يكثر من الشراب ، ويبدو كريما للغاية فى الهدايا التى يقدمها للمصريين .. وكانت الفواتير تدفع فى تل ابيب ..

وبناء على التقارير الباهظة التى كان يقدمها « لوتز » عند زيارته لأوربا ، فقد أطلق عليه قسم المحاسبة فى الموساد لقب « جاسوس الشمبانيا » .

غير أن المعلومات التى كان يرسلها كانت معتمدة ولايمكن أن يكون هناك بديل لها ، وشعرت موساد « مائير آميت » أنها تلقت ضربة قاصمة عندما ألقى عملاء المخابرات المصرية القبض على « لوتز » وزوجته بعد أن اقتحموا مسكنه فى القاهرة فى ٢٢ فبراير ١٩٦٥ ..

ويبدو أن جهاز ارسال « لوتز » الذى كان مخبأ فى الميزان الموجود بالحمام ، قد اكتشف بواسطة اجهزة ضبط الاشارات اللاسلكية .. تماما مثلما حدث فى دمشق ، فقد كانت وكالة المخابرات العسكرية السوفيتية تساعد فى الكشف عن

مصادر تسرب معلومات الأمن فى سوريا ومصر .. إلا أنه كانت هناك فروق واضحة بين قضيتى « لوتز » و « كوهين » .. فبينما اعترف « كوهين » بإنه جاسوس إسرائيلى وتم شنقه ، فقد تشبث « لوتز » بإصرار على موقفه بإنه ليس سوى شخص ألمانى غير يهودى ساعد إسرائيل من أجل الحصول فقط على بعض الأموال .

وتمكنت الموساد من ارسال محام ألمانى لمساعدة « لوتز » وزوجته أثناء محاكمتها بتهمة التجسس فى القاهرة ، وذكر المحامى علانية أنه مرسل من قبل زملاء « لوتز » فى الجيش ..

وقد تذكر « لوتز » بعد ذلك ماحدث بقوله : « وحيث أننى لم أخدم أبدا فى الجيش الألمانى ، فقد أصبح لدى فكرة واضحة عن الذين أرسلوه » وبالرغم من ذلك ، فقد حكم عليه بالسجن مدى الحياة ، وأفرج عن « لوتز » وزوجته بعد ذلك بثلاث سنوات فحسب فى عملية تبادل أسرى حرب الأيام الستة بين إسرائيل ومصر ..

وكان « آميت » رئيس الموساد قد احس باحباط شديد بسبب عجزه عن انقاذ « كوهين » ، ولذلك فقد اعرب عن إصراره لرئيس الوزراء « أشكول » بأن ينضم « لوتز » إلى قائمة تبادل أسرى الحرب ..

وبسبب احجام الزعماء السياسيين الإسرائيليين عن الاعتراف علنا بأن « لوتز » كان جاسوسا لإسرائيل ، فقد هدد « آميت » بالاستقالة للحصول على موافقتهم على عملية التبادل ..

وكان « لوتز » اكثر حظا من « كوهين » حيث أنه مازال حيا ، فى الوقت الذى ينظر فيه إلى « كوهين » فى إسرائيل بوصفه شهيدا وبطلا ..

وقد شعر « فولفجانج » بالسأم إزاء حياته كمواطن مدنى فى الدولة اليهودية ، وانتقل إلى ألمانيا الغربية ثم إلى كاليفورنيا بحثا عن الفرص فى مجال الأعمال التى لم يحالفها التوفيق على الاطلاق ..

وكان للموساد عميل آخر كبير فى العالم العربى فى ذلك الوقت هو « باروخ

مزراحى » .. الذى كان يعمل مديرا لمدرسة لغات أجنبية فى سوريا عندما تم القاء القبض على « كوهين » من جانب رجال مكافحة التجسس السوريين ..

وقد أمره رؤساؤه فى تل أبيب على الفور بالعودة إلى بلده ..

غير أن تحذير الموساد لمزراحى لم يكن ، على أية حال ، ذا فائدة له بعد ذلك بسبع سنوات ، فقد ضبط فى اليمن هو يتجسس على الجيش المصرى ، الذى كان مايزال متورطا فى الحرب الأهلية هناك ، وذلك بارسال التقارير عن حركة السفن الداخلة الى البحر الأحمر والخارجة منه ..

وأعلنت السلطات اليمنية نبأ القبض على مزراحى فى مايو ١٩٧٢ وبالرغم من أن القوات المصرية كانت قد غادرت اليمن ، فقد أرسل المشتبه فيه إلى القاهرة حيث وجهت إليه تهمة التجسس لحساب إسرائيل :

ولم تتطور الأمور بالنسبة له إلى الأسوأ ، لأنه أعيد إلى بلده فى مارس ١٩٧٤ فى مقابل إثنين من العرب الإسرائيليين اللذين كانا يتجسسان لحساب المخابرات المصرية .

فقد كان للموساد اهتمام قديم باليمن بسبب الممرات البحرية وتورط مصر هناك ، فقد اشتركت إسرائيل فى الفترة مابين ١٩٦٣ ، ١٩٦٥ مع بريطانيا العظمى وأيضا مع المملكة العربية السعودية ــ الحليف السياسى الغريب ــ فى تقديم الأموال والأسلحة للقوات الملكية فى اليمن الشمالية ، التى كانت تقاتل النظام الجمهورى والوحدات العسكرية المصرية ..

فقد سعى الإسرائيليون إلى استمرار الحرب الأهلية لأنها كانت تحافظ على بقاء الجيش المصرى بعيدا ومنشغلا بالحرب ..

إلا أن الإسرائيليين كانوا مخطئين ، فالصراع فى اليمن البعيد لم يمنع قيام الحرب التى أرادت المخابرات الإسرائيلية تجنبها والتى كانت رغم ذلك تستعد لقيامها أيضا .

الفصل السابع

الطريق إلى الحرب

● على الرغم من أن قوات الرئيس ناصر كانت تخوض المعارك فى اليمن ، إلا أنه باشر سبيلا سياسيا كان من شأنه أن يقود العالم العربى بأسره إلى شفا الكارثة ويلقيه فى أتون حرب أكبر بكثير ..

ومدفوعا بلغته الخطابية المتحمسة والمؤيدة للوحدة العربية ، علم ناصر أن مصر وحدها لايمكنها أن تسحق اسرائيل .

وفى يناير ١٩٦٤ ، عقد مؤتمر قمة فى القاهرة ضم جميع ملوك ورؤساء كافة الدول العربية وأعلن مؤتمر القمة انشاء هيئة جديدة ، وهى منظمة التحرير الفلسطينية ، والتى ستقاتل لتقيم دولة عربية أخرى محل إسرائيل .

وعلم ناصر أيضا أن المنظمة الجديدة لن تكون كافية لتحقيق هذا الهدف ، وهكذا قرر مؤتمر القمة أيضا تحويل روافد نهر الأردن الحيوية بالنسبة للتنمية الزراعية فى اسرائيل ..

وأثارت أعمال التحويل إسرائيل ودفعتها إلى قصف البلدوزرات فى دول سوريا والأردن ولبنان المجاورة .

تحقق الزعماء العرب من أنهم يحتاجون قوة مسلحة لهزيمة إسرائيل ، وهكذا أنشأوا قيادة عسكرية موحدة . كان ذلك هو الجانب العلنى لقوة الدفع المتجمعة تجاه الحرب .. وكان هناك ايضا جانب سرى .

فعلت المخابرات المصرية والسورية ، اللتان لم تعتبرا مطلقا من بين أفضل مخابرات العالم فى التجسس ، كل ماتستطيع لاختراق المجتمع الاسرائيلى .. فاستأجرتا عددا قليلا من المواطنين العرب فى اسرائيل ، وهو اختيار بعيد عن المثالية حيث أن هؤلاء كانوا موضوعين فى دائرة الشك وخاضعين للرقابة ، وقامتا من حين لآخر بارسال عملاء إلى الدولة اليهودية يتظاهرون بأنهم سائحون .

وأكثر الاساليب جسارة التى استخدمتها المخابرات العربية كانت مماثلة لطريقة عمل الموساد ، وهى أن يتعلم عميل عربى كيف يتظاهر بأنه يهودى ثم يتوجه إلى اسرائيل كمهاجر غير ملحوظ وسط موجة من الوافدين الجدد المحتفى بهم .

وقد استطاع « كوبروك يعقوبيان » ، وهو أرمنى يعمل لحساب مصر ، أن يمارس هذه الخدعة .. فاتخذ لنفسه شخصية مزيفة تحت اسم « إسحاق كوشاك » ، وانتقل إلى اسرائيل فى ديسمبر ١٩٦١ متظاهرا بأنه من البرازيل ..

منحته القنصيلة الاسرائيلية فى « ريودى جانيرو » تأشيرة ، معتقدة انه يهودى يريد الهجرة إلى وطنه التوراتى ..

وفى واقع الأمر ، فإن المخابرات المصرية جندت « يعقوبيان / كوشاك » بينما كان فى أحد السجون فى القاهرة بتهمة جنائية غير خطيرة بل إن المصريين قاموا بختانة ليجعلوا منه يهوديا مقنعا من الناحية البدنية ..

وعمل ، بوصفه « كوشاك » فى كيبوتز لفترة قصيرة ثم استقر فى ميناء « عسقلون » ، والتحق بالجيش الاسرائيلى . وبالرغم من رغبته فى الالتحاق بسلاح المدرعات ، إلا أن مؤهلاته لم تسمح له سوى بالالتحاق إلى إحدى وحدات النقل والمواصلات ومع ذلك ، عمد إلى ارسال بعض المعلومات التى لها قيمة إلى القاهرة ، قبل أن تمسك به وكالة « شين بيت » فى ديسمبر ١٩٦٣ .

واستفاد « يعقوبيان / كوشاك » من عدم تطبيق عقوبة الاعدام فى اسرائيل .

ولم يمض سوى بضع سنوات فقط فى سجن إسرائيلى ثم تم ترحيله إلى مصر .

حقق المصريون نجاحا أكبر فى نهاية الستينيات عندما بعثوا برجل يدعون أنه

واحدا من أفضل العملاء السريين إلى إسرائيل . وأطلق على نفسه اسم « جاك بيتون » ، وافتتح مكتبا للسفريات (شركة سياحية) فى شارع برينر فى تل أبيب .

وقد تظاهر أيضا بأنه يهودى وجرى ختانه وعلى عكس « يعقوبيان / كوشاك » ، فإن « بيتون » ، الذى ظلت شخصيته الحقيقية مجهولة ، لم يضبط أبدا .

بل أنه كان جاسوسا اختار أن يتقاعد وهو ترف غير معتاد .

وسمح له المصريون بالانتقال إلى ألمانيا الغربية ، حيث استقر مع زوجته ليمضيا بقية أيامهما ..

وقد حقق تليفزيون الدولة فى مصر نجاحا هائلا على الهواء فى عام ١٩٨٨ ، عندما أذاع مسلسلا فى حلقات يستند إلى قصة حياة « بيتون »

وفى البداية قال المسئولون الاسرائيليون أنها « رواية عربية » ، ولكن عندما تسربت تفاصيل أكثر فى القاهرة ، اضطروا للاعتراف بأن عميلا للعدو قد هرب دون أن يلقى العقاب ..

وواصل الاسرائيليون إصرارهم على أنه سبب أضرارا ضئيلة أو لم يسبب أذى على الاطلاق ..

والافتراض الأول بأن « بيتون » لم يسبب أى أذى ، وأن العرب لايمكنهم إدارة عملية ناجحة داخل إسرائيل ، كان نتيجة طبيعية للإيمان التقليدى بالعجز العربى الشامل .

وأصبح الاسرائيليون مقتنعين بأن أعداءهم لايمكنهم أن يفعلوا أى شىء صائب ، وبصفة خاصة بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ .

لقد كان النصر الخاطف على مصر ، الأردن وسوريا نصرا من صنع « مائير آميت » بدرجة كبيرة ، وكانت هواجس مدير الموساد الخاصة هى التى جعلته ممكنا .

فعلى خلاف سلفه « إيسر هاريل » ، ركز « آميت » على الحصول على أكبر

قدر ممكن من المعلومات حول الدول العربية المجاورة وجيوشها ، لكى تكون إسرائيل مستعدة تماما للحرب فى أية لحظة .

ويمكن الحصول على المعلومات المتعلقة بالعدو من مصادر عديدة ، واعتقد « آميت » أن الأجانب الأصدقاء يمكن أن يساهموا فى ذلك وهذا ماجعله ، بعد توليه منصب رئيس الموساد فى عام ١٩٦٣ ، يسعى لضمان إقامة الوكالة لروابط مع الوكالات المناظرة فى أنحاء العالم الغربى .

وأصبح قسم العمل السياسى والاتصال فى الموساد بمثابة وزارة خارجية سرية ثانية ، تفوقت أحيانا على وزارة الخارجية الأصلية .

وقد حدد « مايلزكوبلاند » الذى ينتحل لقب العميل السياسى النموذجى لوكالة المخابرات المركزية ، فى مذكراته ، مفهوم العمل السياسى فى مجال المخابرات .

قال كوبلاند « أنه يتضمن محاولة التأثير عن طريق تنظيم المصالح الصناعية والتجارية فى الدول المستهدفة ، وحثها على تنظيم وسائل سرية للضغط على حكوماتها ، وارسال المستشارين واستخدام الشخصيات البارزة المحلية كعملاء ذوى نفوذ » ..

وعلى الرغم من أن مفهوم العمل السياسى فى مجال المخابرات تم تحديده من جانب أحد رجال وكالة المخابرات المركزية ، إلا أن الاسرائيليين هم الذين قاموا بتنفيذ المهمة فى أنحاء العالم .

كانت هناك دول عديدة ، من بينها على سبيل المثال ثلاثون دولة إفريقية نامية ، افتتحت اسرائيل فيها بنجاح سفارات بعد أن أقامت علاقات دبلوماسية وبرامج معونات متعددة . وفى أية دولة تفعل ذلك فإنه يكون لدى اسرائيل عملاء للموساد يعملون فى السفارات تحت غطاء دبلوماسى .

وفى الأماكن التى لم تتم فيها إقامة علاقات دبلوماسية ، أو قطعت بسبب نزاعات سياسية علنية ، فإن الدبلوماسيين البدلاء التابعين للموساد قاموا بأداء المهام التى لا تديرها عادة المخابرات .

وبصفة خاصة فى افريقيا ، أقنع « آميت » وكالة المخابرات المركزية بتقديم ملايين الدولارات لتمويل النشاطات السرية لإسرائيل .

وقد اعتبرت هذه النشاطات مصلحة عامة للغرب .. وأطلق على هذا المشروع فى دفاتر وكالة المخابرات المركزية الاسم الشفرى « جبل كى كى » أو « kk mountain » .

وقد اكتسب المفهوم الخارجى [المحيطى] لمدير الموساد الأول « روفين شيلوح » قوة دفع كبيرة فى أعوام « آميت » .. حيث جرى تدعيم الصلات السرية لاسرائيل بإثيوبيا وتركيا وإيران . وساعدت كل من إسرائيل وإيران التمرد الكردى ضد حكومة العراق .

وساعد العملاء الاسرائيليون فى اليمن الملكيين فى مقاتلة المصريين وطردهم .

وفى جنوبى السودان ، أسقطت الطائرات الاسرائيلية امدادات للمتمردين المسيحيين .

وأعمق من ذلك فى إفريقيا ، فإن الموساد كانت تعمل حتى اوغندا بحلول أكتوبر عام ١٩٧٠ لمساعدة « عيدى أمين » على الإطاحة بالرئيس « ميلتون أوبوتى » .

وبالتنسيق مع « شين بيت » ، أرست الموساد أيضا روابط مع عدد كبير من وكالات الأمن الأجنبية ، بانضمامها إلى « كيلو وات » ..

وهى جماعة سرية تشكلت لمكافحة الارهاب الدولى . وأعضاؤها ممثلون لوكالات التجسس فى ايطاليا ، بلجيكا ، ألمانيا الغربية ، بريطانيا لوكسمبرج ، هولندا ، سويسرا ، الدنمارك فرنسا ، كندا ، إيرلندا ، والنرويج ، بالإضافة طبعا إلى إسرائيل . وللموساد أيضا روابط مع دول أخرى فى أوربا ، مثل البرتغال ، إسبانيا والنمسا .. وهناك مراكز للموساد فى معظم هذه الدول .

ويعمل المركز بصفة عامة تحت غطاء دبلوماسى من داخل السفارة الاسرائيلية .. لكن رئيس المركز لايخطر السفير بنشاطاته وبدلا من ذلك ، يقوم بارسال تقاريره مباشرة إلى تل أبيب .

ولدى كل مركز ممثلان للقسمين الهامين فى الموساد ، قسم الجمع وقسم الاتصال .

ويصر العملاء فى الخارج بقوة على عملية الفصل والتخصص وتقسيم العمل ، وهكذا فإن أعضاء قسم مالا يعرفون ، ولاينبغى أن يعرفوا شيئا عن عمل الآخرين .

وتشمل مهامهم تبادل الاتصال الرسمى مع مخابرات الدولة المضيفة ، ولكنهم أيضا يقومون بتشغيل شبكاتهم الخاصة دون اخطار المخابرات فى الدولة المضيفة

وقد تركز تأكيد « آميت » على النشاطات شبه الدبلوماسية بالدرجة الأولى على قارتين : أفريقيا ، وآسيا .

فتحت الدول الافريقية السوداء الوليدة المستقلة حديثا فى الستينيات عيونها لترى اسرائيل الجميلة مثالا يحتذى ..

وبينما اعتبرت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قوتين عظميين توسعيتين ، وبينما كانت بريطانيا وفرنسا والدول الأوربية الأخرى ماتزال مكروهة بوصفها دولا استعمارية ، فإن اسرائيل كانت الدولة الصغيرة التى أتقنت عملية النمو السريع فى العصر الحديث .

وأمكن لزعماء إفريقيا أن يروا روح الريادة فى العمل فى اسرائيل ، بمبادرة ومقدرة مؤكدة ، مما جعلهم يأملون فى أن تنتقل إليهم .

رحبت أكثر من ١٢ دولة افريقية بالفنيين والمعلمين الاسرائيليين فى مجال الزراعة الصناعة ، التجارة ، والدفاع .

وبدأ مئات من الخبراء مشروعات التنمية ولم يكن ساسة إسرائيل بعيدين عنهم ، فقامت « جولدا مائير » وزيرة الخارجية بجولة فى القارة ، وكان « ليفى اشكول » رئيس الوزراء ضيفا مكرما فى عدد من الدول الافريقية ..

نما عدد المستشارين الاسرائيليين على نحو متضاعف ، ومن الطبيعى أن كثيرين منهم كانوا عملاء للموساد .

وكان المضيفون الحكوميون فى افريقيا أكثر من متفهمين لذلك بوصفه حقيقة من حقائق الحياة ، وأقامت اسرائيل بسرعة تعاونا مخابراتيا ممتازا مع كينيا ، زائير ، ليبريا ، وغانا .

فى كل دولة ، قام الاسرائيليون بتدريب أو مساعدة وكالات التجسس أو أجهزة الأمن .

كان « ديفيد [ديف] كيمحى » هو القوة الموجهة للموساد فى افريقيا ..

كان « كيمحى » ، الذى انتقلت أسرته الأوربية الشرقية من سويسرا إلى انجلترا ، صهيونيا وانتقل إلى فلسطين فى عام ١٩٤٦ . لكنه احتفظ بعاداته البريطانية . وهو هادىء ومتحضر ، ويرتدى نظارة طبية سميكة اطارها أسود .. وهو يتسم بالذكاء ووجهه ودود غالبا ، ويكلله شعر أسود .

ولايبدو « كيمحى » اسرائيليا ، فهو يتحدث الانجليزية بطلاقة وبلكنة تقود أى فرد للاعتقاد بأنه جنتلمان إنجليزى .

قامت الموساد بتجنيد « كيمحى » فى عام ١٩٥٣ بعد بضع سنوات أمضاها فى الأكاديمية واكتسب شهرة بسرعة فى مؤسسة المخابرات بسبب بصيرته النافذة وقدرته التحليلية الممتازة ، وميله للاحتفاظ بمشاعره لنفسه .. ويعد المعادل الحى للجاسوس البريطانى الخيالى « جورج سمايلى » الذى ابتدعه « جون لوكار » . وتكمن اهتماماته فى صياغة علاقات مع الأقليات غير العربية أو غير المسلمة فى الشرق الأوسط ، لكن إفريقيا هى مجال تخصصه .

عمل « كيمحى » فى مختلف أنحاء القارة تحت ستار شخصيات مختلفة ، من بينها شخصية « ديفيد شارون » الدبلوماسى الاسرائيلى وكان « كيمحى / شارون » مصدرا وديا ويعتمد عليه بالنسبة للصحفيين الأجانب ، واستطاع دائما أن يمدهم بأحدث الشائعات حول الأنظمة الأفريقية فى أبعد الأماكن. وأحد تلك الأماكن كانت جزيرة « زنزبار » الصغيرة التى تقع قرب ساحل شرقى افريقيا وحتى عام ١٩٦٤ كان يحكمها سلطان ، وكان أعضاء بلاطه ينحدرون من سلالة تجار عبيد عرب أما بقية السكان فهم سود .

واندلعت ثورة دموية فى ذلك العام فى زنزبار ، واستولت الأغلبية السوداء على الحكم من يد الأقلية العربية ..

أما السلطان وأسرته فقد قتلوا او فروا من الجزيرة ..

وفى إسرائيل ، لم تسكب الدموع على رحيل السلطان .. فقد سقط مقعل عربى آخر فى افريقيا ، واصبحت دولة أخرى مفتوحة أمام النفوذ الإسرائيلى .

و « تصادف » أن « ديف كيمحى » كان فى زنزبار يوم الثورة . وأدى وجوده إلى دعم سمعه الموساد بين الدبلوماسيين ومحللى المخابرات الغربية ، بوصفها قادرة على أن تفعل أى شىء .

تأكد « آميت » من أن الموساد قد مدت أيضا الدبلوماسية البسرية لإسرائيل إلى الشرق الأقصى ، بفتحها مركزا للمخابرت فى سنغافورة ، وهى مستعمرة بريطانية سابقة كانت آنذاك جزء من ماليزيا التى أنشئت حديثا .

وقد رحب زعماء سنغافورة ، الذين ينتمون إلى أصول عرقية صينية ، بمشورة إسرائيل فى المجالات العسكرية والدفاعية ، بسبب خوفهم الدائم من ماليزيا المجاورة ، ومن الأقلية الماليزية فى سنغافورة ..

وأقامت الموساد بعثة عسكرية اسرائيلية دائمة فى سنغافورة بقيادة الكولونيل « بنيامين [فؤاد] بن اليزار » وهو ضابط بوحدة الكوماندوز ذو خبرة كبيرة وتمت ترقيته فى وقت لاحق إلى رتبة البريجادير جنرال .

قدم « بن إليزار » وفريقه المشورة والتدريب ثم الأسلحة إلى جيش سنغافورة وبوليسها السرى .

وأصبحت سنغافورة الصغيرة ، التى يبلغ تعداد سكانها بالكاد ٢,٥ مليون نسمة ، نقطة انطلاق للدبلوماسيين البدلاء التابعين للموساد إلى جميع أنحاء اسيا .

وكانت أندونيسيا هى نجاحهم الهائل الأول وهى دولة تعدادها ١٨٠ مليون نسمة وتسعون فى المائة منهم مسلمون ..

وتجدر الإشارة إلى أن الرئيس « سوكارنو » ، الذى قاتل من أجل استقلال

بلاده عن هولندا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، كان أحد قادة حركة « عدم الانحياز » المناهضة للغرب ، ومعارضا بحزم لإسرائيل ..

وعلى أية حال ، فقد أطيح به فى عام ١٩٦٨ بسبب تعليق الديمقراطية ولتعاونه المزعوم مع الشيوعيين الأندونيسيين الأقوياء فى محاولة للاستيلاء على السلطة فى الدولة متعددة الجزر ..

بعد الاشراف على قتل ثلاثمائة ألف شيوعى ، أصبح الجنرال سوهارتو القائد الأعلى للجيش رئيسا ، وفعل كل شىء تقريبا لتدعيم حكمه .

وكانت اسرائيل فى العام السابق قد استطاعت هزيمة الجيوش العربية الأكبر فى غضون ستة أيام فقط .. ونتيجة انبهاره بذلك ، قام سوهارتو بالاتصال بالاسرائيليين .

وبعثت الموساد فريقا من مركزها فى سنغافورة ، الواقفة إلى الجنوب ، إلى جاكارتا ، وتمت مناقشة امكانات التعاون بطريقة كاملة ومثمرة .

وقبل مضى وقت طويل ، كان المستشارون الاسرائيليون ، الذين تظاهروا عادة بأنهم أوربيون أو أمريكيون ، يدربون الجيش الأندونيسى وجهاز مخابرات سوهارتو ..

واقتنعت وكالة الأمن المحلية فى جاكارتا بأن بإمكانها تحسين قدراتها بدرجة كبيرة بفضل المشورة الاسرائيلية ..

وبسبب سياسات بلادهم المناهضة للاستعمار ، فإن الأندونيسيين لم يثقوا فى وكالة المخابرات المركزية ولا فى وكالات المخابرات الغربية ..

ولهذا ، كانت الموساد اختيارا مثاليا ، وسمح للوكالة الاسرائيلية بفتح مركز كبير إلى حد ما فى جاكارتا تحت « غطاء تجارى » وهو التعبير المخابراتى للتظاهر بإقامة مشروع تجارى ..

أبلغ الرئيس « سوهارتو » ومعاونوه الاسرائيليين ، بأنه بالنظر إلى أن أندونيسيا دولة اسلامية ، فإنها ليس بمقدورها مطلقا بحث إقامة علاقات دبلوماسية رسمية ..

لكن الاتصالات السرية أصبحت وثيقة جدا .. وتم ارسال ضباط الجيش والمخابرات فى اندونيسيا إلى إسرائيل للتدريب ، وركزوا بصفة خاصة على أساليب مكافحة المتمردين للبحث عن رجال حرب العصابات الشيوعيين وهى أساليب برع فيها الاسرائيليون لحماية حدودهم ولمواجهة الارهاب الفلسطينى ..

وبحلول السبعينيات ، توسطت الموساد فى مبيعات أسلحة هامة من إسرائيل إلى إندونيسيا .. وتضمنت تلك الصفقات ١٢ طائرة قاذفة من طراز « سكاى هوك » الأمريكية الصنع ، والتى لم يعد سلاح الطيران الاسرائيلى يحتاجها ..

وبالإضافة إلى العائد من تلك المبيعات فإن اسرائيل استفادت أيضا من وجود موقع قدم آخر لها فى العالم الاسلامى وبرهنت إندونيسيا على أنها قاعدة ثمينة لمراقبة نشاطات الدبلوماسيين العرب والأنشطة الفلسطينية ..

وكانت الهند ، ذات الكثافة السكانية الأكبر ، نقطة اتصال مفيدة أخرى للموساد فى ظل « مائير آميت » .

حتى على الرغم من أن الحكومة الهندية لم تكون راغبة أيضا فى أن تبلغ شعبها ، الذى يضم ثمانمائة مليون نسمة من الهندوس والمسلمين ، بعلاقتها السرية مع الدولة اليهودية ..

ويستند التعاون السرى دائما على مصالح مشتركة ، ويقود إلى تبادل المعلومات .

وبالنسبة للهند وإسرائيل ، فإن العدو المحتمل المشترك كان باكستان .. الدولة المسلمة الملتزمة بمساعدة الدول العربية فى الشرق الأوسط .

شعرت الموساد بقلق عميق عندما علمت أن العقيد الليبى « معمر القذافى » قد عرض تمويل إنشاء مفاعل نووى فى باكستان شريطة أن يستخدم فى انتاج « قنبلة إسلامية » تعطى للقذافى .. وبحث العملاء الاسرائيليون حتى امكانية التحرك المشترك مع القوات الهندية لتدمير المفاعل الباكستانى ..

كانت مقدرة الموساد على دعم الاتصالات الخارجية لحساب إسرائيل لافتة للأنظار أكثر فى العلاقات الفريدة التى كانت لاسرائيل مع دولة عربية وهى المغرب ..

فقد قدمت المغرب دائما تأييدا صاخبا للقضية الفلسطينية بوصفها دولة إسلامية وعضوا بارزا فى الجامعة العربية ..

لكنها سرا أقامت روابط مفيدة ومتبادلة مع الدولة اليهودية .

والملك الحسن الثانى له ميل شخصى موالٍ للغرب ، وقد شعر بالتهديد فى الستينيات من جانب النظام الراديكالى المناهض للملكية فى الجزائر المجاورة ، ومن جانب ناصر المتطرف فى مصر ..

ساعد خبراء الموساد « الحسن » فى إقامة وكالة مخابرات ، وفى المقابل تلقت اسرائيل تأكيدات من الملك بحماية اليهود فى بلاده ، والسماح لمن يريد الهجرة إلى اسرائيل منهم بأن يفعلوا ذلك ..

كانت العلاقات بين الدولتين سرية ، لكنها كانت طيبة وربما مثالية .

وعلى أية حال ، فإن « آميت » سرعان ما اكتشف أن هناك ثمنا يتعين دفعة مقابل كل هذا السخاء وكان الثمن رأس « مهدى بن بركة » ..

وكان المعارض المغربى البارز « بن بركة » قد حكم عليه بالاعدام غيابيا .. وقررت وكالة الأمن المغربية ، التى يقودها الجنرال « محمد أوفقير » ، تنفيذ هذه العقوبة أينما كان « بن بركة » ..

وطلب « أوفقير » المساعدة من صديقه الاسرائيلى الجنرال « آميت » .

وافق رئيس الموساد على تقديم المساعدة لأنه خشى أن رفض الطلب المغربى قد يؤثر بطريقة عكسية على يهود المغرب ..

التقى « آميت » مع « أوفقير » فى فرنسا فى بداية خريف عام ١٩٦٥ لإيضاح التفاصيل النهائية للاتفاق ..

وقامت الموساد بالمساعدة فى نصب الشرك لابن بركة ..

فى ٢٩ أكتوبر ، تمكن عملاء إسرائيليون من إغراء « بن بركة » على مغادرة جنيف والتوجه إلى باريس لمقابلة زائفة مع منتج سينمائى .

وهناك فى باريس ، وخارج مطعم أنيق على الضفة اليسرى لنهر السين ، قام ثلاثة من ضباط الأمن الفرنسيين المتعاونين مع المغاربة باعتقال « بن بركة » ..

وعندما رأى الاسرائيليون أن هناك عددا كبيرا من العملاء الفرنسيين والمغاربة ابتعدوا عن المسرح ..

وعلى أية حال ، فإن رئيس مركز الموساد فى المغرب كانت عليه مهمة بغيضة إلى النفس وهى ملازمة « أوفقير » لأن « آميت » أصر على عدم تجاهله ..

لم يكن العميل الاسرائيلى ، الذى سافر إلى باريس بجواز سفر بريطانى مزور ، يعرف الغرض الحقيقى من المهمة ، واندهش عندما قتل « أوفقير » ورجاله بن بركة رميا بالرصاص ودفنوه فى حديقة فيللا خارج باريس .

اعتقد « آميت » و « أوفقير » أن السر قد دفن مع الجثة . فمن سيلقى بالا إلى حادث اختفاء أو حتى جريمة قتل فردية وهى أمور تتفق تماما مع القواعد السياسيةفى الشرق الأوسط ؟

لكن رئيسا جهازى المخابرات ، على أية حالة ، لم يضعا فى اعتبارهما ردود فعل شخصيتين أخريين لهما وجهات نظر وأمزجه مختلفة جدا .. وهما « إيسر هاريل » فى إسرائيل ، والجنرال « ديجول » فى فرنسا ..

أمر الرئيس الفرنسى بسرعة بإجراء تحقيق لكشف كيف يمكن أن يختفى « بن بركة » فى قلب باريس ..

ولم يكشف التحقيق عن العلاقة الاسرائيلية ـــ المغربية وإنما كشف أيضا النقاب عن تورط وكالة المخابرات الفرنسية المناظرة للموساد ..

واجتاح ديجول غضب شديد ، خاصة وأنه كان يتشكك فى أن وكالة مخابراته ربما تتآمر ضده .. وأمر على الفور بإعادة تنظيم وترتيب أوضاع وكالة المخابرات الفرنسية .. ووجه غضبه أيضا إلى اسرائيل .. فكيف يمكن لحلفاء فرنسا ، الذين تعاون معهم ديجول ، أن يعملوا من وراء ظهره ؟

وكرد فعل على مقتل « بن بركة » ، أمر الرئيس الفرنسى بإزالة القيادة الأوربية

للموساد من باريس ، وأمر أيضا بوقف كافة أشكال التعاون فى مجال المخابرات بين الدولتين .

وقد شحذ قرار « ديجول » النصال التى جردت فى اسرائيل ، حيث تجمعت غيوم الفضيحة حول تورط الموساد فى جريمة القتل ..

كان هناك بالفعل صراعا داخليا كبيرا على الصعيد السياسى فى اسرائيل ، بالنظر إلى اقتراب موعد الانتخابات العامة المقرر إجراؤها فى نوفمبر ١٩٦٥ .

وبدت حركة العمل متأكدة من الفوز كالمعتاد ، لكنها كانت منقسمة بحدة بين حزب رافى بزعامة « بن جوريون » وحزب الماباى بزعامة « ليفى أشكول » و « جولدا مائير » .

ونتيجة استيعاب الدروس من فضيحة لافون والفضائح الأوسع نطاقا الناجمة عن عمليات التجسس الخرقاء فى مصر ، قرر قادة الماباى عدم السماح لفضيحة بن بركة بالنمو أو حتى أن تصبح من المعلومات العامة بأى حال من الأحوال ..

وعلى الرغم من أن عملية القتل قد أدت إلى فضيحة مجلجلة فى فرنسا ، إلا أن التورط الإسرائيلى ظل سرا تماما ..

وعندما ألمحت مجلة إسرائيلية تهتم بالجنس اسمها « بول » إلى امكانية أن يكون هناك إسرائيليون فى قضية بن بركة ، قامت وكالة « شين بيت » بمصادرة نسخ المجلة البالغ عددها ٣٠ ألفا بأسرها قبل الموعد المحدد لتوزيعها مباشرة .. ولم تصل سوى خمس نسخ إلى أكشاك الصحف ..

وتم وضع رئيس تحرير المجلة ، « شامويل مور » و « ماكسيم جيلان » ، تحت الحجز الادارى ..

وجرى تطبيق المادة ٢٣ من قوانين الأمن الاسرائيلية ، على الرغم من أن ذلك لم يستخدم من قبل مطلقا سوى فى حالات التجسس ضد الدولة اليهودية .

وكانت تلك هى المناسبة الأولى والوحيدة حتى الآن يطبق فيها هذا القانون على صحفيين يهود فى اسرائيل .

كان السؤال الرئيسى ، مثلما هو الحال فى فضيحة لافون ، من الذى أعطى الأوامر ؟ وادعى « أميت » أن « ليفى اشكول » أعطاه الإشارة بالمضى قدما ، وادعى رئيس الوزراء أنه لم يفعل شيئا من هذا القبيل مطلقا .

وبدأت المطالبة بإنشاء لجنة تحقيق تحظى بقوة دفع عندما انضم « إيسر هاريل » إلى المطالبين بتشكيل مثل تلك اللجنة .

كان صوته مسموعا ، ليس فقط بسبب ماضية كمسئول عن المخابرات ولكن أيضا لأنه كان قد عين توا فى وظيفة جديدة كمستشار لرئيس الوزراء فى شئون المخابرات .

جاءت عودة « هاريل » المفاجئة للخدمة الفعلية فى سبتمبر ١٩٦٥ ، قبل شهر من مقتل « بن بركة » .

وربما كان « اشكول » مدفوعا فى ذلك بالرغبة من أن يظهر كقائد وحيد على المسرح فى مواجهة منافسه الدائم « ديفيد بن جوريون » .

بدا الأمر كما لو كان يوجه رسالة مفادها : أنا ، ليفى أشكول ، قد احتللت مكان « الرجل العجوز » ، وها أنذا أعيد للمخابرات الاسرائيلية الشخص الذى كان يوما ما يتمتع بحماية بن جوريون ، ولكنه ألقى به الى مقلب القمامة .

تجاهل « أشكول » احتجاجات « آميت » حول هذا التعيين ، وتجددت الحرب القذرة بين « آميت » و« هاريل » من اللحظة الأولى للترتيب الجديد ..

ووجدت مؤسسة المخابرات نفسها وقد تنازعتها اتجاهات شتى متناقضة .

ورفض « آميت » التعاون مع « هاريل » ، الذى اكتشف سبلا لتجاهل « آميت » وتجاوزه .

فعن طريق استخدام الاتصالات الشخصية ومعرفته بملفات وكالات المخابرات ، استطاع « هاريل » أن يستغير ملفات سرية من خزائن الموساد .

أتى « هاريل » برؤساء أقسام الموساد مباشرة إلى « أشكول » رئيس الوزراء

لعقد اجتماعات ، وتضمنت الموضوعات عادة تقييمهم لمقدرة « آميت » والتركيز على جوانب القصور لديه ..

اعترض « هاريل » على المقترحات بالقيام بعمليات سرية التى قدمها « آميت » إلى « أشكول » وكان هذا هو مصير خطة جسور قدمها « آميت » فى عام ١٩٦٦ للسفر إلى القاهرة لعقد اجتماع سرى مع المشير عبدالحكيم عامر نائب الرئيس ناصر .. وقد اقترح هذه الفكرة رجل أعمال يهودى أجنبى على علاقة ودية بكبار المسئولين المصريين ..

واهتم « آميت » بهذه الفكرة إلى أبعد حد . لكن « هاريل » حذر من أى مباحثات القاهرة المقترحة يمكن أن تكون شركا ، مضيفاً أنه من الجنون وعدم الاحساس بالمسئولية بالنسبة لرئيس الموساد أن يطير ويقع فى أيدى المصريين ..

وأوحى « هاريل » بأنه إذا ألقى القبض على « آميت » وتم استجوابه فى مصر ، فإن قد يكون مرغما على كشف النقاب عن الأسرار الاسرائيلية الحيوية .

ونتيجة تمزقه من جراء معركة العمالقة ، وقف « أشكول » إلى جانب « هاريل » . ولم تتم المفاوضات المقترحة مع مصر أبدا ..

ويعتقد « آميت » ، الذى يخالجه شعور بالأسف والمرارة ، أنه لو كان قد طار سرا إلى القاهرة فإن الحرب التى نشبت فى يونيو ١٩٦٧ ربما كان من الممكن تجنبها ..

ولم يكن هناك وقت لدى مؤسسة المخابرات للتفكير مليا فى مثل هذه التساؤلات .

وازداد التوتر على طول حدود إسرائيل مع مصر وسوريا بحدة ، واضطرت وكالات المخابرات لتكريس كافة مواردها لمواجهة التهديد الجديد .

لم يكن هناك وقت أيضا لتسوية الجدل الدائر حول من هو المسئول من المخابرات الاسرائيلية ، هل هو « هاريل » أم « آميت » .

كما أن اقتراحا بحل وسط يهدف إلى جعل « ايجال أللون » ، الوزير وبطل حرب

١٩٤٨ ، مسئولا عن مؤسسة المخابرات ، لم يلقى الاهتمام الذى يستحقه ، وشبح الحرب يطل فوق الأفق ..

وتمت مواراة أكبر نقطة ضعف لدى أميت ، وهى مقتل بن بركة فى باريس ، التراب فى إسرائيل وكان هذا أكثر مما يمكن أن يحتمله « هاريل » بعد دعواته المتكررة لإجراء تحقيق كامل .. لقد خاطر بمكانته بطريقة مكشوفة تماما وأحس أنه لاخيار أمامه سوى الاستقالة وقد كان ، حيث استقال فى يونيو عام ١٩٦٦ ..

ومما أدى الى ارتياح « آميت » الشديد ، أن محاولة « هاريل » استعادة مركزه القديم انتهت بطريقة مفاجئة وحادة بعد تسعة شهور فقط فى مكتب رئيس الوزراء ..

فالحملة الصليبية الجديدة للمسئول الوحيد السابق عن المخابرات لم تحقق شيئا البتة فيما عدا استطاعته إلغاء مهمة السلام إلى القاهرة ، وهذه المرة غادر « هاريل » المخابرات نهائيا وإلى الأبد ..

عض « آميت » على وظيفته بالموساد بالنواجذ ومن حسن حظه أن الموضوعات المتنوعة تمت تنحيتها جانبا ، عندما جرى تكريس كل الاهتمام للغرض الرئيسى للمخابرات ، وهو الاعداد للحرب ..

قام الكولونيل « ياريف » مدير وكالة المخابرات العسكرية ، والوكيل السابق لآميت فى « أمان » ، بمهمة غير عادية فى مقارنة وترتيب كل جزئية معلومات متاحة حول القوات المسلحة العربية وهى تستعد للهجوم على إسرائيل فى عام ١٩٦٧ ..

وباستخدام أنظمة الكمبيوتر التى طورها الكولونيل « يوفال نعمان » وآخرون فى « أمان » ، استطاعت مؤسسة المخابرات تزويد المخططين العسكريين لاسرائيل بقوائم الأهداف ونقاط التوتر المحتملة فى حالة نشوب الحرب ..

عندما أغلق الرئيس المصرى « جمال عبد الناصر » مضايق تيران فى مايو ، مانعا بذلك الوصول عن طريق البحر إلى إسرائيل من الجنوب بحث « أشكول » رئيس

الوزراء الخيارات الدبلوماسية على مدى ثلاثة أسابيع قبل أن يعلن أن فرض الحصار عمل من أعمال الحرب ..

وفى الوقت نفسه ، أمر « ناصر » قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة بمغادرة مواقعها فى شبه جزيرة سيناء المصرية ..

وجاء رد إسرائيل بطريق الجو فى صباح الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ .

فقد قام سلاح الطيران الاسرائيلى ، المسلح بكل من القنابل وقائمة الأهداف التى أعدتها مؤسسة المخابرات ، بضمان نصر الأيام الست فى أقل من ست ساعات .

وتم تدمير سلاح الطيران المصرى على الأرض وعانت القوات السورية والأردنية من ضربات مدمرة مماثلة ..

كانت الساعات الأولى من الحرب القصيرة تثير الحيرة والارتباك .

ففى الوقت الذى كانت فيه محطات الإذاعات العربية تتحدث بإعجاب عن انتصاراتها الخيالية ، استطاع « جون هادين » ، رئيس مركز وكالة المخابرات المركزية فى إسرائيل ، أن يبعث بتقرير إلى مقر قيادته ، فى لانجلى بولاية « فيرجينيا » ، يقول فيه « أن الحرب انتهت » .

وقد كان على علاقة ممتازة مع الموساد ، وعلى سبيل الفكاهة والمزاح كان ضباط الاتصال الاسرائيليون الرسميون المخصصون للعمل معه يخاطبونه بالمعادل العبرى لاسمه وهو « يوحنان هاـــ دان » ، كما كان له حق الاطلاع على أحدث التقارير الصادقة حول ميدان القتال ..

كان « آميت » فى مقر قيادة وكالة المخابرات المركزية الجديد قبل بضعة أيام فقط ، فى مهمة خاصة لحساب أشكول ..

تحددت مهمته فى أن يبلغ الأمريكيين بأن الحرب حتمية ، وأن « ناصر » قد بدأها عن طريق محاولته خنق إسرائيل وأن إسرائيل ستضطر لشن الهجوم المسلح الأول لكى تبقى على قيد الحياة ..

أنصت « ريتشارد هيلمز » مدير وكالة المخابرات المركزية إلى « آميت » وكذلك فعل أيضا الرئيس « ليندون جونسون » .

تفهمت الولايات المتحدة منطق إسرائيل ، ولم تعترض على الهجوم الوقائى ..

وقد انبنى انجاز « آميت » فى الدبلوماسية السرية على الاتصالات المخابراتية الدولية التى عملت الموساد بجد لتدعيمها على مدى السنوت .

ثم قام بالباقى سلاح الطيران والجيش ، بل قاما به على نحو مبالغ فيه ..

وفى واحد من أكثر حوادث الحرب غموضا وإثارة للجدل ، هرع سلاح الطيران والبحرية التابعين لاسرائيل إلى الهجوم على سفينة أمريكية .

وكانت « ليبرتى » سفينة تجسس بحرية مزودة بأجهزة لاسلكى ، وهوائيات معقدة وتعمل لحساب وكالة الأمن القومى الأمريكية « NSA » فى البحر الأبيض المتوسط .

ويوم الأربعاء ، الثامن من يونيو ، كانت « ليبرتى » تقف بالقرب من ساحل شبه جزيرة سيناء ، لمراقبة تقدم الفاتحين الاسرائيليين ..

وعلى الرغم من أنها كانت ترفع العلم الأمريكى بنجومه وأشرطته ، إلا أن الطائرات والسفن الحربية الاسرائيلية قصفت سفينة المراقبة بالقنابل وقذائف الطوربيد ..

وأسفر ذلك عن مقتل ٣٤ بحارا أمريكيا وإصابة عدد أكبر من ذلك بكثير بجراح ..

وبعد قرابة ربع قرن ، لم تقدم الولايات المتحدة ولا الحكومة الاسرائيلية إيضاحا متماسكا وتركت الباب مفتوحا أمام الشائعات والتكهنات والغضب الطبيعى الذى انتاب كثيرا من جنود البحرية الأمريكية المتمرسين .

فقد تساءلوا فى عجب : كيف جرؤ الاسرائيليون على مهاجمة سفينة حليفهم الرئيسى ؟ ولماذا فعلوا ذلك ؟

واعتقد الناجون وأسر الضحايا أن الحادث قد ارتكب عن عمد ، وأن الإسرائيليين كانوا يعلمون مايفعلون لإصابة العيون والآذان الالكترونية لوكالة الأمن القومى بالعمى والصمم وحدث ذلك بالتحديد فور قيام إسرائيل بنقل ركيزة قوتها المسلحة من الجبهة المصرية إلى الجبهة السورية .

وتم تكليف « جون هادين » ، رئيس مركز وكالة المخابرات المركزية ، والكابتن « إرنست كاسيل » الملحق البحرى الأمريكى فى تل أبيب باكتشاف الحقيقة .

قال الاسرائيليون أن قواتهم اقترفت ببساطة خطأ .. وبعد تحريات دقيقة اقتنع « هادين » و « كاسيل » بكلامهم ..

ففى وهج المعركة ، تنافس سلاح الطيران وسلاح البحرية الاسرائيليان بطريقة مخزية على أن يكون كل منهما هو أول من يقضى على سفينة ليست موجودة ببساطة فى الخطة الرسمية للمعركة ..

وعندما رأى الاسرائيليون العلم الأمريكى . اعتقدوا أنه من المحتمل أن المصريين يتظاهرون بأنهم أمريكيون ، ولم يزعجوا انفسهم بالتحقق من ذلك .

وقد استاءت الولايات المتحدة أكثر على مدى سنوات بسبب غطرسة الاسرائيليين البادية فى رفضهم دفع تعويضات إلى أسر الضحايا .

بحلول الحادى عشر من يونيو ، أصبحت إسرائيل سيدة الضفة الغربية للأردن وسيناء المصرية وقطاع غزة ، ومرتفعات الجولان السورية .

وقد أدى الاستيلاء على هذه الأراضى الهائلة إلى إزالة فكرة الدولة اليهودية الصغيرة ، التى تسعى بالكاد للعيش وسط الدول العربية الكبيرة والقوية ، إلى الأبد .

كان الانتصار علامة على خط فاصل فى تاريخ إسرائيل ولم تكن مؤسسة المخابرات محصنة فى مواجهة التغييرات الكاسحة التى تبعت ذلك

الفصل الثامن

عهد ازدهار "شين بيت"

● كان الفراش مازال دافئا والأغطية والملاءات ملقاة على الأرض بغير نظام ، والمياه تغلى فى الغلاية ، والشاى مازال ساخنا فى الأكواب ، غير أنه لم يتم العثور على الرجل المعروف باسم « أبو عمار » .

فقبل ثوان معدودة من اقتحام القوات الإسرائيلية ورجال الأمن الفيللا المكونة من ثلاث طوابق فى رام الله بالضفة الغربية ، هرب زعيم منظمة التحرير الفلسطينية المعروف فى العالم الخارجى باسم « ياسر عرفات » .

من مكمنه بالطابق الثانى ، سمع أصوات الإسرائيليين وهم يحاصرون الفيللا ، ويبدأون فى عمليات التفتيش ، وقفز « عرفات » من النافذة واختبأ فى سيارة قريبة من المكان ..

وعندما غادر الرجال الذين كانوا يسعون وراء رأسه ، سارع إلى الاتجاه شرقاً ، وعبر نهر الأردن للمرة الأخيرة .. وكان ذلك فى منتصف ديسمبر فى عام ١٩٦٧ ، عقب انقضاء ستة شهور على استيلاء إسرائيل على هذه المنطقة من الأردن ، ومنذ ذلك الوقت لم يضع « عرفات » قدمه فى الصفة الغربية ..

شعر « يوسف هارميلين » مدير « شين بيت » بخيبة الأمل ، فقد كانت تلك هى المرة السابعة التى لم يتمكن فيها رجاله من الإيقاع بزعيم منظمة التحرير الفلسطينية ، وهى المنظمة الفدائية التى أصبحت بؤرة هامة لاهتمام المخابرات الإسرائيلية منذ تأسيسها فى عام ١٩٦٤ ..

وكان « هارميلين » قد تولى مسئولية « شين بيت » فى الأول من يناير من ذلك العام خلفا لآموس مانور الذى شعر بالاحباط لعدم إحلاله محل « إيسر هاريل » كرجل وحيد مسئول عن مؤسسة المخابرات فى عام ١٩٦٣ .

وأحس كذلك بأنه لا يمكنه منافسة « آميت » رئيس الموساد فى حظوته لدى رئيس الوزراء « أشكول » ..

وبالرغم من فشل « شين بيت » فى القبض على « عرفات » إلا أنه كان لديها العديد مما تفخر به فى عام ١٩٦٧ ، وعلى رأس ذلك تمكنها من أن تقمع بسرعة محاولة منظمة التحرير الفلسطينية شن « إنتفاضة شعبية » حتى قبل أن تتمكن من ذلك ..

وكانت معظم الأراضى ، التى استولت عليها إسرائيل فى شهر يونيو ١٩٦٧ ، لاتمثل صعوبات تذكر للحفاظ عليها ..

وتحددت المشكلة الحقيقية التى تواجه إسرائيل كقوة محتلة ، فى الضفة الغربية وقطاع غزة حيث يوجد الناس ..

فالضفة الغربية ، التى تقل مساحتها عن ثلاثة آلاف ميل مربع ، كانت موطنا لحوالى ستمائة ألف فلسطينى .. بينما كان هناك حوالى أربعمائة الف شخص فى قطاع غزة الفقير المكتظ بالسكان والذى لاتزيد مساحته عن حوالى مائة ميل مربع .

شعر الفلسطينيون بالارتباك والخوف عندما أقامت إسرائيل الهياكل الإدارية لاحتلالها العسكرى .. وشكلت مؤسسة المخابرات قوة عمل من « ديفيد كيمحى » من الموساد ، ومن رجال آخرين من « شين بيت » و« أمان » ، لاستكشاف الاتجاهات السياسية للسكان المحليين .

واقترحت المجموعة منح الفلسطينيين الحكم الذاتى الذى يقود إلى قيام دولة منفصلة ، إلا أن « أشكول » وحكومته تجاهلا النصيحة ..

وكان بعض الأعيان العرب مهذبين لايطلبون من الإسرائيليين إلا السماح

بالعودة السريعة للحياة التجارية واليومية العادية .. غير أنه كان من الواضح أن غالبية سكان الضفة الغربية يفضلون العودة إلى الادارة الأردنية للملك حسين ، وحتى سكان غزة الذين عانوا من الإدارة المصرية ، كانوا يفضلون حاكما عربيا على إسرائيل ..

وعلى أمل الاستفادة من السخط الشعبى خططت منظمة التحرير الفلسطينية والمجموعات المنشقة من الفدائيين العمل على غرار مايقوم به « الفيت كونج » ، الذين يواجهون بنجاح القوات المسلحة الأمريكية الجبارة فى فيتنام ، وعلى غرار جبهة التحرير الوطنية الجزائرية التى طردت الفرنسيين من الجزائر ، ودعا « عرفات » ورفاقه السكان الفلسطينيين إلى الثورة ضد الاحتلال الإسرائيلى الصهيونى ..

وكانت خطتهم ، عقب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ ، تقوم على ألا يستطيع الإسرائيليون حكم هذه الأراضى ..

فمنظمة التحرير الفلسطينية سوف تسيطر على الحياة اليومية فى قرى وبلدات الضفة الغربية البالغ عددها خمسمائة قرية وبلدة ..

وأعرب المنظرون اليساريون من بين الفدائيين عن اعتقادهم أنه من المحتم أن تقوم حكومة ثورية فلسطينية فى أعقاب ذلك ..

وعقب حرب الأيام الستة على الفور ، قامت منظمة التحرير الفلسطينية بتوزيع كتيب فى الضفة الغربية ، استخدم لغة مستوحاة من الأفكار الشيوعية الكلاسيكية حيث قال :

« يجب علينا أن نفرض المقاومة السرية فى كل شارع ، وحى ، وقرية .. فواجب كل فرد أن يقاتل العدو .. وعلينا دحرجة الصخور الضخمة من فوق قمم الجبال لقطع شرايين مواصلات العدو ، حاولوا إضرام النيران فى سيارات العدو .. علينا مقاطعة المؤسسات الاقتصادية والثقافية لقوى الاحتلال » .

وانتهى الكتيب بتقديم التوجيهات حول كيفية صنع قنابل كوكتيل مولوتوف .

وكانت جماعات الفدائيين تفكر فى شن « نضال التحرير الشعبى » على غرار مايمكن أن يفخر به « ماوتس تونج » و « فيديل كاسترو »

لم تقتبس منظمة التحرير الفلسطينية الأفكار الأجنبية فقط ، بل أيضا التاكتيكات العملياتية من كل من الصين وكوبا ، وفيتنام ، والجزائر.. وحظى الفلسطينيون بمساعدة فعالة من العقيد « أحمد سويدانى » رئيس المخابرات العسكرية السورية ، الذى يرجع إليه الفضل فى القبض على عميل الموساد « إيلى كوهين » فى دمشق ، وكان معروفا عنه أنه من المؤيدين بحماس للنضال الشعبى فى أى مكان فى الشرق الاوسط باستثناء سوريا ..

وقامت جماعات منظمة التحرير الفلسطينية المقاتلة بتسريب عشرات الأعضاء المسلحين بالمدافع والمتفجرات إلى الأراضى المحتلة .. وأقاموا مراكز للقيادة تحت أنف الإدارة الإسرائيلية الجديدة وشارك « عرفات » شخصيا فى تجنيد المقاتلين للعمليات المتعددة ، وكانت موافقته مطلوبه على كافة التفاصيل الدقيقة .. وارسلت الخلايا الفدائية للقيام بعمليات كر وفر ضد السيارات والدوريات العسكرية .

ونصب الفدائيون الكمائن فى الشوارع الضيقة ببلدات الضفة الغربية .

وداخل إسرائيل ذاتها ، قام الفلسطينيون بتفجير القنابل فى الأسواق ، ودور السينما ، ومحطات الأوتوبيس ، والمطاعم ، ولم يكن المهاجمون يهتمون بالتمييز بين المدنيين والعسكريين حيث كان « عرفات » ورجاله من خبراء الاستراتيجية يعتقدون أنهم منغمسون فى شكل مثالى من النضال المسلح جدير بالاحترام ، فى الوقت الذى كانت تنظر فيه إسرائيل وغالبية العالم الخارجى إلى تاكتيكات منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها ارهابا ..

لم يكن هناك وقت أمام « شين بيت » للجدل حول اطلاق الكلمة الصحيحة على مايحدث ، ففى الوقت الذى ألقى فيه رئيس الوزراء « أشكول » ، ووزير الدفاع « ديان » على الجيش مسئولية الاضطلاع بالشئون اليومية للإدارة العسكرية والمدنية فى الأراضى المحتلة ، كلفا جهاز « هارميلين » السرى بمكافحة

التخريب والحفاظ على النظام والقانون غير أن الكثيرين سواء فى الحكومة أو الجيش كانوا يتشككون فى مقدرة « شين بيت » على إنجاز اهدافها ..

وكانت الوكالة فى ذلك الوقت ، هيئة عمل صغيرة منغلقة على ذاتها ، تعمل فى سرية تامة ، وكان الرأى العام لايعرف شيئا عن « شين بيت » بالاسم .

وفرض الحظر على نشر تفاصيل عملياتها فى الصحف كما منع الكشف عن أى من شخصياتها ..

بلغ عدد أعضائها حوالى خمسمائة شخص ، يسود بينهم جو أسرى مترابط ، يعرف أفرادها جميعا بعضهم البعض ، ولايسمح فيه بالكشف عن أسرار الأسرة للخارج ..

وكانت أيضا لا تتمتع كوكالة بأية جاذبية ، وتغطى عليها دائما الموساد و « أمان » ، فلم يكن يعزى إليها ، إلا فى النادر ، سوى فتات العمليات المثيرة التى تشترك فيها مع الموساد من خلال قسم العمليات المشترك بينهما .. بالرغم من بعض المهام الخارجية غير العادية التى قامت بها مثل القبض على « أيخمان » أو البحث عن « يوسيل شوماخر » ..

تحددت مهمة « شين بيت » الرئيسية فى العمل غير الجذاب الخاص عادة بمراقبة الجواسيس الأجانب ومتابعة الفدائيين المحليين ، وكان من الطبيعى أن تكون الأقلية العربية فى إسرائيل هى التى تشكل المصدر الرئيسى عادة للمشتبه فيهم ..

وقد قامت الحكومة ، قبل حرب الأيام الستة بعامين ، بإلغاء الإدارة العسكرية التى كانت قائمة فى البلدات والقرى العربية داخل إسرائيل منذ حرب الاستقلال فى عام ١٩٤٨ ..

وبينما كان المواطنون العرب فى الدولة اليهودية ، يتمتعون بحق التصويت فيما يتعلق بإختيار أعضاء الكنيست إلا أنهم لم يخضعوا لنفس الأنظمة المدنية للحكم التى كانت سائدة فى المناطق ذات الاغلبية اليهودية فقد كان هناك حكام عسكريون للقطاعات ذات الأغلبية العربية ، وبصفة خاصة فى إقليم الجليل شمال إسرائيل ، حيث كان السكان يخضعون لمراقبة شديدة من جانب « شين بيت » .

وقد قدم « شمويل توليدانو » عميل الموساد السابق ، فى عام ١٩٦٥ ، توصيه بإلغاء الحكم العسكرى فى مناطق معينة من إسرائيل عندما كان مستشارا لاشكول للشئون العربية ..

وأيد « هارميلين » رئيس « شين بيت » الاقتراح ولايرجع ذلك إلى حدوث ميل مفاجىء من الوكالة تجاه العرب ولحقوقهم المدنية ، بل لأن مصالح الدولة وأمنها يمكن مراعاتها بطريقة أفضل بهذا الإجراء .

وكانت مهمة « شين بيت » أن تمنع العرب من أن يعملوا كطابور خامس لمساعدة أشقائهم عبر الحدود .

وأعربت عن اعتقادها بأن إلغاء الادارة العسكرية سيكون بمثابة حافز بالنسبة للعرب للاندماج فى المجتمع الاسرائيلى ، والدراسة فى جامعاتها ، وإقامة الأعمال بها ، والاهتمام بالمستقبل الوظيفى وزيادة دخولهم ، والكف عن الاحساس بمشاعر التمييز فى المعاملة ، والاحباط ، وخيبة الأمل واليأس التى يولد العمليات الفدائية .

وأكدت « شين بيت » أن رفع القيود الرسمية عن العرب الاسرائيليين سيؤدى إلى تهدئة المتطرفين الذين يزعمون أن الحياة سيئة فى إسرائيل ..

وتمت الموافقة على اقتراح « توليدانو » ، ومع التعديل الذى جرى بعد ذلك فى مهام « شين بيت » بدأ حقا عصر « هارميلين » ، الذى كان مسئولا عن قسم مكافحة الجاسوسية فى « شين بيت » حتى ترقيته ليحل محل « مانور » ، وخطط بعد ذلك ليجعل من اصطياد الجواسيس العمل المحورى لكافة نشاطات الوكالة .

وكان الرئيس الجديد يميل إلى استخدام الأساليب العقلية الباردة ، والضغوط المتواصلة للإيقاع بالعملاء الأجانب ..

وقد تطلب نجاح « شين بيت » درجة عالية من الكفاءة ، والقدرة على الاستجواب ، وهما يمثلان تحديا عقليا جديرا بالاهتمام ..

فمواجهة المشتبه فيهم يتطلب جهودا لا تعرف الكلل للتعرف على نقاط الضعف فى شخصياتهم ، ومناطق الانحراف الانسانى بصورة عامة .

فرجل التحقيق من « شين بيت » والشخص الذى يتم استجوابه ــ والمفترض أنه خائن وجاسوس ــ يجلسان معاً وهما يحتسيان القهوة ، دون استخدام للعنف ويدخلان فى مباراة من مباريات الدهاء .

ولم يكن أحد يملك وجها جامدا أكثر من « يوسف هارميلين » وبالرغم من أنه كان جذابا فارع الطول ، إلا أن قدرته على الاحتفاظ بملامح لاتحمل أى تعبير ، كانت من أبرز مميزاته التى لا تنسى .. فإخفاء المشاعر الشخصية يعتبر من الصفات المميزة لرجل المخابرات ..

ومن المحتمل أنه ولد بهذه الموهبة عند خروجه إلى الدنيا فى فيينا فى عام ١٩٢٣ .

وعقب الانشيلوس فى عام ١٩٣٨ ، عندما ضمت ألمانيا النازية النمسا ، هرب والدا « هارميلين » من المحرقة المقبلة إلى المكسيك ، غير أن يوسف المراهق ، الذى كان أكثر صهيونية من والديه ، اتجه إلى فلسطين ، ودرس فى مدرسة « بن شيمين » الزراعية التى خرجت زعماء سياسيين للمستقبل مثل « شيمون بيريز » ، وجواسيس للمستقبل مثل « فولفجانج لوتز » ..

وانضم « هارميلين » ، مثل فى ذلك مثل « هاريل » و « آميت » ، إلى أحد الكيبوتزات قبل أن يتطوع فى الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية .. ثم انضم بعد ذلك إلى الهاجاناه حيث التقى خلالها مع « هاريل » ..

وعقب استقلال إسرائيل بسنوات قليلة ، جندت « شين بيت » « هارميلين » ، الذى شق طريقه فيها بالتدريج حتى وصل إلى القمة .

وكانت علاقته بليفى أشكول ، الذى عينه رئيسا لوكالة « شين بيت » رسمية للغاية ، بالرغم من أن « أشكول » كان يريد شيئا مختلفا تماما ، وحاول بوصفه المسئول المباشر عن الموساد و « شين بيت » أن يقيم علاقات حميمة شبه أبوية مع « هارميلين » ..

وجد « أشكول » فى « هارميلين » شخصا شريفا بلا خطيئة مخلصا ، يتسم بالكمال ، ومن ناحية أخرى ، كان « هارميلين » أيضا شخصا جامدا بالنسبة

لأشكول السياسى البارع الذى يجيد تدبير المكائد الحزبية ، والذى تمتعه كإنسان النكتة البارعة ..

ولكن لم تستطع روح الدعابة لدى رئيس الوزراء كسر حاجز الجليد بينه وبين « هارميلين » ، بالرغم من محاولاته المتكررةِ بث الحيوية فى محادثاتهما بلغته البيديه [1] المحببة .

وفى إحدى المناسبات ، عندما اكتشفت « شين بيت » دلائل على وجود تهديد باغتيال « أشكول » ، قامت بمضاعفة الحراسة على رئيس الوزراء ، وكانت هناك تهديدات تصل كل اسبوع تقريبا بأن « أشكول » قد يتعرض للقتل ..

وبصفة عامة ، تم تجاهل هذه التهديدات ، لأن الإسرائيليين كان يعتقدون دائما أن القتلة الحقيقيين لايكتبون رسائل تحذير ، إلا أنه بعد مصرع الرئيس الأمريكى « جون كنيدى » فى نوفمبر ١٩٦٣ ، لم تكن « شين بيت » راغبة فى مواجهة أية مصادفات غير مسئولة .

وأبلغ « هارميلين » « أشكول » ، بوصفه مسئولا عن حمايته وحماية المسئولين الحكوميين الآخرين ، عقب اغتيال « كنيدى » مباشرة ، أنه بعد استعراض حالة الأمن سيجرى تخصيص رجلين بدلا من شخص واحد لحراسته على مدى الأربع والعشرين ساعة ..

ووعده رئيس « شين بيت » بأنه يمكنه « أن يثق فيهما ثقة مطلقة » ، فى إشارة إلى أن « أشكول » أرمل وقد يحتاج إلى نوع من الخصوصية عند اصطحاب إحدى السيدات ، وأوضح « هارميلين » لأشكول « أنه حتى إذا كانت لك لقاءات حميمة ، فلن ينبسا بكلمة واحدة » .

ورد عليه « أشكول » بابتسامته التقليدية قائلا : « على العكس ، دعهما يقولان » ..

---

(١) البيديه : لهجة من اللهجات الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية ، وينطق بها اليهود فى الاتحاد السوفيتى وبلدان أوربا الوسطى ، وهى تكتب بأحرف عبرية ..

ولم يضحك « هارميلين » .. فلم يكن يضحك على مثل هذه النكات ، فقد كان يأخذ عمله بجدية صارمة ، وهو الأمر الذى استمر فى الأخذ به عند أوكلت إليه المهمة الجديدة : الأراضى المحتلة ..

اتخذ قرار إلقاء مسئولية الحفاظ على القانون والنظام فى الأراضى المحتلة على « شين بيت » فى ١٩ يونيو ١٩٦٧ فى اجتماع « فاراش » وهى اللجنة التى تضم رؤساء كافة وكالات المخابرات .. وقد أدى ذلك إلى توسيع دورها الأمنى الداخلى إلى ماوراء حدود إسرائيل الرسمية ..

كانت حرب الأيام الستة قد انتهت منذ اسبوع واحد فقط ، ومازال الاحساس بالزهو يتدفق قويا ..

وطبقا لتقاليد لجنة « فاراش » ، فقد رأس الاجتماع « آميت » مدير الموساد وجلس حوله إلى المائدة « أهارون ياريف » رئيس أمان ، و « هارميلين » رئيس « شين بيت » ، ورئيس البوليس الوطنى ، ومدير عام وزارة الخارجية ..

وجدت الحكومة الإسرائيلية أنه من الصعب عليها اتخاذ قرار بشأن وضع الأراضى المحتلة والخطط المستقبلية تجاهها ، وهى الأراضى التى تم الاستيلاء عليها فى الشهر نفسه يونيو ١٩٦٧ ..

فهل تعتبر هذه الأراضى قطاعات « محررة » من أرض إسرائيل المقدسة ، أم أنها أجزاء « محتلة » من أراض أجنبية معادية ؟

ومع الافتقار لوجود قرار سياسى حول تلك الأراضى ، اضطرت « فاراش » لتبنى سياسة إدارية تتمثل فى « العصا والجزرة » أو سياسة « الترهيب والترغيب » بهدف الحفاظ على الوضع القائم مع الأحتفاظ بالنظام كأولوية قصوى ، وفى محاولة لدق إسفين بين غالبية الفلسطينيين وبين الأقلية الخطرة الفدائية ، قرر رؤساء المخابرات السماح للسكان بممارسة حياتهم بصورة طبيعية .. وكانت تلك هى الجزرة .. أما العصا فكانت سياسة العقاب القوى والمؤكد لكل من يشترك فى أعمال فدائية ..

وكان يتم عقاب الفلسطينيين الذين يساعدون الفدائيين بالسجن أو بنسف منازلهم بالديناميت عادة فى انفجارات صاخبة لتكون أمثولة للآخرين ..

وقد شكل فقد المرء لمنزله عقابا قاسيا ، إلا أن اكثر العقوبات حسما وخطورة ، التى كانت متاحة لوكالة « شين بيت » ، فقد كانت الطرد .

ومنذ الأسابيع الأولى لإشراف إسرائيل على ما أسمته « بالأراضى المدارة » ، كان يتم اصطحاب السكان العرب الذين يعتقد أنهم على صلة بالفدائيين من منظمة التحرير عبر الجسور إلى الأردن ، ويحظر عليهم العودة ثانية ..

ولم يكن الانتقال بنظرية « العصا والجزرة » إلى التطبيق بالمهمة السهلة ، فعملاء « شين بيت » لم يكونوا مستعدين لها .. فالأراضى الجديدة التى وقعت فى يد إسرائيل ، كانت أرضا مجهولة بالنسبة لهم حيث لم يكن للوكالة رجال فى الميدان ، ولا يعرفون شيئا عن السكان وتعين على « شين بيت » أن تبدأ من نقطة الانطلاق وكخطوة أولى استخدم رجال « هارميلين » ، بمساعدة المخابرات العسكرية ، الحرب السيكولوجية لنشر الشائعات حول مدى صرامة الخط الذى ستتبعه إسرائيل ، إلا أن هذا لم يؤد إلى بث الخوف فى النفوس بشكل حاسم .

وبعد أن أصبح واضحا ، أن تصميم إسرائيل على البقاء فى الأراضى المحتلة أضحى معروفا لسكانها ، انتقلت « شين بيت » إلى المرحلة الثانية والحاسمة وهى : منع محاولات الانتفاضة الفلسطينية ومحاربة العمليات الفدائية ..

وعهد « هارميلين » بالمهمة إلى « أفراهام أحيتوف » رئيس قسم الشئون العربية الصغير فى « شين بيت » .

وبعد سد بعض الثغرات المتبقية من إلغاء الادارة العسكرية فى الجليل فى عام ١٩٦٥ ، قام قسم « أحيتوف » بتأمين عدم مشاركة العرب الإسرائيليين فى الأعمال الفدائية ، أو أعمال التحريض أو العنف .

كان « أحيتوف » محاميا بالممارسة ، وعمل بنفس التدقيق المطلوب فى الشئون القانونية .

وبالرغم من أن عمله كان مشكوكا فى مشروعيته وقانونيته ، إلا أنه حظى بالإشادة من زملائه فى « شين بيت » بعد أن أقام شبكة واسعة من المخبرين بين العرب الإسرائيليين .

وأصبح واضحا أن شيئا لم يفت عن أعين رجاله .. ووصف تقرير سرى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية « أحيتوف » بأنه « شديد الذكاء ، طموح ، متمكن من عمله ، مجد ، إلا أنه أيضا « عنيد ، وحاد الطباع ، ومغرور » .

وكان « أحيتوف » مسئولا من قبل عن عمليات « شين بيت » فى قطاع غزة ، بعد أن استولت عليه إسرائيل من مصر فى عام ١٩٥٦ ، وذاعت شهرته من هناك بعد أن تمكن من وضع الفلسطينيين هناك تحت السيطرة .. وفى عام ١٩٦٧ طلب منه استخدام مواهبه لتحقيق نتائج مشابهة فى كافة الأراضى المحتلة ، كتلك التى حققها فى غزة ، وفى قطاع العرب الإسرائيليين ..

كان « يهودا إربيل » هو أكثر مساعدى « أحيتوف » مقدرة .. وهو رجل قصير رمادى الشعر ، ذو عينين بالغتى الزرقة ، إلا أنهما باردتان كالثلج ..

وكان رومانسيا محبا للجمال وتذوقه فى الموسيقى والفن ، النساء ، والخمر الجيدة .

وبالرغم من أنه كان متميزا فى فرديته ، إلا أن سيرته كانت مشابهة لسيرة الآخرين فى مؤسسة المخابرات الإسرائيلية .. فقد ولد فى ترانسلفانيا التى كانت جزءا من المجر ، وأصبحت الآن جزءا من رومانيا ، ثم انتقل إلى فلسطين ، وخدم فى الجيش البريطانى ، وحارب من اجل استقلال إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ..

وعمل ضابطا فى البوليس حتى عام ١٩٥٥ حيث التحق بوكالة « شين بيت » ، وعندما اندلعت حرب ١٩٦٧ ، كان رئيسا لقسم « شين بيت » فى القدس ، وهو قسم صغير لايتميز بالأحداث الهامة ، ولا يتطلب إلا عملا قليلا يتركز بصفة عامة على مكافحة الجاسوسية ، ومراقبة الدبلوماسيين الأجانب ، حيث لم يكن فى القطاع الغربى من القدس الخاضع لإسرائيل حتى ذلك الوقت سوى أعداد قليلة من العرب ..

كان « إريل » يشعر بملل شديد إلى درجة أنه فكر فى وقت ما فى تقديم استقالته ، إلا أن دوره الجديد عقب حرب الأيام الستة ، كمناهض للعمليات الفدائية ، كان باعتراف الجميع واحدا من أهم الأدوار التى أدتها مؤسسة المخابرات ..

وكان هذا الدور بمثابة حقنة مفاجئة من الادرينالين جعلت « إريل » كما لو كان قد ولد من جديد .

وأخذ يتنقل بصورة متواصلة بين قرى الضفة الغربية لتجنيد المخبرين ، ولتنسيق عمليات اختراق خلايا المقاومة ..

وفى لمح البصر ، تغلبت « شين بيت » على المشكلة العاجلة التى تواجه إسرائيل فى الأراضى المحتلة ، ولم يتمكن الفلسطينيون من تصعيد الانتفاضة الشعبية فى الأراضى المحتلة الجديدة .. فقد حصلت إسرائيل على معلومات بالغة الأهمية من الداخل ، وكان هذا هو سلاحها الرئيسى فى شن حرب ناجحة ضد المعارضة السرية ..

وتمكن « أحيتوف » و « أربيل » من نشر شبكة من العملاء السريين والمخبرين فى كافة أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة .. وكانت غالبيتهم من العرب ، الذين تم تجنيدهم بالمال أو الارهاب ، إلا أنه كان هناك أيضا عدد قليل من الإسرائيليين الذين يجيدون التحدث باللغة العربية وزود العملاء « شين بيت » بمعلومات مسبقة عن الهجمات التى يخطط لها الفدائيين ، كما كان التدفق المتواصل للمعلومات ، هو الذى كاد ان يمكن « شين بيت » من القبض على « عرفات » ليلة ٢٧ ديسمبر فى الفيللا الواقعة فى رام الله ..

وتمكن رجال « شين بيت » ، بناء على المعلومات السرية التى كان تصلهم ، من الانقضاض على الاجتماعات التى كان يعقدها الفدائيون ، ونصب الكمائن للقبض على فرق الفدائيين ، وهى فى طريقها لشن هجماتها ..

وأصبحت الطريقة التى حققت هذه النجاحات معروفة باسم « التجسس الوقائى » ، وهو الأمر الذى يمثل أقصى ما تصبو إليه كافة وكالات الأمن الداخلية فى تعاملها فى مواجهة العنف والارهاب ..

وبحلول شهر ديسمبر ١٩٦٧ ، كانت « شين بيت » قد حققت سجلا مدهشا من الانتصارات ، فقد انهارت معظم خلايا منظمة التحرير الفلسطينية ، وأجبرت قياداتها داخل الضفة الغربية على التراجع إلى الأردن .

كما لقى مائتا فدائى فلسطينى مصرعهم فى معارك مع الجيش ووحدات « شين بيت » ، وألقى القبض على أكثر من ألف شخص آخرين ..

ولايرجع فشل المحاولات التى بذلها الفلسطينيون للقيام بإنتفاضة شعبية الى كفاءة الأجهزة السرية الإسرائيلية وحدها ، بل إن اللوم يعود أيضا على الفلسطينيين بسبب افتقارهم للخبرات التى يتسم بها المحترفون ..

فلم يخضعوا لقواعد تقسيم العمل ، وهى القواعد الأساسية فى الحركات السرية ومهنة التجسس .. وبدلا من ذلك نظموا أنفسهم فى مجموعات كبيرة نسبيا ، تعرف بعضها البعض ، معتمدين على أن العرب المحليين لن يسلموهم إلى السلطات المسئولة ..

وكان « عرفات » نفسه وكبار قادته يعرفون غالبية أعضاء الخلايا ، وذلك فى انتهاك كامل لقواعد العمل التآمرى الصحيح .

كذلك اتسمت أنظمة اتصالهم بالبدائية ، وكانت شفراتهم بسيطة وغير معقدة ، كما لم يخططوا لطرق الهرب ، ومخابئهم الآمنة لم تكن آمنة ، بالإضافة الى أن أعضاء الفرق الفدائية لم يكونوا مؤهلين للصمود طويلا عند التحقيق معهم فى حالة القبض عليهم ، فكانوا يدلون بكل ما يعرفونه بمجرد القبض عليهم من قبل « شين بيت » ..

وتم فك شفراتهم ، وصودرت أسلحتهم ومفرقعاتهم ، ومثل الدومينو ، سقطت خلاياهم الواحدة تلو الأخرى والأهم من كل ذلك ، أنهم فشلوا فى تحقيق المبدأ الصينى لماوتس تونج بأن على المقاتل الفدائى أن يعتمد على الجماهير وأن يشعر بأنه مثل « السمكة فى الماء » ..

فلم يتمكن المقاتلون الفلسطينيون من « السباحة » فى الخفاء بين جيرانهم الذين كانوا يقودونهم إلى شواطىء « شين بيت » ..

وفضل السكان المحليون ، بسبب سياسة العصا والجزرة ، الركون إلى الهدوء ، والسلام ورغد العيش ، بدلا من التورط فى العمل السرى ..

وهكذا أصبحت « شين بيت » محل الثقة الكاملة وازدادت أهمية وكالة « هارميلين » داخل مؤسسة المخابرات ، وأصبح الضباط المسئولون مع « أحيتوف » يعرفون باسم « ملوك الأراضى المحتلة » ..

وكما يحدث على نحوٍ ما فى الأنظمة الاقطاعية ، حددت لكل ضابط إسرائيلى منطقته الخاصة ، المكونة عادة من إحدى القرى ، أو مجموعة منها .

وتعين عليه أن يكون بمثابة عين إسرائيل وأذنها وأن يعرف كل مايحدث فى إقطاعته ، وتم تدريب كل ضابط على أن يتعرف على غالبية الفلاحين بأسمائهم فى الوقت الذى لايعرفون عنه سوى اسمه المستعار الذى كان فى العادة اسما عربيا على مثال « أبو موسى » مثلا ..

وإذا أراد أحد الفلسطينيين الحصول على تصريح بالبناء فإن الحكومة العسكرية فى الأراضى المحتلة ، كانت تراجع الأمر أولا مع الضابط المحلى المسئول لوكالة « شين بيت » وإذا رغب تاجر عربى فى تصدير محصوله من الموالح من غزة أو من زيت الزيتون من الضفة الغربية ، فلا يمكنه الحصول على ترخيص بذلك إلا بموافقة « شين بيت » ..

فكل دقيقة من دقائق حياة الفلسطينيين ، وكافة الأنشطة اليومية ، كانت خاضعة لسيطرة « شين بيت » التى تتخذ من تعاملها شكل الصفقات التجارية ، فعلى العرب التقدم بالمعلومات فى مقابل منحهم الأمان ، وهامش من الربح ..

وكان لنجاح « شين بيت » ثمنه ، على أية حال ، فالمجتمع الإسرائيلى كان يحكم عليه فى العالم الخارجى بما يتبدى من سياسته الأمنية .. فقد تم سحق العمليات الفدائية ، لكن على حساب سمعة إسرائيل الطيبة فى العالم بأسره ..

فبدلا من أن ينظر إليها عالميا على أساس أنها دولة تثير الاعجاب ، أصبحت الدولة اليهودية هى إسرائيل القبيحة .. وأزيحت جانبا كافة المآثر التى قامت بها

تحت تأثير مانشيتات الصحف التى تعرب عن الاستنكار ، وأصبح ينظر إليها بوصفها محتلا بشعا لأراضى شعب آخر ..

ومثلما تعكس معظم وكالات المخابرات قيم وأخلاقيات مجتمعاتها ، كذلك فإن التغييرات التى لحقت بصورة إسرائيل ، ألحقت بوكالة « شين بيت » أضرارا جسيمة فحتى حرب الأيام الستة ، كان افراد الوكالة يمثلون أسرة صغيرة لها خلفية مشتركة : فقد عملوا فى الجيش البريطانى أو الهاجاناه ، وكانوا يتشكلون أساسا من الأوربيين ، أى القطاع اليهودى المعروف باسم « الاشكنازى » ..

وعقب حرب ١٩٦٧ ، اضطرت « شين بيت » بسبب الظروف الجديدة إلى تحويل نفسها إلى قوة للقمع تلعب دورا رئيسيا فى حكم الأراضى المحتلة وسكانها . وأصبحت الوكالة السرية قوة استعمارية تشعر بالثقة الزائدة وبالغرور أحيانا .. ولما كان عليها أن تغطى مجالات أوسع بكثير ، فقد حل العمل المرتجل المتسرع محل العمل المتسم بالدقة والكمال ..

واحتاجت « شين بيت » بشدة إلى توسيع نطاق قوة العمل فيها ، وذلك بهدف إقامة شبكات واسعة للجاسوسية وتم تشييد مجمع من المبانى الحديثة والجديدة فى الضاحية الشمالية لتل أبيب كمقر جديد لقيادتها بدلا من المقر القديم فى يافا ..

وأصبحت معايير التجنيد أكثر سهولة ، وأقل تأكيدا على المستويات المتميزة .. وتغير الوجه الاجتماعى لوكالة « شين بيت » ، فقد كان كل شىء يتم بعجلة شديدة ..

وأمكن العثور على المتحدثين بالعربية ، الذين أصبحت الوكالة فى أمس الحاجة إليهم ، من بين القطاع الشرقى من السكان اليهود المعروفين باسم السفرديم ، الذين يشكلون فى غالبيتهم ، مع وجود بعض الاستثناءات بالطبع ، رجالا أقل مستوى فى التعليم ، ويعتمدون فى حياتهم على قوتهم العضلية أكثر من اعتمادهم على قوتهم الذهنية . وحتى ذلك الوقت ، كان الذين يتم اختيارهم من جنود الوحدات الخاصة فى الجيش .

وعلى عكس غالبية الدول ، التى تنظر إلى القوات الخاصة بوصفها أكثر القوات عدوانية وتعطشا للمعارك والدماء . فقد تم تدريب أفراد القوات الخاصة فى اسرائيل على التمسك بالمسائل الروحية والاهتمام بالأخلاقيات ..

كما أضافت « شين بيت » إلى صفوفها ، فى اندفاعها المتسرع لتوسيع صفوفها ، جنودا من الوحدات المعاونة الذين لايتمتعون إلا بأقل القليل من الأخلاقيات والسلوك الحميد ..

وحتى كبار القادة فى « شين بيت » ، الذين يتميزون عادة بالاختيار السليم لمنفذى العمليات ، ارتكبوا أخطاء ..

وقد كان « يوسى جينوسار » ، الذى ظهر بعد ذلك بعقدين كشريك فى إثنتين من أسوأ الفضائح فى تاريخ مؤسسة المخابرات الإسرائيلية ، واحدا من هذه « الأخطاء » .. وقد كان ضابطا أركان عمل فى المؤخرة ، أكثر من اشتراكه فى جبهة القتال ..

وفرضت الطبيعة المتغيرة للعمل أساليب جديدة أيضا ، ففى الوقت الذى كان يتم فيه القبض على ألفين من العرب لاستجوابهم ، وتنفجر فيه السيارات المفخخة وتصبح الفنادق والطائرات أهدافا للفدائيين ، كان من الضرورى انتزاع المعلومات بأسرع مايمكن ..

وأصبح عامل الوقت أهم عنصر فى « الجاسوسية الوقائية » وبدأ أن العمل السريع يتطلب درجة من الوحشية دون الانتظار لحظة واحدة للتفكير .

وفى البداية ، وجدت « شين بيت » أنه من الصعب عليها التأقلم مع الحقائق الجديدة ، فعندما شاهد « هارميلين » واحدا من صغار المحققين وهو يصفع فلسطينيا مشتبها فيه ، قام بفصله على الفور ، إذ أنه لم يكن يوافق على ضرورة استخدام العنف البدنى ..

إلا أن الظروف الجديدة سادت على أية حال ، وتعلم رجال « شين بيت » بطريقة قاسية معنى الاحتلال ، فعملهم القذر فى الجهاز قد يكون من أجل قضية نبيلة ..

فقد تمكن « هارميلين » ونائبه « أحيتوف » من قمع العمل الفدائى ، الا أنه كان عليهم تحقيق ذلك باستخدام ماكان رجال « شين بيت » يطلقون عليه اسم « الأسلوب » ..

فالأساليب الأمنية كانت تتسم فى الواقع بإقامة معيار مزدوج للعدالة بطريقة نظامية أحدهما ، ديمقراطي بالطبيعة ، ويطبق على المواطنين الإسرائيليين ، والثانى مختلف تماما ، يجرى تطبيقه فى المنطقة الرمادية ، فى المجال الممتد بين ماهو مسموح به وبين ماهو محظور ، وكان يستخدم ضد مثيرى القلاقل والمشتبه فيهم من الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة ..

وخلق « الأسلوب » بمعيارة المزدوج حدودا جديدة أطلق عليها اسم « بلاد شين بيت » حيث تمتلك الوكالة مراكز الاعتقال الخاصة بها ، بالإضافة إلى أجنحة منفصلة من السجون المدنية الإسرائيلية تعمل تحت إدارة « شين بيت » ، وعندما كان يلقى القبض على الفلسطينيين ، كانوا يساقون مباشرة إلى الأجنحة الخاصة ومراكز الاعتقال ، ولم يكن مسموحا للبوليس أو لسلطات السجون بإلقاء ولو نظرة واحدة على مايجرى داخل الزنزانات خلف هذه الجدران ..

وتعرض المتهمون العرب لتحقيقات وحشية ، وكان الإيذاء البدنى نادرا بسبب وجود أساليب من القمع والقهر لاتترك أية أثار فبمجرد أن تغلق بوابات « شين بيت » على المسجونين الفلسطينيين كانت تغطى رؤوسهم بأكياس سوداء ، ويبقون بعد ذلك معرضين لشمس إسرائيل الحارقة أو للشتاء القارس ، فى انتظار المحققين ..

ويستمر الاستجواب بعد ذلك عدة ساعات ، ويحرم المشتبه فيهم عادة من النوم ، ويغرقونهم فى بعض الأحيان فى الماء البارد ..

وكان بعض رجال « شين بيت » لايحبون ماينبغى عليهم القيام به من أفعال ، إلا انهم اعتبروا أمرا ضروريا من أجل وجود إسرائيل واعتقدوا أنهم كانوا يدافعون عن اسرائيل ..

وقد تعاونت « شين بيت » مع « أمان » والموساد فى مشروع بالغ الأهمية

يستهدف مواجهة « المشكلة السكانية » فقد كان من المتوقع أن يزيد عدد العرب ، بمعدلاتهم العالية فى المواليد على عدد اليهود فى إسرائيل والأراضى المحتلة فى نهاية القرن العشرين ..

وعهد إلى مؤسسة المخابرات بمهمة تشجيع الفلسطينيين على الهجرة ، وأنشأت وحدة إسرائيلية خاصة شركة وهمية فى أوربا قامت لشراء أراض للعرب من غزة والضفة الغربية الذين يوافقون على الهجرة إلى الخارج ..

وكانت هذه الأراضى فى البرازيل وباراجواى وحتى فى ليبيا ، وتمنح لأولئك الذين يفضلون العيش فى دولة عربية ..

وقد أتاح عمل الموساد فى ليبيا ، فرصة طيبة للوكالة لمراقبة التطورات السياسية هناك .. فلم يفاجأ « زفى زامير » رئيس الوكالة بالإطاحة بالملك « ادريس السنوسى » الموالى للغرب فى سبتمبر ١٩٦٩ بواسطة مجموعة من صغار الضباط الذين ساروا على خطى البكباشى عبد الناصر وانقلابه فى ١٩٥٢ .. وكان القائد الليبى الجديد هو العقيد معمر القذافى وهو القائد الذى لم يكن فى امكان « زامير » أن يعلم ، عندما سمح بالأنباء من طرابلس ، بأنه سيصبح واحدا من ألد أعداء إسرائيل ..

تحقق رئيس الموساد من أن رحيل ملك ليبيا بشكل خبرا سيئا .. فقد فقد الغرب قلعة استراتيجية فى شمال إفريقيا ، وقال « زامير » لأحد زملائه فى تل أبيب : « لقد أبلغناهم .. لقد حذرناهم » ..

مشيرا إلى أن المخابرات الإسرائيلية ، كانت قد بعثت بتحذيرات مسبقة إلى « إدريس » وأصدقائه فى حكومات أمريكا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ..

وأدى فقدان ليبيا كمكان لإعادة توطين الفلسطينيين إلى إنهاء البرنامج السرى لإرسالهم إلى الخارج وقد توقف نشاط البرنامج عقب حادث قتل فى « أسنسيون » ، عاصمة باراجوى ، فى عام ١٩٧٠ ، عندما اقتحم شاب عربى ظهر الرابع من مايو القنصلية الإسرائيلية هناك ، وطلب بغضب مقابلة السفير ، وحاولت إحدى العاملات بالسكرتارية تهدئة الرجل ،فأخرج مسدسه وقتلها ،

وهرب الرجل وشريكان له كانا ينتظرانه بالخارج من البلاد ولم يقبض عليهم على الاطلاق ..

وسارع المتحدث الرسمى الإسرائيلى إلى إعلان أن عملية القتل تمثل موجة جديدة من الهجمات الارهابية الفلسطينية إلا أنها فى الواقع كانت شيئا مختلفا تماما .. فقد كانت عملا من أعمال الانتقام ، قام به ثلاثة من الفلسطينيين الذين تمت أعادة توطنيهم فى باراجواى كجزء من البرنامج السرى للمخابرات ، بعد أن شعروا بالاستياء إزاء الصفقة المجحفة من قبل الإسرائيليين ..

وأعلن المحققون فى باراجواى أن القاتل يدعى « طلال بن دماصى » المولود بقطاع غزة ، والذى كان يعيش هو وزميلاه فى مخيم جباليا للاجئين فى غزة عندما وقعت المنطقة تحت الاحتلال الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧ .. وسرعان ماشعر الثلاثة بالضجر من الحياة هناك وقبلوا الدعوة لزيارة مكتب الحاكم العسكرى الإسرائيلى فى غزة الذى كان يقع بالقرب من متجر « طلال » للأجهزة الكهربائية فى شارع المختار بمدينة غزة ، وبدأ الثلاثة من هناك رحلتهم إلى المنفى الاختيارى ..

وكان رجال المخابرات الإسرائيلية يسعون سعيا حثيثا للعثور على العرب من أمثال « طلال » ، الذين يشعرون بالإحباط إزاء ما قسم لهم ، ليمكن ترشيحهم للترحيل .

وقد قبلت عدة مئات من أسر المخيمات العرض ، وحصلت على جوازات سفر جديدة ، وأموال ، وتذاكر ذهاب بلا عودة من وكالة سياحة إسرائيلية ، وتوجهت هذه الأسر إلى الديار الجديدة التى وعدت بها فى أمريكا الجنوبية وشمال إفريقيا ..

وصل « طلال » وصديقاه إلى « باراجوى » فى إبريل عام ١٩٧٠ متوقعين أن تحترم إسرائيل وعودها بمساعدتهم فى الحصول على وظائف .. إلا أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، كما واجهت التماساتهم إلى كل من السفارة والقنصلية الإسرائيليتين آذانا صماء .

وقرر الثلاثة القيام باحتجاج عنيف ، واعتزموا قتل السفير الإسرائيلى ، إلا أن

« طلال » أصيب بالذعر وقتل السكرتيرة بدلا من السفير .

وأمر مجلس الوزراء الإسرائيلى مؤسسة المخابرات بإنهاء برنامج إعادة توطين اللاجئين على وجه السرعة لتجنبُ أية مخاطرة بكشف النقاب عنه ..

وكان الوزراء يعرفون منذ البداية ان ارسال مليون أو أكثر من العرب إلى الخارج سيكون أمرا باهظ التكاليف إلا أنه كانت تحدوهم الرغبة فى إتاحة الفرصة أمام الفكرة ذاتها ، ثم جاءت عملية الاغتيال فى باراجواى لتفسد العملية وتعرض السرية التى تحيط بها للخطر ..

وبلغ مجموع الذين هاجروا من سكان الضفة الغربية وغزة خلال السنوات الثلاث الأولى بعد حرب ١٩٦٧ حوالى عشرين ألف شخص ، وتلقى مايربو على ألف شخص منهم مساعدات من البرنامج السرى لإعادة التوطين .

غير أن الغالبية العظمى من الفلسطينيين بقوا فى ديارهم وتعلموا العيش مع الاحتلال الإسرائيلى ، والقليل منهم بقوا وحاربوا .

وانتقل المناضلون الفلسطينيون بمعركتهم إلى مواقع أخرى ، فقد تلقت المخابرات الإسرائيلية فى عام ١٩٦٨ تقارير متفرقة من الأجهزة السرية الصديقة فى أوربا تشير إلى أن الفرق الفلسطينية ضاعفت جهودها لاجتذاب المتطوعين من الدوائر اليسارية الراديكالية فى أوربا ، وأن « جورج حبش » زعيم الجناح الماركسى اللينينى فى منظمة التحرير الفلسطينية ، المعروف باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، هو الذى يقوم بالقسم الأكبر من عملية التجنيد ..

وقام مبعوثون ، يعملون لحساب « عرفات » و « حبش » وآخرين ، بجولات فى ايطاليا وهولندا وفرنسا وألمانيا الغربية ، مستخدمين الأيديولوجية الرفاقية والحوافز المالية ، لدفع الشباب الأوربيين للحضور إلى الشرق الأوسط ومحاربة الاحتلال الصهيونى وحلفائه الامبرياليين ..

واستجاب العشرات من المتطوعين لنداء منظمة التحرير الفلسطينية ، وأتوا بهم إلى الأردن ولبنان حيث تلقوا تدريباتهم فى معسكرات الفدائيين ، واشتركوا فى بعض العمليات كإرهابيين ضد إسرائيل ..

وفى الوقت الذى كانت فيه المخابرات الإسرائيلية تحاول رسم تصور لمايجرى فى عقول الفلسطينيين خارج الشرق الأوسط ، فجر الراديكاليون من أتباع « حبش » مفاجأة لها بوضع شركة الطيران الوطنية الإسرائيلية « العال » كهدف لهم ..

وفى أول تقرير من نوعه ، أبلغ « هارميلين » رئيس الوزراء « أشكول » أن طائرة « بوينج ٧٠٧ » تابعة لشركة « العال » ، قد اختطفت ، وهى فى طريقها من روما إلى تل أبيب ، وهبطت فى الجزائر ..

وجرى الاختطاف فى ٢٣ يوليو ١٩٦٨ بواسطة ثلاثة من العرب ، فى نفس اليوم الذى كانت تشن فيه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حملة فدائية واسعة .

وعجزت « شين بيت » وبقية مؤسسة المخابرات ، على المدى القصير ، عن القيام بأسى شىء سوى مراقبة التطورات ..

وظل ركاب الطائرة وطاقمها محتجزين فى الجزائر لمدة ثلاثة أسابيع ، ولم يفرج المختطفون الفلسطينيون الأوائل عن الرهائن ، إلا بعد أن وافقت إسرائيل على الافراج عن ١٢ من الفدائيين الفلسطينيين الجرحى من السجون الإسرائيلية .

وكانت تلك هى أيضا آخر عملية اختطاف ناجحة للطائرات الإسرائيلية ، بعد أن توصل صانعو القرار الإسرائيلى بسرعة إلى نتائج استخلصوها من المهانة التى تعرضوا لها بخضوعهم للابتزاز .. وتعهدوا بألا يستسلموا مرة أخرى مطلقا لمطالب الفدائيين غير أن الإسرائيليين كانوا يعرفون أيضا أن بيان النوايا بالرفض والتحدى ليس كافيا فى مثل هذه الأمور ، وأنه بدلا من اطلاق الكلمات فحسب ، فإن هناك حاجة الى فن جديد هو فى مكافحة الارهاب ..

وبدا أن المسلحين وصانعى القنابل الفلسطينيين قد أخذوا زمام المبادرة فى أيديهم ، ففى ٢٦ ديسمبر ١٩٦٨ ، ألقى إثنان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قنابلهم وفتحوا نيران أسلحتهم على طائرة تابعة لشركة « العال » فى مطار أثينا ، وقتلوا راكبا إسرائيليا وجرحوا مضيفتين .

وحدث هجوم مماثل تقريبا فى مطار زيوريخ فى ١٨ فبراير التالى ، عندما قتل

أربعة رجال من الجبهة الشعبية قائد طائرة تابعة لشركة العال وجرحوا خمسة من الركاب .. وأصبحت الطائرات الأخرى المتجهة لإسرائيل هدفا للاختطاف والتفجير .

وبدا أن الكرة الأرضية بأسرها قد تحولت إلى قرية كونية للعمليات الفدائية وللارهاب ، ولم يعد هناك أى هدف خارج نطاق العمليات وبصفة خاصة إذا ما كان مرتبطا بإسرائيل أو باليهود ..

وقامت « شين بيت » بمتابعة نشاط منظمة التحرير الفلسطينية والمتطرفين من رجالها وهم يتحركون فى العالم الخارجى ..

فعلى الرغم من المنافسات الداخلية بين وكالات المخابرات المختلفة ، واحتكار الموساد تقريبا للعمليات الخارجية ، قبلت الوكالة الأخيرة على مضض أن يكون لوكالة « شين بيت » الحق الشرعى والمهنى فى توسيع نشاطها فى الخارج فى الملاحقة الساخنة للعمليات الفدائية ..

وترتيبا على ذلك ، تم الحاق ضباط وعملاء « شين بيت » بمراكز الموساد للجاسوسية ، التى تتخذ من السفارات الإسرائيلية مقرا لها ، على سبيل الإعارة ، أو يتم تعيين مثل هؤلاء الضباط والعملاء فى أوربا من جانب « شين بيت » بصورة مستقلة .

لعب عملاء إسرائيل مع الفلسطينيين لعبة القط والفأر السرية المميتة التى دارت بدون أية حدود . وتركزت مسئوليات « شين بيت » على تطوير الوسائل الدفاعية لمناهضة العمليات الاهاربية ..

ويذكر « هارميلين » « أنهم ، أى الإسرائيليين ، كانوا على حافة اليأس المطبق ، فالنضال ضد الارهاب ، وبخاصة الارهاب الجوى بدا كما لو كان مستحيلا » .

وتعين على وكالته ان تبنى نظاما فعالا من لاشيء ، لحماية الأهداف الإسرائيلية فى الخارج المتمثلة فى : السفارات والبنوك مكاتب السياحة ، وشركة الطيران الوطنية ، التى لم يتوقف الدفاع عنها على حماية أسطول الطائرات ، بل أيضا

التسهيلات الأرضية ، التى أصبحت من أهداف العمليات الارهابية .

وابتكرت إسرائيل نمطا جديدا من الأمن ، بوضع مرافق مسلح على كل رحلة طيران ، يجلس متخفيا فى المقاعد العادية ، كواحد من الركاب العاديين مرتديا ملابسه المدنية ..

فكان جميع هؤلاء المرافقون المسلحون من شباب الوحدات الخاصة الذين يجيدون سرعة استخدام السلاح كما كانوا من الناحية الرسمية يعملون كموظفين فى شركة الطيران ، إلا أن « شين بيت » هى التى قامت بتدريبهم وتحديد أهدافهم ، ومع انفاق مئات الملايين من الدولارات أصبحت « العال » أكثر شركات الطيران أمنا .

لم يعرف العالم بهذا الإجراء ، إلا بعد أن رد أحد المرافقين المسلحين النيران أثناء الهجوم الذى وقع فى زيوريخ فى فبراير ١٩٦٩ ، فقد شهر رجل « العال » المسلح « موردخاى راشاميم » مسدسه خلال الهجوم الذى شنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وقتل واحدا من الفلسطينيين على أرض مطار « كلوتين » .. وألقت السلطات السويسرية القبض على « راشاميم » ، وثلاثة من الفدائيين الجرحى ، وقضى الفتى الإسرائيلى بضعة شهور فى السجن قبل عودته إلى إسرائيل كبطل قومى .. ولأن شخصيته انكشفت بعد نشر صورة فى الجرائد العالمية وعلى شاشات التليفزيون قامت « شين بيت » بتعيينه كحارس شخصى لجولدا مائير ، التى أصبحت رئيسة للوزراء منذ مارس ١٩٦٩ بعد وفاة « أشكول » ، وهى وظيفة لا تتطلب إخفاء شخصية صاحبها ..

وتجدر الإشارة إلى أنه تم تعيين مدير جديد للموساد فى عام ١٩٦٨ ، مع إخفاء اسمه كالمعتاد ، وهو « زفى زامير » الذى لم يحتل مانشيتات الصحف ، من قبل أبدا ، بما قدمه من أعمال .. وكانت أكثر الجوانب إثارة للدهشة فيما حدث من تغيير للقيادة هو عدم احتفاظ « مائير آميت » بمنصبه بعد انتهاء فترة الخمس سنوات الأولى ، بالرغم من أنه طلب من « أشكول » مد خدمته لفترة ثانية ، غير أن رئيس الوزراء رفض الطلب ، بسبب احساسه جزئيا بالمرارة إزاء عملية بن بركة التى تصرف فيها « مائير » باستقلالية زائدة عن الحد .

وكان الجميع ، بما فيهم « أشكول » ، يعترفون ببراعة « آميت » ، ومن الجائز انه إجبر على التخلى عن منصبه بسبب كفاءته البالغة ..

حيث بدأ « أشكول » ، و « جولدامائير » ، وكبار القادة الآخرين فى حزب العمل ، يخشون من تزايد سلطاته وكما شعر « بن جوريون » فى النهاية بالارتياب إزاء السلطات التى تركزت فى أيدى « إيسر هاريل » ، فإن الزعماء الجدد للحزب كانوا لايرغبون فى وجود رئيس للمخابرات بمثل هذه القوة ..

وكان هناك سبب آخر وراء شكوك « أشكول » ، تمثل فى تآمر « آميت » مع صديقه القديم « موشى ديان » وزير الدفاع الذى أراد ، فى شهر مارس عام ١٩٦٨ ، القيام برحلة سرية إلى إيران لمقابلة الشاه .. ولجأ « ديان » إلى « آميت » لأن الموساد كانت مسئولة عن العلاقات مع إيران لترتيب الرحلة .. وعندما اكتشف « أشكول » الأمر ، شعر كما لو أن لطمة قد وجهت إليه ، وطلب تفسيرا من « آميت » ..

وسأل « أشكول » رئيس الموساد : « ما الذى يجرى هنا ؟ وكيف تجرؤ على فعل شيء كهذا ؟ .. إن الموساد وأنت شخصيا خاضعان لى أنا ، وليس لوزارة الدفاع أو لموشى ديان .. » ..

ولم يستطع « آميت » أن يقدم جوابا مقنعا ، ويبدو أن هذا التصادم الصغير حول مكانته فى السلم البيروقراطى قد أنهى مستقبله .. فعندما طلب « آميت » بعد ذلك لفترة قصيرة مد خدمته كرئيس للموساد فترة أخرى أوضح له « أشكول » بطريقة مهذبة أنه قرر أن يضع مكانه الميجور جنرال « زفى [زيفكا] زامير » ..

وشعر « آميت » والعديدون غيره بالدهشة لحصول « زامير » على المنصب .. وفى الحقيقة ، فإنه لم تكن له خبرة سابقة فى أعمال الجاسوسية ، مما أثار حتى دهشته هو نفسه .

فلماذا إذن تم اختياره لشغل واحد من أهم المناصب فى إسرائيل وأكثرها حساسية ؟ والإجابة لأن زعماء حركة العمل اعتبروا « زامير » واحدا منهم ..

ومثل العديد من شخصيات حزب العمل الهامة ، ولد فى بولندا عام ١٩٢٥ ، ووصل إلى فلسطين وعمره سبعة شهور مع إسرتها وكان لقب الأسرة « زارزيفسكى » .. وانضم إلى البالماخ وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وقاتل فى حرب ١٩٤٨ ، وواصل حياته فى الجيش الإسرائيلى إلى أن وصل ألى رتبة ميجور جنرال ، وأصبح مسئولا عن الجبهة الجنوبية ولتتويج حياته فى الجيش ، عين مستشارا عسكريا إسرائيليا فى لندن فى عام ١٩٦٦ ..

وهناك سبب آخر وراء قرار أشكول ، فقوة « زامير » يمكن أن تتمثل فى ضعفه ، فبعد عقدين من سيادة أساتذة الجاسوسية الأقوياء المفرطين فى الثقة بأنفسهم ، أراد « أشكول » تعيين شخصية مختلفة تماما ..

وكان « زامير » وافيا بالغرض فمنصبه فى لندن يعنى أنه تخلف عن الاشتراك فى حرب الأيام الستة وعن بريق المجد الذى شمل الجنرالات الإسرائيليين الآخرين فزامير يفتقر للجاذبية ، وكان واحدا من الوجوه التى لا لون لها فى الجيش الإسرائيلى .

ونجح « زامير » فى التعاون مع « هارميلين » فى القتال ضد العمليات الفدائية الفلسطينية ، ودفعت جهودهما المشتركة بوكالة الأمن ، التى تبدو فى الظاهر أنها داخلية ، إلى خوض المعارك الخارجية أكثر من ذى قبل ..

وعندما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية فى الهجوم على السفارات والدبلوماسيين الإسرائيليين فى أوربا وآسيا كانت « شين بيت » مستعدة للرد عليها ، وتحولت السفارات والمكاتب القنصلية إلى قلاع ، وأصبحت أبواب الصلب السميكة تحمى مداخلها ، ووضعت كاميرات تليفزيونية لفحص كافة الزوار ، وأحيطت مسطحات المبانى بأجهزة الإنذار الالكترونية وعهد إلى حراس من « شين بيت » بمراقبة المبانى وحماية أطقمها . وبذلت ادارة « الأمن الوقائى » فى « شين بيت » كل مافى وسعها للدفاع عن المكاتب الإسرائيلية فى الخارج ، إلا أن رؤساء الأجهزة السرية كانوا يعرفون أنهم فى حاجة إلى اجراءات أقوى لردع الارهاب .

ولتحقيق ماهو أبعد من الدفاع السلبى ، انطلقت المخابرات الإسرائيلية بأقصى سرعة لديها إلى الدفاع الإيجابى وهو مايعنى على وجه الدقة القيام بعمليات هجومية .

وجاء الغزو الأول لردع الارهاب عام ١٩٦٨ عقب الهجوم على مطار أثينا فى ٢٦ ديسمبر .. حيث صرخ الإسرائيليون مطالبين بالتخفيف من الشعور الذى يصيبهم بالاحباط بوصفهم ضحايا وانتابهم شعور بالخوف بأن المدافعين عنهم لايملكون الوسائل الكافية للرد على تصدير العمليات الفدائية الفلسطينية من الشرق الأوسط إلى أوربا ..

ومع سيادة هذه المشاعر السوداء فى البلاد ، دعا « أشكول » رئيس الوزراء لعقد اجتماع خاص فى مكتبه مع قادة المخابرات والقادة العسكريين وقال لهم :

« أننا لا نستطيع أن نتجاهل هذا » .. وقرروا ارسال الجيش فى مهمة انتقامية إلى بيروت التى خرج منها المهاجمون إلى أثينا ..

هبط رجال القوات الخاصة الإسرائيلية بطائرتهم الهليكوبتر فى المطار الدولى الذى يقع جنوب العاصمة اللبنانية مباشرة فى الثامن والعشرين من ديسمبر ، التاسعة والربع مساء وقاموا دون أية مواجهة مع القوات اللبنانية بنسف ١٣ طائرة ركاب مدنية بدون ركاب تابعة لشركة الشرق الأوسط اللبنانية ولشركات عربية أخرى ..

وأصيب العالم بالصدمة للجرأة التى اتسمت بها العملية ، وأدانوا إسرائيل لتورطها فيما يسمى بإرهاب الدولة ، واتضح كما حدث فى الأيام السابقة عندما القيام بعملية « لافون » واغتيال « بن بركة » ، أن رئيس الوزراء لم يكن على علم بكافة الأشياء ، فقد خدعه وزير الدفاع « موشى ديان » ، وذكر له أن أربع طائرات فقط سيتم نسفها فى العملية .

وشعر العالم ــ بغض النظر عن الإدانة ــ بالاعجاب لبراعة القوة العسكرية الإسرائيلية الفائقة ، ومثلت غارة « بيروت » إشارة واضحة على قدرة إسرائيل على ضرب العالم العربى فى القلب بدقة فائقة .. ونسب الفضل فى العملية

الناجحة ، التى قادها البريجادير جنرال « رافاييل [رافول] إيتان » من المظلات ، إلى القوات الخاصة الإسرائيلية ..

وكل وحدة من هذه القوات الخاصة تعرف باسم « سايريت » وهى كلمة مشتقة من العبرية تعنى الاستطلاع ، إلا أن الجنود فى « سايريت » كانوا خبراء فى مسائل تتخطى مجرد التطلع لما حولهم .. فقد تلقوا تدريبات مكثفة على حرب العصابات والقتال الليلى ، والهبوط بالمظلات ، واستخدام مختلف أنواع الأسلحة ، من بين أشياء أخرى .

ويضم كل سلاح تقريبا فى جيش الدفاع الإسرائيلى « سايريت » خاصا به ، وهكذا فإن سلاح المظلات ، المشاة ، البحرية وفرق الدبابات لديها « سايريت » أو وحدات خاصة تابعة لها وخاصة بها ..

وفوق كل ذلك هناك « سايريت » أخر ــ وهم صفوة الصفوة ــ المعروفين باسم « سايريت ماتكال » ، وماتكال كلمة عبرية مكونة من الحروف الأولى لكلمة « الأركان العامة » للجيش .

وهذا السايريت يقع رسميا تحت القيادة المباشرة لرئيس الأركان وهو أكبر ضابط عسكرى إسرائيلى ..

وفى الواقع ، فإن « سايريت ماتكال » تقوم بمهامها الخطرة والمعقدة بناء على أوامر رئيس الأركان العامة ، وقائد أمان » .

وكانت وحدة الكوماندوز العليا تلك قد أنشأت فى عام ١٩٦٠ لتمكين المخابرات العسكرية من تنفيذ مخططاتها ، وبصفة خاصة خلف خطوط العربى ــ الأمر الذى يعنى فى وقت السلم عبور الحدود إلى داخل البلدان العربية . العربية .

ويعتبر وجود « سايريت ماتكال » من الأسرار الرسمية التى مازال الرقيب العسكرى الاسرائيلى يحظر نشر كافة التقارير عن نشاطها .

وفى الستينيات ، فقد علم عدد قليل من كبار الضباط بحقيقة الوحدة الخاصة التى كان يشار اليها وفقا لموقعها العسكرى بوصفها الوحدة « ٢٦٩ » .

وقد أنشأها ضابط كبير فى « أمان » هو الجنرال « أفراهام آرنان » الذى اختار أكثر الجنود شجاعة وذكاء فى الجيش الاسرائيلى ودربهم على فنون القتال المنعزل ــ حيث يوجد المقاتل وحيدا على مسافات بعيدة .. وكان على الكوماندوز من « سايريت » الذين يطرقون مسالك مختلفة فى ظلام دامس أن يتعلموا الحياة عن طريق الاعتماد على أنفسهم لفترات طويلة ، وأن يشقوا طريقهم لعدة أميال ، قبل شن الهجوم العسكرى .

وقد جرى تنفيذ مهامهم عادة بمجموعات صغيرة من ثلاثة أو أربعة رجال ، يعبرون فى صمت الحدود لإقامة مركز للمراقبة أو للتصنت على شبكة تليفونات بلد عربى ، أو اغتيال أو اختطاف هدف محدد : شخص ما او شيء ما .

وخلال حرب الاستنزاف فى ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ التى لقى خلالها المئات من الجنود الإسرائيليين وآلاف المصريين حتفهم فى القصف المدفعى المتبادل ، حقق الكوماندوز الإسرائيليون ضربة مذهلة بالهجوم على محطة رادار سوفيتية الصنع على الجانب المصرى فى خليج السويس ، وكان تفجير محطة الرادار المتقدمة فنيا ، والتى تسلمتها مصر حديثا مسألة على درجة واضحة من الصعوبة ، إلا أن هذا يعتبر أمرا هينا بالمقارنة بما فعله الإسرائيليون :

ففى ليلة ٢٦ ديسمبر ١٩٦٩ ، استخدموا طائرتين هليكوبتر لرفع محطة الرادار بكاملها التى تزن سبعة أطنان بهوائياتها ، ومراكز تشغيلها عاليا فى الجو ، وقاموا بنقلها إلى الجانب الآخر الذى استولت عليه اسرائيل .

ومن سيناء تم نقل الرادار بسرعة إلى قاعدة إسرائيلية بالغة السرية ، حيث قضى المحللون فى « أمان » يوما مشهودا مع أفضل « صيد » لهم منذ هروب الطيار العراقى بطائراته « ميج ــ ٢١ » فى عام ١٩٦٦ ، وقد تقاسموا صيدهم مع المخابرات المركزية الأمريكية ، وضباط المخابرات فى سلاح الجو الأمريكى ، وكانت هذه أفضل بداية للتعاون العسكرى بين الدولتين ، وهو التعاون الذى وصل إلى قمته عقب حرب عام ١٩٧٣ ..

وكانت « سايريت ماتكال » هى أول وحدة كوماندوز تستخدم الهليكوبتر بطريقة روتينية فى مهامها عبر الحدود .

وبالرغم من التقدم التكنولوجى بما فى ذلك مناظير الرؤية الليلية ، وأجهزة الاستقبال والارسال خفيفة الوزن فإن أهم ممتلكات الكوماندو هى خريطته وساقاه ، ومن سخرية الأقدار ، أن الجيش الإسرائيلى لم يتمكن أبدا من استخدام وحدات « سايريت » بطريقة بارعة خلال زمن الحرب ..

لقد حاربو ببراعة فى حرب الأيام الستة ، وبعد ذلك فى حرب ١٩٧٣ ، إلا أن منجزاتهم البارزة تحققت فى فترة مابين الحروب الكبرى فى الشرق الأوسط ..

وبالرغم من الحظر المفروض على نشر أى شيء فى الداخل فإن الصحفيين الأجانب سمعوا عن بعض منجزات الكوماندوز وكتبوا عن « الوحدة الخاصة » وعن « واحدة من الوحدات المنتقاة فى الجيش الإسرائيلى » ..

وتأتى السرية من حقيقة أن « سايريت ماتكال » مرتبطة بكافة الأجهزة السرية الإسرائيلية ، وليس بجناحها العسكرى فقط « أمان » .. وكانت الوحدة تعمل بناء على أوامر رئيس الأركان كمقاول من الباطن للموساد ولوكالة « شين بيت » أيضا .. فكانت نموذجا للتعاون الفريد ، الذى لم ينقطع إلا نادرا ، بين الجيش وبين وكالات المخابرات ..

كان قدامى العاملين فى « سايريت » ، بعد قضاء ثلاث سنوات من العمل الشاق والنشاط الفعال ، هم أفضل المرشحين للعمل فى « شين بيت » أو الموساد ، منهم النوع المطلوب بالضبط من المجندين الذين تطلبهم أية جهة كانت — ربما تكون الموساد — فى إعلان مجهول بعامود « الوظائف » فى صحيفة إسرائيلية يقول « مطلوب شبان من الأعضاء السابقين فى الوحدات القتالية لشغل وظيفة هامة فى الخارج وستعطى الأولوية لمن يحملون جواز سفر أجنبى ، والذين يعرفون لغة أجنبية » ..

وشكلت وحدات « سايريت » ، التى تقوم بضم المتطوعين من الجنود المجندين حديثا ، قوة جذب للفتية الإسرائيليين الذين يتم تجنيد غالبيتهم فى سن الثامنة عشرة .. ولم يكن لدى إسرائيل تقاليد عسكرية ، مثل تلك الموجودة فى البلدان الأوربية ، التى يعمل فيها أجيال من الأسرة الواحدة بفخر فى وحدات معينة أو يدرسون فى أكاديميات عسكرية مثل أكاديمية « وست بوينت » .

فى أمريكا ، و « ساند هيرست » فى بريطانيا ، إلا أن إسرائيل كانت لديها تقاليد قائمة على الصلات الشخصية والأسرية ، وهى الصلات التى استهدفت عادة تحقيق غايات إيجابية .. فأبناء الشخصيات المشهورة أو الساسة يتم عادة ضمهم إلى وحدات « سايريت » بعد تأهيلهم وأحد الأمثلة على ذلك هو الكولونيل « عوزى ديان » ، الذى شارك فى الغارة على مطار بيروت ، وتمكن « عوزى » وهو ابن شقيق الجنرال « موشى ديان » من الانضمام إلى مجموعة مختارة بعناية من « سايريت » بالرغم من إصابته بجراح خطيرة قبل انضمامه إلى الجيش ..

وتحولت الحرب ضد العمليات الفدائية إلى صورة أكثر بشاعة فى عام ١٩٧٢ ، بعد أن اختطف أربعة من الفلسطينيين طائرة ركاب بلجيكية تابعة لشركة « سابينا » فى الثامن من مايو كانت فى طريقها من بروكسل إلى تل أبيب ، واستولى المختطفون عليها فى موعد هبوطها بمطار اللد ، واحتجزوا حوالى مائة من الركاب وطاقم الطائرة تحت تهديد السلاح داخل الطائرة البوينج ٧٠٧ .. وطالبوا إسرائيل بالافراج عن ٣١٧ من الفدائيين المسجونين ، وأجرى الجنرال « أهارون ياريف » رئيس « أمان » مفاوضات مع الرجلين والسيدتين الذين استولوا على الطائرة ، واستخدم براعته فى الحديث فى الوقت الذى كانت القوات الاسرائيلية تعد العدة لرد الفعل الحقيقى ..

وبناء على أوامر الوزراء ، بدأت وحدة خاصة من « سايريت » مدربة على اقتحام الطائرات ، وانقاذ الرهائن عملها فى الرابعة والدقيقة الثانية والعشرين من صباح التاسع من مايو ..

واقتحم الكوماندوز ، الذين كانوا يرتدون الأوفرولات البيضاء ، كما لو كانوا من رجال الصيانة ، الطائرة من كافة المداخل المتاحة ، وقتلوا الفدائيين ببراعة فائقة فى التصويب ، وجرحوا السيدتين ، وأفرجوا عن ٩٧ من الرهائن ، بينما توفى راكب إسرائيلى خلال تبادل إطلاق النيران ..

وحلت النظرية لتبرز بسرعة بعد التطبيق ، ففى الوقت الذى كانت تطور فيه

إسرائيل النظرية الجديدة للحرب ضد العمليات الفدائية ، هرع بقية العالم للتعلم من الخبرة الإسرائيلية ، وأرسلت ألمانيا الغربية وبريطانيا ودول أخرى عملاء الأمن والكوماندوز العسكريين إلى إسرائيل لتلقى تدريباتهم كأصدقاء أجانب على أيدى خبراء جيش الدفاع الإسرائيلى ..

وعقب ذلك ، أقامت العديد من الدول وحدات كوماندوز خاصة بهما على غرار النموذج الإسرائيلى ، وتشكلت وحدات إنقاذ الرهائن البريطانية الخاصة من قوات الدفاع الجوى الخاصة ، فى الوقت الذى شكلت ألمانيا الغربية قوة خاصة بها أطلقت عليها اسم « جى . إس . جى — ٩ » أو (G S G 9)

وفى ٣٠ مايو قتل ثلاثة مسلحين من رجال الجيش الأحمر اليابانى ٢٧ راكبا ، اغلبيتهم من الحجاج المسيحيين من بورتريكو ، كانوا قد وصلوا لتوهم إلى مطار اللد ..

وبعد فترة وجيزة من الارتباك ، رد حراس الأمن على الهجوم وقتلوا إثنين من الإرهابيين ، وألقوا القبض على « كوزو أوكاماتو » الذى اعترف اثناء المحاكمة بأنه وزميليه ارتكبوا عملهم — كنوع من التضامن — لصالح الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وأن المذبحة جاءت انتقاما من الفشل الذى أحاق بعملية الطائرة التابعة لسابينا قبل ثلاثة اسابيع فى مكان لايبعد إلا بمئات قليلة من الأمتار عن المذبحة التى قام بها الارهابيون اليابانيون على أرض المطار ..

وبعض مضى خمسة أسابيع ، حل الدور على الإسرائيليين للانتقام ، حيث قتلت رسالة ملغومة ، وصلت إلى بيروت ، الشاعر والكاتب « غسان كنفانى » المتحدث باسم الجبهة الشعبية والمتهم من قبل الإسرائيليين بالتخطيط لمذبحة اللد ..

وبعد يومين إثنين ، انفجرت رسالة أخرى بين يدى مسئول آخر فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هو « بسام أبو شريف » الذى فقد عينا وعددا من أصابعه .

وكانت هذه الرسائل على غرار الطرود الملغومة التى قتلت الضباط المصريين فى الخمسينيات ، والرسائل الملغومة التى أرسلت للعلماء الألمان فى مصر فى بداية الستينيات .

ووصلت الدائرة المفرغة من العنف والانتقام إلى ذروتها فى دورة الالعاب الاوليمبية ، التى جرت فى ميوينخ ، فى الخامس من سبتمبر عام ١٩٧٢ ، عندما قام سبعة من الفدائيين العرب باحتجاز أحد عشر من الرياضيين الإسرائيليين فى القرية الأوليمبية تحت زعم انهم تابعون لمنظمة « إيلول الأسود » الوهمية ، نسبة إلى الشهر الذى سحق فيه الملك « حسين » الفلسطينيين فى عام ١٩٧٠ ..

وكان الهدف الرئيسى لمنظمة « أيلول الأسود » ، وهى فرع سرى لمنظمة التحرير الفلسطينية رغم تظاهرها بأنها مجموعة متفصلة ، هو الانتقام من الملك « حسين » .

وهكذا تعرضت الأهداف الأردنية لعدد من الهجمات ، إلا أن « أيلول الأسود » أدارت مدافعها بسرعة ضد إسرائيل أيضا ..

وكما حدث فى حوادث الاحتجاز الأخرى ، طلبت المجموعة الفدائية ، فى اوليمبياد ميوينخ ، من إسرائيل الافراج عن ٢٥٠ شخصا من زملائهم فى السجون ، ورفضت الحكومة الإسرائيلية التزاما منها بسياسات الثابتة ، الاستسلام وامتنعت عن الافراج عن الفدائيين ..

وفى الوقت الذى كانت وسائل الاعلام الدولية تذيع عملية الاحتجاز إلى الناس فى منازلهم حول العالم ، والمطالب الفلسطينية أيضا ، مثيرة بذلك موجة من التعاطف مع الضحايا اليهود الذين يعانون على أرض ألمانية ، ألقت « جولدا مائير) رئيسة الوزراء مسئولية مايحدث فى ميونيخ على « زفى زامير » رئيس الموساد ، الذى يحظى بثقتها ، والذى طار على الفور الى ميونيخ ، وأجرى مشاورات عاجلة مع المسئولين عن الأمن فى ألمانيا .

وبناء على أوامر رئيسة الوزراء المباشرة ، ومسلحا بخبرته فى إنقاذ الركاب على متن الطائرة المختطفة البلجيكية قبل أربعة شهور فقط ، ناشد « زامير » الألمان الغربيين السماح لمجموعة من « سايريت » مدربه تدريبا خاصا على التعامل مع حادث الاحتجاز ، وكان من المحتمل أن يوافق المستشار « فيلى برانت » إلا أن الدستور الألمانى الاتحاد كان يضع اتخاذ القرار فى أيدى المسئولين المحليين عن الولاية ، الذين رفضوا السماح بذلك ..

وترتيبا على ذلك ، بقى « زامير » فى برج المراقبة بمطار ميونيخ العسكرى ، يشاهد وهو بلا حول ولا قوة الرماة الألمان غير المدربين وسيىء التجهيز ، وهم يفتحون النيران ويفشلون فى قتل كافة الفدائيين خلال الوابل الأول من الطلقات ، فقد ظل ثلاثة منهم أحياء ، وأطلقوا نيران مدافعهم وألقوا قنابلهم اليدوية لتقتل الرهائن المكبلين ، وهم جالسون فى طائرات هليكوبتر على ممر المطار .

وترددت موجات من الصدمة فى أنحاء العالم ، الذى رأى فى المذبحة مأساة انسانية تنذر أيضا بأن العمليات الفدائية بدأت تخرج عن السيطرة .

وفى إسرائيل قررت لجنة للتحقيق فصل رئيس قسم الأمن الوقائى فى « شين بيت » ، الذى كان مسئولا عن حراسة الرياضيين فى الأوليمبياد ، ورفض « هارميلين » بشدة إلقاء اللوم على رئيس القسم ، وهدد لأول مرة خلال عمله بتقديم استقالته ، إلا أن مائير ، أصرت على أن الفصل يعتبر ثمنا بيروقراطيا بخسا يتعين عليه أن يدفعه ، وقام « هارميلين » بفصل مرؤوسه وهو مستاء .. وبعد خمسة أيام من مذبحة ميونيخ ، وفى الوقت الذى كانت التحقيقات مستمرة ، تلقى « زادوك أوفير » مكالمة تليفونية عاجلة فى مكتبة بالسفارة الإسرائيلية فى بروكسل .

وهرع مسرعا إلى مقهى « كافيه برنس » حيث أطلق عليه عضو عربى فى منظمة « إيلول الأسود » ، يحمل جواز سفر مغربيا ، النار من مسافة قريبة للغاية ، واتضح بعد ذلك أن « أوفير » كان ضابطا فى « شين بيت » يعمل تحت غطاء أنه السكرتير الأول بالسفارة ، وقد أصيب فى بطنه إلا أنه نجا من الحادث وتبين أيضا أن إسرائيل تعرف الجانى ، وهو عميل مزدوج كان « أوفير » الضابط المسئول عنه فى السفارة التى كانت مركزا لنشاط الجاسوسية الاسرائيلية فى أوربا ، وهو الدور الذى أنيط بها بعد أن طرد « ديجول » الموساد من باريس أثر اغتيال « بن بركة » .. أثار اطلاق النار فى بروكسل أضواء تحذير هائلة فى قيادة الموساد و « شين بيت » ، فلأول مرة يتعرض ضباط مخابرات إسرائيلى لاطلاق النار عليه أثناء قيامه بعمله ، إلا ان مذبحه ميونيخ كانت تغطى على كافة الأحداث والاعتبارات الأخرى ، إلى درجة أن « زامير » بعد عودته من ميونيخ لم يقدر

أهمية الهجوم على أوفير . ولدى عودته من ألمانيا ، هرع « زامير » من مطار اللد إلى القدس ، حيث أبلغ رئيسة الوزراء بالكارثة التى كان شاهدا عليها ، وبدت الدموع فى عينى « مائير » المعروفة بتصلبها السياسى إلا أنها كانت أمرأة حساسة تعتبر نموذجا للأم اليهودية ، والتى شعرت بالتمزق بين المنطق الهادىء وبين الرغبة فى الانتقام لحياة أبنائها القتلى ، ولم يمض وقت طويل حتى اندمجت الرغبتين فى قرار هادىء ، محسوب ، يقضى بقتل من قاموا بعملية القتل .

وأنشأت « مائير » منصبا جديدا هو « مستشار رئيس الوزراء لشئون مكافحة الارهاب » ، واختارت الجنرال « أهارون ياريف » للمنصب ، الذى كان قد تقاعد لتوه عقب قضاء ثمانى سنوات كمدير لوكالة المخابرات العسكرية « أمان » ، بعد أن أكد مكانته التاريخية خلال حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ ..

وأصبح الارهاب يشكل هاجسا لمائير ، ياريف ، وزامير الذين دفعوا مجلس الوزراء لتشكيل لجنة سرية للغاية برئاسة « مائير » و « ديان » ، لتقرير كيفية الرد على ميونيخ وهى اللجنة التى عرفت فقط باسم « اللجنة إكس » ، حتى لايعرف عن أهدافها أحد ، حتى الأعضاء الآخرين بالحكومة وكبار العاملين .. واتخذت « اللجنة إكس » القرار التاريخى والسرى للغاية باغتيال أى عضو من « إيلول الأسود » ، اشترك بشكل مباشر أو غير مباشر ، فى تخطيط أو تنفيذ أو المساعدة فى الهجوم الذى وقع خلال دورة الألعاب الأوليمبية ..

لم تتعلق بالمهمة بالقبض على أى فرد كان ، بل بالانتقام الصريح لترويع الفدائيين ، وعهدت « مائير » بالمهمة للموساد ..

واستدعى « زامير » « مايك هيرارى » ، وهو أحد كبار العملاء فى قسم العمليات ، وعهد إليه بمسئولية فرق الاغتيال ..

انتقى « هيرارى » مجموعة من المنفذين ، رجالا ونساء ، وأقام مركزا لقيادته الأوربية فى باريس ، وانتحل شخصيات مزيفة عديدة من جينها جواز سفر كرجل أعمال فرنسى يدعى « ادوارد ستانيسلاس لاسكية » ..

وأصبح « هيرارى » ومساعده « أفراهام جيهمر » ، الذى عمل فى البداية

كسكرتير أول للسفارة الإسرائيلية فى باريس ، مسئولين عن التخطيط للعملية .

وجمع الإسرائيليون فى البداية قائمة بأسماء العرب الذين اشتركوا فى عملية ميونيخ ، وبدأ فريق الاغتيال بعد ذلك فى تتبع الرجال « المطلوبين » على قائمتهم ، الذين بقى معظمهم فى أوربا يعملون فى مهن علنية مختلفة ونشاطات فدائية سرية ..

وعندما شعر « هيرارى » وفرقته أنهم على استعداد للهجوم اتصلوا بزامير فى تل أبيب ، الذى عاد بدوره إلى « اللجنة إكس » للحصول على الإذن بالبدء فى العمل ، فقد كان على رئيسة الوزراء « مائير » ولجنتها السرية الموافقة على قتل أى فرد ..

وكان أول الموتى ، فى أكتوبر ١٩٧٢ ، هو « عادل وائل زعيتر » وهو مثقف فلسطينى يعيش فى روما ، ويعمل مع « أيلول الأسود » وفى غضون شهرين ، قتل « هيرارى » وفرقته من الرجال والنساء ١٢ فلسطينيا من الذين لهم صلات بالعمل الفدائى ضد المدنيين .. وقد قتلوا بمسدسات كاتمة للصوت ، أو أطلقت عليهم النيران من سيارات أو درجات بخارية فى باريس وروما ، أو بواسطة قنابل تنفجر عن بعد عن طريق نغمة عالية تنقل عبر التليفون أو الراديو فى نيقوسيا وباريس .

وحاولت « أيلول الأسود » ، بعد أن شاهدت البارزين من رجالها وهم يقتلون ، أن ترد على الحملة ..

وفى ١٣ نوفمبر ١٩٧٢ ، قتل الصحفى السورى « خضر كانو » فى باريس بالرصاص بوصفه عميلا للإسرائيليين ، وفى ٢٦ يناير ١٩٧٣ ، قتل رجل الأعمال الإسرائيلى « هانان إشعيا » بالرصاص أثناء وقوفه أمام مدخل منزله فى شارع « جران فيا » وهو الشارع الرئيسى فى مدريد ، وبعد موته تكشف ان اسمه الحقيقى هو « باروخ كوهين » وأنه وصل إلى مدريد قادما من بروكسل فى مهمة للمخابرات الإسرائيلية ..

وكان « كوهين » شخصا تافها من أسرة معروفة فى « حيفا » ، يرتبط معظم أفرادها بالأحزاب السياسية اليمينية ..

فأحد أشقائه ، وهو « مائير كوهين » ، كان نائبا لرئيس البرلمان الإسرائيلي بوصفه عضوا فى حزب « ليكود » الذى يرأسه « مناجم بيجين » .

وقد أتخذ « باروخ » وحده مسارا مختلفا ، حيث عاش فى أحد الكيبوتزات ، وارتبط بالاشتراكية وانضم إلى « شين بيت » ، وعمل حتى حرب ١٩٦٧ فى قسم الشئون العربية ، الذى يرأسه « أحيتوف » ، كعميل ميدانى فى منطقة الجليل الأعلى ..

وعقب الحرب ، عمل فى الضفة الغربية بسبب معرفته باللغة العربية ، وبالرغم من أنه كان مجرد « رقيب » فى قوات الاحتياط ، إلا أنه تمت ترقيته بسرعة إلى رتبة « نقيب » ليتولى منصب الحاكم العسكرى لأكبر مدن الأراضى المحتلة ، وهى مدينة « نابلس » ، حيث كان يركز عمله بالطبيعة على قمع العمل الفدائى .

وكان قد أوشك بمجرد استلامه عمله الجديد ، فى يوليو ١٩٦٧ ، على إلقاء القبض على « ياسر عرفات » الذى تنكر فى زى النساء بما فى ذلك النقاب التقليدى الداكن ، ليتمكن من الهرب من « كوهين » ورجاله ..

وفى عام ١٩٧٢ ، شارك « كوهين » فى الكشف عن حلقة من الجواسيس « اليهود ــ العرب » تعمل بناء على أوامر من المخابرات السورية ، ثم أرسل بعد ذلك إلى أوربا لتشغيل شبكة من المخبرين الفلسطينيين الشبان . وكان أحدهم عميلا مزدوجا ، إلا أنه كان من الواضح أن ولاءه المطلق كان لمنظمة « أيلول الأسود » ، لأنه أطلق النار على الضابط الإسرائيلي المسئول عنه [كوهين] .

وقد نجا « كوهين » و « أوفير » من هجمات مماثلة قبل أربعة شهور ، إلا أن « كوهين » أصبح أول ضابط مخابرات إسرائيلي يعمل فى أوربا ، ويقتل على يد فلسطينى .

وذكر عدد من أفراد أسرة « كوهين » بعد ذلك أنه كان من الممكن الحيلولة دون وفاته ..

ففى انتهاك لكافة احتياطيات الأمن ، نشرت صورة « كوهين » فى ألبوم رسمى

للجيش احتفالا بنصر ١٩٦٧ ، وأظهرت الصورة « كوهين » فى زيه العسكرى مع صديقه الحميم « زادوك أوفير » ، الذى كان يرتدى أيضا الزى العسكرى .. ومن المعروف أن المخابرات العربية تجمع مثل هذه القصاصات .

ومن الأمور الحاسمة للعملاء الإسرائيليين ألا يظهروا وجوههم أبدا .. فعملاء العرب يمكنهم أن يستنتجوا من واقع مايحصلون عليه حقيقة أمرهم .. فحتى لو كان « كوهين » قد أخفى شخصيته كإسرائيلى ، أثناء إدارته للشبكة الفلسطينية ، فإن هذه الصورة كان من شأنها أن تفضح شخصيته ..

وكانت الصحف العربية قد نشرت قبل وفاته بشهور قليلة أن « أيلول الأسود » حكمت على عميل إسرائيلى بالاعدام .. وهو النبأ الذى كان ينبغى أن ينبه « شين بيت » إلى أن « باروخ كوهين » قد افتضح أمره ، وأنه لايجب المخاطرة بحياته بإرساله إلى مدريد ..

ومن الأمور المزعجة أيضا ، أنه فى الوقت الذى كان عملاء إسرائيل يقومون « بتغطية » « كوهين » بمتابعتهم لتحركاته ، فإنهم لم ينطلقوا للعمل عندما أطلقت عليه النيران خوفا من انكشاف أمرهم هم أنفسهم .

ولم تشعر أسرة « كوهين » ، التى كانت تعتقد أنه راح ضحية لتقصير رؤسائه ، بالسعادة للايماءات بأن الموساد كانت تعد العدة للانتقام لموته .

وكشفت أرملته « نوريت » أن الضباط العاملين فى المخابرات كانوا يترددون عليها من حين لآخر ويسألونها : هل قرأت فى الصحف أن هذا الشخص أو ذاك قد قتل ، وأن هذا أو ذلك قد تم نسفه ؟ » .

وتقول « نوريت » : « ماذا كان فى وسعى أن أقول ؟ هل هذا يواسينى ؟ » .

وقد انتشرت أنباء بأن ثلاثة من « أيلول الأسود » ، الذين شاركوا فى قتل « كوهين » ، قد تمت تصفيتهم ..

كان ينبغى أن يكون موت « كوهين » بمثابة تحذير لإسرائيل ، فقد كان يتعين على مؤسسة المخابرات أن تربط بين اغتيال « كوهين » ومحاولة قتل « أوفير » ، ومصرع « كانو » العميل السورى المزدوج .

ومن المفروض أن الموساد ، كان ينبغى أن تستنتج أن الخصم الفلسطينى يبدى درجة عالية من مهارة المحترفين فى اختراق قلب عمليات المخابرات الإسرائيلية فى الخارج .

وبدلا من ذلك ، اتسمت تصرفات المخابرات الإسرائيلية بالشعور الاحباط ، وتبنت الانتقام كعقيدة لها . وتم قتل أعضاء من « أيلول الأسود » ، الواحد تلو الآخر فى أوربا ..

وبعد سبعة شهور من المذبحة الاوليمبية ، نقل القتلة الإسرائيليون فريقهم الانتقامى إلى داخل العالم العربى ، وحددت أهدافها لإغتيال إثنين من قادة « أيلول الأسود » هما « محمد النجار » و « كمال عدوان » بالإضافة إلى « كمال ناصر » المتحدث باسم منظمة التحرير الفلسطينية ، وفى ليلة العاشر من إبريل عام ١٩٧٣ ، قتل الثلاثة بالرصاص ، كل فى مسكنه بقلب مدينة بيروت على يد مسلحين من القوات الخاصة الإسرائيلية تحت قيادة رجال الموساد .. وذلك فى عملية إنزال ليلى عسكرية لمجموعة من أفضل أعضاء الكوماندوز من وحدة « سايريت » على شاطىء لبنان ، فى نموذج فريد للتخطيط العسكرى ..

كان الاعداد للعملية الذى نظمته المخابرات الإسرائيلية أكثر إثارة ، فقد كانت عناوين مساكن القادة الثلاثة مع الكوماندوز الذين تمكنوا من النزول فى مواقع قريبة من منازلهم ، فى حين كانت سيارات المرسيدس المؤجرة تنتظر على الشاطىء الجنود الذين يرتدون الملابس المدنية ..

وتكشف العملية عن درجة عالية من التعاون بين عملاء « أمان » وعملاء « الموساد » فى عاصمة عربية لاتوجد بها سفارة إسرائيلية ، يمكن أن تقدم الغطاء الدبلوماسى للجواسيس ، ولا يمكن لأى إسرائيلى زيارتها بسبب حالة الحرب المعلنة رسميا ..

وقد مثلت هذه العملية ثانى هجوم على بيروت خلال أربعة أعوام ونصف العام ..

وقد أطلق عليها اسم « أفيف نيوريم » أو « ربيع الشباب » .. ومن بين الرجال

الذين شاركوا فى العملية ، إثنان من الضباط الشباب اللذان ترأسا وكالة المخابرات العسكرية « أمان » بعد ذلك ، وهما « إيهود باراك » و « أمنون ليبكين ــ شاحاك » ..

ولم يستمر دفء الاحساس بالزهو بالعملية إلا ثلاثة شهور بالكاد ، وانطفأ فى مكان يسمى « ليلهامر » ..

ففى بداية شهر يوليو ١٩٧٣ ، تجمعت غالبية وحدة « مايك هرارى » للقتل ، بتفويض من « مائير » رئيسة الوزراء ، واللجنة « إكس » فى بلدة « ليلهامر » الصغيرة فى شمال النرويج ، وقد وفد الأفراد من مختلف أنحاء أوربا للانتقام من « الأمير الأحمر » وهو الاسم الشفرى الذى أطلقته الموساد على « على حسن سلامة » ضابط عمليات « أيلول الأسود » فى أوربا الغربية ، الذى خطط للهجوم على الرياضيين الإسرائيليين فى « ميونيخ » ، وأيضا خطط لاغتيال « باروخ كوهين » ، وكانت أهميته تتجاوز مجرد كونه أحد أعضاء « أيلول الأسود » .. فقد كان « على حسن سلامة ، وهو ابن لأحد كبار قادة المليشيات الفلسطينية الذى قتل خلال الحرب ضد إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، فى حقيقة أمره قائد « الفرقة ١٧ » وهو الوحدة فى منظمة التحرير الفلسطينية المسئولة عن حماية « ياسر عرفات » ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنه كان ببساطة رقم التليفون الداخلى الخاص بها فى مقر المنظمة فى بيروت . وقد أرادت الموساد وضع حد عنيف لحياته بسبب اشتراكه أساسا فى العملية ضد الرياضيين الإسرائيليين فى ميونيخ .

كان « سلامة » معتدا بنفسه مستهترا ويعشق النساء ، إلا أنه كان من الصعب العثور عليه أيضا ..

وعقب شهور عديدة من البحث عنه ، توجه المسلحون من رجال « هرارى » إلى النرويج يحدوهم حماس عظيم بعد أن أكد عملاؤهم فى رحلة استكشاف سابقة أنهم عثروا أخيرا على « سلامة » .

وحدد فريق « هرارى » موقع فريستهم فى « ليلهامر » واقتفوا أثره لساعات

معدودة ، ليتأكدوا من شخصية « الأمير الأحمر » ، وقتلوه بعد ذلك بالرصاص مساء يوم الحادى والعشرين من يوليو ..

وهرب المسلحون أنفسهم سريعا من البلاد ، وإتجه بقية الاسرائيليون إلى منازل آمنة فى أوسلو . ولم يكتشف عملاء إسرائيل ، إلا فى اليوم التالى ، أنهم ارتكبوا خطأ فادحا ، فقد قتلوا الرجل الخطأ ، ولم يكن سوى جرسون مغربى متزوج من نرويجية .. شهدت عملية اطلاق النار عليه وهى فى شهور حملها ..

وكان يمكن للإسرائيليين أن يلوذوا بالفرار ، ويحتفظوا بجريمتهم كسر مطبق ، لولا السلوك الغبى من العملاء المساعدين ، من الرجال والنساء ، الذين قاموا بعملية المراقبة والاشتراك فى التخطيط ، والذين اقترفوا كافة الأخطاء التى يمكن تصورها ، كما لو كانوا يسعون لان يقبض عليهم البوليس النرويجى ..

ولم يبذل البوليس جهوداً كبيرة للقبض على القتلة فقد ترك عملاء الموساد ، بالرغم من تدريبهم بعناية على عمليات الاختفاء بمجرد إبلاغهم ، أثارا تدل عليهم فى كل خطوة قاموا بها ، وبطريقة يتعذر تفسيرها ..

فكانوا يتجولون فى بلدة « ليليهامر » فى سيارات أستأجروها بأنفسهم بدلا من استخدام وسطاء لايعرفون شيئا عن طبيعة مهمة الاغتيال المنوطة بهم ، كما لم يراعوا قواعد تقسيم العمل والفصل بين الاختصاصات ، وتعرفوا بدلا من ذلك على بعضهم البعض ..

وقدم جيران الجرسون سيء الحظ رقم إحدى السيارات إلى البوليس ، وتم القبض على إثنين من الإسرائيليين عند أعادتهما للسيارة المستأجرة إلى مطار أوسلو .. واعترف كل منهما وهما « دان إرت » و « ماريان جلادينكوف » بأنهما يعملان لصالح إسرائيل ، وكشفا عن عنوان مسكن يستخدمه الموساد ، وعثر البوليس هناك على اثنين أخرين من الفريق الإسرائيلى .

وأصابت الدهشة البوليس النرويجى بسبب الأساليب التى تتسم بالهواية ، التى تستخدمها وكالة الجاسوسية ، التى ينظر اليها باعتبارها أفضل وكالة فى العالم ..

وتساقط الإسرائيليون واحدا تلو الآخر فى أيدى البوليس ، كما لو كانوا ثمارا نضجت وحان قطافها .. وتمكن « هرارى » من الهرب ، إلا أنه تم إلقاء القبض على « إفراهام جيهمر » ، وخمسة آخرين من الموساد .

وكشف المحققون فى النرويج طريقة العمل فى الاغتيالات الأخرى التى تمت بعد أوليمبياد ميوينخ .. فقد كان أحد رجال الموساد يحمل مفتاحا لشقة فى باريس وعثرت فيها المخابرات الفرنسية على مزيد من المفاتيح لعدد من المنازل الآمنة التى يستخدمها عملاء إسرائيل ..

وظهرت الأدلة التى تربط الاسرائيليين بعمليات قتل الفلسطينيين فى العديد من الدول ، وهى العمليات التى لم يتم التوصل فيها إلى شىء من قبل .. وكشفت وكالات المخابرات الغربية عن الطريق التى يوزع بها الاسرائيليون عملاءهم فى أوربا ، وعن كيفية استخدامهم للأشخاص الذين يعملون بصفة مؤقتة لمساعدتهم فى عمليات المراقبة وتقديم مايحتاجونه من امدادات ..

وكان « إرت » ، وهو أكثر من ثرثر عند التحقيق معه فى أوسلو ، أحد الأمثلة على ذلك ، فهو لم يكن عضوا فى الموساد ، بل رجل أعمال من أصل دنماركى يعيش فى « هرتزيليا » شمال تل أبيب اسمه الحقيقى « دان إيربيل » .. وكانت تستدعيه من وقت لآخر للقيام بمهام متنوعة .

وبمجرد أن وضعه النرويجيون فى زنزانة انفرادية معتمة حتى اعترف لهم بكل شىء ..

ولم يستطع المحققون النرويجيون إخفاء دهشتهم عندما كشف لهم « إرت / إيربيل » أنه يعانى من مرض الخوف العصابى من الأماكن الضيقة المغلقة وهو عيب خطير بالنسبة لعميل سرى ..

وفى مقابل نقله إلى زنزانة أوسع ، أبدى رغبته فى الاعتراف بكل شىء .. ليس فقط بعملية « ليليهامر » بل أيضا بعملية النقل السرية لحمولة من اليورانيوم إلى سرائيل فى عام ١٩٦٨ ، وهى عملية شارك فيها ..

وذكر « إرت / إيربيل » أنه كان الواجهة التى دفعت بها الموساد لشراء سفينة

شحن قديمة هى « شيرز بيرج ــ ا » كانت تحمل ٥٦٠ من الصفائح المعدنية من أكسيد اليورانيوم عند مغادرتها ميناء « أنتويرب » فى بلجيكا .. ثم ظهرت فى الميناء التالى وهى خالية من المادة النووية الأولية ..
[انظر الفصل التاسع] ..

وألقى القبض أيضا على « سيلفيا رافاييل » من بين الإسرائيليين الذين قبض عليهم فى النرويج ، إلا أنها كانت أكثر احترافا من « إرت / إيربيل » بكثير .. وجابت العديد من دول العالم ، تحت اسمها السرى « باتريشيا روكسبورو » ، كمصوره صحفية تحمل جواز سفر كندى مزيف ..

وهى من مواليد جنوب إفريقيا ، وتم تجنيدها من قبل الموساد بعد عملها كمتطوعة فى أحد الكيبوتزات الإسرائيلية ، وانتهت قضيتها وحدها نهاية سعيدة بعد أن أحبت محاميها النرويجى . وتزوجته ، إلا أنه كان يتعين عليها ، ومعها أربعة من الموساد ، قضاء فترة فى السجن .. وبالرغم من أن العقوبات التى أصدرتها المحكمة تراوحت بين عامين وخمسة أعوام ونصف العام ، إلا أن النرويجيين المتعاطفين مع إسرائيل ، أفرجوا عنهم بعد فترة لم تزد عن اثنين وعشرين شهرا ..

وكانت الموساد سعيدة الحظ لأن النرويج لم تضغط بشدة فى تحقيقاتها فى هذه القضية المعقدة ، مفضلين بوضوح الابتعاد عن إضافة مزيد من المهانة العلنية للوضع المحرج الذى وجدت إسرائيل نفسها فيه ..

وأبدت الأجهزة السرية الفرنسية والايطالية قدرا كبيراً من التضامن مع الموساد ، بالرغم من المعلومات التى ظهرت فى محاكمات النرويج ، والتى تدين الموساد فقد تجاهلت هذه الأجهزة طلبات منظمة التحرير الفلسطينية بإعادة التحقيق فى قتل الفلسطينيين داخل إيطاليا وفرنسا ..

وقد تعاطفت وكالات مخابرات أوربا الغربية مع الموساد ، حيث شعرت هذه الوكالات أنه من السهل أيضا أن تضبط هى الأخرى وهى متلبسة وأن تعاطفها بشكل مجاملة مهنية لكيلا يزداد الأمر سوءا ..

كذلك كان هناك أيضا عنصر قوى للتعاطف مع إسرائيل فى حربها ضد

العمليات الفدائية .. حيث احترامت الأجهزة السرية الغربية رغبة الدولة اليهودية فى أن تجسد للعالم نموذجا جديدا لايعكس الخضوع والتهدئة فى الحرب ضد الارهاب ..

وشكل ذلك بعض العزاء لإسرائيل ، إلا أن الموساد لم تكن لترضى إلا بعد أن تمكنت فى النهاية من الامساك بـ « سلامة » بعد خمسة أعوام ونصف العام .. فقد طارت مجموعة صغيرة من العملاء الإسرائيليين من بينهم إمرأة إلى النيابة حاملين جوازات سفر بريطانية وكندية .. وفى ٢٢ يناير ١٩٧٩ ، أوقفوا سيارة محملة بالمتفجرات على جانب أحد شوارع بيروت ، وفجروها عن بعد فى الوقت الذى كان « الأمير الأحمر » يقود سيارته بجوارها فتلاشى هو وسيارته فى الهواء .

ولم تشعر وكالة المخابرات المركزية بارتياح كبير إزاء العملية ، لأن « سلامة » ، كما أصبح معروفا بعد وفاته ، كان أداة الاتصال السرية بين منظمة التحرير الفلسطينية والمخابرات الأمريكية ..

ظلت ذكريات الفشل العلنى فى النرويج تطارد إسرائيل .. وكان العديدون فى مؤسسة المخابرات يشيرون اليها ، فى تورية مؤلمة ، بوصفها « LeyL ha-mar »أى « الليلة المريرة » ..

وفى كل مرة يأتى ذكرها ، يتوارى العملاء الإسرائيليون خجلا ، فقد اتفقوا جميعا على أن قتل الرجل الخطأ ، وما أعقبه من القبض عليهم كان أكثر عملياتهم فشلا ..

وأدى هاجس الانتقام بإسرائيل إلى الانحراف بأحكامها وبالأمور عن نصابها الصحيح .

وشكا كبار المسئولين فى مؤسسة المخابرات بشدة من أنه ليس من مهامهم أن يصبحوا فرعا لشركة للقتل ، وذكروا أن جزءا كبيرا من الموارد البشرية والتكنولوجية للموساد و « شين بيت » مرتبط بعمليات القنص البشرى ، أكثر من ارتباطه بالعمل التقليدى فائق الأهمية ، وهو جمع المعلومات عن القدرات العسكرية للدول العربية ..

وذكر المعارضون داخل مؤسسة المخابرات أن اسرائيل تضخم من أهمية العمل الفدائى الفلسطينى ، لأنه فى التحليل النهائى ، لن يكون ذلك هو مايعرض وجود البلاد للخطر .. وفى أسوأ الأحوال ، فإنه لايشكل أكثر من ذبابة مزعجة ولا يثير تهديدا خطيرا لاسرائيل ..

وأكد آخرون أنه لافائدة ترجى من إبادة زعماء المنظمات الفدائية الفلسطينية ، لأن أحدا لايضمن أن من يحلون محلهم سيكونون أكثر اعتدالا أو أقل قدرة على العمل ..

والأكثر من ذلك أن المعارضين الغاضبين أثاروا الاتهامات بأنه تمت التغطية على كارثة « ليليهامر » .. وأن أحدا لم يتحمل نتائجها وحتى أن « مايك هرارى » قد استأنف ببساطة عمله فى تل أبيب .

وكانت هذه الاعتراضات مثل صرخات فى البرية حيث أن « زفى زامير » رئيس الموساد كان موجودا فى مطار ميوينخ ، وشاهد الرياضيين الإسرائيليين وهم يقتلون وهم مقيدى الأيدى داخل طائرات الهليكوبتر .. كان « زامير » غاضبا ، ووافق تماما على رغبة « جولدا مائير » فى الانتقام ..

عقب حملة الاغتيالات ، فقدت « أيلول الأسود » الكثير من وسائل دفاعها .. والآن ، فإن المخابرات الإسرائيلية أصبحت ترغب فى التعامل مع عدوها القديم الرهيب .. « جورج حبش » زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

ففى ١٠ أغسطس ١٩٧٣ ، اعترضت المقاتلات الحربية الإسرائيلية طائرة ركاب مدنية لبنانية ، وأجبرتها على الهبوط فى قاعدة عسكرية إسرائيلية .

وجرى إخراج ركابها فى طابور ، وتم استجواب كل منهم على حدة ، إلا أن « جورج حبش » ، لم يكن معهم ..

وأطلق سراح الجميع ، وتعرضت الموساد لحرج شديد ..

كانت المعلومات السرية التى وردت حول وجود « حبش » على متن الطائرة ، قد وردت عن طريق واحدة من أفضل عميلات إسرائيل ، تم زرعها داخل هيئة

قيادة الفدائيين الفلسطينيين ، وهى إمرأة تدعى « أمينة المفتى » .. وقد ولدت فى الأردن عام ١٩٣٥ لأسرة شركسية مسلمة وتم تجنيدها من قبل الموساد فى فيينا عام ١٩٧٢ ، وذلك بعد أن وقعت فى غرام طيار إسرائيلى كان فى زيارة للنمسا

ومن المرجح أن الطيار الإسرائيلى كان فى مهمة للعثور على عميل عربى له قيمته . وبدت « أمينة » كما لو كانت اختيارا موفقا وله جاذبيته .

فالشراكسة فى إسرائيل كانوا يتعاونون بالفعل مع مؤسسة المخابرات فى الدولة اليهودية عن طريق اختراقهم للمجتمع العربى ..

وجاءت موافقة « أمينة المفتى » على القيام بمهمتها بسبب كراهيتها من ناحية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائها اللوم على المتطرفين لعملهم على إطالة أمد الصراع فى الشرق الأوسط .. وكان عليها أن تنتقل إلى بيروت فى بداية ١٩٧٣ ، وأن تلتقى بأكبر عدد ممكن من الفلسطينيين ..

وكانت « أمينة المفتى » قد تلقت بالفعل قسطا من التعليم الطبى ، وساعدها الإسرائيليون على افتتاح عيادة لها .. وأصبحت مشغولة للغاية بعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية فى عام ١٩٧٥ وقيامها بعلاج الجرحى من الفلسطينيين الذين كانوا يدافعون عن أحيائهم الخاصة ومخيمات اللاجئين وهكذا فمن سخرية الأقدار ، أصبحت الموساد تمول اجراءات الرعاية الطبية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان ..

صادقت « أمينة المفتى » كبار ضباط منظمة التحرير ، وعندما كانت تخلو إلى نفسها فى المساء ، كانت تكتب وقائع مطولة لكل ماشاهدته او سمعته .. ولم تلتق أبدا بأى مسئول اتصال للموساد فى لبنان ؛ لأنها كانت تترك تقاريرها والصور التى تلتقطها فى صناديق بريد معينة فى بيروت ، مثل تلك الموجودة فى ممرات الفنادق أو استراحات المطاعم ، حيث يتم القاء مظروف صغير يلتقطه بعد ذلك شخص مجهول ..

وكانت تنقل المعلومات العاجلة لإسرائيل بواسطة جهاز تكنولوجى مفضل لدى الموساد وهو عبارة عن جهاز لاسلكى صغير ..

وقد توقف سيل المعلومات فى ١٩٧٥ ، عندما ألقى الفلسطينيون القبض عليها ، وقام الراديكاليون من المنظمة بتعذيبها ، كما استجوبها عملاء المخابرات السوفيتية ، وعملاء مخابرات ألمانيا الشرقية خلال الخمسة أعوام التى أمضتها سجينة فى كهف بالقرب من ميناء صيدا اللبنانى .. وقد رتبت اسرائيل عن طريق الصليب الأحمر الدولى عملية لتبادل المسجونين أطلقت بموجبها سراح إثنين من فدائى منظمة التحرير فى مقابل الافراج عن أمينة ..

وبعد أن قام الصليب الأحمر بتسليمها إلى فريق الموساد فى قبرص ، انتحلت شخصية جديدة وشغلت وظيفة طبيبة فى شمالى إسرائيل ..

الفصل التاسع

السلاح السرى

● كان أمام « جون هادين » رئيس مركز وكالة المخابرات المركزية ، فى تل أبيب خلال منتصف الستينيات ، طبقا ممتلئا ، فقد تحددت مهمته فى الحفاظ على علاقة اتصال مفيدة للجانبين مع المخابرات الاسرائيلية ، وفى الوقت نفسه مراقبة الأحداث الكثيرة التى تبذل السلطات الاسرائيلية أقصى مافى وسعها لإخفائها .

وبالطبع فإن « هادين » كان نشطا بصفة خاصة فى محاولة متابعة أكثر المشروعات سرية فى إسرائيل :

وعى « هادين » أن الاسرائيليين لم يكونوا يقولون الحقيقة حتى له ، فيما يتعلق بالمسألة النووية ، وهو « صديقهم » المحلى الرسمى .

وهو مثل أى محترف فى مجاله لم يتوقع منهم الوضوح . فوكالات المخابرات ، مثل الدول ، ليس لها أصدقاء وإنما مصالح محددة . ولم تجتمع أبدا كلمتا « الحقيقة » و « النشاط النووى » فى اسرائيل ..

وفى عام ١٩٦١ ، أبلغ « بن جوريون » رئيس الوزراء الرئيس « كنيدى » فى البيت الأبيض أن الدولة اليهودية تعكف على استخدام الطاقة النووية وليس على انتاج قنبلة نووية ، لكن واشنطن لم تبتلع هذه الرواية .

وفى إبريل عام ١٩٦٣ ، استدعى الرئيس « جون كنيدى » « شيمون بيريز »

إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض ، وضغط عليه للحصول على معلومات .. قال له كنيدى :

« أنت تعلم أننا نتابع باهتمام كبير أى تطور للامكانية النووية فى المنطقة .. وإن مثل هذا التطور يخلق موقفا بالغ الخطورة .. ولهذا السبب فقد كنا نتابع عن كثب جهدكم فى المجال النووى .. فماذا يمكنك أن تقوله لى فى هذا الشأن ؟ »

ورد « بيريز » بالعبارة التى ستتكرر على نحو موصول بالنسبة للموقف السياسى لاسرائيل على مدى عقود .. قال :

« نحن لن نكون البادئين بادخال الأسلحة النووية إلى المنطقة .. لن نكون أول من يفعل ذلك » .

لكن رئيس مركز وكالة المخابرات المركزية فى تل أبيب سمع نغمة جديدة عندما أخفى « ليفى أشكول » رئيس الوزراء معارضته بالكاد ، كوزير مالية سابق ، لانفاق أموال على انتاج أسلحة نووية .

وخلال زياراته إلى واشنطن ، توصل « ليفى أشكول » إلى اتفاق ضمنى مع إدارة الرئيس « جونسون » مفادة أن تتلقى اسرائيل مساعدات عسكرية تقليدية متزايدة فى مقابل أن تبطىء من برنامجها النووى .

وبالفعل تلقى الاسرائيليون للمرة الأولى طائرات حربية متطورة من طرازى « فانتوم » و « سكاى هوك » ، وحل الأمريكيون تماما محل الفرنسيين فيما يتعلق بتوريد الأسلحة إلى الدولة اليهودية .

وواصل « هادين » مساعية لاكتشاف الخداع من جانب الاسرائيليين ..

وكانت أكثر تقاريره إزعاجا إلى مقر قيادة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى « لانجلى » بولاية « فيرجينيا » تتعلق بموقف « موشى ديان » تجاه قنبلة اسرائيل فى البدروم ..

وفى تقييم المخابرات الأمريكية ، فإن « ديان » اتخذ مسلكا يتسم برباطة الجأش وعدم الاكتراث تجاه المشروع السرى مشيرا إليه على أنه « مجرد سلاح آخر » .

وبدأت الأضواء الحمراء تبرق ، عندما تردد أن خبراء الاستراتيجية الاسرائيليين يشيرون إلى القنبلة النووية على أنها يمكن أن تكون السلاح الذى ينهى جميع الحروب فى الشرق الأوسط .

عندما سافر « جون هادين » إلى صحراء النقب ، مثلما فعل هو وغيره من عملاء وكالة المخابرات المركزية فى سعيهم لمراقبة ديمونة بعناية ، تبعه جهاز « شين بيت » كظله ..

وفى إحدى المرات ، عندما كان الأمريكى ، الذى يعد رسميا دبلوماسيا فى السفارة ، يسير بسيارته على طريق بالقرب من المنشأة النووية ، هبطت طائرة هليكوبتر عسكرية بالقرب من سيارته وطلب رجال الأمن الاطلاع على هويته ، وبعد أن اطلعهم على جواز سفره الدبلوماسى الأمريكى اضطر للابتعاد بسيارته وهو مازال مقتنعا بأن مايجرى من مفاعل ديمونة أكبر بكثير مما تعترف به إسرائيل ..

واكتشفت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية علامات على وجود استراتيجية نووية اسرائيلية تدعو إلى انتاج أسلحة من مختلف الأنواع وجميع الأحجام ، ليتوفر أقصى حد من المرونة عند استخدامها فى نهاية الأمر ..

ويمكن أن تتراوح هذه الأسلحة بين القنابل النووية التى يمكن اسقاطها من الطائرات إلى القنابل الهيدروجينية التى يمكن أن تصبح رءوسا حربية للصواريخ ..

وكان من المعتقد أن العلماء يبحثون كل شىء تقريبا ، واستنتجت وكالة المخابرات المركزية أن اسرائيل تريد أمتلاك انظمة عديدة لنقل الأسلحة النووية ، وبصفة خاصة أنظمة يمكن حمايتها .

ويبدو أن مفاعل ديمونه يتمتع بحماية مشددة ، وتحيط به بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات التى تختفى فى التلال الصحراوية المحيطة به .

وقد قامت هذه البطاريات باسقاط طائرة حربية اسرائيلية ضلت طريقها ، وحلقت بالقرب من المفاعل بطريق الخطأ ، وهى فى طريق عودتها من مهمة قتالية ضد الأردن خلال حرب يونيو عام ١٩٦٧ .

واكتشفت اسرائيل أنه سواء احتفظت بترسانتها النووية السرية فى ديمونة أو نشرتها مع سلاح الطيران الاسرائيلى ، فإن ذلك لن يوفر لها الأمان الذى ينبغى لها .

وقد صاغت اسرائيل رغم صغرها استراتيجيتها النووية بما يواكب نفس المفاهيم التى تبنتها القوى العظمى وهى : منع الحرب كهدف رئيسى ، وأيضا تصميم قدرة على توجيه ضربة ثانية ناجحة فى حالة قيام العدو بالهجوم أولا ..

واكتشفت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية رغبة اسرائيلية قوية فى نشر جزء على الأقل من ترسانتها النووية فى عرض البحر ..

واستنادا إلى معلومات المخابرات التى تم جمعها من داخل اسرائيل وفى أماكن أخرى ، استنتج محللو وكالة المخابرات المركزية أن الاسرائيليين يقومون بانتاج قوة ضاربة نووية أساسها الغواصات ..

وعلى الرغم من أن ذلك طموح بالغ بالنسبة لدولة صغيرة ، إلا أنه بلغة استراتيجية كان أمرا طبيعيا ، فمن المعروف أن الغواصات هى أكثر منصات الصواريخ أمنا ، حيث يكون من الصعب تماما على العدو العربى تحديد مواقعها ، وتكون منشآت تخزين آمنة نسبيا للترسانة السرية ..

فبينما قد تتعرض ديمونه أو قواعد سلاح الطيران للقصف أو الضرب بالصواريخ ، أو حتى للاجتياح من جانب العرب ، فإن الغواصات ستكون بعيدة فى البحر ، ومستعدة للرد .

واعتقدت وكالة المخابرات المركزية أن اسرائيل عمدت فى نهاية المطاف إلى تطوير هذه القدرة على نصب أسلحة نووية صغيرة لكن قوية على متن الغواصات الثلاث بريطانية الصنع التى يملكها سلاح بحريتها ..

وكانت هذه الغواصات تقوم بصفة عامة بداوريات فى البحر الأبيض المتوسط ..

وربما اعتبر ذلك من الناحية الفنية طريقا لتجنب انتهاك السياسة الرسمية ومفادها أن إسرائيل لن تكون أول من يدخل الأسلحة النووية إلى الشرق الأوسط ..

وعلى أى حال ، فإن مثل هذه الوعود تتعلق بالساسة ، وليس بوكالات المخابرات ولا بالعلماء النوويين ، فهم يثابرون فى عملهم فى صمت واجتهاد ..

عندما أوقفت فرنسا فى عهد ديجول مساندتها لاسرائيل فى الستينيات ، واجه رئيس « مكتب الاتصال العلمى » بالغ السرية مشكلة ، لكنه لم يدعها تثير قلقه .

ومن مكتبه المجهول فى « لاكام » سعى « بنيامين بلومبيرج » للبحث عن مصادر بديلة مع تصاعد المتاعب الدبلوماسية مع فرنسا ، التى كانت حتى ذلك الوقت المورد الرئيسى للمواد والخبرة النووية إلى اسرائيل

وحقق « بلومبيرج » أول نجاح له مع النرويج « فقد وافقت حكومة أوسلو على أن تبيع سرا لاسرائيل ٢١ طنا من الماء الثقيل » .

وفور ضمان هذا الامداد ، بدأت « لاكام » فى البحث عن اليورانيوم .. واكتشفت مصدرا هاما تحدد فى شخص « زالمان شابيرو » ..

ولد « شابيرو » عام ١٩٢١ فى كانتون بولاية « أوهايو » الأمريكية ، وهو أمريكى له خلفية يهودية يمكن الاحساس بها بوضوح ، وكان أبوه حاخاما متعصبا من أصل ليتوانى ، ولقى الكثير من أقاربه حتفهم فى « الهولوكوست » [1]، وحتى فى أمريكا عانى « زالمان شابيرو » من الاهانات المعادية للسامية .

وحصل على درجة الدكتوراه فى الكيمياء عام ١٩٤٨ وأعلنت دولة اسرائيل استقلالها فى العام نفسه مما منح « شابيرو » الهاما كبيرا .. فانضم إلى الاتحاد الصهيونى ، وأصدقاء « التكنيون » وهى كبرى الجامعات التكنولوجية فى اسرائيل .

عمل « شابيرو » لحساب شركة « وستنجهاوس » وساهم فى إنشاء أول غواصة نووية تملكها البحرية الأمريكية وهى الغواصة « نوتيلوس » .

وفى منتصف الخمسينات بدأ فى تكوين شركته الخاصة « نوميك » ، وهى شركة المعدات والمواد النووية فى أبوللو بولاية بنسلفانيا الأمريكية .

---

(١) الهولوكست : الإبادة الجماعية لليهود على يد النازى

تولت شركة « شابيرو » مسئولية امداد المفاعلات النووية ، فى الولايات المتحدة ، باليورانيوم . لكن بدا أن الشركة تواجه زوارا أجانب بأعداد غير عادية ، يأتون أساسا من فرنسا واسرائيل .

وبالطبع لم تغفل لجنة الطاقة النووية الأمريكية عما يجرى ، وقامت بتوجيه اللوم إلى الشركة فى عام ١٩٦٢ بسبب احتياطات الأمن التى تتسم بالتساهل ، ومن جراء عدم دقة سجلاتها .

ومهما كان الأمر ، ففى عام ١٩٦٥ فقط توصل تفتيش روتينى أجرته لجنة الطاقة النووية الأمريكية إلى اكتشاف هام ، وهو أن سجلات مخازن شركة « نوميك » تكشف عن اختفاء أكثر من ١١٠ أرطال من اليورانيوم دون تفسير لذلك .

ومن المعروف أن اليورانيوم المخصب يستخدم فى تصنيع الأسلحة النووية .

وعجز محققو لجنة الطاقة النووية الأمريكية عن الحصول على دليل واضح بأن اليورانيوم المخصب قد تم إرساله إلى جهة معينة أوأن شركة « نوميك » قد اقترفت أية جريمة لكن فى اطار التحقيقات الرسمية التى دامت خمسة عشر عاما ، ذكرت لجنة الطاقة النووية أن ماجموعة ٥٨٧ رطلا من اليورانيوم قد اختفت وهى كمية تكفى من الناحية النظرية لصنع ١٨ قنبلة نووية .

وقام مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكى ايضا بالتحقيق فى الأمر ، مركزا على روابط « شابيزو » مع اسرائيل ، لكنه لم يتوصل إلى أية نتيجة واضحة ..

وبحثت سلطات فيدرالية أمريكية أخرى قضية « شابيرو » ، لكنها أصدرت حكما بأن روابطه المحدودة مع اسرائيل لاتتطلب منه تسجيل نفسه كعميل أجنبى .

لكن الشكوك تصاعدت إلى مايقارب اليقين بحلول عام ١٩٦٨ ، بأن اليورانيوم المفقود تم بيعه أو شحنه بطريقة ما إلى اسرائيل ..

وبدأت مؤسسة المخابرات الأمريكية فى العمل نتيجة اعتقادها إن إسرائيل قد

حصلت على كمية كبيرة من اليورانيوم المخصب .. فتحركت وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالية ، وبدأتا فى إجراء تحقيق أكثر دقة ، وتم وضع « شابيرو » تحت المراقبة ، وجرى التصنت على أجهزته التليفونية وتم استجوابه ..

ومن أهم الروايات التى ذكرها « شابيرو » ما تعلق باجتماعاته مع « افراهام هرمونى » المستشار العلمى بالسفارة الاسرائيلية لدى واشنطن ، وهو بكلمات أخرى رئيس مركز « لاكام » هناك ..

شعرت اسرائيل بالقلق بشأن الموقف الأمريكى الجديد تجاه المسائل النووية .

ففى الأعوام السابقة ، وإلى حد كبير بفضل نفوذ أفضل صديق للموساد « جيمس أنجلتون » فى وكالة المخابرات المركزية ، قنعت السلطات الأمريكية بأن تترك الاسرائيليين يفعلون مايريدون وفى واقع الأمر ، فإن « جيمس أنجلتون » قد قام بحماية أسرار اسرائيل النووية ، لكن بحلول عام ١٩٦٨ ، تضاءل نفوذ « أنجلتون »

كما أن « ريتشارد هيلمز » ، المدير الجديد لوكالة المخابرات المركزية ، كان أكثر تشككا فيما يتعلق بالتحركات والدوافع الاسرائيلية .

ولاستكشاف الموقف فى واشنطن ، قام أربعة من الاسرائيليين ، من بينهم « هرمونى » و « رافى إيتان » من الموساد ، و « افراهام بندور » من « شين بيت » ، بزيارة مفاجئة وغير متوقعة لمصنع « نوميك » الذى يمتلكه « شابيرو » فى العاشر من سبتمبر عام ١٩٦٨ .

ووقع « إيتان » و « بندور » فى سجل الزيارات بوصفهما إثنين من الكيميائيين يعملان لحساب وزارة الدفاع الاسرائيلية ، لكنهما ، فى واقع الأمر ، كانا يقومان بمهمة خاصة لحساب « لاكام » بعد أن نجح « بلومبيرج » فى اصلاح علاقاته مع الوكالات السرية الاسرائيلية الأخرى ..

وعندما عاد الإثنان من مهمتها الخاصة بتقدير الأضرار التى لحقت بالعلاقات الأمريكية ـــ الاسرائيلية وتأثيرها على البرنامج النووى الاسرائيلى ، ذكر أن اسرائيل

ستواصل الاستفادة من الشكوك التى تحيط بها فى واشنطن ، وأنه لاداعى لأن توقف نشاطاتها غير القانونية فيما يتعلق بالحصول على اليورانيوم المخصب بطريقة غير مشروعة .

وفى نوفمبر ١٩٦٨ ، وفى إطار عملية مشتركة مع الموساد ، تمكن عملاء « لاكام » أو بمعنى أدق عملاء « بلومبيرج » من سرقة مائتى طن من أكسيد اليورانيوم من على سطح سفينة شحن بضائع .. واستنادا إلى اعترافات « دان إيرت / إيربيل » فى النرويج عام ١٩٧٣ ، تأكد المحققون من أن شركة كيماويات ألمانية تدعى « أسمره » قامت ، من خلال فروعها ، بشراء اليورانيوم من شركة بلجيكية اسمها « سوسيتية جنرال دى مينارو » .

وقد تم شحن اليورانيوم فى ميناء « انتويرب » البلجيكى على متن سفينة اسمها « شيرزبيرج إيه » تحمل علم ليبريا ، وأن ربانها أعلن أنه متجه إلى ميناء « جنوه » الايطالى ..

لكن شحنة اليورانيوم لم تصل أبدا إلى ايطاليا وبدلا من ذلك اختفت السفينة « شيرزبيرج إيه » من السجلات البحرية .

بعد أن دخلت السفينة مياه البحر الأبيض المتوسط ، أبحرت شرقا بدلا من أن تتجه شمالا كما كان مفروضا أن تتجه حسبما أعلن ربانها ..

وفى مكان مابين قبرص وتركيا ، التقت السفينة مع سفينة شحن بضائع إسرائيلية ..

وفى بداية شهر ديسمبر ، بعد أيام من اختفائها القصير ، ألقت « شيرز بيرج إيه » بمراسيها فى ميناء الاسكندرونة التركى ولم يكن على متنها أى يورانيوم

وفى واقع الأمر ، فإن هذه السفينة كانت مملوكة للموساد ، ومن وسط هذه المجموعة المشوشة من الدول والشركات دبرت اسرائيل للحصول على الوقود النووى اللازم لمفاعلها فى ديمونه ..

وقد ذهلت وكالات الطاقة النووية فى دول السوق الأوربية المشتركة وأصيبت

بالارتباك من جراء هذا الحادث إلى درجة أنها قررت عدم الاعلان عنه .

ومكنت ضربة موفقة غير متوقعة اسرائيل من انتاج اليورانيوم فى مفاعلها النووى والمستخرج من احتياطياتها الهائلة من الفوسفات .

وقد أدى امتلاك اسرائيل لكل هذه الموارد بالإضافة إلى قيامها بشراء اليورانيوم مباشرة من جنوب افريقيا ، إلى أن يصبح من الواضح أن اسرائيل تنشىء شيئا سريا للغاية فى ديمونه : وهو ترسانة من الأسلحة .

وستصبح جنوب افريقيا شريكا لاسرائيل فى مشروعاتها السرية ومن بينها الأبحاث النووية وأبحاث الصواريخ .

وبحلول تلك الفترة ، لم يعد هناك أدنى شك فى أن اسرائيل قد أصبحت الدولة السادسة التى تنضم إلى عضوية النادى الذرى بعد الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفيتى ، بريطانيا ، فرنسا والصين .

ولم تعلن اسرائيل عن تلك الحقيقة مطلقا لكن الأمر كان واضحا تماما بالنسبة للولايات المتحدة .

منذ أواخر الستينيات فصاعدا ، قامت مؤسسة المخابرات الأمريكية بفرض رقابة صارمة على كل عالم تقريبا من اسرائيل يقوم بزيارة الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد وجد البروفيسور « يوفال نعمان » ، الذى تصادف قيامه بتطوير مجموعة من الأدوات والأساليب الفنية للمخابرات العسكرية الاسرائيلية ، نفسه محاطا بالشكوك لدى وصوله إلى « باسادينا » بولاية كاليفورنيا لحضور فصل دراسى فى ابحاث الفيزياء . فسرعان ماسمع صوتا غير مألوف فى التليفون يقول له :

« بروفيسور ، أنا من الوزارة ، هل يمكننا أن نلتقى » . كان المتحدث يقول له بالانجليزية : « I am From the department » وتصور البروفيسور نعمان » أنه عضو فى أحد الأقسام الأكاديمية بجامعة كاليفورنيا ، خاصة وأن كلمة « department » تعنى وزارة أو قسما ..

وأصيب البروفيسور بالذعر عندما وصل الرجل فى الموعد المحدد ، وقدم نفسه بوصفه محققا يعمل لحساب وزارة العدل الأمريكية ..

سأله الأمريكى : « هل أنت الكولونيل نعمان ؟ » ورد « نعمان » بالايجاب ، وهو مندهش إلى حد ما لأن يخاطبه الأمريكى مشيرا إلى رتبته العسكرية ، وتبين أن المحقق هو فى الواقع رجل من رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية .

وأوضح الاسرائيلى أنه حتى بداية الستينيات كان بالفعل ضابطا برتبة كولونيل فى جهاز المخابرات العسكرية فى بلاده ، لكنه تقاعد ويعمل الآن فى جامعة تل أبيب .

فقال الأمريكى :

« لكننا نعلم أنك مازلت متورطا فى التجسس وأنصحك بالتوقف عن ذلك فورا » .

ونفى « نعمان » هذا الزعم على نحو محموم ، وانتهت المحادثة على الفور ..

ومن الواضح أن تلك محاولة لتهديده ، ومن المحتمل أنها جاءت ردا على زيارة « نعمان » للمعامل الاتحادية فى « ليفرمور » قرب « سان فرانسيسكو » .

وبالنظر إلى مابدأت الولايات المتحدة فى رصده فيما يتعلق بمنشآت « ديمونه » ، فإن زيارة المعامل فى « ليفرمور » بدت هامة خاصة وأن الأبحاث النووية تجرى هناك .

وبعد بضعة أسابيع انتقل « نعمان » إلى جامعة تكساس فى « أوستن » حيث زاره مسئول آخر من وزارة العدل مطالبا هذه المرة بأن يسجل « نعمان » نفسه كعميل أجنبى أى من عملاء الحكومة الاسرائيلية ..

وبالطبع فإن قيام « نعمان » بذلك كان من شأنه أن يلحق الضرر بسمعته كعالم فيزياء وبقدرته على اللقاء بزملائه ..

كما أنه لو كان عميلا رسميا لحكومة أجنبية فإن تحركاته يمكن أن يتم تقييدها من جانب السلطات الأمريكية .

وحاول « نعمان » تعبئة كل علاقاته الأمريكية لتجنب عملية تسجيل نفسه كعميل اجنبى .. وسعى إلى أصدقائه القدامى طالبا منهم المساعدة من امثال البروفيسور « ادوارد تيللر » أبى القنبلة الهيدروجينية الأمريكية ، والسناتور « جون تاور » صاحب النفوذ ، وهو من ولاية تكساس .

وفى النهاية ، كانت العلاقة والرابطة بين المخابرات الامريكية والاسرائيلية هى التى ساعدت « نعمان » .

فقد وجه ضابط الاتصال الخاص بالموساد فى واشنطن نداء سريا ومباشرا إلى وكالة المخابرات المركزية فترتب على ذلك إلغاء الشرط المطلوب من « نعمان » وهو تسجيل نفسه كعميل .

كما استطاع اسرائيليون آخرون جمع معلومات لحساب بلدهم أثناء زيارتهم للولايات المتحدة .. وعندما كانت المعلومات تتعلق بالشئون العلمية ، فإن « مكتب الاتصال العلمى » أى وكالة « لاكام » كانت هى التى تتولى المسئولية عادة .

والجانب المدهش فى تاريخ « لاكام » هو أنه على الرغم من كافة نشاطاتها فى مجال التجسس فإن وكالات المخابرات الأجنبية لم تكن واعية بوجودها .

وقد أشار تقرير سرى لوكالة المخابرات المركزية فى عام ١٩٧٦ استهدف إجراء مسح شامل لجميع أجهزة المخابرات فى اسرائيل إلى الاهتمام الكبير لمؤسسة المخابرات الاسرائيلية بالعلم والتكنولوجيا ، لكن التقرير لم يشر أبدا إلى « لاكام » ولا إلى وجود « مكتب اتصال علمى » .

اقترح « بلومبيرج » مدير « لاكام » أن تقوم وكالته بدعم سرى ، ليس فقط للمشروع النووى وإنما أيضاً لصناعة الدفاع الاسرائيلية بأسرها وتمت الموافقة على هذا الاقتراح ، وتقرر زيادة ميزانية « لا كام » على الفور بمساهمات من زبائنها .. ومن بينها شركة إسرائيل لصناعة الطائرات وشركة تطوير الأسلحة [رافاييل] وشركة اسرائيل للصناعات العسكرية وهذه الشركات جميعاً إما مملوكة للحكومة أو تسيطر عليها .. لكن مسئولى هذه الشركات لم يكونوا يعرفون بالضرورة كيف

يحصلون على التصميمات والمخططات الفنية من الخارج .. لم يكونوا يعرفون بالتأكيد اسم « لا كام » .

من بين هذه الأهداف المحددة بالنسبة لإسرائيل كان قيامها بامتلاك التكنولوجيا والمعدات الثقيلة اللازمة لتصنيع صواريخ أرض ــ أرض فى الوقت الذى تعكف فيه على تطوير امكاناتها النووية ..

لم يكن ذلك مجرد مصادفة ، لأنه لامعنى لانتاج الأسلحة النووية بدون وجود وسيلة يعتمد عليها لنقل هذه الأسلحة إلى أهدافها ..

فلا فائدة من امتلاك دولة ما لأسلحة نووية مادامت لاتمتلك وسائل ايصالها إلى أهدافها المحددة ..

فكما قال « عيزر وايزمان » ذات مرة فى اجتماع سرى عندما كان وزيرا للدفاع الاسرائيلى :

« كل الصواريخ بمقدورها أن تحمل رأسا نووية .. وكل الصواريخ بمقدورها أن تحمل رأسا تقليدية فالصواريخ تحمل كافة أنواع الرؤوس العادية وغير العادية » .

وترسانة اسرائيل المصنوعة محليا يمكن استخدامها إما للأغراض النووية أو التقليدية ..

وقد عمد رجال « بلومبيرج » إلى الحصول على الخبرة الفنية المتعلقة بالصواريخ من مصادر متعددة ، وحافظوا على متابعة أحدث التطورات التكنولوجية لكى يمكنهم معرفة الأشياء الجديرة بالشراء ..

وتحققت خطوة كبيرة عندما وافقت فرنسا على بيع صواريخ أرض ــ أرض إلى اسرائيل ..

وتخصصت اسرائيل فى تطوير اختراعات الآخرين ولم تقتصر على حدود محاكاتها ، لكى تتمكن من اصطناع انجازاتها الخاصة ..

وكما يقول « وايزمان » مشيرا إلى الفرنسيين :

« لقد قمنا بتطوير معداتهم » ..

وهكذا فإن صاروخ « إم دى ٦٦٠ » الذى قدمته فرنسا إلى إسرائيل أدى إلى توليد مجموعة من الصواريخ الاسرائيلية أولها صاروخ « لوتس » ثم صاروخ أريحا ..

وبالإضافة إلى ذلك تحدث « وايزمان » سرا عن « مشروع الزهرة » الذى يهدف إلى انتاج صاروخ بحر ــ بحر بعيد المدى ..

شكلت حرب الأيام الستة نقطة تحول بالنسبة لوكالة « لاكام » مثلها فى ذلك مثل أية مؤسسة تقريبا فى اسرائيل ..

فبفضل نجاح « لاكام » فى الحصول سرا على المواد النووية اللازمة ، امتدت مهامها إلى مجالات أخرى فى ميدان العلم والتكنولوجيا .

كان هناك تحد جديد تمثل فى الحظر الذى فرضه الرئيس « ديجول » على الأسلحة بعد حرب ١٩٦٧ . بل أنه رفض حتى الموافقة على تزويد اسرائيل بالذخائر والزوارق والطائرات التى سبق للدولة اليهودية أن دفعت ثمنها ..

وشعرت البحرية الاسرائيلية الصغيرة بالاحباط من جراء احتجاز خمسة زوارق حاملة للصواريخ من ميناء « شيربورج » الفرنسى تحت أوامر مشددة بعدم السماح لها بالتحرك ، وكانت اسرائيل قد اشترتها من فرنسا قبل إعلان الحظر الذى فرضه « ديجول » على شحنات الأسلحة إلى اسرائيل .

ووصلت العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا واسرائيل إلى مرحلة الجمود عندما ناقشت الدولتان مسألة الزوارق الصاروخية .

ولم يتم حل هذا الطريق المسدود إلا بعد تدخل وكالات المخابرات الاسرائيلية لمواجهة الموقف ..

ففى اطار خطة شارك فى تدبيرها الجيش والموساد ، طارت مجموعة من رجال البحرية الاسرائيلية إلى فرنسا فى نهاية ١٩٦٩ تحت ستار أنهم سياح عاديون وحملوا معهم أرديتهم الرسمية فى حقائبهم وقاد عملاء سريون ، سبق لهم استكشاف جميع نقاط الضعف فى إجراءات الأمن فى ترسانة بناء السفن فى

« شيربورج » ، البحارة الاسرائيليين إلى مكان الزوارق الصاروخية فى منطقة الميناء ..

كان توقيت العملية مثاليا ، حيث نفذها الاسرائيليون عشية الكريسماس بينما كان الحراس الفرنسيون قليلى العدد وغير متيقظين بدرجة كافية لمواجهة أية عملية مماثلة ..

ولم تكن العملية سهلة بأى حال ، بل تطلبت جهدا كبيرا فى الاعداد لها ثم فى عملية تنفيذها ، وتضافرت جهود عديدة من أجل ضمان نجاحها .. وأبحر رجال البحرية بالزوارق الصاروخية وعلى متنها عملاء الموساد إلى داخل البحر الأبيض المتوسط ، وهم مؤمنون بأن الزوارق الخمسة ملكهم ..

وقد قامت مجموعة من الشركات فى بنما ، والتى تسيطر عليها الموساد ، بالقيام بالجانب العملى فى العملية وتضمن اعداد العقود وغيرها من الوثائق المزيفة .

وجدير بالذكر أن بنما ، المشهورة بالقناة التى تخترق أراضيها ، أصبحت مركزا هاما بالنسبة للمخابرات الاسرائيلية فيما يتعلق بعمليات الشحن والمعاملات المالية وبالطبع فإن اختطاف الزوارق الصاروخية . من أعشاشها فى « شيربورج » ، لم يكن من الطبيعى أن يظل سرا .. فسرعان ماتبين الفرنسيون فقدان الزوارق الصاروخية وخلال ساعات قليلة من اتمام العملية ، ردت السلطات الفرنسية على التساؤلات العديدة المثارة بتوجيه اللوم إلى إسرائيل .

ولم تجد اسرائيل مبررا لإخفاء حقيقة ماجرى خاصة وأنه من وجهة نظرها تعتبر مافعلته مجرد استعادة الزوارق الحربية التى سبق لها أن دفعت ثمنها ..

وعندما أكمل البحارة الاسرائيليون رحلتهم البحرية إلى « حيفا » انطلاقا من « شيربورج » ومسافتها ثلاثة آلاف ميل ، لقوا التكريم من جانب حشد مبتهج تجمع على أرصفة الميناء .

لقد حققت الموساد نجاحا آخر : ومع سيادة شعور عام مؤيد لأن تأخذ اسرائيل ماتشعر أنها بحاجة إليه ولايمكن الحصول عليه بالتفاوض ، ازدهرت أعمال « لاكام » .

وتم اللجوء إلى السرقة ، الرشوة وغيرها من المخططات غير القانونية للحصول على كنوز ثمينة لا أحد مستعد لبيعها ..

وتحققت ضربة موفقة غير متوقعة ، عندما تمكن الاسرائيليون من اختراق شركة تقوم بتصنيع محركات طائرات ميراج الحربية المقاتلة الفرنسية .

وتم التخطيط لعملية مشتركة بين لاكام والجيش الاسرائيلى وسلاح الطيران استندت إلى استغلال نقاط الضعف فى شخصية مهندس سويسرى يدعى « الفريد فراوينكنخت » ..

وتحددت نقاط الضعف هذه فى عدم رضاه عن عمله فى الشركة ، وفى حاجته إلى المال للانفاق على عشيقة ، وفى تعاطفه مع اسرائيل بعد حرب الأيام الستة

وقد اتخذ الخطوة الأولى فى هذه العملية الكولونيل « دوف سيون » الملحق العسكرى الاسرائيلى لدى باريس ، والذى تصادف أن يكون زوج إبنه « موشى ديان » التقى الكولونيل « دوف » بضع مرات مع المهندس السويسرى « فراوينكنخت » ودعاه للعشاء وقام باصطياده وتجنيده ..

وتمكن عملاء « لاكام » من اقناع المهندس السويسرى بأن يمدهم بمجموعة كاملة تضم تصميمات طائرة الميراج .

ووافق المهندس السويسرى على قبول مبالغ مالية لكنه أصر على أنه لايتواطأ معهم مقابل المال فقط ، ولكن لأسباب أيديولوجية أيضا ! لم يكن « فراوينكنخت » يهوديا ، وهكذا فإن تجنيده لم يكن مثيرا للشكوك ، وهكذا استوعبت المخابرات الاسرائيلية الدرس ، الذى تعلمته بعد الاخفاق التام فى العراق ومصر ، وهو عدم تجنيد يهود أجانب للتجسس لحسابها ضد وطنهم الام .

وفى بداية الأمر ، التقى المهندس السويسرى مع عملاء اسرائيليين فى فنادق ومطاعم ليقوم بتسليمهم صورا فوتوغرافية لتصميمات طائرة الميراج .

وللاسرع من سير العملية ، لجأ « فراوينكنخت » للاستعانة بابن

لمساعدته فى تصوير المستندات المطلوبة ، ووضعها فى صناديق وتسليمها للعملاء الاسرائيليين الذين قاموا بنقل هذه الوثائق إلى ألمانيا .

وفى النهاية ، اكتشفت السلطات السويسرية هذه النشاطات ، وتمكنت من القاء القبض بسرعة على « فراوينكنخت » وانتزعت منه اعترافا سريعا .

اعترف « فراوينكنخت » أن المخابرات الاسرائيلية وعدته بمنحة مليون دولار ، فى مقابل تصميمات الميراج ، وأنه حتى ذلك الوقت حصل على ٢٠٠ ألف دولار من الاسرائيليين .

وفى ٢٣ ابريل عام ١٩٧١ ، أدانته محكمة سويسرية بتهمة التجسس ، لكن يبدو أن القضاة تعاطفوا معه إلى حد كبير ، فلم يحكموا عليه سوى بقضاء عام واحد فى السجن ..

وفى غضون ستة شهور ، قامت اسرائيل بتجربة طائرة حربية جديدة « نيشير » والتى تتمتع ببعض المزايا التكنولوجية لطائرة ميراج الفرنسية .

وفى ٢٩ ابريل عام ١٩٧٥ ، كشفت اسرائيل عن أحدث طائرة مقاتلة من صنعها وهى الطائرة « كفير » وهى النسخة الاسرائيلية من طائرة الميراج والفضل فى ذلك للمهندس السويسرى « فراوينكنخت » ، الذى حضر بالفعل التجربة الأولى للطائرة الاسرائيلية المقاتلة « كفير » ..

كان قد أمضى فترة العقوبة ، وخرج من سجون سويسرا ، وتوجه إلى اسرائيل فى أول زيارة له للدولة اليهودية ليشهد ولادة شارك هو فيها بنصيب الأسد .

لكن الغريب ، أن الرجل واجه استقبالا فاترا فى اسرائيل ، فمديرو وكالات المخابرات الاسرائيلية شعروا بالامتعاض لوجوده ، خاصة وأنه يذكرهم بالجانب السلبى فى عملية ناجحة ، فهو قد تعرض لإلقاء القبض عليه والسجن بسبب تجسسه لحساب اسرائيل ..

كذلك فإن الحكومة الإسرائيلية لم تكلف نفسها مشقة دفع ثمن رحلته الجوية من سويسرا إلى إسرائيل ، بل ورفضت إقامة حفل رسمى للترحيب به ، وباختصار

شعر المهندس السويسرى بأنه كم مهمل وشيء منسى فى عيون المخابرات الاسرائيلية .

وفى الوقت الذى شعر فيه « فراوينكنخت » بالمرارة وخيبة الأمل ، فإن شهرة وسمعة « بنيامين بلومبيرج » مدير « لاكام » تدعمت داخل مؤسسة المخابرات الاسرائيلية ، وتصاعدت بشكل أسطورى ..

كان القليل من الاسرائيليين هم الذين يعرفون مافعله « بلومبيرج » بالضبط ، وهم كبار عملاء المخابرات وأعضاء هيئة أركان الجيش الاسرائيلى .. كانوا يعرفون أنه أدى مهمته بامتياز .

وتحدد أبرز ماحققه فيما قام به من أجل مفاعل ديمونه النووى ، ومسئوليته واسهامه فى البرنامج النووى الاسرائيلى بالغ السرية ..

وأصبح من المعلوم بين المحللين المطلعين فى العالم أن مفاعل ديمونه له وظيفة عسكرية وساد اعتقاد بأن اسرائيل قد حققت هدفها ، وهو الانضمام إلى النادى الذرى الذى لايضم سوى مجموعة مختارة من الدول واعتقد الاسرائيليون أن هذا السر أى انضمام اسرائيل إلى النادى الذرى سيجعل حياتهم آمنة ، ويجعل من الصعب على أية دولة فى منطقة الشرق الأوسط مواجهة الدولة اليهودية ، لكنهم كانوا مخطئين خطأ فادحا ..

الفصل العاشر

مفاجآت الحرب والسلام

● كانت القوات السورية تدق على الأبواب الفولاذية السميكة وقد تكفلت انفجارات القنابل اليدوية بألا يبدو هذا الطرق رقيقا .. وقد بنيت هذه الأبواب لتصمد فى مواجهة مثل هذا الهجوم ، وعلى مدى بضع ساعات ، ظل الجنود الاسرائيليون داخل الغرف الحصينة تحت الأرض فى جبل الشيخ بعيدا عن متناول أعدائهم المتقدمين بسرعة .

كان هؤلاء الجنود يعملون لحساب وكالة المخابرات العسكرية الإسرائيلية « أمان » ، لم يكونوا مقاتلين ، ولكن من رجال المخابرات العسكرية المحترفين ، الذين اتخذوا مواقع لهم على الجبل الذى تغطيه الثلوج فى مرتفعات الجولان المحتلة للتجسس على سوريا ..

قام رجال المخابرات العسكرية الاسرائيلية بالعمل حتى فى « يوم كيبور » أقدس الأعياد اليهودية والذى تتوقف فيه الحياة فى اسرائيل عادة كان اليوم السبت السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ ، والساعة هى تمام الثانية من بعد الظهر ..

قام قائد موقع جبل الشيخ الملازم الشاب « آموس ليفنبيرج » بالاتصال لتو بضابطه الأعلى عبر تليفونه اللاسلكى ليبلغه بنيران المدفعية المتساقطة .

يسترجع « ليفنبيرج » ماحدث فى ذلك اليوم بقوله : « لقد أبلغت الضابط

الأعلى أننى لست قلقا ، وأن كل شيء تحت السيطرة وأنه بمجرد توقف القصف ، سنقوم بإصلاح الهوائيات التى تم تدميرها فى الخارج . »

لكن فى غضون ساعات ، أصبح « ليفنبيرج » والناجون من وحدته فى أيدى السوريين ..

كان الغزاة يمثلون أفضل قوات لدى سوريا وهى القوات الخاصة [الكوماندوز] التى هبطت من طائرات الهليكوبتر ، واستغرق منها الأمر حتى منتصف الليل لاقتحام الموقع ..

وقتل الجنود السوريون ١٨ من الاسرائيليين وأصابوا آخرين بجراح ، وأسروا ٣١ منهم كما استولوا على كومة ثمينة من المعدات الالكترونية الغربية والاسرائيلية الصنع والتى قام الخبراء السوريون والسوفيت ، فى وقت لاحق ، بفحصها بتفصيل دقيق .

شكلت خسارة جبل الشيخ ، وبغض النظر عن النكسات التى واجهها الاسرائيليون على الجبهات الأوسع فى ذلك اليوم ، ضربة هامة لدفاعات إسرائيل .. فقد كان جبل الشيخ منطقة بالغة الأهمية ، فهو عبارة عن جبل مزود بهوائيات ضخمة ، ومعدات متطورة ، وتليسكوبات ومناظير معظمة حديثة جدا ، وأجهزة للرؤية الليلية ..

لقد كان جبل الشيخ العيون والآذان بالغة السرية لإسرائيل فى الشمال ..

شكل المواقع هناك واحدا من وحدات التصنت العديدة التابعة للمخابرات العسكرية الاسرائيلية التى تلتقط جميع أنواع الارسال اللاسلكى فى المنطقة ، وإذا كان الجو صحوا يمكن للمرء فوق هذا الجبل أن يراقب الانتشار الكامل للقوات السورية حتى دمشق ، التى تقع على مسافة ٢٥ ميلا .

والمفترض أن موقع التصنت المتطور فى جبل الشيخ ، كان لابد أن يرى ويسمع كل شيء تفعله القوات السورية لكن النظام أخفق فى ذلك ، والأسوأ من ذلك أن استيلاء السوريين على جبل الشيخ أدى إلى سقوط منجم ذهب فى أيديهم .. فالاسرائيليون كانوا يحتفظون بمجموعة كاملة من الشفرات العسكرية

هناك ، الأمر الذى جعل فى مقدور العدو التقاط جميع اتصالات سلاح الطيران الاسرائيلى ..

وقد اعترفت وكالة المخابرات العسكرية الاسرائيلية بأن ذلك كان خطأ فادحا .

وفى واقع الأمر ، فإن حكاية « آموس ليفنبيرج » وما تعكسه من اخفاق فى اكتشاف الخطر وصدمة الوقوع فى الأسر ، تصور بصدق حالة الإذلال التى عاشتها إسرائيل بأسرها فى ذلك اليوم .

لقد تمكن الجيشان المصرى والسورى من مفاجأة المواقع الدفاعية الاسرائيلية مفاجأة كاملة ، فى الأراضى التى فقدتها الدولتان العربيتان قبل ذلك بستة أعوام فى حرب يونيو ، وتم ذلك بواسطة هجوم تم التخطيط له بعناية .

فشلت مؤسسة المخابرات فى إسرائيل للمرة الأولى فى أداء مهمتها الأساسية وهى اكتشاف الإشارات السابقة لنشوب الحرب ، وتحذير القيادة الاسرائيلية مسبقا بقرب اندلاعها ..

وهى على أية حال مسئولية وكالة المخابرات العسكرية « أمان » ، لكن اللوم ينبغى أن يمتد ليشمل جميع وكالات الأمن فى الدولة اليهودية .. لقد كان يتعين على رؤساء وكالات المخابرات فى لجنة « فاراش » ، وهى اللجنة المختصة بالتنسيق بين أجهزة المخابرات المختلفة ، أن يتبينوا أن الحرب قادمة ولا ريب فى ذلك .. وكان لديهم كافة الأسباب ، حتى قبل خمسة شهور من « يوم كيبور » ، أن يعرفوا الاستعدادات العدوانية التى قام بها الجانب الآخر ..

لم يقتنع رؤساء وكالات المخابرات الاسرائيلية بما كان يراه بعض عملائهم ومحلليهم الأدنى مرتبة .

ويبدو أن الجميع كانت أذهانهم أسيرة لما أسماه خبراء الاستراتيجية فى اسرائيل بالمفهوم العام أو الفكرة العامة .

ونمت هذه العقيدة غير الرسمية لكن القوية بسرعة فى أعقاب حالة التيه والاعجاب يالنفس التى ترتبت على انتصار الأيام الستة الكاسح فى عام ١٩٦٧ ..

وتحددت هذه العقيدة فى أن العرب لن يشنوا مطلقاً حربا شاملة ضد إسرائيل ، حيث أنه من الواقع أنه ليس بمقدورهم أن ينتصروا ..

وفى إطار استبعاد الإسرائيليين لامكانية شن الحرب من جانب العرب ، ازداد اقتناعهم بأن فى مقدورهم تحطيم خطوط العدو والتقدم صوب العاصمتين المصرية والسورية القاهرة ودمشق ..

كانت وكالات المخابرات ، كعادتها ، تحشد معلومات تفصيلية عن تحركات القوات فى مصر وسوريا ، لكن المفهوم العام أملى عليها أن أى نشاط عسكرى هو مجرد تدريبات ومناورات ، أو محاولة لخداع إسرائيل ودفعها لأن تأمر بتعبئة قوات الاحتياط فيها مما يكلفها الكثير ..

كان المفهوم العام مريحا وباعثا على الثقة والاطمئنان ، الأمر الذى أدى إلى انتشاره من القمة إلى القاعدة فى الجيش ، المخابرات وسلسلة القيادة السياسية .

● تعد وكالة المخابرات العسكرية « أمان » جزءا من هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلى ، وتقدم تقاريرها إلى رئيس هيئة الأركان وإلى وزير الدفاع .

وعلى الرغم من القصص المثيرة عن نجاحات الموساد و « شين بيت » قد ألقت بظلالها عليها ، إلا أن وكالة المخابرات العسكرية هى أكبر وأهم وكالة مخابرات حينما يتعلق الأمر بالدفاع عن الدولة اليهودية .

وبهذه الطريقة ، وليس فقط فى مسئوليتها عن الرقابة الالكترونية واللاسلكية ، فإنها تماثل وكالة الأمن القومى الأمريكية ..

ووكالة الأمن القومى الضخمة ، التى أطلق عليه المؤلف « جيمس بامفورد » اسم « قصر الألغاز » فى كتابه الذى يحمل ذات العنوان ، تعيش فى ظلال وكالة المخابرات المركزية على الرغم من أنها ترسى أساس نجاحات المخابرات الأمريكية .

ووكالة المخابرات العسكرية الاسرائيلية جيدة التنظيم مثل أية وحدة فى الجيش ، وتتألف من ستة أقسام لكن السيطرة لقسمين منها وهما قسم الجمع ، وقسم الانتاج .

وتتحدد مسئولية قسم الجمع فى إدارة العملاء والمخبرين خارج الحدود ، واعتراض الاتصالات اللاسلكية ، واختراق الأنظمة التليفونية فى الدول العربية للتصنت وتسجيل المحادثات التليفونية على الخطوط الأرضية ..

ويرجع نجاح القوات الاسرائيلية فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، جزئيا إلى الاعتراض السريع والتقاط اجتماعات التخطيط العربية ، ومن بينها مكالمة تليفونية بين الرئيس جمال عبد الناصر وبين الملك حسين عاهل الأردن ، ثم توزيع تفاصيل المعلومات بكفاءة من جانب وكالة المخابرات العسكرية إلى الجنرالات الإسرائيليين المختصين .

وتعمل وكالة المخابرات العسكرية على نحو وثيق مع سلاح الطيران فى مجال الحرب الالكترونية حيث يتم إرسال إشارات رادارية وإشارات أخرى أكثر تعقيدا وتطورا لارباك قوات العدو وخداعها .

أما قسم الانتاج ، فهو أكبر أقسام وكالة المخابرات العسكرية ويضم ثلاثة آلاف من الرجال والنساء من بين سبعة آلاف وهو المجموع الاجمالى لعدد العاملين فى المخابرات العسكرية ..

ومهمة العاملين فى قسم الانتاج هى تلقى المعلومات التى تم جمعها ثم تحليلها .

ويتم تنظيم العاملين فى هذا القسم فى اطار مكاتب وفقا لقواعد جغرافية ووظيفية كما هو الحال فى الموساد .

فهناك مكتب المنطقة الغربية وتضم مصر والسودان وليبيا ، والمنطقة الشرقية وتضم العراق وسوريا ولبنان ، وهناك مكتب خاص للأردن وشبه الجزيرة العربية ، ومكتب يختص بفلسطين لتتبع واقتفاء أثر الجماعات الفدائية ، ومكتب آخر يضم محللين لبحث العلاقات العربية ــ العربية ومكتب لاقتصاديات الشرق الأوسط ..

ويقدم قسم الانتاج تحليلات تتضمن المشورة لصناع القرار السياسى فى إسرائيل .

ووكالة المخابرات العسكرية مسئولة أيضا عن إرسال الملحقين العسكريين إلى السفارات الاسرائيلية فى الخارج ، وعن فرض الرقابة العسكرية على الصحف ، وتتحمل أيضا مسئولية الأمن الميدانى الذى يختص بمنع تسرب الأسرار من وحدات الجيش الاسرائيلى .

وتضم الوكالة أيضا قسما صغيرا يسمى قسم الأبحاث والتطوير ، يصمم المعدات وبرامج أنظمة الكمبيوتر الخاصة بعمل المخابرات ، كما أن هناك وحدتى مخابرات صغيرتين خاصة بكل من سلاح البحرية وسلاح الطيران .

ويقدم هذا البناء إلى رئيس الوزراء وإلى مجلس الوزراء تقدير المخابرات القومى السنوى موقعا من جانب رئيس الوكالة ، وهو يهدف إلى مراجعة النطاق العريض من العوامل العسكرية ، الاقتصادية والسياسية التى تزيد من احتمال الحرب او السلام ، والتنبؤ بها .

وفى الأعوام بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، فإن هذه التقديرات قد تشوهت من جراء تأثير « المفهوم العام » .

وقد وضعت الحقيقة المدركة موضع الاختبار فى نوفمبر ١٩٦٩ ، عندما تلقت وكالة المخابرات العسكرية الإسرائيلية معلومات من مصر بدا انها تتناقض مع المفهوم العام ومفادة أن مصر بصفة خاصة والعرب بصفة عامة لن يتمكنوا من شن حرب شاملة ضد إسرائيل ..

أشارت هذه المعلومات إلى أن المصريين يقومون بإعادة بناء قواتهم المسلحة بصورة أكثر نجاحا مما كانت تعتقده إسرائيل .

لكن المحللين فى وكالة المخابرات العسكرية لم يستفيدوا بهذه المعلومات ، لأنهم كانوا غير قادرين على قبولها ..

وعلى الرغم من الإشارات المبكرة ، فإن إسرائيل فوجئت مفاجأة كاملة فى فبراير عام ١٩٧٠ ، عندما تكشفت تفاصيل التورط العسكرى السوفيتى الهائل فى مصر .. فللمرة الأولى تم إلحاق مستشارين سوفيت بالوحدات المقاتلة المصرية

وهو حقيقة أدت إلى تعديل حسابات إسرائيل بدرجة كبيرة فيما يتعلق بالدفاع عن الحافة الغربية لشبه جزيرة سيناء المحتلة .

لقد كان من الواضح أن المخابرات العسكرية الاسرائيلية أخفقت فى أن تقوم بالتحذير مسبقا بأخطر تورط لدولة عظمى فى المنطقة على مدى ١٣ عاما أو يزيد

وبدا واضحا للساسة الإسرائيليين أنه يتعين أن تقوم لجنة تحقيق مستقلة ببحث أسباب هذا الفشل . وبدلا من ذلك ، شكلت « أمان » لجنة مراجعة داخلية خاصة بها بقيادة البريجادير جنرال « ياعول بن — بورات » قائد وحدات التصنت فى « أمان » .. ولم تؤخذ نتائج هذا التحقيق الهين أبدا مأخذ الجد ..

أحس الجنرال « أهارون ياريف » قائد وكالة المخابرات العسكرية بأن هناك خطأ ما وقعت فيه هيئة محلليه فى « أمان » وشعر الضباط العاملون مع « ياريف » بالدهشة لأن مديرهم الذى يتسم عادة بالهدوء وعدم الانفعال ، أصبح يفقد أعصابه بسهولة كلما أثير موضوع التحليل . ويصرخ فجأة فى وجوه مرؤوسيه .

أحيانا كان « ياريف » يلوح بملف يحتوى على تقارير مخابرات أولية من الجبهة ، ويصيح فى وجه أحد محللى « أمان » قائلا :

« إن التقارير تختلف عن تقديراتك » . لكن غضب « ياريف » وصيحاته ، جاءت متأخرة جدا عن موعدها المناسب ، ولم تجد نفعا ..

بعد ثمانية أعوام أمضاها كرئيس لوكالة المخابرات العسكرية الاسرائيلية ، ترك « ياريف » موقعه فى نوفمبر عام ١٩٧٢ ليصبح مستشار « جولدا مائير » رئيسة الوزراء لشئون الارهاب ..

ترك « ياريف » وكالة أصبحت تشعر بالرضا عن النفس ومتغطرسة ..

لم يكن هناك من هو أكثر تشبثا بفكرة إسرائيل التى لا تقهر من رئيس الوكالة الجديد الميجور جنرال « إيلى زيرا » ..

فقد كان ، من وجهة نظر بيروقراطية ، فوق قمة العالم . فالمخابرات العسكرية

هى التى جعلت انتصار حرب الأيام الستة ممكنا وامتد الثناء الاجماعى على المؤسسات السياسية والدفاعية ليشمل « ياريف ».

وكان لزيرا أيضا نصيب فى هذا بوصفه وكيله إلى أن ورث الوظيفة العليا ..

وقد بلغت سمعة « أمان » المحلقة حدا أدى إلى أنه عندما ماذكر « زيرا » فى عام ١٩٧٣ أن مصر مشوشة وغير مستعدة إلى حد كبير لشن هجوم على اسرائيل ، لقى ذلك موافقة بوصفه مرجعا نهائيا فى القدس .

أدلى « زيرا » بهذا التصريح فى مايو عام ١٩٧٣ عندما أعلنت حالة التأهب بين صفوف الجيش المصرى ، واستعدت وحداته للقيام بهجوم شامل محتمل على طول قناة السويس .

وعندما لم يحدث شىء ، وخفضت حالة التأهب بين صفوف المصريين ، اعتبر ذلك تأكيدا لرأى « زيرا » وللمفهوم العام .

وكان قد تمت تعبئة بعض قوات الاحتياط الاسرائيلية ، لكن ذلك اعتبر مضيعة للمال . ثم رصدت استعدادات عسكرية مماثلة من جانب كل من مصر وسوريا فى أواخر سبتمبر عام ١٩٧٣ ، ولكنها وفقا للمفهوم العام المهيمن اعتبرت غير ضارة ..

وحتى فى الولايات المتحدة ، فإن وكالة المخابرات المركزية ، وفقا لما ذكره الرئيس الأمريكى أنذاك « ريتشارد نيكسون » ، قدمت تقريرا فى الخامس من أكتوبر إلى البيت الأبيض مفادة أن الحرب فى منطقة الشرق الأوسط غير مرجحة ، وأن تحركات القوات العربية الضخمة وغير المعتادة هى مجرد مناورات سنوية .

ولسوء الطالع ، فإن وكالة المخابرات المركزية كانت تحصل على معظم الحقائق والمعلومات عن الشرق الاوسط من المخابرات الاسرائيلية عن طريق اتصال مباشر بين مقر المخابرات المركزية فى فيرجينيا وبين مقر الموساد فى تل أبيب . وبمعنى آخر ، فإن الأمريكيين تلقنوا المفهوم العام مما أعماهم أيضا .

وفى الوقت الذى كان الاسرائيليون يقومون فيه بجمع المعلومات سرا ، فإن الرئيس « انور السادات » أشار إلى نواياه الحقيقية من خلال إيماءات واضحة فى اطار سلسلة من الخطب السياسية تكشف عن الميل للحرب ..

ففى الذكرى الثالثة لرحيل سلفه عبد الناصر ، فى الثامن والعشرين من سبتمبر ، خاطب « السادات » أمته قائلا :

« نحن لن ندخر جهدا ولا تضحية لتحقيق هدفنا .. أنا لن أناقش أية تفاصيل .. لكن تحرير الأرض هو المهمة الأولى والأساسية التى تواجهنا » .

لكن « زيرا » ومحلليه فى وكالة المخابرات العسكرية الاسرائيلية ، كانوا قد قرروا منذ وقت طويل ، إهمال سيل التصريحات العربية المتشددة التى يدلى بها ساسة من أمثال « السادات » حتى ولو كانت المعلومات الأخرى تبدو مؤكدة لعزم مصر خوض الحرب ..

وقد بحث قادة المخابرات العسكرية الاسرائيلية تقريرا مفزعا قدمه ضابط مخابرات ملحق بالقيادة الجنوبية للجيش الإسرائيلى ، التى تشرف على سيناء المحتلة وحتى خط بارليف الذى يحمى الجانب الذى يسيطر عليه الإسرائيليون من قناة السويس ، لكنهم رفضوا التقرير .

ذكر التقرير الذى قدمه الملازم « بنيامين سيمانتوف » ، فى اليوم الأول من أكتوبر ، أن مصر تستعد لشن هجوم عبر قناة السويس فى غضون أيام لكن « زيرا » لم يتأثر أو يتحرك ..

وعلى النقيض من ذلك ، فإن الموساد كانت أكثر تأهبا ويقظة . فقبل أكثر من يومين من الهجوم المصرى والسورى ، بعث عميل للموساد فى القاهرة بأن الحرب تلوح فى الأفق وتوشك على الاندلاع ..

وقد أخذ « زفى زامير » رئيس الموساد هذا التحذير مأخذ الجد ، لكنه لم يناضل من أجل الدفاع عن وجهة نظره .

وبالتحديد فإن كيفية إساءة المخابرات الاسرائيلية فهم إشارات الحرب لاتزال

سرا غامضا ، خاصة وأن ضباط المخابرات الذين أحيلوا للتقاعد مازالو يدافعون بطريقة محمومة عن شرفهم ..

ووفقا لنظام العمل السارى أنذاك ، فإن « زامير » رئيس الموساد كان المسئول عن تقديم التقارير حول مثل هذه المعلومات إلى كل من « جولدا مائير » رئيسة الوزراء ، وإلى وكالة المخابرات العسكرية كتابة .

وقد اتهم كبار ضباط « أمان » وأجهزة المخابرات الأخرى « زامير » بأنه على الرغم من أنه كان مقتنعا بأن الحرب وشيكة إلا أنه اكتفى بإبلاغ ذلك تليفونيا إلى « زيرا » رئيس المخابرات العسكرية ، وكلف أحد مساعديه بإبلاغ ذلك إلى مكتب رئيسة الوزراء « جولدا مائير » ..

واعتقد مساعد « زامير » أن كل ماهو مطلوب منه هو نقل المعلومات شفاهة إلى مكتب « جولدا مائير » لكنه لم يستطع الاتصال بالمسئول المختص بواسطة التليفون ..

ولم تصل المعلومات إلى حيث كان ينبغى أن تصل كما أن « زامير » لم يكن موجودا للتحقق من هذه المعلومات منه ..

فقد غادر « زامير » إسرائيل للقاء مصدر الموساد الذى قدم هذه المعلومات ، كوسيلة ليقوم بنفسه لتقييمها ، وكان مصدر هذه المعلومات قد خرج من مصر لفترة قصيرة للقاء رئيس الموساد وبالتالى لم تستطع « جولدا مائير » رئيسة الوزراء أن تجد « زامير » يوم الجمعة الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣ .

ولم تتوصل مؤسسة المخابرات الإسرائيلية إلى النتيجة التى مفادها أن الحرب ستنشب يوم السبت ٦ أكتوبر ، إلا صباح اليوم نفسه وكان الأوان قد فات تماما ..

صحيح أن إسرائيل كان بمقدورها استخدام سلاحها الجوى لتوجيه ضربة وقائية ، لكن « مائير » ووزير الدفاع « موشى ديان » قررا ألا يفعلا ذلك ..

كان يعلمان أن الولايات المتحدة لن توافق على مثل هذا الإجراء ، وهكذا من

أجل الحفاظ على المساندة الأمريكية لإسرائيل ، قرر الإثنان — مائير وديان — أنه يتعين على إسرائيل الانتظار وامتصاص الضربة الأولى ..

ولم يكن ذلك سوى مثال على الاعتماد المتزايد على الحكومة الأمريكية الذى أصبح نمطا متكررا فى السياسات الخارجية والدفاعية لإسرائيل ..

ففى عام ١٩٦٧ ، كان من الحيوى أن يعود « مائير اميت » رئيس الموساد من واشنطن ليقدم تقريرا عن انطباعه بأن الرئيس « جونسون » سيعطى إشارة الضوء الأخضر للقيام بضربة وقائية ..

وفى عام ١٩٧٣ ، اتخذت « مائير » و « ديان » القرار المعاكس استنادا إلى نفس العامل : وهو الأمريكيون الذى كان تأييدهم يعتبر قدس الأقداس الذى لايمكن التضحية به .

كانت مفاجأة « يوم كيبور » مماثلة لما كتبه المؤرخون الأمريكيون عن الهجوم اليابانى على بيرل هاربور فى عام ١٩٤١ ، فالمعلومات كانت موجودة ومتاحة لكن رؤساء المخابرات اختاروا تجاهلها أو أساءوا تحليلها ..

اضطر جنود المشاة الإسرائيليون فى سيناء ومرتفعات الجولان إلى التضحية بأرواحهم لتعويض رضى زعمائهم عن أنفسهم وأخطاء مؤسسة المخابرات .. وفى اطار معارك ضارية استعاد السوريون جزءا من مرتفعات الجولان وعبر المصريون قناة السويس وكسبوا موطىء قدم فى سيناء ، وأصيب « ديان » — بطل حرب ١٩٦٧ — بالذعر وبلغ به اليأس والاكتئاب ، فى اليوم الثالث من الحرب ، حدا جعله يغمغم فى غموض عن التدمير الممكن للمعبد الثالث لإسرائيل .

ويروى التاريخ اليهودى ، بالطبع ، عن المعبد المقدس الأول فى القدس الذى دمره أهل بابل فى عام ٥٨٦ قبل الميلاد وخرب الرومان المعبد الثانى فى عام ٧٠ بعد الميلاد .

أما المعبد الثالث فهو دولة إسرائيل ذاتها ، وحدد « ديان » فرص بقائها بأنها منخفضة جدا ..

وثار حديث بين الجنرالات الاسرائيليين حول استخدام الأسلحة « غير التقليدية » .. وفى ذلك الأسبوع تم للمرة الأولى وبجدية بحث الحاجة المحتملة لاستخدام القنابل النووية الإسرائيلية كملجأ أخير للدفاع الانتحارى تقريبا ..

كانت الترسانة النووية السرية ، التى عملت وكالة « لاكام » الخفية بجد بالغ لامتلاكها ، لم تختبر بعد .. لكن طبقا لأوامر « موشى ديان » وزير الدفاع تم إعداد بعض صواريخ « أريحا » وحوامل خاصة للقنابل على طائرات الفانتوم ، تمهيدا للاستخدام المحتمل للأسلحة النووية .

أثر يأس وزير الدفاع تأثيرا مخيفا على معنويات « جولدا مائير » وبدا أنها تفكر فى الانتحار كما يتذكر كاتم أسرارها « لو كادار » يقول « كادار » :

« لم أرها أبدا بمثل هذا الشحوب ، وقالت لى أن ديان يريدنا أن نناقش شروط الاستسلام وأيقنت أن إمرأة مثلها لن تقبل مطلقا أن تعيش مثل هذه الظروف ، لهذا أعددت العدة [لانتحار] كل منا .. ذهبت للقاء طبيب صديق لى ، ووافق على أن يعطينى الحبوب الضرورية لكى يمكننا نحن الإثنين ــ أنا وهى ــ الرحيل معا » .

استجمعت « مائير » قواها ، وأمرت هى ورئيس أركان جيشها الليفتنات جنرال ديفيد [دادو] إليعازر ، الذى كان قويا كصخرة ، بتوجيه الهجمات المضادة التى أدت فى نهاية المطاف إلى تحقيق النصر .

تمثل الضرر قصير الأمد فى ثمن باهظ تماما بالنسبة لإسرائيل ، وهو مقتل ٢٧٠٠ جندى أى مايعادل مع مراعاة تناسب السكان مصرع ١٧٠ ألف أمريكى .

وفى دولة يتجاوز عدد سكانها الثلاثة ملايين نسمة بالكاد ، فإن الخسارة كانت صدمة ..

أما الأضرار بعيدة الأمد ، فتحددت فى أن دولة إسرائيل بأسرها فقدت الثقة فى مؤسسة مخابراتها الأسطورية .

لم يكن ذلك مجرد احساس ، بل حدث كتابة .. فقد أمرت « مائير » رئيسة الوزراء بإجراء « تحقيق رسمى » حول حرب « يوم كيبور » والمحدال أو التقصير .. وهو اللفظ المخفف الذى صيغ على الفور تعبيرا عن تخبط المخابرات الذى جعل الحرب مفاجأة كاملة .

وعرف المحققون باسم « لجنة أجرانات » ، نسبة إلى رئيس اللجنة « شيمون أجرانات » رئيس المحكمة العليا فى إسرائيل ..

وكالعادة ، أفلت الساسة من الوطأة العظمى للتحقيق ، ووجه اللوم إلى الجيش ومؤسسة المخابرات .. وبرأت اللجنة ساحة « مائير » و « ديان » من المسئولية المباشرة عن المحدال ..

وعلى العكس من ذلك ، جعلت « لجنة أجرانات » من « إليعازر » رئيس الأركان وقائد المنطقة الجنوبية « شاموئيل جونين » كبش فداء ، ودمر التقرير الرسمى بقسوة مستقبل « زيرا » رئيس « أمان » وثلاثة من مساعديه .. وتم استبدالهم بضباط جدد وأصبح الميجور جنرال « شلومو جازيت » قائدا لوكالة المخابرات العسكرية .

أوصت « لجنة أجرانات » بإعادة تنظيم بنيوية لمؤسسة المخابرات بأسرها ، على أن يتضمن ذلك تشكيل وحدة جديدة ..

ونتيجة لذلك ، أعيد إلى الحياة مركز الأبحاث والتخطيط السياسى التابع لوزارة الخارجية ، الذى كان موجودا على الورق فقط منذ عام ١٩٥١ . ومهمته ليست جمع المعلومات ولكن تقديم تقييم مستقل للبيانات التى جمعت بالفعل .. وللمركز مقره الخاص ويقع فى مبنى منفصل مسور داخل وزارة الشئون الخارجية فى القدس ..

ولا يرجع هذا إلى أن للمركز عملاءه السريين ولكن لحماية مادة المخابرات الأولية التى تقدمها الموساد ووكالة المخابرات العسكرية ..

وتضمنت التغييرات الأخرى توسيع نطاق قسم الأبحاث الصغير التابع

للموساد ، لكيلا يتم الاعتماد فقط على القدرات التحليلة لوكالة المخابرات العسكرية .

وكما اقترحت « لجنة أجرانات » بدأ باحثو الموساد فى المشاركة فى اعداد تقدير المخابرات القومى الذى يعد كل عام لحساب رئيس الوزراء .

وعلى المستوى السياسى ، تحملت « مائير » و « ديان » ضغط الانتقادات الحادة على مدى بضعة شهور بسبب شبه الهزيمة فى اكتوبر ١٩٧٣ . لكن الضغط أصبح لا يحتمل ، وفى إبريل ١٩٧٤ ، قدما استقاليتهما ..

أصبح « اسحاق رابين » الزعيم الجديد لإسرائيل ، ولم يكن غريبا على تقارير المخابرات بوصفه رئيس أركان الجيش فى حرب عام ١٩٦٧ ، ثم سفيرا لدى واشنطن ..

وبوصفه رئيسا للوزراء ، طلب أن يرى معظم البيانات الأولية التى تجمعها وكالات المخابرات بدلا من الملخصات المنظمة التى يفضلها كثير من الساسة المدنيين .

ولم يرجع ذلك إلى الخلفية العسكرية لرابين فحسب .. فوكالة المخابرات المركزية اعتبرته ، فى صورة شخصية سرية له ، استبطانى [1] ولديه ميل للقلق .

وقد كانت له عادة شخصية متميزة وهى عدم الاعتماد على الآخرين ، وبالطبع فإن « رابين » لم يكن فى طريقه للثقة بتقييم وكالات المخابرات بعد الفشل الكامل لتحليلاتها فى عام ١٩٧٣ . كان يتحرك ببساطة فى اطار المزاج القومى الجديد .

كانت الروح المعنوية لوكالة المخابرات العسكرية فى الحضيض . وعلى النقيض من ذلك فإن الموساد أفلتت تقريبا من الكارثة المفاجئة ليوم كيبور دون أن يمسها أذى ، ومن التحقيقات التى أعقبتها .

ورجع ذلك إلى أن « زفى زامير » قد عرف أن حرب اكتوبر آتية ، وغفر له فشله فى أنه لم يزعق بالتحذير ..

---

(١) الاستبطان هو ميل المرء لفحص أفكاره ودوافعه ومشاعره .

وكافأ « رابين » الموساد نتيجة لذلك بمهمة جديدة : وهى تنسيق اجتماعاته السرية والاتصالات الرسمية الأخرى مع الملك حسين عاهل الأردن ، وهذا بالطبع أكثر جوانب السياسة الخارجية لإسرائيل حساسية وسرية ..

فأهم من كل شيء ، أن العاهل الأردنى ، الذى تتاخم أرضه اسرائيل من ناحية الشرق ، قد ابتعد عن حرب « يوم كيبور » رغم مطالبته العلنية باستعادة ضفته الغربية السابقة .. وخلف الكواليس ، كان الملك حسين يجرى اجتماعات وجهاً لوجه مع زعماء إسرائيل منذ عام ١٩٦٣ ، وهدف فى البداية إلى التوصل إلى معاهدة سلام لكنه قنع فيما بعد بالسلام الواقعى الراسخ وغير المعلن ..

أشارت الموساد ، فى اتصالاتها مع وكالة المخابرات المركزية لترتيب التفاصيل ، إلى الاجتماعات السرية بالاسم الشفرى « عملية المصعد » .

وربما يكون غير معروف للإسرائيليين ، أن « حسين » كان اسمه فى كشف مرتبات وكالة المخابرات المركزية بوصفه « مصدر قوة » فى الشرق الأوسط .

وقد تعقب دور الموساد الآثار القديمة لأقدام « روفين شيلوح » مؤسس الموساد والذى سبق ان أجرى مباحثات سرية حتى عام ١٩٥١ مع الملك « عبد الله » جد « حسين » .

كشف « رابين » و « حسين » هذه العلاقة ، وذهب العاهل الأردنى إلى مدى جعله يزور رئيس الوزراء الإسرائيلى فى تل أبيب ، ويعد هذا سر لم يكشف النقاب عنه مطلقا حتى فى مذكرات المسئولين القلائل الذين عرفوا بالدبلوماسية الخفية .

شعر الملك بأنه المسيطر إلى حد بعيد بعد أن هزم فيلقه العربى منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات فى الحرب الأهلية عام ١٩٧٠ .

وقد ساعد الاسرائيليون « حسين » بطريقة غير مباشرة ، بتحريكهم قواتهم ، بالتنسيق مع الولايات المتحدة ، لردع سوريا عن التدخل لصالح منظمة التحرير الفلسطينية .

وتمثلت إحدى النتائج فى تبادل للمعلومات مفيد للغاية وبالغ السرية بين

الموساد وبين البوليس السرى الأردنى ، المعروف باسم « المخابرات » .

كان عدوهما المشترك المنظمات الإرهابية الفلسطينية ، وأبلغ الاسرائيليون وهم سعداء « حسين » بمؤامرات منظمة التحرير الفلسطينية ضده وضد الوزراء فى حكومته .. ولم تكن بالقليلة العدد .

وفى الوقت نفسه ، أمدت المخابرات الأردنية الموساد بنافذة تطل منها على السياسات والمتطرفين الخطرين فى العالم العربى ..

لم يطلع الاسرائيليون والأردنيون بعضهما البعض على كل شىء ، وكان الإسرائيليون حذرين بصفة خاصة بحيث لا يتعرض عملاؤهم ومخبروهم لأى خطر ، لكن كبار المسئولين فى الموساد والمخابرات الأردنية اجتمعوا معا بصورة متكررة على جانبى نهر الأردن وفى أرض محايدة فى أوربا ..

إجتمع « حسين » مع « رابين » فى مايو ١٩٧٥ قرب حدودهما الصحراوية فى وادى عربة المترب ..

وعندما تم نقل الملك بطائرة هليكوبتر إلى أحد بيوت الضيافة ، التى تديرها الموساد ، والذى تقع شمال تل أبيب مباشرة فى مارس ١٩٧٧ ، قامت الموساد بتسجيل المباحثات بكاميرات وميكروفونات مخبوءة .. وتم حفظ شرائط الفيديو والملفات الرسمية فى خزانة مغلقة فى أرشيف الحكومة الاسرائيلية دون أية خطة على الاطلاق للكشف أو الإعلان عنها .

وكان للموساد أيضا امتياز ترتيب زيارة سرية لرابين إلى دولة عربية أخرى ، هى المغرب ..

وقد أمل « رابين » فى كسر الطريق المسدود فى الشرق الأوسط ، بعد أن اكتشف أن الأردن لن يوقع أية معاهدة سلام علنية وقرر أن الجبهة المصرية تتطلب شيئا أكثر ديمومة من مجرد فك الاشتباك بين القوات ..

طار رئيس الوزراء إلى الرباط فى عام ١٩٧٦ مرورا بباريس ، وهو يضع باروكة على رأسه كوسيلة للتخفى .

طلب « رابين » من الملك الحسن الثانى السعى لإقناع الرئيس المصرى « السادات » بالقدوم والجلوس إلى مائدة التفاوض .

لم تكن هناك نتيجة سريعة للمبادرة تجاه القاهرة ، لكن التعاون السرى بين إسرائيل والمغرب تأكد من جديد ..

وأصبح للموساد ولوكالة المخابرات المركزية حرية التجول والحركة وعمل اتصالات مع العرب الآخرين المحتمل أن يكونوا نافعين ، وإدارة مواقع تصنت للاحتفاظ بأذن الكترونية تسمع مايجرى فى شمال إفريقيا وتقديم المشورة للملك وكبار مسئوليه بشأن الأمن الداخلى ..

وعلانية ، وعلى رؤوس الأشهاد ، كان دبلوماسيو إسرائيل مشغولين ، يعملون مع « هنرى كيسنجر » وغيره من الوسطاء الأمريكيين لصياغة اتفاقات الفصل بين القوات مع مصر وسوريا ..

ولم يكن التحرك المنسق الأمريكى ــ الاسرائيلى قاصرا على الدبلوماسية ، فقد كان يجرى استكشاف مجالات أوسع نطاقا بكثير ..

ونتيجة لرضى « كيسنجر » وإدارة نيكسون عن ضبط النفس الاسرائيلى عشية حرب عام ١٩٧٣ فقد كافأوا تابعتهم بأحدث طرازات الدبابات والطائرات والصواريخ ..

لقد بدأ العصر الذهبى للتعاون العسكرى . وبتشجيع من المسئولين فى عهد « نيكسون » ثم من إدارة الرئيس « جيرالد فورد » ، حذت الشركات الأمريكية حذو حكومتها عن طريق الاستثمار فى الصناعات الإسرائيلية ، وإنشاء مشروعات مشتركة لإنتاج كل من العتاد العسكرى والمدنى والخبرة الفنية .

وتزايدت الاتصالات بين القوات المسلحة فى الدولتين مع مشاركة العاملين العسكريين فى تبادل البرامج لمنفعة الجانبين .

وزودت إسرائيل الولايات المتحدة بنظرة متفحصة عن حالة التكنولوجيا السوفيتية تستند إلى الأسلحة التى استولى عليها الإسرائيليون فى حروبهم ضد العرب ..

فحص الأمريكيون الأسلحة ، وطوروا الإجراءات المضادة المناسبة ، ثم بعثوا الأسلحة الجديدة إلى إسرائيل لإختبارها ..

وشملت هذه الأسلحة صواريخ لاختراق دروع الدبابات ، وأجهزة تشويش لخداع الرادار وأنظمة التوجيه ، وأجهزة كهربائية والكترونية متقدمة لاستخدامها فى الطائرات الحربية .

وهكذا يمكن اختبار المنتجات العسكرية الأمريكية والبرهنة على فعاليتها فى تجربة حية من جانب وحدات مقاتلة حقيقية فى معارك حقيقية .

وحتى بعد أن أصبحت الولايات المتحدة الحليف الرئيسى بلا أدنى شك والملاك الحارس لإسرائيل فإن الدولة اليهودية كانت منساقة إلى فترة انتقالية بعد عام ١٩٧٣ دون أى توجه واضح فى تشكيل علاقاتها مع جيرانها العرب ..

عكس الاخفاق فى توقيع أية معاهدة سلام على الرغم من التوصل إلى اتفاقات أكثر تواضعا لفرض قيود على القوات ، الفترة الانتقالية بين السلام والحرب خلال فترة « رابين » كرئيس للوزراء ..

وبالمثل ، فإن « رابين » عندما اختار رئيسا جديدا للموساد ، لم ينظر إلى الموضوع بوصفه مسألة حياة أو موت .

فتغير الحرس لم يعنى أى اختلاف حقيقى .. فالأمر لايعدو أن أحد جنرالات الجيش ترك منصبه ، وجاء آخر جديد مكانه ..

بعد أن خدم « زفى زامير » خمس سنوات كرئيس للموساد ، فعل مثلما فعل سلفه « مائير أميت » ، واستقال من منصبه فى الوكالة دون أن يترك أثرا أو يشعر به أحد مثلما كان الحال عند انضمامه إلى الوكالة .

انتهت فترة خدمته فى عام ١٩٧٤ ، وسيطر عليها إخفاقان : كارثة ليليهامر وحرب « يوم كيبور » ، على الرغم من أن الحرب لم تلطخ سمعته شخصيا ..

اختار « رابين » معرفة قديمة ، الميجور جنرال « اسحاق [حاكا] حوفى » ليعمل رئيسا للموساد .

وعكس التعيين الذكريات المتخلفة عن اخفاق المخابرات فى عام ١٩٧٣ ، لأن « حوفى » لايمكن أن يفخر سوى بتصرفاته الشخصية وقت الحرب .. فمن المحتمل أن يكون « حوفى » بوصفه مسئولا عن القيادة الشمالية للجيش ، الجنرال الوحيد الذى حث رؤساءه على الاهتمام والحذر من تحركات القوات السورية التى تهدد بالخطر فى الأسابيع السابقة على يوم كيبور .

فقد طلب « حوفى » تعزيز دباباته ووحدات مدفعيته لكن التماساته لقيت التجاهل .

وخلال الحرب ، أبلى « حوفى » وجنوده بلاء حسنا واستعادوا جبل الشيخ ومرتفعات الجولان بل وتقدموا إلى أعمق من ذلك داخل سوريا .

ولد « حوفى » فى عام ١٩٢٧ ، وأصبح أول رئيس للموساد من الصابرا (١).

والصابرا هى الكلمة العبرية التى تستخدم للدلالة على المواطنين اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل .

وعلى غرار الكثيرين من جيله ، انضم « حوفى » إلى قوات البالماخ الخاصة ، وقاتل فى حرب عام ١٩٤٨ ، وقرر أن يبقى فى الجيش مثلما فعل « أميت » و « زامير » .

وبوصفه أحد قادة قوات المظلات ، فقد شارك فى عديد من العمليات الاسرائيلية الجريئة فى سيناء وقطاع غزة قبل حرب عام ١٩٥٦ وبعد ذلك بعشرة أعوام أصبح ضابط تخطيط فى إطار الاستعدادات لحرب الأيام الستة .

وفى يوليو عام ١٩٧٤ ، غادر « حوفى » ، الممتلىء الجسم وذو الوجه المستدير ، الجيش واختفى ببساطة . ورفضت السلطات الإسرائيلية التعليق على مكان وجوده ، لكن المظلى السابق كان قد هبط واستقر فى مقر قيادة الموساد فى تل أبيب .

---

(١) الصابرا لفظة عبرية تعنى أساسا ثمرة الصبار ، ويقال أنها استخدمت للدلالة على اليهود المولودين فى إسرائيل لأنهم يماثلونها فهم يبدون شائكين من الخارج لكنهم يتسمون بعذوبة وحلاوة داخلية ..

لم يكن عبقرية فى مجال المخابرات ، لكنه لقى احتراما كبيرا دائما من جانب رجاله ، كما كان مثابرا وجادا . وتدعمت علاقته مع رئيس الوزراء بدرجة كبيرة من جانب الحقيقة التى مفادها أن « حوفى » أمضى سنوات مراهقته فى نفس جناح حركة العمل الذى انتمى إليه « اسحاق رابين » .

وفى الوقت الذى واصلت فيه الموساد اتباع السياسة الإسرائيلية التقليدية لتطويق الدول العربية المعادية بأصدقاء « خارجين » ، أصبح من الواضح فى ظل « حوفى » أن إسرائيل لديها حاجة ملحة جدا للتوصل إلى تفاهم مع الدول العربية ذاتها . فبالاضافة إلى الأردن والمغرب ، والاتصالات المبدئية مع مصر ، جاء دور لبنان .

كان الدافع الأساسى مازال هو الفكرة القديمة لاقامة روابط مع الأقلية المسيحية المارونية فى لبنان ، لكن صنع علاقات فى بيروت منح الموساد قناة أخرى للاتصالات مع العالم الإسلامى أيضا .

وفى الوقت نفسه ، فإن الدبلوماسية السرية للموساد ، المتواكبة مع الحرب ضد الارهاب ، حققت ذروة نجاحها فى الجنوب البعيد فى قلب إفريقيا ..

فقد تم اللجوء إلى الروابط السرية التى صنعها « ديفيد كيمحى » وغيره من « الدبلوماسيين البدلاء » فى القارة عندما ووجهت إسرائيل باختطاف طائرة نفاثة فرنسية إلى عنتيبى فى أوغندا فى ٢٧ يونيو عام ١٩٧٦ .
بدا الموقف بالنسبة للإسرائيليين يائسا ومستحيلا ..

فقد غادرت طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية الفرنسية « إير فرانس » تل أبيب ، ورقم رحلتها ١٣٩ ، قاصدة أصلا باريس لكن تمكن من السيطرة على الطائرة إثنان من أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وألمانيا غربيان من أعضاء « رجال حرب العصابات الحضريين » اى « رجال حرب عصابات المدن » وهم ورثة عصابة « بادر ماينهوف » سيئة السمعة .

كان على متن طائرة الإيرباص الفرنسية مايزيد على ٢٥٠ شخصا من الركاب بما فى ذلك طاقمها ومن بين الرهائن المحتجزين مالايقل عن ٨٣ إسرائيليا

واختار المختطفون المدججون بالسلاح أن يحتجزوا الاسرائيليين واليهود فقط كأسرى ، وقاموا باطلاق سراح جميع الركاب الآخرين .

وقد أغضب هذا الفصل والتمييز ، الذى نقله أولئك الذين تم اطلاق سراحهم إلى مستخلصى المعلومات من رجال المخابرات فى فرنسا ، غضب الموساد المشهورة بالهدوء ورباطة الجأش عادة وغضب محللى وكالة المخابرات العسكرية أيضا .

فقد ذكرهم ذلك بعمليات الاختيار التى قام بها النازى فيما يتعلق بضحايا غرف الغاز من بين اليهود الوافدين إلى معسكرات الاعتقال فى سيارات نقل الماشية .

وتضايق عملاء الموساد أيضا من أن أحد الزعماء الأفارقة السود الذى صنعوه بدأ يعض اليد الاسرائيلية التى اعتادت أن تطعمه ..

ومن المعروف أن كثيرين من الحكام الأفارقة تخلوا عن صداقتهم مع إسرائيل فى أعقاب حرب عام ١٩٧٣ ، ومن بينهم الرئيس الأوغندى « عيدى أمين » ، الذى استولى على السلطة قبل ثلاثة أعوام بواسطة انقلاب بمعونة المستشارين العسكريين الإسرائيليين .

لكن الآن فإن هذا الرجل المجنون القاتل ، وهو رقيب سابق فى الجيش البريطانى وملاكم يلقى بأعدائه السياسيين إلى التماسيح ، يعيد تنظيم سياسته الزئبقية لصالح العالم العربى .

ونتيجة لرفضها للاستسلام التام عن طريق اطلاق سراح أربعين من الارهابيين المدانين كما طلب المختطفون ، لم تجد إسرائيل سوى الخيار العسكرى رغم صعوبته .

وفى ليل الثالث من يوليو عام ١٩٦٧ ، نقل سلاح الطيران العديد من وحدات القوات الخاصة « الكوماندوز] مسافة تزيد على ألفى ميل لإنهاء عملية الاختطاف .

وخدع الاسرائيليون برج المراقبة فى مطار عنتيبى عن طريق هبوط طائرات

النقل من طراز « هيركيولز » المملوءة بالقوات والأسلحة وبمستشفى ميدانى دون أن يصدر عن ذلك صوت .

وهبط بعض الجنود من طائرة إسرائيلية فى سيارة تعد نسخة طبق الأصل من سيارة « عيدى أمين » المرسيدس السوداء ، بينما اندفعت قوة الهجوم إلى مبنى الركاب القديم وقتلت سبعة أرهابيين فى غضون دقائق ..

ومن المعتقد أن الإسرائيليين اعتقلوا سرا ثلاثة آخرين من عصابة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المدعومة فى عنتيبى بتواطؤ الرئيس « عيدى أمين » .

وتم إنقاذ مايزيد عن مائة من الرهائن ، على الرغم من أن إثنين منهم قتلا بسبب تطاير الرصاص المنطلق من القوات الخاصة الاسرائيلية ..

وكان الليفتنانت كولونيل « يوناتان ينتانياهو » ، قائد أحد وحدات القوات الخاصة ، هو الجندى الإسرائيلى الوحيد المفقود ، فقد قتله بالرصاص قناص أوغندى فى برج المراقبة كما قتل ٤٥ جنديا أوغنديا .

ويعد نجاح إسرائيل الشهير والمذهل جزءا من الفلكلور غير الروائى للدولة اليهودية ، وهو نسخة جسور وأبعد مدى من الهجوم على مختطفى طائرة شركة « سابينا » فى تل أبيب قبل ذلك بأربعة أعوام ..

وحتى فى الولايات المتحدة فإن عملية عنتيبى فى الرابع من يوليو ألقت بظلالها تقريبا على الاحتفالات بمرور مائتى عام على استقلال الولايات المتحدة .

لم يتم الاحتفاء علانية ، وسط حالة الابتهاج فى إسرائيل ، بالعمل التمهيدى الممتاز الذى قام به عملاء مجهولون للموساد .

فقد أصدر مجلس الوزراء الاسرائيلى تعليماته إلى مؤسسة مخابراته بتصميم ردود الفعل الممكنة من اللحظة التى تم فيها اختطاف طائرة الإيرباص الفرنسية .

وعرفت الموساد بسرعة أن الرجل الذى يتعين الاتصال به هو « بروس ماكينزى » وهو مزارع ورجل أعمال بريطانى استقر فى كينيا ، وكان صديقا

حميما للرئيس « جومو كينياتا » والرجل الأبيض الوحيد فى مجلس وزراء « كينياتا » .

أسهم « ماكينزى » فى تنظيم دفاع وأمن كينيا بلده بالتبنى فى الوقت الذى عمل فيه على اطلاع وكالة المخابرات البريطانية « إم أى ٦ » على الأحداث فى إفريقيا ، كما كان يعرف الإسرائيليين معرفة جيدة جدا .

احتفظت الموساد ، عبر مركزها فى نيروبى ، بروابط ممتازة مع جهاز الأمن الكينى ..

وكان الاهتمام الخاص لإسرائيل يتحدد فى أن نيروبى ليست بعيدة عن القرن الافريقى ، وأنها واحدة من أكثر العواصم أهمية فى القارة ، بالنظر إلى وجود دبلوماسيين وجواسيس من كل الجنسيات وكل الانتماءات فى مكاتب الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية فيها ..

وأصبحت كينيا ، مع زائير فى وسط إفريقيا ونيجيريا فى الغرب ، واحدة من المراكز الاستراتيجية الثلاثة لنشاط المخابرات الإسرائيلية فى افريقيا .

وقد اجتذبت نيروبى الارهابيين أيضا بوصفها مفترق طرق عالميا . ففى ١٨ يناير ١٩٧٦ ، أى قبل أقل من نصف عام على دراما الاختطاف فى عنتيبى ، ألقى البوليس الكينى القبض على ثلاثة من الفلسطينيين على حافة مطار نيروبى ومعهم قاذفا صواريخ من طراز « سام ـــ ٧ » سوفيتية الصنع التى تحمل على الكتف .
وكان العرب يخططون لإسقاط طائرة ركاب تابعة لشركة « العال » وعلى متنها ١١٠ راكبا ، والتى كان من المقرر وصولها بعد حوالى ساعة .

وبعد استجوابهم ، ألقى البوليس السرى الكينى القبض على زوجين ألمانيين هما ، « توماس رويتر » و « بريجيت شولز » والإثنان فى الثالثة والعشرين من العمر ، لدى وصولها إلى نيروبى بعد ثلاثة أيام .

ثم اختفى الخمس المشتبه فيهم بعد ذلك ، وهم الفلسطينيون الثلاثة والألمانيان ، والذين قدموا مثالا آخر على التعاون بين الارهابيين العرب والشباب المتطرف الأوربى .

وحاولت أسرة « شولز » اكتشاف مكان وجودها لكن الحكومة الكينية نفت احتجازها لأى سجناء أجانب ، وفى نهاية الأمر ، أكدت إسرائيل أن الخمسة جميعا لديها وهم رهن الاعتقال .

فقد رتب « ماكينزى » عملية لتسليمهم خارج اختصاص القضاء قامت السلطات الكينية بمقتضاها بتسليم الإرهابيين إلى الموساد ، وفى إسرائيل حوكموا سرا ، وأدينوا ، وأودعوا السجن ..

وفى نهاية يونيو ، ومع وجود إسرائيليين من بين الركاب المختطفين فى عنتيبى ، تحولت الموساد إلى « ماكينزى » وهى فى حاجة إلى مساعدة أكبر .

وضمن « ماكينزى » موافقة الرئيس « كينياتا » على استخدام كينيا من جانب المخابرات الإسرائيلية .

وفى غضون بضع ساعات ، طار عشرة من عملاء الموساد و « أمان » إلى نيروبى وأنشأوا مركز تخطيط ، ليرسوا الأساس لعشرات آخرين من عملاء المخابرات والجيش .

وقام الاسرائيليون ، الذين تظاهر بعضهم بأنهم رجال أعمال وقام بعضهم الآخر بالتجديف فى قوارب صغيرة ، بعبور الحدود الى منطقة عنتيبى التى تقع على الناحية المقابلة من بحيرة فيكتوريا بالنسبة لكينيا ، فى مهمات استطلاعية ضرورية لمراقبة المطار وتحديد طرق الدخول والخروج ..

وسمحت كينيا أيضا للطائرة الاسرائيلية ، التى استخدمت كمستشفى ميدانى ، بالتوقف فى نيروبى بعد عملية الانقاذ الناجحة .

وقد أثمرت الارتباطات السرية التى أقامتها الموساد عن طريق نجاح الغارة الخاطفة على عنتيبى ، حيث أظهرت إسرائيل للعالم مواهبها فى مكافحة الارهاب ..

وأظهرت الدولة اليهودية أيضا أن بإمكانها تكريم أصدقائها السريين .. مثلما فعلت تجاه « جيمس أنجلتون » رجل وكالة المخابرات المركزية .. فبعد عامين من

الغارة على عنتيبى ، لقى « ماكينزى » مصرعه بسبب تعاونه مع اسرائيل ، حيث زرع عملاء ليبيون ، يعملون لحساب ديكتاتور أوغندا ، قنبلة دمرت طائرة « ماكينزى » النفاثة الخاصة .

كان ذلك هو انتقام « عيدى أمين » . لكن تقدير إسرائيل لماكينزى كان أخضر ومستمرا فقد جمع اتحاد قدامى عملاء المخابرات الاسرائيلية ، الذى يرأسه « مائير أميت » رئيس الموساد السابق ، المال لزراعة غابة تضم عشرة آلاف شجرة على تلال الجليل الأدنى [الجنوبى] إحياء لذكرى حليفهم البريطانى — الكينى .

ومن الطبيعى تماما ، أن نجاح عملية عنتيبى رفعت الروح المعنوية لمؤسسة المخابرات بعد ثلاثة أعوام من الإذلال الذى لقيته يوم كيبور .

لكن عملية مذهلة واحدة لم تكن كافية لإبقاء « إسحاق رابين » فى السلطة .

ففى مايو ١٩٧٧ ، رفض الناخبون الإسرائيليون على غير توقع رابين وحزب العمل ..

واختلطت كل الاخفاقات والفضائح ابتداء من فضيحة لافون إلى التقصير عام ١٩٧٣ ، مع رائحة أخرى للفساد المالى ، وأمسكت فى النهاية بتلابيب حزب العمل بعد أن حكم اسرائيل لمدة تسعة وعشرين عاما بغير انقطاع .

وفازت كتلة ليكود اليمينية فى الانتخابات ، وأصبح « مناحم بيجين » رئيس الوزراء الجديد .

أدى انتصار « بيجين » إلى شعور كبار المسئولين فى مؤسسة المخابرات الاسرائيلية بالصدمة ، مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من الإسرائيليين .

كانت وكالات المخابرات قد اعتادت على التعامل مع الوجوه اللامعة من حزب العمل ، كما أن معظم مسئولى وكالات المخابرات جاءوا من بين صفوف حزب العمل .

وعلى الرغم من أن أهداف القيادات العليا للمؤسسة كان مقصودا ألا تكون

حزبية إلا أن هذه القيادات العليا أرست علاقات ألفه حميمة تقريبا عبر السنين مع سادتهم السياسيين ..

والآن ، أصبح هناك شك بل وربما خوف من أن شهوة ليكود إلى السلطة ، والتى كان من الطبيعى أن يتوقعوها من حزب ظل بعيدا عن السلطة لمدة ثلاثة عقود ، ستؤدى إلى حركة تطهير فى صفوف الادارة المدنية التى عينها حزب العمل ..

ولم يكن لدى رؤساء المخابرات أى سبب للاعتقاد بأنه سيتم استثناؤهم من ذلك .

ولم تكن مخاوفهم بغير أساس ، لأنه كان هناك بالفعل قادة فى ليكود يحثون « بيجين » لشن مثل ذلك التطهير بالضبط ..

وقام « حاكاحوفى » رئيس الموساد و « افراهام أحيتوف » رئيس « شين بيت » بنقل رسائل متطابقة تقريبا إلى رئيس الوزراء الجديد ، مفادها أنهما على استعداد للاستقالة إذا كان يريد ذلك ..

فعلى الرغم من أنهما كانا موظفين مدنيين يمكنها الاحتفاظ بوظيفتيهما إلا أنهما سلما بحق الزعيم الجديد فى تعيين رجاله فى هذين المنصبين الحساسين .

وعلى أية حال ، فإن « بيجين » طلب منهما البقاء فلم يكن يرغب فى أن يسبب أية اضطرابات أو شعور بالاستياء داخل الوكالات الحكومية .

وفى واقع الأمر ، سعى « بيجين » بسرعة كبيرة إلى إقامة علاقات وثيقة مع كل « حوفى » و « أحيتوف » .

وكان من المعتاد أن تجد الرجلين ، وبصفة خاصة رئيس الموساد ، فى المكتب الخاص لرئيس الوزراء ..

كان « بيجين » مفتونا بالعمليات السرية للموساد والتى بدا من الواضح أنها تذكره بماضيه كرئيس لعصابة « أرجون » السرية فى الأربعينيات .

وبحماس يكاد يكون طفوليا ، كثيرا ما طلب « بيجين » من « حوفى » أن يخبره بكل شيء وألا يخفى أية تفاصيل ..

صبر « حوفى » صبرا جميلا ، على الرغم من أنه ذهل مرة بعد أخرى من جهل « بيجين » بالموضوعات المخابراتية والعسكرية .

وبوصفه خارج اللعبة منذ عام ١٩٤٨ ، فإن زعيم ليكود لم يكتسب خلفية من المعلومات مماثلة لما حصل عليها زعماء حزب العمل المطلعين على بواطن الأمور .

وكما أوضح « حوفى » فيما بعد ، فإن افتقار « بيجين » للمعلومات أرغمه هو ورئيس وكالة المخابرات العسكرية على الخوض فى تفاصيل كثيرة فى إيضاحاتهما لكى يستوعب رئيس الوزراء الصورة الكاملة .

عشق « بيجين » سحر وكالات المخابرات واستمتع بأن يكون رئيسها الجديد . ولكن كانت لديه أسباب أخرى لاهتمامه البالغ هذا

لقد جاء « بيجين » إلى السلطة ليغير التاريخ ، وأراد استخدام المخابرات الإسرائيلية لتحقيق ذلك .

كانت لدى بيجين رؤيته الخاصة لما ينبغى أن يفعله خلال سنواته الأولى كرئيس للحكومة الإسرائيلية .

ومن المعروف أن أعداءه السياسيين فى حزب العمل قد صوره على أنه شخصية شيطانية ويريد أن يفترس العرب ، وأنه داعية حرب سيثير صراعا مخيفا مع الدول العربية المجاورة لإسرائيل .

وعى « بيجين « المشكلة فيما يتعلق بصورته العامة وسعى بكل قوته ليبرهن على أنهم مخطئون وسيصبح صانعا عظيما للسلام ..

وكانت إحدى الخطوات لتحقيق ذلك اختيار « موشى ديان » ، الذى كان حتى ذلك الوقت نصيرا قويا لحزب العمل ، وزيرا لخارجيته .

وتحددت الخطوة الثانية فى ارسال « حوفى » رئيس الموساد إلى المغرب .

وصل « حوفى » رئيس الموساد ، وبرفقته مساعده « ديفيد كيمحى » إلى القصر المنعزل للملك الحسن الثانى المعروف باسم قصر « إفران » فى غضون أسابيع من تولى « بيجين » مهام منصبه كرئيس للوزراء .

كان رئيس الوزراء الجديد يأمل فى تحقيق مافشل « إسحاق رابين » خلال رحلته إلى المغرب فى العام السابق ، وهو صنع السلام مع مصر أكبر أعداء إسرائيل .

تمكن « حوفى » من الحصول على موافقة الحسن الثانى ليقوم بدور المضيف لاجتماع فريد ..

فرئيس الموساد ، الذى يشيع الكراهية والخوف فى العالم العربى ، كان على وشك الاجتماع بمسئولين مصريين كبار لتمهيد الطريق أمام إجراء مفاوضات فى المستقبل .

وفى ذلك اليوم نفسه ، وصل إلى المغرب مسئولين كبيرين من مصر ، وهما « كمال حسن على » مدير المخابرات العامة ، و « حسن التهامى » نائب رئيس الوزراء المعروف بتدينه ، والذى يثير السخرية من حين لآخر بسبب رؤاه الروحية ولكنه يلقى احتراما كبيرا لأنه كان كاتم أسرار « ناصر » فى الخمسينات ، وضابط اتصاله مع وكالة المخابرات المركزية .

وبعد سنوات سيعيد « كمال حسن على » إلى الأذهان كيف أصدر إليه الرئيس « السادات » التعليمات تليفونيا بأن يطير إلى الخارج برفقة « حسن التهامى » دون أية إيضاحات .

وطوال الرحلة الجوية ، ظل « التهامى » صامتا ، وكان كل مايعرفه « كمال حسن على » أنهما فى طريقهما إلى المغرب ..

دخل المصريان قصر « إفران » وصافحا الأجنبيين لكن لم يتم ابلاغ « كمال حسن على » بشخصيتهما ، وأصيب بالدهشة عندما طلب منه التهامى الانصراف من الغرفة .

لم يكن « كمال حسن على » ، وهو من الناحية الاسمية المسئول عن المخابرات العامة المصرية ، يعرف ماذا تفعل حكومته تحت أنفه بينما كان ملك المغرب يعلم تماما مايجرى وعندما انتهى الاجتماع ، لوح « كمال حسن على » بإصبعه فى غضب تجاه « حسن التهامى » قائلا له أنه لم يكن ليأتى لو عرف أنه سيتم استبعاده من الاجتماع .

فأجاب التهامى بأن الأجنبيين فرنسيان ، وأن المباحثات دارت حول صفقات أسلحة .

فازداد حنق « كمال حسن على » وقال :

« أنا رجل عسكرى ، وليس هناك سبب يدعو لعدم مشاركتى فى مثل هذه المباحثات » .

وعندما عاد « التهامى » و « كمال حسن على » إلى مصر ، شكا الأخير إلى الرئيس « السادات » وعلى حد قول « كمال حسن على » فإن « السادات » ضحك كما لم يره يضحك من قبل ، وأبلغه بالغرض الحقيقى من رحلة المغرب .

كان غرض « حوفى » هو إقناع المصريين بأن « بيجين » مخلص فى سعيه لتحقيق السلام ، وأنه قوى بمايكفى لتحقيق ذلك .

واتفق « حوفى » و « التهامى » على ضرورة عقد مزيد من الاجتماعات السرية .

وفى ١٦ سبتمبر عام ١٩٧٧ ، توجه « حسن التهامى » ثانية إلى المغرب للاجتماع هذه المرة مع « موشى ديان » وزير الخارجية الاسرائيلية الجديد ، لكن الجنرال المرهوب الجانب قديما كان أيضا رمزا حيا بالنسبة للعرب على التفوق العسكرى الإسرائيلى .

أعطى « ديان » ، وبرفقته « ديفيد كيمحى » ، الانطباع للتهامى أنه فى مقابل التوصل إلى معاهدة سلام مع إسرائيل ، فإن الدولة اليهودية ستكون مستعدة للانسحاب من كل سيناء بما فى ذلك التخلى عن حقول البترول والقواعد الجوية والمستوطنات .

وكان هذا أمرا غير متوقع ، بالنظر إلى سمعة « مناجم بيجين » التى بناها على أساس أنه يهودى متعصب للغاية وعنيد ..

وقد مهد اجتماع المغرب الطريق أمام الزيارة التاريخية التى قام بها السادات إلى القدس بعد شهرين .

وعلى الرغم من أن رؤساء المخابرات الإسرائيلية كانوا مشاركين ومتابعين فى عملية السلام مع مصر منذ البداية ، إلا أنهم أعربوا عن تشككهم بشأن فرص نجاحها .

وقد عاد « حوفى » من المغرب وهو مازال متشككا فى النوايا الحقيقية للرئيس « السادات » الذى لايمكن التنبؤ بتصرفاته .

وبالنسبة لوكالة المخابرات العسكرية ، فإنها تنبأت فى « تقدير المخابرات القومى » الذى تعده سنويا بأن « السادات » سيلجأ ثانية للحرب وليس لإقرار السلام ..

وقد أوضح محللو المخابرات العسكرية فى وقت لاحق أنه لم يكن بمقدورهم التنبؤ بقرار شخصى من جانب رجل واحد ، أى قرار السلام الذى اتخذه « السادات » فالمخابرات ، فى مثل هذه الظروف ، لايكون لديها سوى القليل جدا للمضى قدما .

وقد ذكر الجنرال « جازيت » رئيس « أمان » ، فى محاولة لتبرير أن وكالته بوغتت هذه المرة بالسلام وليس الحرب ، أن « السادات » اتخذ قرارا لم يتم بحثه مسبقا أو تقريره من جانب أى من المنظومات الحكومية العليا فى القاهرة .

وحتى بينما كان « السادات » يعد العدة لرحلته القصيرة وبالغة الأهمية إلى مطار « بن جوريون » ، فإن وكالة المخابرات العسكرية نصحت الليفتنانت جنرال « موردخاى جور » رئيس أركان الجيش بأن رحلة « السادات » الجوية المقبلة من القاهرة يمكن أن تكون تمويها لهجوم عسكرى مصرى ..

وترتيبا على ذلك تم إعلان حالة التأهب بين صفوف الجيش الإسرائيلى ليلة التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٧ .

وأثار « موردخاى جور » ارتباك « بيجين » بتشكيكه علانية فى نوايا « السادات » ، وتشديده على أن إسرائيل مستعدة للحرب .

لكن الارتباك لم يساور الرئيس « السادات » مطلقا ، ففور هبوطه من طائرته فى مطار « بن جوريون » صافح رئيس الأركان الاسرائيلى وقال له وهو يبتسم :

« لقد جئت من أجل السلام ، لا الحرب » .

لقد كانت وكالة المخابرات العسكرية ، التى مازالت تعانى من صدمة فشلها فى التنبؤ بالحرب عام ١٩٧٣ ، مبالغة فى الحذر حتى اللحظة الأخيرة .

وأصبح ضباط المخابرات العسكرية مصابين تقريبا بجنون الشك والارتياب ، ويتوهمون الحرب وراء كل باب ، نتيجة حالة الشلل التى عانوا منها بسبب فشلهم عام ١٩٧٣ وبسبب خوفهم من مواجهة الفشل ثانية .

ولحسن الطالع ، فإن هذا لم يصبح « مفهوما عاما » جديدا .

وعلى النقيض من ذلك ، كان « المفهوم العام » ألا يكون لديهم « مفهوما عاما » .

وبدلا من الإيمان المغالى فى الثقة فى النجاح أدت السيكولوجية الجديدة إلى تحليل بالغ السوء لكل شىء تقريبا .

وعلى أية حال ، فإنه جرى التعامل مع المعلومات الأولية بشكل أفضل مما حدث عام ١٩٧٣ وتم التأكيد من جديد على المراقبة العسكرية من مسافات بعيدة ، باستخدام الانجازات التكنولوجية مثل الطائرات التى تحلق بدون طيار والتى يمكنها إرسال صور تليفزيونية حية من فوق خطوط العدو .

ومهما كان الأمر ، فإن الاخفاق عام ١٩٧٧ فى التنبؤ بالسلام لم يكن بالغ السوء مثل تقصير المخابرات عام ١٩٧٣ والذى راح ضحيته ألوف من الأرواح الإسرائيلية فعلى الأقل كان الأمر متعلقا بالسلام وليس الحرب ..

وبعد ثلاثة أعوام ، وفى اعقاب توقيع معاهدة سلام كامب ديفيد ، جرى مشهد غريب على هامش زيارة أخرى قام بها « السادات » إلى إسرائيل ..

ففى عام ١٩٨٠ ، كانت القيادة المصرية فى حيفا ووقف « حسن التهامى » نائب رئيس الوزراء فى انتظار الدخول إلى حفل رسمى ، وعلى مسافة ستة أقدام منه ، وقف أيضا « حوفى » مدير الموساد وإلى جواره زوجته ..

وتظاهر « التهامى » و « حوفى » بأنهما لايعرفان بعضهما بعضا لم يتصافحا ، ولم يومىء أحدهما برأسه للآخر ..

وهنا تدخل أحد مراسلى التليفزيون الإسرائيلى ، الذى كان يعلم أن الرجلين قد بدأ سرا عملية السلام فى المغرب ، ودفع « التهامى » برفق قائلا له : « كفاك تمثيلا يارجل .. إن مافعلته قد أصبح مدونا فى سجلات التاريخ »

الفصل الحادى عشر

من أجل خير اليهود

فى يوليو ١٩٧٧ ، قال رئيس الوزراء لسكرتيره السياسى المخلص « يحيال كاديشاى » :

« يحيال ، أرجو أن تدعو « هارى هورفيتز » للقائى » كان « مناحم بيجين » زعيم إسرائيل وعازما على أن يصبح بطل الشعب اليهودى فى كل مكان ..

كان « كاديشاى » محدثا بارعا مولعا بالحديث ويمكن التعرف عليه بسهولة بشعره الأبيض ونظارته السميكة ذات الاطار الأسود ..

وقد عمل سكرتيرا خاصا لبيجين منذ أيام عملهما السرى فى « إرجون » .

وعرفا معا الاحباط الطويل للخدمة فى المعارضة البرلمانية ضد سلسلة لاتنقطع من الحكومات التى يقودها حزب العمل .

وبعد أن فاز « بيجين » فى النهاية فى الانتخابات العامة أصبح هو ورجاله أكثر توقا للتحرك الحقيقى ..

التقط « كاديشاى » التليفون الداخلى ، وطلب رقم ٢١١ ، وطلب من هورفيتز » القدوم بسرعة إلى مكتب رئيس الوزراء .

خلال الفترة القصيرة التى عمل فيها « هورفيتز » ، المولود فى جنوب إفريقيا

وصاحب الشعر الداكن ، لحساب « بيجين » كمستشاره للشئون اليهودية ، تعلم أن يفهم رئيسه .

فمن النادر أن يدعوه « بيجين » إلى مكتبه ولم يكن هذا يحدث إلا عندما يحتاج إلى مهارة « هورفيتز » فى صياغة الرسائل والوثائق الحساسة باللغة الإنجليزية .

وعلى الرغم من أن « بيجين » ولد وتعلم فى بولندا ، إلا أنه لم يكن يواجه سوى صعوبة بسيطة فيما يتعلق باللغة الانجليزية ، التى كان يشحذ معرفته بها بالانصات إلى راديو هيئة الإذاعة البريطانية ، وهذا تقدير خاص للندن من جانب رجل كان ارهابيا مطلوب القبض عليه خلال الانتداب البريطانى فى فلسطين ..

لقد أعجب « بيجين » ببريطانيا وأراد ان تحاكى إسرائيل ديمقراطيتها ..

ومع ذلك ، فعندما كان يريد « بيجين » أن يكتب شيئا يتصف بالبلاغة بصفة خاصة ، فإنه كان يلجأ إلى « هورفيتز » .

مر المستشار بسرعة بالعديد من الحراس الخصوصيين التابعين لوكالة « شين بيت » الذى يقومون بمهمة الحماية طوال الأربع والعشرين ساعة .

وعندما دخل مكتب « بيجين » بالطابق الثانى ، حياه رئيس الوزراء قائلا :

« هارى ، يسرنى أن تكتب رسالة ليست هامة فقط وإنما أيضا عزيزة إلى قلبى »

كانت الرسالة موجهة إلى الرئيس الماركسى الجديد لإثيوبيا ، الكولونيل « منجيستو هيلى ماريام ، وبلغة رقيقة بشكل غير عادى ، طلب « بيجين » من « منجيستو » السماح ليهود اثيوبيا بالانتقال إلى إسرائيل ..

ووضع « بيجين » مطلبه فى إطار نداء إنسانى إلى قائد المجلس الادارى العسكرى المؤقت فى أديس أبابا ..

وكان الجيش قد أطاح ، فى عام ١٩٧٤ ، بالامبراطور « هيلا سيلاسى » الصديق القديم لإسرائيل ..

أحس « بيجين » بأن هناك فرصة ملائمة للسعى لمواصلة اهتمامه الخاص بتحرير يهود العالم ، لأن القدس كانت قد تلقت توا طلبا من الكولونيل « منجيستو » باستئناف مبيعات الأسلحة الإسرائيلية إلى إثيوبيا ..

وأعرب الزعيم الماركسى ، خلال قنوات سرية ، عن أمله فى أن تستطيع إسرائيل اقناع الولايات المتحدة بمساعدته فى حروبه ضد دولة الصومال المجاورة وضد متمردى جبهة تحرير إريتريا ..

وخلال زيارة « بيجين » الأولى إلى واشنطن كرئيس للوزراء ، فى يوليو ١٩٧٧ ، كانت أول مسألة يثيرها مع الرئيس « جيمى كارتر » لها علاقة بإثيوبيا .

لم تتركز هذه المسألة ، على أية حال ، على الأسلحة أو على الحروب الإفريقية ..

وتحدث « بيجين » على مدى دقائق عديدة لإيقاظ تعاطف كارتر مع تطلع يهود إثيوبيا لتحقيق حلمهم القديم فى الانتقال إلى أرض أجدادهم ..

وفى إفريقيا وغيرها ، أحدثت حكومة بيجين تغييرا كاسحا فى ادراك إسرائيل ليهود الشتات ، وهم الاغلبية من يهود العالم المتفرقون فى أنحاء الكرة الأرضية ، والذين يعيشون خارج الوطن التوراتى لشعبهم ..

استدعى رئيس الوزراء الجديد « إسحاق حوفى » رئيس الموساد ، و « نحميا ليفانون » الرئيس الجديد لمكتب الاتصال المسئول عن تنسيق كافة جهود إسرائيل لمساعدة اليهود السوفيت على الفوز بحقهم فى الهجرة ..

وأبلغهما « بيجين » أنه يعتبر الهجرة إلى إسرائيل لاتقل أهمية عن السلام مع مصر ، ومكافحة الارهاب أو اصدار التقديرات العسكرية ، وهى المهام الحيوية التى كان من المعتاد أن لها الأسبقية الأولى بالنسبة لمؤسسة المخابرات ..

حل « ليفانون » محل « شاءول أفيجور » فى مكتب الاتصال فى مارس ١٩٧٠ ، وهكذا ملأ مكان واحد من الأجداد المؤسسين للمخابرات الإسرائيلية ..

وقد شارك « أفيجور » فى تأسيس « شاى » ، وهو جهاز المخابرات السابق على إنشاء الدولة ، فى عام ١٩٣٤ ..

وأخيرا تقاعد بعد أن تخطى السبعين من عمره بسبب سوء حالته الصحية ، بعد ١٧ عاما من إدارة المكتب فى قتاله السرى من أجل اليهود السوفيت ..

وقد عمل رئيس المكتب الجديد لحساب « أفيجور » فى كل من مكتب الاتصال ، وفى وكالة الهجرة السرية قبل ذلك ..

وخلال عمله فى موسكو كدبلوماسى فى الخمسينيات ، طرده السوفيت من جراء اتصالاته السرية مع اليهود ..

وتضمنت هذه الاتصالات تسليم رسالة من عضو فى مجلس الوزراء الاسرائيلى إلى شقيقته فى روسيا .. وحكم على السيدة سيئة الحظ بالسجن لمدة ثلاث سنوات .

وأعلنت السلطات السوفيتية دبلوماسيين إسرائيليين آخرين بأنهما شخصين غير مرغوب فيهما ، فى حادثين مماثلين لكنهما منفصلين .

عاد « ليفانون » إلى إسرائيل ، وعمل فى المقر الرئيسى لمكتب الاتصال فى تل أبيب ، ثم عين فى السفارة الإسرائيلية لدى واشنطن ليصبح مسئولا عن الشئون اليهودية وأساسها ممارسة التأثير على الساسة والمسئولين الأمريكيين بما يحقق هجرة اليهود من الاتحاد السوفيتى .

وقد أصبحت الجهود الرامية للحفاظ على اتصال مع اليهود السوفيت أكثر صعوبة بعد أن قطع السوفيت علاقاتهم مع إسرائيل فى عام ١٩٦٧ .. حيث لم يعد للإسرائيليين سفارة فى موسكو لتوفير غطاء دبلوماسى .. وكرئيس لمكتب الاتصال فى السبعينيات ، آمن « ليفانون » بالنشاط الهادىء .

وعلى أية حال ، رفضت العديد من المنظمات المناضلة ، فى إسرائيل وفى الشتات ، الأساليب الخفية ، ودعت بدلا من ذلك إلى المطالبة الصاخبة بتحرير اليهود السوفيت

وقد أرغمت هذه الجماعات الحكومة الاسرائيلية على تغيير سياستها والموافقة على الحملة العلنية وفى الوقت نفسه ، بدأت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى عصرهما الذهبى للوفاق فترة ماقبل « جورباتشوف » وسمح « ليونيد بريجنيف » رئيس الحزب السوفيتى ، تحت ضغط أمريكى ، لحوالى ٢٥٠ ألف يهودى بمغادرة بلاده ، وقد انتقل ثلثا هذا العدد إلى إسرائيل ..

وأجبرت الهجرة المتزايدة مكتب الاتصال على التوسع .. فبدأ يعين قناصل فى السفارة الإسرائيلية المتعددة فى أوربا ، وبعث بموظفى اتصال للحفاظ على روابط قوية مع المنظمات اليهودية فى مختلف أنحاء العالم .. وتم ارسال خطابات تأييد إلى اليهود السوفيت ، بالإضافة إلى كتب بالعبرية ، وطرود تضم موضوعات دينية وغيرها من الموضوعات التى يندر وجودها فى روسيا .

وقام دبلوماسيون إسرائيليون خصوصيون باطلاع اليهود الأجانب الذين سافروا إلى الاتحاد السوفيتى على التعليمات التفصيلية بما ينبغى عمله ومالا ينبغى عمله .. وتم ابلاغهم باليهود الذين ينبغى أن يقابلوهم ، وأولئك الذين ينبغى تجنبهم ، وكيف يتصرفون إذا ما اعتقلوا على يد السلطات ..

عمل « ليفانون » و « حوفى » رئيس الموساد فى تنسيق وثيق حول مشروع الهجرة الذى يلقى موافقة إجماعية وكانا واعيين بأن عملاء إسرائيل السريين قد شاركوا دائما فى الشئون اليهودية ولكنهما كان يعلمان أن « بيجين » رئيس الوزراء يريد المزيد ..

اعتبرت إسرائيل نفسها الوطن القومى والطبيعى للشعب اليهودى بأسره ، وملجأ لكل فرد يهودى أينما كان .. وهذه مسألة أيديولوجية واضحة ولا لبس فيها .

وقد كانت أمرا أساسيا للحركة الصيهونية منذ تأسيسها ..

وخلف العقيدة يكمن عنصر المصلحة الذاتية القومية ، فبسبب مخاوف إسرائيل الديموجرافية ، التى يحيط بها العرب الذين لاحصر لهم ويفوقونها عددا

بكثير ، كانت بحاجة إلى مهاجرين جدد .. ليس فقط ليكونوا بمثابة مخزون بشرى وإنما أيضا ليقدموا المبرر لوجود الدولة اليهودية ذاتها ..

تؤمن سياسة إسرائيل ، التى أعلن عنها ولكن ليس بصورة كاملة ، بأنه ينبغى فعل أى شيء ممكن لحماية الجاليات اليهودية فى الخارج .

ومن الأفضل ، ولكن ليس بالضرورة ، أن يتم ذلك بالوسائل العلنية والقانونية ..

وعندما لايكون هذا ممكنا ، فإن المنظمات اليهودية وإسرائيل ذاتها نادرا ماترددت فى اللجوء إلى الطرق غير القانونية .

وكان ذلك مبرر وجود وكالة الهجرة السرية وأساس الموجة الهائلة للهجرة اليهودية من اليمن ، العراق ، ودول الكتلة السوفيتية فى السنوات الأولى لإسرائيل ..

ساند « بيجين » مهمة مكتب الاتصال مساندة كاملة ، ولكنه كان يفضل حملة مرئية وعلنية اكثر بكثير من الأساليب السرية التى انتهجها « ليفانون » والذى كان لايلقى قبولا بالفعل بوصفه يحتفظ بمنصبه منذ عهد حكومات العمل السابقة ..

اكتشف رئيس الوزراء الجديد الحاجة للاجتماعات والمسيرات الحاشدة والمناشدات المطالبة بالحرية لليهود السوفيت .

وفى ذلك الوقت ، فى أواخر السبعينيات ،كان عدد اليهود المسموح لهم بمغادرة روسيا ينخفض بشكل حاد مع توتر العلاقات بين الولايات المتحدة والكرملين فى عهد « ليونيد بريجنيف » ..

كانت هناك أيضا بعض العلاقات التى لاتثير الارتياح بين مكتب الاتصال برئاسة « ليفانون » وبين المنظمات اليهودية الخارجية التى كانت تعمل لتحقيق غايات مماثلة .

وقد طاف شاب إسرائيلى نشط بأندية الشباب اليودى فى شمالى لندن فى عام

١٩٨٠ وطلب متطوعين للسفر إلى الاتحاد السوفيتى وقد تقدم حوالى مائة بريطانى ، تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والعشرين ، ووجههم الإسرائيلى الغامض إلى شركة سياحية معينة زودتهم بتذاكر طيران مخفضة وكتب وتسجيلات وأشرطة تسجيل بالعبرية لتسليمها فى الاتحاد السوفيتى .

ولم يكن جميع آباء المسافرين البريطانيين المغامرين سعداء عندما علموا أن أطفالهم يجرى تحويلهم إلى عملاء سريين هواة ، وتقدموا بشكاوى غاضبة إلى السفارة الإسرائيلية فى لندن التى جعلتهم على اتصال مباشر مع « نحميا ليفانون » .

ولم يوضح رئيس مكتب الاتصال وظيفته بالتحديد لكنه أبلغ الآباء : « لا تورطوا أنفسكم هذا لايعنيكم .. نحن نعلم بالضبط مانفعله » .

كذلك شعرت المنظمات البريطانية ، التى تقوم بحملة لصالح اليهود السوفيت ، بضيق مماثل من الاسرائيليين .

كان الجميع يعمل تجاه تحقيق نفس الغرض واعترف الجميع بأن إسرائيل قد أنشأت شريانا حيويا عن طريق جمع كميات هائلة من المعلومات حول اليهود واحتياجاتهم .. لكن الجماعات غير الإسرائيلية شعرت بأنه يطلب منها تمويل الرحلات ، دون أن تعرف شيئا عنها ..

وبعد أكثر من عشر سنوات أمضاها « ليفانون » كرئيس لمكتب الاتصال ، حل محله « يهودا لابيدوت » .

فقد اقتنع « بيجين » أخيرا بنصيحة كبار مستشاريه ومفادها أنه من الضرورى أن يقوم بتعيين أحد الموالين لكتلة ليكود فى منصب رئيس مكتب الاتصال ، الذى يتسم بالحساسية ..

لم يكن « لابيدوت » يتمتع بخبرة سابقة فى مجال « المخابرات اليهودية » مثل « ليفانون » أو سلفه « شاءول أفيجور » ، لكن الرئيس الجديد لمكتب الاتصال كان عضوا فى ميليشيا « أرجون » المتطرفة التى تزعمها « بيجين » قبل حصول إسرائيل على استقلالها ..

وكان « لابيدوت » هو الرجل الثانى المسئول عن مقتل حوالى مائتين من المدنيين العرب فى قرية « ديرياسين » قرب القدس فى إبريل عام ١٩٤٨ ، وقد أدان العالم ذلك بوصفه مذبحة لكن « بيجين » بررها بوصفها عملية عسكرية ضرورية .

وبدلا من أن يعيش « لابيدوت » مجللا بالعار ، أصبح مشهورا بوصفه أستاذا موهوبا فى الكيمياء الحيوية فى الجامعة العبرية ..

لم يتفهم الكثيرون من العاملين فى مؤسسة المخابرات والهيئة الدبلوماسية سر تعيين « لابيدوت » غير المتمرس كرئيس لمكتب الاتصال ..

لكن « بيجين » و « لابيدوت » فهما بعضهما بعضا بطريقة رائعة ، ومضى العمل فى مكتب الاتصال فى سهولة ويسر ، مع قيام الأخير بتنفيذ رغبات « بيجين » فى سرور عن طريق شن حملة علنية كبيرة من أجل اليهود السوفيت .

ومنح مكتب الاتصال بطريقة علنية لقب « سجين صهيون » لأى يهودى سوفيتى يعمل بنشاط لتنمية الحركة الصهيونية أو الثقافة اليهودية ، أو الاثنتين معا ، ويجرى القبض عليه بسبب تلك الأنشطة .

وميز الاسرائيليون بين اليهود الذين كانوا ببساطة منشقين يناضلون من أجل حقوق الانسان السوفيتى ، وبين اليهود الذين كانوا صهيونيين نشطين ، ويعانون من جراء حبهم لإسرائيل ..

وإذا كان لدى سجناء صهيون الرسميين أقارب بالفعل خارج روسيا ، ربما جرى إرسالهم فى رحلات ممتدة إلى الخارج لمقابلة الشخصيات الأجنبية البارزة والصحافة الدولية للقيام بحملة من أجل الهجرة الحرة من الاتحاد السوفيتى .

وتقوم الحكومة الإسرائيلية بدفع جميع النفقات من خلال مكتب الاتصال ، أو من خلال المجلس العام لليهود السوفيتى .

لم يكن « أناتولى [ناتان] شارانسكى » ، أكثر سجناء صهيون شهرة ، مؤهلا حتى للحصول على اللقب فى البداية ..

فقد سجن فى روسيا فى أواخر السبعينيات بتهمة التجسس لحساب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، واعتبر ناشطا من أجل حقوق الانسان بصفة عامة . لكن فيما بعد ، ألقى على نفسه الأضواء بوصفه صهيونيا ، وأصبح رمزا حيا للكفاح الاسرائيلي ــ اليهودى المنسق من أجل حق اليهود السوفيتى فى الهجرة .

وانتقل « شارانسكى » إلى إسرائيل فى عام ١٩٨٦ ، بعد أن اطلق سراحه من السجن كجزء من عملية تبادل للجواسيس .

بدأ الكفاح فى هذا الصدد يخبو فى عام ١٩٨٥ مع ظهور « ميخائيل جورباتشوف » رئيس الحزب الشيوعى وسياسته المعروفة باسم « الجلاسنوست » ..

ومن المقرر أن يصل إلى إسرائيل فى بداية العقد الحالى ، التسعينيات ، أكثر من نصف مليون مهاجر من اليهود السوفيت ، خاصة وأن « جورباتشوف » لم يعد يوقفهم .

وقد دفعت الضغوط من جانب الدول العربية والتهديدات من جانب الارهابيين المسلمين بالرقباء العسكريين الإسرائيليين إلى فرض ستار من السرية على العدد الحقيقى للمهاجرين وعلى طرق الهجرة .

وانغمس مكتب الاتصال ، بالتعاون مع الدبلوماسيين الاسرائيليين المسموح لهم الآن بالتواجد فى موسكو ، فى التخطيط لعملية الهجرة .. بينما تولت « شين بيت » مسئولية ترتيب إجراءات الأمن فى نقاط العبور الأوربية .

وقد أثارت هذه الموجات الجديدة من الهجرة ثانية المشكلة التى تعين على « شين بيت » مواجهتها فى بداية الخمسينات ، وهى الخوف من أن يستغل الاتحاد السوفيتى الفرصة لزرع عملاء سريين فى اسرائيل وامكانية استخدام فيضان اليهود كرأس حربة لبث عملاء شيوعيين فى الغرب ..

وأكد استخدام مثل هذه الأساليب ، « إيليا جريجوروفيتش جيركفيلوف » ،

وهو ضابط كبير بوكالة المخابرات السوفيتية هرب إلى الغرب .. فقد أبلغ المحققين البريطانيين فى عام ١٩٨١ بأن البوليس السرى السوفيتى يفحص قوائم جميع اليهود الذين يتقدمون بطلبات للهجرة ، ويبحث عن قلة قد تتجسس لحساب وطنهم الأم روسيا وقد تم تجنيد البعض وأمروا بأن يبدأوا ارسال المعلومات إلى موسكو فور وصولهم إلى إسرائيل ، بينما يجرى زرع آخرين كعملاء « نائمين » أو كامنين ، لايفعلون شيئا لمدة بضع سنوات ، ثم ينشطون للعمل بأوامر من مراقبيهم السوفيت .

وأنشأت « كى جى بى » قسما خاصا لتجنيد العملاء اليهود وتدريبهم وإدارتهم .

وعلى أية حال ، فقد اكتشف الكرملين أن كثيرا من أولئك الذين تم تجنيدهم يرفضون خدمة وكالة « كى جى بى » فور وصولهم إلى إسرائيل ، ويمتنعون عن إرسال أية تقارير على الاطلاق ..

وظهر تأكيد جديد على مدى الجهود السوفيتية الرامية للتغلغل داخل إسرائيل ، فى لندن عام ١٩٨٢ ، خلال محاكمة « هيو جورج هامبلتون » وهو أستاذ اقتصادى كندى تجسس لحساب وكالة المخابرات السوفيتية ..

وقد احتلت قضيته العناوين الرئيسية للصحف البريطانية بوصفها حكاية رجل عمل فى أحد مكاتب منظمة حلف شمال الأطلنطى فى الوقت الذى تم استخدامه سرا من جانب الكرملين ..

وبدا أن القضية لاعلاقة لها بإسرائيل لكن الصلة لوحظت بطريق المصادفة فقط ..

فقبيل دقائق من مثول « هامبلتون » أمام المحكمة رقم واحد فى دار قضاء « أولدبيلى » التاريخى فى لندن ، انتهت محاكمة أخرى ، قام الصحفيون الاسرائيليون بتغطيتها بشكل مكثف ، بإدانة « روناريتشى » .

كانت « رونا ريتشى » ديلوماسية بريطانية ممشوقة القوام وجذابة ، تحطم

مستقبلها وتجلل بالعار بينما كانت تعمل فى تل أبيب ..

التحقت « رونا ريتشى » بوزارة الخارجية البريطانية فى أغسطس ١٩٧٩ ، بعد أن وجدت الوظيفة المثالية لاسكتلندية تجيد لغات عديدة ..

وتم تدريبها فى لندن على فن الدبلوماسية وجاء أول تعيين خارجى لها فى يوليو عام ١٩٨١ عندما تم الحاقها بالسفارة البريطانية فى تل أبيب كملحقة صحفية ..

وبعد ثلاثة أسابيع ، دعيت « رونا ريتشى » إلى حفل كوكتيل دبلوماسى فى السفارة المصرية التى افتتحت بعد معاهدة السلام مع اسرائيل عام ١٩٧٩ ..

وأدت مصافحة بسيطة مع شاب وسيم أسمر إلى وضع المستقبل العملى لرونا ريتشى على منحدر ينزلق إلى درك الخزى والعار ..

فقد وقعت فى حب « رفعت الانصارى » السكرتير الثانى للقنصلية المصرية من أول نظرة .

لم تضطر المخابرات الإسرائيلية لبذل أى مجهود كبير لاكتشاف الروابط بينهما ..

فالعاشقان لم يحاولا حتى أخفاء علاقتهما كان يظهران معا فى عشرات من حفلات الاستقبال الدبلوماسية ، أو يختلسان القبل على ضوء الشموع فى المطاعم الصغيرة من شارع « يير مياهو » فى شمال تل أبيب .

وربما أفقد صيف البحر الأبيض المتوسط الحار الرطب والاحساس المسكر للحرية ، والبعد عن مناخ اسكتلندا المخيف الدبلوماسية البريطانية صوابها .

لم تستسلم الدبلوماسية لمحاولات تودد عشيقها المصرى فحسب ، لكنها رضخت أيضا لطلباته الحصول على معلومات بشأن الرسائل البرقية السرية التى يتم إرسالها إلى سفارتها من لندن ..

وفى نهاية نوفمبر ، سلمت « الأنصارى » وثيقة بالغة السرية تكشف تفاصيل الزيارة المزمعة للورد « بيتر كارينجتون » وزير الخارجية البريطانية إلى الشرق الأوسط .

وإذا وصلت هذه المعلومات إلى اليد الخطأ ، يمكن أن يهدد ذلك حياة « كارينجتون » بالخطر .

كانت « شين بيت » ترقب الموقف ، وقررت وضع حد لهذه العلاقة الرومانسية الخطيرة قبل أن يفوت الوقت .

وزود الإسرائيليون البريطانيين بتقرير تفصيلي . وتم استدعاء « ريتشى » إلى لندن بحجة بعض الأعمال ، وألقى القبض عليها ..

واعترفت « ريتشى » بجريرتها ، وأعربت عن ندمها ، وتعاونت مع مستجوبيها .. وبعد محاكمتها فى « أولد بيلى » ، صدرت ضدها عقوبة بالسجن مع إيقاف التنفيذ فى ٢٩ نوفمبر ١٩٨٢ ..

وقال المدعى ، سير « مايكل هافرز » :

« ينبغى أن أعترف بأن سلوك المتهمة كان سلوكا أحمق أكثر من كونه شريرا فقد سمحت لنفسها أن تنساق فى تورطها إلى مدى جعلها تكشف لعشيقها عن برقيات سرية » .

وانهارت حياة « ريتشى » تماما ، عندما اكتشفت أن عشيقها له زوجة ولديه أطفال تركهم خلفه فى القاهرة ..

وفى الحقيقة ، وكما أبلغ الاسرائيليون نظراءهم البريطانيين ، فإن « الأنصارى » كان ضابط مخابرات محترفا يستخدم وسامته لتحقيق غاياته السرية .

وعاشت صحافة الإثارة فى بريطانية يوما مشهودا ، وخرجت عناوينها الرئيسية على غرار :

« الدبلوماسية العذراء خدعها روميو القاهرة ودون جوان النيل » .

وقام المراسلون الإسرائيليون فى لندن ، مسحورين بالمزيج المثير للجنس والجاسوسية ، بحضور محاكمة « ريتشى » والكتابة عنها بشكل مكثف ..

وبالمصادفة ، وهى تغادر قاعة المحكمة ، رأى المراسلون الإسرائيليون خائنا آخر يتم إحضاره إلى قفص الاتهام .

وظل المراسلون ينصتون لبرهة ، وسروا لأنهم فعلوا ذلك . فقد كان من النادر تماما أن تكون لقضيتين متواليتين فى أعلى محكمة للجنايات فى بريطانيا صلة بإسرائيل ، فقد تبين أن « هيو هامبلتون » كان يتجسس أيضا فى الدولة اليهودية ..

وقد جندت وكالة المخابرات السوفيتية الأستاذ الجامعى ، الذى كان يحمل كلا من الجنسية الكندية والبريطانية ، فى نهاية الأربعينيات ..

وتبين أنه صيد ثمين للسوفيت بصفة خاصة عندما حصل على وظيفة خبير اقتصادى فى منظمة حلف شمال الأطلنطى فى باريس .

وقال المدعون البريطانيون أن البروفيسور الحق ضررا خطيرا بطريقة غير عادية بمصالح الغرب ..

وكدليل على مدى تقدير الروس لهامبلتون فإن « يورى أندروبوف » ، رئيس وكالة « كى جى بى » والذى أصبح فيما بعد زعيما للاتحاد السوفيتى ، دعاه شخصيا لزيارة موسكو ..

وخلال حفل ناقشا الرجلان الدفاعات الغربية والمهام الخاصة التى أخذها البروفيسور على عاتقه وبصفة خاصة فى إسرائيل ..

وقد انهار « هامبلتون » تحت تأثير الاستجواب فى « أولد بيلى » ، واعترف بجرمه ، وحكم عليه بالسجن لمدة عشرة أعوام ..

اعترف « هامبلتون » أنه زار إسرائيل ثلاث مرات ، فى ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، و١٩٧٨ على نفقة السوفيت بالكامل ..

وقام ببعض الابحاث الاقتصادية المشروعة لكن كان لديه واجب إضافية عهد به إليه سادته فى « كى جى بى » .

وخلال زيارته الأولى ، كلفه الضابط السوفيتى المنوط به فى النمسا ، والمعروف باسم « بول » فحسب ، باكتشاف عما إذا كانت إسرائيل قد أنتجت قنابل نووية وأن يتحرى مدى علاقات إسرائيل بجنوب إفريقيا .

وطلب من « هامبلتون » أيضا اعداد تقارير تتعلق بمجال خبرته وهو الاقتصاد .. وطلب منه « بول » تقديم تفاصيل عن النفقات التى يتكلفها المهاجر اليهودى فى إسرائيل ، التعليم ، إقامة مشروع جديد ، الحصول على مسكن جديد ، وتساؤلات محددة أخرى والتى تقصاها « هامبلتون » ..

وكما أبلغ الجاسوس الذى تم ضبطه مستجوبيه فى وكالة « إم أى ٥ » البريطانية أنه كان من الواضح له أنه كان يمهد الطريق لزرع عملاء سوفيت فى إسرائيل ..

ومن الصعب معرفة إلى أى مدى أثر تقرير « هامبلتون » ، فيما يتعلق بزرع عميل ، على وكالة المخابرات السوفيتية ، لكن فى ١٠ يناير ١٩٨٨ اتضح أن عميل سوفيتي يقوم بمهام فى الدولة اليهودية منذ وصوله كمهاجر من روسيا ..

وكان الرجل ، الذى على غرار « إسرائيل بير » الذى ضبط فى عام ١٩٦١ ، هو « شابتاى كالمانوفيتش » وقد اتهم فى ذلك اليوم من أيام يناير أمام محكمة منطقة تل أبيب بالتجسس لحساب الروس ..

وقد تم القبض عليه على يد « شين بيت » قبل ذلك بثلاثة أسابيع ، لدى عودته من زيارة إلى أوربا الشرقية ..

عندما غادر « كالمانوفيتش » الاتحاد السوفيتى قاصدا إسرائيل فى عام ١٩٧١ ، كان فى الثالثة والعشرين من عمره ، وتم تجنيده بالفعل من جانب « كى جى بى » . وأمره الضباط المنوطين به بان يندمج كلية فى المجتمع الاسرائيلى لبناء قاعدة اقتصادية قوية لنفسه ، وليصادق القادة السياسيين والعسكريين وعن طريق استخدام الأموال السوفيتية اكتسب شهرة بوصفه رجل أعمال عالمى وامتدت مصالحه المالية من مونت كارلو إلى افريقيا .

وجذبت القوة الإغرائية للثروة أصدقاء لهم نفوذ كبير فى الجيش والحكومة فى إسرائيل وكان أحدهم هو البريجادير جنرال « دوف تامارى » حيث دعا « كالمانوفيتش » « تامارى » وهو قائد سابق لإحدى وحدات القوات الخاصة ، لزيارة سيراليون على نفقة الإسرائيلى ــ الروسى الشاب لتقديم بعض الاستشارات المتعلقة بالأمن ..

ودعم « كالمانوفيتش » أيضا روابطه الأخرى مع كبار الساسة .. فقد عمل فى البداية مستشارا للبرلمانى غريب الأطوار « صامويل فلاتو ــ شارون » الذى لجأ إلى إسرائيل بسبب اتهامات جنائية تواجهه فى فرنسا ..

وضمنت الوظيفة منفذا ثمينا إلى الكنيست للمهاجر القادم من روسيا .. ثم ساعد « كالمانوفيتش » « فلاتو ــ شارون » و « بنيامين جيلمان » عضو الكونجرس عن نيويورك عندما عملا مع « فولجانج فوجل » المحامى فى برلين الشرقية لترتيب تبادل غريب للمسجونين الدوليين تضمن أمريكيا فى ألمانيا الشرقية ، وإسرائيليا فى موزمبيق وروسيا فى بنسلفانيا ..

وازدادت شهية « كالمانوفيتش » لمصادقة صيد أكبر ، فقام بدعوة أعضاء مجلس الوزراء إلى حفلات باذخة وإلى حفلات استقبال فى فيللته الفاخرة فى أحد ضواحى تل أبيب .

وكان كثير من جيرانه ، سواء بقصد أو بدون قصد ، من كبار رجال مؤسسة المخابرات .. بل إن « كالمانوفيتش » تفاخر أيضا بأن باب « جولدامائير » كان مفتوحا أمامه ..

عمل « كالمانوفيتش » لفترة قصيرة فى قسم شرق أوربا فى حزب العمل الإسرائيلى . وكان مكلفا بضمان أن يظهر المهاجرون الجدد من الاتحاد السوفيتى عرفانهم بالجميل لوطنهم الجديد عن طريق تأييد حزب العمل .. وكقاعدة ، فإن مؤسسة المخابرات تجنبت الخوض فى السياسات الإسرائيلية ، لكن بعض جيوب هامة للتأثير ظلت باقية فى منتصف السبعينيات ، وكان أحدها مكتب الاتصال ..

وقد اعتبرت وحدة الهجرة اليهودية قلعة سياسية هامة ، بوصفها تستقدم مواطنين جددا يجرى اقتناصهم من جانب جميع الأحزاب .

وقبل أن يجعل « بيجين » « يهودا لابيدوت » مسئولا عن مكتب الاتصال ، فإن « نحميا ليفانون » وضع المكتب فى معسكر العمل .. وبصفة خاصة عندما كان حزب العمل يتولى مقاليد السلطة ، وهو ماحدث حتى عام ١٩٧٧ ، فإن « كالمانوفيتش » كان فى المكان المناسب تماما ..

وخلال السنوات الست التى أمضاها « بيجين » فى السلطة ، وحتى بعدها ، فإن اليهودى الروسى الثرى ذا النفوذ ظل يحوم حول مراكز السلطة الإسرائيلية حتى رصدته « شين بيت » وهو يسلم أسرارا إلى عملاء شيوعيين معروفين فى أوربا فى نهاية ١٩٨٧ ..

وفى ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ ، صدر الحكم على « كالمانوفيتش » بالسجن لمدة تسعة أعوام ، بعد محاكمة سرية فى تل أبيب .

وأثارت صلات « كالمانوفيتش » بالمستويات العليا وقدرته على اكتساب أصدقاء فى مناصب رفيعة تساؤلات خطيرة حول اخفاق « شين بيت » فى رصده فى وقت مبكر ..

وعلى أية حال ، فإن الأضرار التى سببها لم تكن جسيمة .. فهو لم يستطع الحصول على حق دخول المنشآت الدفاعية السرية ، والمعاهد العلمية أو قواعد الجيش .

وكان بإمكانه أن يقول لسادته الروس كيف يفكر الأعضاء البارزون فى المؤسسة الإسرائيلية ، لكن لم تكن لديه سوى تفاصيل قليلة جدا عما تقوم به إسرائيل للدفاع عن نفسها ..

وعلى النقيض من ذلك ، فقد حقق جاسوس سوفيتى آخر ، تم زرعه على أنه مهاجر ، نجاحا أكبر من ذلك بكثير ..

وصل « ماركوس كلينجبيرج » إلى إسرائيل قبل « كالمانوفيتش » بوقت طويل ، واستطاع أن يضرب بجذوره داخل عمق البنية الأساسية الدفاعية لإسرائيل ..

وصل « كلينجبيرج » إلى ساحل الدولة الوليدة كمهاجر من أوربا الشرقية فى عام ١٩٤٨ وهو فى العشرين من عمره .

ودرس العلوم الطبيعية ، وفى نهاية الستينيات تم تعيينه نائب مدير المعهد البيولوجى فى بلدة « نيس صهيونا » وهو معهد حكومى يتمتع بإجراءات حماية مشددة ..

وبوصفه يبدو مريضا ، كان « كلينجبيرج » يسافر عادة إلى سويسرا « للعلاج » ..

وفى عام ١٩٨٣ ، اختفى فجأة ، وجاء رجال غامضون إلى المعهد ، وأخذوا كل الأوراق الموجودة فى ملفاته ..

فقد اكتشف « شين بيت » أن الرحلات السويسرية كانت زيارات إلى جاسوس سوفيتى بارز .

وبدون أى إعلان ، وجهت تهمة التجسس إلى « كلينجبيرج » ، وأدين فى محاكمة سرية وحكم عليه بالسجن المؤبد ..

سبب « كلينجبيرج » ضررا خطيرا لأنه كان أحد كبار العاملين فى مشروعات بالغة السرية فى « نيس صهيونا » .

وفى وقت مبكر ، وبالتحديد فى عام ١٩٧٣ ، كان الباحثون الأجانب يربطون بين المعهد وبين الموضوعات المتعلقة بالحرب الكيماوية والبيولوجية ..

وتوصل محللو المخابرات فى الولايات المتحدة إلى أن إسرائيل تقوم ، على أقل تقدير ، بانتاج وتطوير إجراءات دفاعية ضد الغازات السامة المعتقد أنه يجرى تخزينها من جانب عدة دول عربية ..

وكانت هناك تقارير تثير الخوف أكثر مفادها أن العراق ، خلال الثمانينات ، كان يعكف على بحث نشوب حرب جرثومية محتملة ..

وتعين على إسرائيل امتلاك مخزونات من اللقاحات والطعوم ، ووسائل فحص الجو والمياه لمواجهة أى عدوان كيماوى أو بيولوجى محتمل ..

كان تغلغل الجواسيس السوفيت ضارا لكن بيجين رئيس الوزراء كان مستعدا للاقدام على مخاطر أخرى من أجل الهدف الاستراتيجى للعمل من أجل خير اليهود .

فعلى المثال ، أقام « بيجين » صلات مع أنظمة بغيضة فى أنحاء العالم ..

ففى أمريكا الجنوبية ، باعت إسرائيل الأسلحة والخبرة العسكرية إلى شيلى والأرجنتين . على الرغم من أن المجالس العسكرية الحاكمة هناك كانت تخفى بالكاد عداءها للسامية ..

وفى المقابل ، حصلت إسرائيل على تعهدات من ديكتاتور سنتياجو وديكتاتور « بوينس أيرس » بحماية اليهود والسماح لهم بالمغادرة ومعهم أموالهم النقدية وممتلكاتهم ..

وانتهجت سياسة مشابهة مع رومانيا وهى الدولة الوحيدة فى الكتلة السوفيتية التى احتفظت بعلاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل بعد أن قطعت كافة الدول الشيوعية الأخرى علاقاتها معها فى أعقاب حرب عام ١٩٦٧ ..

وكانت الشخصية الرئيسية فى العلاقة السرية والخاصة مع الرئيس الرومانى « نيكولاى شاوشيسكو » اسرائيلى مسن أبيض الشعر يدعى « يشياهو [شيك] تراكتنبيرج ــ دان » ..

خلال الحرب العالمية الثانية تطوع « شيك دان » فى الجيش البريطانى ، وتم اسقاطه بالمظلات هو وغيره من اليهود الفلسطينيين الشباب ، الذين نظمهم « روفين شيلوح » خلف خطوط النازى فى البلقان ..

وكان أحد الباقين على قيد الحياة وعاد إلى إسرائيل وانضم الى مكتب الاتصال تحت رئاسة « أفيجور » و « ليفانون » .

وقد أصبح « دان » ، نتيجة نشاطاته السرية ، هدفا للعديد من وكالات التجسس الأوربية الشرقية لكن أمريكيا يدعى « تشارلز جوردان » هو الذى دفع الثمن ..

كان « جوردان » ضابطا كبيرا فى لجنة التوزيع المشتركة الأمريكية ، وهى منظمة اجتماعية يهودية تعرف اختصارا باسم « المشتركة » «The Joint» .

وصل « جوردان » فى براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا فى ١٤ أغسطس عام ١٩٦٧ ، وبعد يومين غادر فندقه واختفى ..

وعندما لم يعد ، أبلغت زوجته البوليس عن إختفائه . وبعد أربعة أيام ، تم انتشال جثته من نهر « مولداو » ..

وذكرت السلطات الشيوعية أنه لابد أن « جوردان » سقط بطريقة ما فى المياه وإنه ربما أقدم على الانتحار ..

وقد تشككت الأجهزة السرية للكتلة السوفيتية دائما فى أن ممثلى اللجنة « المشتركة » ليسوا سوى عملاء لوكالة المخابرات المركزية ، وكانت هذه الأجهزة واعية بالروابط بين تلك اللجنة وبين حكومة إسرائيل .

وقد اجتذب « جوردان » اهتماما ليس بالقليل من جانب عملاء المخابرات الشيوعية ، وبصفة خاصة عندما وصل إلى براج قادما من القدس .

ويمكن الآن التصريح بما يقرب من التأكيد بأن « تشارلز جوردان » قد قتل بطريق الخطأ من جانب عملاء شيوعيين ، اعتقدوا أن ضحيتهم هو « شيك دان » الإسرائيلى ..

وواصل « دان » ، دون أن يثنيه شىء ، العمل فى أوربا الشرقية ، وفاز بموافقة الرئيس « شاوشيسكو » على السماح برحيل الموطنين اليهود من رومانيا ..

وفى المقابل ، قام خبراء إسرائيليون بصيانة الدبابات والمعدات العسكرية الأخرى الرومانية واستوردت الدولة اليهودية بضائع رومانية أكثر مما تحتاجه فى الحقيقة .. حيث أن هناك حدا لكمية مربى البرقوق التى يمكن ان يستهلكها بلد ما ..

وبمساعدة منظمات الخدمة الاجتماعية اليهودية فى الغرب ، وافقت إسرائيل بشكل محدد على دفع ثلاثة آلاف دولار لكل يهودى يسمح له بالمغادرة ..

وقال المسئولون أن هذا يمثل ببساطة تعويضا لرومانيا عن نفقات تعليم مواطنيها لكنه كان واضحا لكافة الأطراف أن تلك هى فدية يتعين دفعها .

واعتاد « دان » الطيران إلى بوخارست ومعه حقيبة متخمة بأوراق النقد لسداد المدفوعات ..

وأيدت إسرائيل أيضا طلب رومانيا فى الحصول على وضع الدولة الأولى بالرعاية فى التجارة مع الولايات المتحدة ..

كان الشرط الوحيد الذى وضعه « شاوشيسكو » ، وقبلته إسرائيل ، هو عدم الإعلان عن هذه الاتفاقات ..

ولم يكن فرض هذا الشرط لمجرد حماية صداقات « شاوشيسكو » مع الدول الشيوعية الشقيقة أو مع الدول العربية ..

فقد خشى رئيس رومانيا أن تقوم جماعات الأقلية الأخرى ، وبصفة خاصة تلك التى تنتمى إلى أعراق ألمانية ، بالضغط على حكومته من أجل الحصول على مطالب هجرة مماثلة ..

وتلقى « شاوشيسكو » وأسرته حوالى ثلاثين مليونا من الدولارات نقدا من إسرائيل على مدى السنوات حتى سقوطه وإعدامه فى عام ١٩٨٩ ..

وظل التعويض المالى سرا . فعلى النقيض الواضح من السياسة الصاخبة التى تبنتها إسرائيل للمطالبة بحرية هجرة اليهود السوفيت ، فإن إسرائيل التزمت بعدم جذب الانتباه وبالصمت المطبق فيما يتعلق باليهود الرومانيين . فالظروف المختلفة تتطلب مناهج مختلفة ..

لذلك فإن رحيل اليهود إلى إسرائيل وصف رسميا فى بوخارست بأنه جمع لشمل الأسر وليس على أنه هجرة .

وأصبح « شيك دان » قناة اتصال غربية رئيسية بالنسبة للقيادة الرومانية . وقد نصح الحكومة الأمريكية حول وضع « الأسرة » اليهودية الأوربية الشرقية ، بوصفه خبيرا فى مؤسسة المخابرات ، كما قام « دان » بعقد جلسات اطلاع لكل زعيم اسرائيلى بدءا من « جولدا مائير » وانتهاء بمناحم بيجين .

وفى عيون « بيجين » ، فإن الأسرة اليهودية لا تعرف حدودا ويتعين جمع شملها كلما وأينما سنحت الفرص لذلك ..

وفى ظل « بيجين » ، أصبحت مؤسسة المخابرات تفكر بطريقة أسرية على حد سواء .

وعلى الرغم من اعتبار يهود إثيوبيا متفردين بسبب لون بشرتهم الداكن ، إلا أنه كانت لديهم الرغبة القوية نفسها مثلهم فى ذلك مثل أشقائهم اليهود فى المغرب ، رومانيا وبقية العالم العربى وأوربا الشرقية ..

فلم يتوقف يهود إثيوبيا مطلقا عن الحلم بأرض التوراة الموعودة .. وأطلقوا على أنفسهم اسم « بيتا إسرائيل » أو « بيت إسرائيل » على الرغم من جيرانهم من غير اليهود وصفوهم بلفظ « الفلاشا » التى تعنى « الغرباء » فى أسوأ معانى كلمة غرباء وهى أقرب إلى الأبناء غير الشرعيين الذين لاينتمون إلى أى مكان .

فى الماضى البعيد ، كانت لهم قبيلة من المقاتلين الأقوياء ولهم مملكتهم الخاصة بهم فى جبال اثيوبيا الشمالية ..

وبالتدريج ، وبعد سلسلة من النكسات فى المعارك مع القبائل الأخرى ، اضمحلت قوة « بيتا إسرائيل » .

وبحلول منتصف القرن العشرين ، بلغ عددهم حوالى عشرين ألفا ، وتركزوا أساسا فى « جوندار » وغيرها من المناطق .

وكان الإثيوبيون المسيحيون المسيطرون على المناطق المحيطة بهذه المنطقة يمنعون الفلاشا من شراء الأرض ، وكنتيجة لذلك أصبح اليهود عمالا مهرة ، ومزارعين يستغلون الأرض لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول فى بلد يعتبر امتلاك الأرض هو الفرصة الحقيقية الوحيدة التى تتيح للمرء أن يملك مايسد جوعه ..

وفى بداية الخمسينيات . استطاعت حفنة من اليهود الإثيوبيين الشباب الوصول إلى إسرائيل ومارسوا ضغطا على الحكومة الإسرائيلية للعمل على احضار بقية اليهود من إثيوبيا ..

وعلى الرغم من الروابط السرية الممتازة بين إسرائيل وإثيوبيا ، إلا أن حكومة الامبراطور « هيلا سيلاس » رفضت السماح لليهود بالهجرة بوصفها مسألة تتعلق بالكبرياء القومى ، فلا يمكن لامبراطور جليل أن يسمح بفقدان جانب من رعاياه ..

ومن ناحية أخرى ، فإن الحكومة الاسرائيلية التى يسيطر عليها حزب العمل لم تتحرك لمساعدة اليهود الإثيوبيين ..

ويتذكر « روفين ميرحاف » ، الذى كان يعمل فى مركز الموساد فى أديس أبابا ، ذلك قائلا :

« كان اليهود يقرعون أبواب سفارتنا .. وتوسل إلينا زعماؤهم بالعمل على إخراجهم من إثيوبيا .. لكننا أبعدناهم وقد خاب أملهم » .

فقد خشى الإسرائيليون أن تؤدى مجرد إثارة المسألة مع إثيوبيا إلى تدمير العلاقات الاستراتيجية مع تلك الدولة ، وهى إحدى البلدان الرئيسية فى الاستراتيجية الخارجية [المحيطية] التى تستهدف التفوق دبلوماسيا على الدول العربية .

كما ضاعف من ممانعة إسرائيل للتدخل لصالح يهود إثيوبيا ، قيام السلطات الدينية التقليدية فى إسرائيل ، بإعلان رفضها الاعتراف باليهود السود ..

وواصل اليهود الإثيوبيون انتظارهم لأية إشارة من صهيون ، لكن الإشارة تأخرت ..

لم يحدث أى تغيير دراماتيكى فى منهاج إسرائيل إلا عندما فازت كتلة ليكود بزعامة بيجين فى الانتخابات العامة فى ١٩٧٧ ، وبعد شهور بدأ أن حلم يهود إثيوبيا يوشك أن يصبح حقيقة واقعة .

فبعد أن تحدث « بيجين » بطريقة عاطفية فى البيت الأبيض فى واشنطن فى يوليو حول معاناة « بيتا إسرائيل » غير المعروفين ، أثار نقاطا محددة تهم الكولونيل « منجيستو » .

وعلى أية حال ، رفض الرئيس « كارتر » تغيير التحالفات فى القرن الافريقى ، وامداد اثيوبيا بالأسلحة بدلا من الصومال جارتها العدوانية .

فمن وجهة نظر الإدارة الأمريكية ، كان نظام الكولونيل « منجيستو » نظاما استبداديا وماركسيا وغير جدير بالمساندة الأمريكية .

وأبلغ « بيجين » ، فى رسالته التى بعث بها من القدس إلى أديس أبابا وصاغها مستشارة « هورفيتز » ، الكولونيل « منجيستو » بأن إسرائيل ذاتها هى التى ستمده بالمعونات العسكرية التى يحتاجها ..

وكانت النتيجة قيام تحالفين غريبين فى شمال شرق إفريقيا فى عام ١٩٧٧ ، فإثيوبيا الماركسية لقيت الدعم من إسرائيل وألمانيا الشرقية والاتحاد السوفيتى ، بينما حظيت الصومال بدعم الولايات المتحدة ، والمملكة العربية السعودية ومصر ..

وفى المقابل ، وافقت الحكومة الإثيوبية على السماح برحيل أعداد صغيرة من مواطنيها اليهود .

فحتى فبراير ١٩٧٨ ، تم نقل مجموعتين تضم ٢٢٠ يهوديا من أديس أبابا إلى إسرائيل مباشرة على متن طائرات النقل الإسرائيلية التى نقلت الأسلحة سرا إلى أثيوبيا ..

وقد تفوه « موشى ديان » وزير الخارجية الإسرائيلية بتصريح يتسم باللامبالاة مما أدى إلى إنهاء شهر العسل بين إثيوبيا وإسرائيل .

اعترف « ديان » فى مؤتمر صحفى ، بأن إسرائيل تقوم بتقديم امدادات عسكرية للجيش الاثيوبى ..

وأردف بسرعة أن هذه الامدادات تعنى أردية عسكرية ، لكن كان من الواضح أنه قصد الأسلحة ..

كان هذا التصريح من جانب « ديان » كافيا لأن يقطع « منجيستو » علاقاته السرية مع إسرائيل .. وبالتالى لم يعد يسمح لمواطنيه من اليهود بالهجرة إلى إسرائيل ..

شعر « مناجم بيجين » بالغضب من فعلة « موشى ديان » وزير خارجيته ، لكنه فى الوقت نفسه شعر بالراحة إلى حد ما من جراء تحمس « حوفى » مدير الموساد للبحث عن طرق بديلة ..

وبينما عكف « حوفى » على الترتيب لخطته ، التزم « بيجين » الصمت لحماية العملية ..

واضطر « بيجين » لتحمل المضايقات والانتقادات الموجهة إليه من جانب المنظمات اليهودية ، واتهامها له بأنه لايفعل شيئا فى مواجهة التقارير التى تشير إلى الاضطهاد الذى يعانيه يهود إثيوبيا من جانب السلطات الرسمية وجماعات المتمردين ، وعصابات اللصوص .

وأشار المنتقدون إلى أن إسرائيل قد تكون لامبالية بسبب البشرة السوداء ليهود الفلاشا ..

توسل « يحيال كاديشاى » إلى رئيس الوزراء قائلا : « مستر بيجين ينبغى عليك أن ترد » فكاديشاى لم يكن يستطيع أن يتحمل رؤية الهجمات على الزعيم الذى يقدسه ..

وعلى أية حال ، رفض « بيجين » أن يتزحزح عن موقفه قيد أنملة فهو لم يكن مستعدا على الاطلاق لكشف النقاب عن أن التحرك يجرى إتخاذه بالفعل ..

كان رئيس الوزراء الإسرائيلى يعلم منذ عام ١٩٧٩ أن عملية إنقاذ اليهود الإثيوبيين يجرى الاعداد لها بأقصى سرعة ..

فقد تم تجنيد اليهود الإثيوبيين الشباب ، الذين انتقلوا إلى إسرائيل فى وقت سابق ، للعمل لحساب الدولة اليهودية ..

ومثلما تم ارسال اليهود المغاربة الشباب فى مهام إلى وطنهم الأصلى قبل عشرين عاما جرى تدريب اليهود الإثيوبيين لفترة قصيرة ثم أعيدوا إلى أثيوبيا للعمل كعملاء سريين لإسرائيل ..

وتوجه هؤلاء العملاء غير المتمرسين إلى الجاليات اليهودية فى إثيوبيا ، واقترحوا عليها أن يقوم كل يهودى يستطيع أن يشق طريقه إلى دولة السودان المجاورة بأن يفعل ذلك ..

أطلع العملاء الإسرائيليون زعماء القرى اليهودية على خطتهم .. وفى بعض الحالات قاموا بمرافقة اليهود الإثيوبيين عبر تلك الرحلة الخطرة والطويلة ..

بدأت قرى يهودية بأكملها فى النزوح من إثيوبيا إلى السودان عبر طرق وعرة ومجهولة ..

وفى حالات كثيرة ، ألقت السلطات الإثيوبية القبض على عدد كبير منهم ، وقامت بتعذيبهم وأعادتهم إلى قراهم ثانية .

ومات الألوف وهم يشقون طريقهم إلى السودان لكن أولئك الذين تمكنوا من الوصول إلى جنوبى السودان ، أقاموا فى مخيمات على مسافة عشرين ميلا من الحدود الإثيوبية ــ السودانية ..

كانت تلك المخيمات بالوعة إنسانية .. فهى مزدحمة إلى حد الاكتظاظ ، إلى جانب عدم توافر الطعام الكافى ، وعدم وجود مياه الشرب الصحية .. وقام مسئولون من اللجنة العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة بإدارة هذه المخيمات ، وبذلوا أقصى مافى وسعهم فى هذا الصدد .

وكان العزاء الوحيد لأولئك اليهود الإثيوبيين هو أن وضعهم أفضل من غيرهم من اللاجئين فى المخيم ..

فقد انتشر عملاء إسرائيليون فى المخيمات للتأكد من أن اليهود الاثيوبيين يلقون أفضل معاملة ممكنة .

وكان عدد من هؤلاء العملاء من السود لكى يسهل اندساسهم بين اليهود الإثيوبيين بينما كان البعض الآخر من العملاء الإسرائيليين البيض ويعملون تحت غطاء أنهم من العاملين فى هيئات إغاثة أوربية على سبيل المثال .

تحدد الهدف التالى بالنسبة لإسرائيل فى الفوز بتعاون سرى من جانب السودان .

وساعدت الحكومة الأمريكية فى ممارسة ضغوط على الرئيس السودانى « جعفر نميرى » ، العضو فى جامعة الدول العربية والمعادى رسميا لإسرائيل ، فى مقابل تقديم مساعدات مالية له ..

ولم تكن هذه المساعدات سوى رشاوى يتم ايداعها فى الحسابات الخاصة لنميرى فى البنوك ..

وساعدت مصر فى ذلك أيضا ، لأن الرئيس « أنور السادات » كان صديقا

شخصيا لنميرى وحثه ، بناء على طلب من بيجين ، على مساعدة اليهود الإثيوبيين على الهرب ..

وهكذا اكتشف « بيجين » فائدة جانبية ثمينة لمعاهدة السلام التى أبرمها مع مصر ..

ووعد الرئيس « نميرى » بأن يغمض عينيه عن عملية نقل اليهود المزمعة ، طالما ظلت سرا .

ولبحث تفاصيل هذه الصفقة ، بعثت الموساد بأحد كبار عملائها إلى الخرطوم فى مستهل عام ١٩٨٠ ، وقام بتنسيق العملية مع « أبو الطيب » رئيس أجهزة الأمن السودانية .

وكانت أكثر السبل المناسبة والفعالة لنقل اليهود الإثيوبيين هو عن طريق البحر فى اتجاه ميناء إيلات ، لكن الرئيس السودانى « جعفر نميرى » رفض استخدام ساحله وطالب ، فى جميع الأحوال ، بأن يتم نقل اليهود عبر دولة ثالثة وليس مباشرة من السودان إلى إسرائيل .

وتم الاتفاق فى النهاية بين الموساد والسودان على ترتيب يجرى بمقتضاه نقل اليهود الإثيوبيين الموجودين فى مخيمات بجنوبى السودان ، بالتنسيق مع المسئولين عن لجنة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة ، عبر الحدود إلى داخل كينيا ..

ومن المعروف أن الكينيين حلفاء قدامى لإسرائيل ، وأنهم انضموا بالفعل إلى ذلك الاتفاق السرى ..

لكن طريق الهروب إلى كينيا تم إغلاقه بعد أن قامت طائرة صغيرة خاصة تابعة لهيئة خيرية أمريكية باختراق المجال الجوى الكينى انطلاقا من السودان ، واضطرت للقيام بهبوط اضطرارى فى كينيا .. وكان على متنها خمسة من اليهود الإثيوبيين تم إلقاء القبض عليهم وعلى بقية ركابها ..

ونشرت صحيفة فى نيروبى تفاصيل العملية السرية ، ومن بينها معلومات عن مركز الموساد فى كينيا ، فاضطرت الحكومة الكينية إلى الاصرار على وقف تدفق

« الفلاشا » خوفا من المخاطرة بمواجهة عداء العرب والدول الإفريقية الأخرى .

وبالنظر إلى عدم وجود بديل متاح سريع ، اضطرت الموساد إلى اللجوء إلى استخدام موهبتها فى الارتجال ..

احتاجت وكالة الموساد ثانية لبعض المساعدة الأجنبية وفى هذه المرة لجأ عملاء إسرائيل إلى الولايات المتحدة .. وطلب كبير ممثلى الموساد فى واشنطن المساعدة من وكالة المخابرات المركزية لانقاذ وتحرير يهود إثيوبيا ..

ووافق الأمريكيون على ذلك بسهولة تثير الدهشة فمع تولى إدارة الرئيس « رونالد ريجان » مقاليد السلطة فى واشنطن ، وصل التعاون العسكرى والمخابراتى بين الولايات المتحدة وإسرائيل إلى ذروته وعنفوانه ..

أقامت الموساد ووكالة المخابرات المركزية شركة وهمية اسمها « نافكو » مهمتها استئجار أراض فى السودان بالقرب من البحر الأحمر تحت زعم إنشاء قرية سياحية للغواصين .

وبالفعل ، سرعان ماوصل الغواصون الأجانب إلى المنطقة ، ولم يكن هؤلاء سوى مجموعة من قوة الكوماندوز البحرية الإسرائيلية ..

واستقبل رجال الضفادع البشرية فى قرية « نافكو » اليهود الإثيوبيين الذين كان يأتى بهم عملاء الموساد وتحت ستار الليل جرى، نقل اللاجئين فى قوارب صغيرة إلى سفن إسرائيلية ألقت مراسيها قرب الساحل السودانى .. ومخرت هذه السفن عباب البحر الأحمر حتى شرم الشيخ ، التى كانت آنذاك لاتزال تحت الاحتلال الإسرائيلى ..

ومن هناك تم نقل اليهود الإثيوبيين على متن طائرات نقل إلى قواعد سلاح الطيران الإسرائيلى فى قلب الدولة اليهودية .

وكلفت الموساد فريقا من المصورين بتسجيل المراحل الأخيرة من الخروج الجماعى لليهود الإثيوبيين وعودتهم إلى إسرائيل .. وذلك بهدف الاحتفاظ بهذه الأفلام وشرائط الفيديو فى أرشيف الوكالة السرية .. لكن تم عرض هذه الأفلام

على اجتماع للحكومة الإسرائيلية وأوشك على البكاء عديد من الوزراء ومن بينهم « بيجين » من المشاهد الملحمية المذهلة ..

لم تكن البشرة الداكنة لأولئك اليهود تثير أى اختلاف .. فالمعاناة التى واجهوها والكفاح الذى قاموا به كانا واضحين ، وكذلك الفرح الذى أحسوا به عندما وصلوا فى النهاية إلى أرض إسرائيل .

وأعاد بعض الوزراء إلى الأذهان العمليات الجريئة التى استطاع بها اللاجئون اليهود من أوربا التى اجتاحها النازى ، الوصول إلى سواحل فلسطين قبل نشأة إسرائيل ..

ولكن الآن وقد أصبح للشعب اليهودى دولته الخاصة به ، فإنه لمن السخف الاضطرار إلى اللجوء إلى أساليب الهجرة غير القانونية مرة ثانية ..

ولكن عندما لايريد أحد أن يسجل مساعدته لليهود للإفلات من أهوال إثيوبيا ، فإن دولة إسرائيل يتعين عليها اللجوء إلى الأساليب السرية .

وعبر البحر الأحمر ، تم نقل حوالى ألفى يهودى إثيوبيا إلى إسرائيل من القرية السياحية الوهمية على الساحل السودانى ..

أعرب مخططوا العملية عن قلقهم لعدم استطاعتهم الاسراع من خطو العملية .. فبعد أن عبر اللاجئين اليهود الصحراء انطلاقا من إثيوبيا على الرغم من الصعوبات الاسطورية التى واجهتهم ، فإن ألوفا أخرى منهم كانوا ينتظرون فرصتهم للوصول إلى أرض الميعاد ..

وفى الوقت نفسه ، علم الرئيس « جعفر نميرى » أن الموساد ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية تستخدمان السودان كمحطة عبور لليهود الإثيوبيين . وأصبح قلقا بطريقة متزايدة خشية انكشاف العملية بأسرها ، خاصة وأنه لم يكن يستطيع أن يوضح للأغلبية المسلمة فى بلاده الأسباب التى دعته إلى مساعدة إسرائيل ..

كما أن « نميرى » خشى أيضا أن تكتشف الأنظمة العربية المتطرفة ، وبصفة خاصة ليبيا ، تورطه مع الاسرائيليين مما سيترتب عليه دمغه من جانب تلك الأنظمة بالخيانة .

وهكذا اتخذ الرئيس السودانى موقفا أكثر حزما ، وأصر على ضرورة خفض الخروج الجماعى لليهود ، من إثيوبيا إلى إسرائيل ، إلى أدنى حد ممكن . حدث ذلك فى الوقت الذى تزايدت فيه عملية الخروج الجماعى لليهود من إثيوبيا إلى السودان إلى حد كبير . لتشكل موجة قوية ..

وعى « بيجين » رئيس الوزراء و « حوفى » مدير الموساد أن الوقت يمر ، وأنه لابد من إتخاذ إجراء ما لمواجهة الموقف .

وقرر الإثنان تنفيذ عملية ضخمة لنقل ٢٠ ألفا من اليهود الإثيوبيين ، من السودان إلى إسرائيل خلال فترة زمنية قصيرة للغاية .. واطلق على هذه العملية الاسم الشفرى « عملية موسى » ..

كانت الخطوة الأولى هى تجديد ممر قديم لهبوط الطائرات قرب بلدة « شوبك » السودانية ..

ثم ذات ليلة من ليالى مارس ١٩٨٤ ، قامت طائرتا نقل من طراز « هيركيولز » بالهبوط هناك ، وصعد إلى متنهما مائتان من اليهود الإثيوبيين تم إحضارهم إلى هناك بواسطة سيارات نقل ، ثم حلقت الطائرتان فى الجو واختفيتا فى ظلمة الليل .

وتكررت هذه العملية عدة مرات خلال وذلك الشهر من جانب الطائرتين التابعتين لسلاح الطيران الإسرائيلى ، واللتين لاتحملان أية علامة مميزة وعنيت الموساد بعدم ترك أية آثار على الأرض تشير إلى تورط إسرائيل حتى ولو كانت مجرد علبة سجائر فارغة أو علبة كبريت ..

من ناحية أخرى ، تم نقل عدد قليل من اليهود الإثيوبيين من مطار الخرطوم إلى أوربا ، ومن هناك توجهوا إلى إسرائيل .

وأرادت الموساد الاستفادة من مطار الخرطوم خاصة وأنه أكثر أمنا بكثير من ممر الهبوط الذى تستخدمه الطائرات الاسرائيلية بالقرب من بلدة « شوبك » .. وكان لابد من الحصول على موافقة « جعفر نميرى » على ذلك .. كما سيتعين أن

تقوم قواته بحراسة المطار لإبعاد الفضوليين عنه فى أوقات استخدام الطائرات الإسرائيلية له ..

وتحت ضغط من إسرائيل ، وعدت الولايات المتحدة بتقديم مساعدات اقتصادية إضافية إلى السودان قيمتها ٢٠٠ مليون دولار مقابل أن يعد « نميرى » بالسماح لليهود بالطيران من الخرطوم ..

وكان المفاوض الرئيسى هو « جورج فيبر » الذى يعمل فى السفارة الأمريكية فى الخرطوم تحت غطاء « منسق لاجئين » ..

ولضمان موافقة « نميرى » النهائية ، أودعت الموساد ٦٠ مليون دولار فى بنوك أوربية ، وبصفة أساسية فى سويسرا ولندن ، لحساب « نميرى » وعدد من معاونيه ومن بينهم « أبو الطيب » .

وقد تم جمع معظم هذه الأموال من اليهود فى مختلف أنحاء العالم تحت بند مساعدة الفلاشا .. كذلك تمكنت الموساد من اقناع المليونير البلجيكى « جورج ميتلمان » ، وهو يهودى متدين ، بمساعدة المشروع السرى أو عملية موسى .

كان « ميتلمان » هدفا مثاليا ، فهو ببساطة يمتلك شركة للخطوط الجوية اسمها « ترانس يروب » علاوة على أن ملاحى الشركة كانت لديهم خبرة ومعرفة كبيرة بمطار الخرطوم ، حيث سبق أن قاموا على مدى سنوات بنقل الحجاج السودانيين من مطار الخرطوم إلى مكة لأداء فريضة الحج ..

ووافق « ميتلمان » على وضع طائراته تحت تصرف إسرائيل وعلى أن يقفل فمه ، بعد أن استشار « ويلفريد مارتنس » رئيس وزراء بلجيكا ، و « جان جول » وزير العدل البلجيكى ، وأيداه فى ذلك ..

وابتداء من ٢١ نوفمبر ١٩٨٤ وحتى الأسبوع الأول من عام ١٩٨٥ قامت طائرات المليونير البلجيكى بخمس وثلاثين رحلة جوية من مطار الخرطوم لنقل سبعة آلاف يهودى إثيوبى إلى إسرائيل ..

كانت الرحلة الجوية تنطلق من مطار الخرطوم ، وبعد فترة توقف لمدة ساعتين

فى بروكسل للتزود بالوقود ، تتواصل الرحلة إلى إسرائيل ..

وتمت العملية بدقة متناهية تماثل الدقة التى تعمل بها ساعة سويسرية .. وعلى الرغم من أن مئات من الأشخاص فى إسرائيل وخارجها كان يعلمون قصة « عملية موسى » إلا أن أحدا لم يذع السر .

ووافق رؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية على عدم نشر أية تقارير تشير إلى وصول اليهود الاثيوبيين إلى إسرائيل وحتى المراسلين الأجانب فى إسرائيل ، والذين سمعوا عن العملية ، وافقوا على عدم إرسال أية تقارير للخارج من شأنها أن تلحق الضرر بالعملية ..

لكن مسئولا إسرائيليا لم يستطع أن يغلق فمه مما أدى إلى الحاق أضرار بالغة بعملية موسى .. وإلى توقفها قبل الأوان ..

جاء الكشف عن هذه العملية من جانب « يهودا·دومينيتز » وهو مسئول كبير بالوكالة اليهودية ..

وقد شارك مكتبه بنشاط فى عمليات استقبال يهود إثيوبيا وتوفير أماكن لسكناهم ، وأيضا فى عملية جمع الأموال من أنحاء مختلفة من العالم ..

ففى بداية شهر يناير من عام ١٩٨٥ ، أجرت صحيفة تدعى « بوينت » ، يصدرها المستوطنون اليهود فى الضفة الغربية المحتلة ، مقابلة مع « دومينتيز »

وكان هؤلاء المستوطنون يأملون كثيرا فى قدوم يهود إثيوبيا للمشاركة فى توسيع نطاق المستوطنات الاسرائيلية فى الضفة الغربية المحتلة .

وخلال المقابلة الصحفية ، كشف «دومينتيز» بلا مبرر عن تفاصيل المشروع الإسرائيلى لإنقاذ اليهود الإثيوبيين .

ووجد المراسلون الأجانب الأربعمائة ، المعتمدون فى إسرائيل ، فى نشر هذه المقابلة الصحفية إشارة خضراء من جانب السلطات الإسرائيلية للحديث عن عملية موسى بأسرها .. ولم يكن الأمر كذلك على الاطلاق ..

ولم تجد الحكومة الإسرائيلية بداً من أن تأخذ زمام المبادرة ، وتكشف بنفسها

عن تفاصيل عملية موسى وتستمتع بالنجاح الذى حققته .. فقد انكشف الأمر ولم يعد هناك سبيل للمداراة والإخفاء ..

فعقد « شيمون بيريز » رئيس الوزراء الإسرائيلى الجديد ، الذى لم يكن قد مضى عليه فى منصبه سوى ثلاثة شهور ، مؤتمر صحفيا تم ترتيبه على عجل .

وأجاب « بيريز » ، خلال المؤتمر الصحفى ، على جميع الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بكيفية تمكن إسرائيل من إعادة حوالى عشرة آلاف يهودى إثيوبى إلى وطنهم التاريخى .

وبدا أن « بيريز » وهو زعيم حزب العمل ، يريد أن ينسب لنفسه الفضل فى عملية كانت قد بدأت بمبادرة من « بيجين » وكتلة ليكود .

وأحدثت تصريحات « بيريز » ضجة كبرى فى مختلف وسائل الاعلام فى أنحاء العالم ..

وتحققت مخاوف « نميرى » وشنت عليه الدول العربية و « ياسر عرفات » رئيس منظمة التحرير الفلسطينية هجوما عنيفا ، متهمة إياه بالخيانة وبمساعدة الصهاينة على تجنيد مزيد من الجنود لجيشهم ..

وفى الخامس من يناير ، وبالتحديد بعد يومين من المؤتمر الصحفى لشيمون بيريز ، أخطرت الحكومة السودانية واشنطن بأنه سيتعين وقف الخروج الجماعى ليهودا إثيوبيا عبر الخرطوم على الفور ..

كما قامت إثيوبيا بإتخاذ موقف مماثل ، وعمدت إلى إغلاق حدودها مع السودان ، واتهمت « نميرى » والإسرائيليين باختطاف المواطنين الإثيوبيين .

كان لايزال هناك مايزيد على ألف من اليهود الإثيوبيين فى السودان ذاته ، ومعظمهم من الشباب ، لأن إسرائيل لجأت إلى إجلاء المرضى والمسنين والنساء أولا ..

ومارست الولايات المتحدة مزيدا من الضغوط على السودان وتدخل « جورج بوش » نائب الرئيس الأمريكى آنذاك بصفة شخصية لحل المشكلة ، ووافق

« نميرى » على أن تهبط ست طائرات من طراز « هيركيولز » والتابعة لسلاح الطيران الأمريكى ، فى مطار مهجور قرب أحد مخيمات اللاجئين وذلك فى الثامن والعشرين من مارس عام ١٩٨٥ . وبالفعل قامت طائرات النقل الأمريكية العسكرية بالتقاط الفلاشا المتبقين وترحيلهم إلى اسرائيل مباشرة ..

وأصبحت أيام الرئيس « جعفر نميرى » معدودة بعد انكشاف تورطه فى عملية تهجير الفلاشا .. وبالفعل أطاح به انقلاب عسكرى بعد فترة وجيزة .. ومن سخرية الأقدار ، أن « صادق المهدى » رئيس الوزراء السودانى الجديد ، كان هو السياسى السودانى نفسه الذى بدأ الاتصالات السرية مع إسرائيل فى لندن فى عام ١٩٥٤ .

وتمت محاكمة « نميرى » وعدد من أعوانه غيابيا ، ومن بينهم « أبو الطيب » رئيس الجهاز السرى بتهمة الفساد وقبول رشاوى من الموساد ومن وكالة المخابرات المركزية ، والتوطؤ مع العدو الإسرائيلى .

ولجأ « نميرى » إلى القاهرة ، وجاء ذلك مجاملة من صديقه « حسنى مبارك » خليفة « السادات » ..

لكن أسوأ جانب من الموضوع تمثل فى أن قرابة عشرة آلاف من اليهود مازالوا فى إثيوبيا ، يواصلون المعاناة إلى جانب قرابة كل الشعب فى تلك الأرض القاحلة .

والملخص المؤقت لهذه العملية المذهلة ، والتى من المحتمل أن تكون من أكثر الملاحم لفتا للأنظار فى تاريخ الذكاء اليهودى لإسرائيل ، يمكن تقديمه فى جملة واحدة : بادر « بيجين » ، والسادات توسط وديان أفسد ، وصحح حوفى ، ودفع ريجان ، وتحدث بيريز ، وتحطم نميرى ..

وأدت النهاية غير المتوقعة لعمليةموسى ، إلى أنكشاف العلاقات السرية للمرة الأولى ، والتى ظلت خافية على مدى سنوات عديدة .

شعر الإسرائيليون بالاستياء من جراء افتضاح العملية ، ومن جراء ألوف اليهود الذين ظلوا ومازالوا محاصرين فى إفريقيا ، ومع ذلك فإن كثيرا من الايجابيات قد

تحققت .. فقد حقق « بيجين » هدفيه التوأم وهو أن يضمن مكانه فى سجل التاريخ كصانع سلام وأن يضمن أن إسرائيل سوف تعمل من أجل خير اليهود .

لكنه بدأ فى طريق ثالث ، وكانت تلك بداية فترة جديدة فى تاريخ المخابرات الإسرائيلية : حقبة المغامرة والاخفاقات الكبيرة ..

الفصل الثانى عشر

عصر المغامرة

● تبدد سكون ذلك الصباح الساخن فى الضفة الغربية مع دوى الانفجارات الثلاثة التى وقعت قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم الثانى من يونيو عام ١٩٨٠ ، وتبعثرت أجساد ثلاثة من العمد الفلسطينيين .

نجا بأعجوبة كل من « بسام الشكعة » عمدة نابلس المعروف بشعبيته ومزاجه النارى ، و « كريم خلف » عمدة رام الله الجنتلمان ذى الأسلوب الإنجليزى الأنيق ، و « محمد الطويل » عمدة البيرة الهادىء ، من القنابل المزروعة فى سياراتهم خارج بيوتهم .

وساد الغضب والتعاطف فى أنحاء العالم من أجل هؤلاء الساسة الذين فقدوا أطرافهم ولم يخفوا تحميلهم المسئولية فى ذلك للسلطات الإسرائيلية .

وفى هذه الأثناء ، قام الجيش الإسرائيلى بالتحريات اللازمة ، ونفى « مناحم بيجين » رئيس الوزراء أى تورط من قبل السلطات فى الهجمات ورجح العديد من الإسرائيليين أن يكون العمد قد هوجموا من جانب فلسطينيين ، اعتمادا على وجود سوابق عديدة لجماعات راديكالية تقتل العرب الذين اعتبروا معتدلين للغاية أو وثيقى الصلة بإسرائيل ..

وخلف الكواليس ، اعتقد « أفراهام أحيتوف » مدير « شين بيت » أن

المعتدين من اليهود على الأرجح .. ولو تتبع المحققون الخيط فمن المحتمل ان يؤدى إلى المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية المثيرة للجدل .

فالمستوطنون المتطرفون فى وطنيتهم لديهم الوسائل والدوافع لإرهاب العمد العرب ..

واستنادا إلى قنابل السيارات التى كانت تتسم بالتعقيد ، وإلى غياب البصمات والقرائن المادية الأخرى ، كان هناك مايدعو للاعتقاد بأن الجماعة السرية المسئولة عن الحادث لابد وأن تؤخذ مأخذ الجد ، باعتبار هذا العمل تحديا لاستتباب القانون بغض النظر عن الاعتبارات السياسية ..

والتقى « أحيتوف » مع « بيجين » ، وطلب تصريحا بزرع عملاء « شين بيت » كجواسيس بين المستوطنين اليهود ..

وقد استخدمت شبكات التصنت على الاتصالات التليفونية وشبكات المخبرين بفعالية ضد اليهود اليساريين المتطرفين فى إسرائيل خلال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ..

وقد أعتقد كبار ضباط « شين بيت » دائما أن اليسار عرضة للتخريب من الخارج سواء قبل المخابرات السوفيتية أو المصالح العربية .

وعلى أية حال ففى الأعوام التالية لحرب عام ١٩٦٧ ، أصبح اليمين مصدرا متناميا للقلق ..

فقد أنتجت هذه الجماعة الهامشية اليهودية رؤية مركبة للمهدى المنتظر ، وتعصبا دينيا وقومية متطرفة ، وكراهية بلا حدود للفلسطينيين ..

منحت « شين بيت » يدا مطلقة فى مراقبة إحدى المنظمات اليمينية ، وهى حزب « كاخ » الذى يتزعمه الحاخام « مائير كاهانا » .

وهذا الحزب هو وريث إسرائيلى لرابطة الدفاع اليهودية التى أسسها « كاهانا » فى الولايات المتحدة ..

ويدعو برنامجه السياسى إلى طرد كل العرب من إسرائيل والأراضى المحتلة .

وتسلل عملاء « شين بيت » إلى داخل حزب « كاهانا » ، وقدموا تقارير كاملة عما يحدث بداخله ، ليكون هناك تحذير مسبق فى حالة قيام عضو مخبول بالبدء فى شن حملة قتل أو تشويه .. ومن وقت لآخر ،كان يتم القبض على أعضاء « كاخ » الناشطين بناء على معلومات سرية من المخبرين .

وعبر السنين ، ألقى القبض على عدد من الإسرائيليين الآخرين ، المنتمين لجماعات صغيرة ، ساذجة المذهب ، غير مستقرة ذهنيا ، أو سريعة الزوال ، لقيامهم بالتخطيط لشن هجمات ضد المدنيين العرب أو حتى لنسف المساجد المقدسة على جبل المعبد فى القدس ..

فالعديد من المتدينين اليهود يؤمنون بأنه يتعين هدم أماكن عبادة المسلمين قبل قدوم المهدى المنتظر [المسيح] لينقذ العالم ، وذلك لأنه سيقوم ببناء معبد ثالث لليهود مكان القبب الذهبية والفضية لمسجدى عمر والمسجد الأقصى ..

أثبتت « شين بيت » فعاليتها فى مواجهة مايسمى بقضايا التطرف ، لكنها واجهت مهمة أكبر دقة بكثير فيما يتعلق بمستوطنى الضفة الغربية .

فمعظم هؤلاء يعتبرون — على نطاق واسع — وطنيين جادين ، وعلى صلات ممتازة وواضحة مع « بيجين » ومؤسسة ليكود التى يتزعمها ..

وكما خشى « أحيتوف » فقد رفض رئيس الوزراء طلبه لزرع جواسيس بين المستوطنين .

فقد نحى « بيجين » اعتبارات المهنة التى يتطلبها الأمن والمخابرات جانبا فى سبيل اعتبارات أخرى عاطفية وسياسية التى أملت ألا يفعل شيئا ..

كان هذا « بيجين » المختلف عن « بيجين » الذى تولى مقاليد الحكم فى عام ١٩٧٧ .. فبعد أن ضمن دوره كصانع سلام عن طريق تقديم تنازلات للتوصل الى معاهدة سلام مع مصر ، بدأ « مناحم بيجين » الحقيقى شديد الديماجوجية والوطنية كما يصفه معارضوه يتلهف للخروج من قوقعته المعتدلة .

وبحلول عام ١٩٨٠ ، بعد عام من الحدث التاريخى الذى صنعه مع رئيس

مصر الكاريزمى « أنور السادات » ، بدأ « بيجين » يقع تحت تأثير الجنرال « إرييل شارون » .

كان « شارون » معروفا بين أصدقائه وخصومه باسم « إريك » ، وقد تمتع أيضا بكثير من الصفات والمواهب القيادية ..

ولد « شارون » فى عام ١٩٢٨ تحت اسم « إرييل شينرمان » فى مزرعة شمالى تل أبيب ، وشب على التعاليم الاشتراكية ..

وفى وقت لاحق ، اختار لنفسه اسم « شارون » وظل فى أحضان حركة العمل المسيطرة على الصهيونية ..

أظهر « شارون » شجاعة ومهارة فائقتين خلال خدمته العسكرية الالزامية ، وقرر أن يسلك فى سلك الجيش .. وجرح فى حرب ١٩٤٨ ولكنه فى عام ١٩٥٣ ساعد فى تشكيل القوات الخاصة الإسرائيلية بوصفه رئيسا للوحدة « ١٠١ » الشهيرة ومرهوبة الجانب ، وهى طليعة القوات الخاصة التى تشكلت فيما بعد ..

كانت الوحدة « ١٠١ » مخصصة للرد على الهجمات الفلسطينية الإرهابية ، وهى تتألف من ٤٥ رجلا .. واستمرت قائمة لفترة قصيرة ..

فكما ذكر « شارون » على حد قوله ، :

« أن خمسة شهور كانت كافية ليكون لها تأثير أساسى على جهود الدولة للقضاء على الارهاب » ..

ويضيف « شارون » ، الذى قاد رجاله عبر الحدود إلى داخل الدول العربية للرد على الغارات : « كانت لدينا مجموعة مستعدة للرد على الهجوم » .

كان جنود الوحدة « ١٠١ » يتسمون بالخشونة وصلابة العود ، والانبهار بشارون ويتمثل أسوأ هجماتهم سمعة فى الهجوم ضد قرية « قبية » الأردنية ليلة الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٥٣ ..

فرداً على مقتل إمرأة إسرائيلية وطفليها دخلت الوحدة « ١٠١ » القرية

تساندها بعض القوات ومعها كمية هائلة من المتفجرات ، وهرب معظم سكان « قبية » البالغ عددهم ألف وخمسمائة نسمة قبل أن يسوى الإسرائيليون قرابة خمسين منزلا بالأرض .. وأدت المتفجرات إلى مصرع ٦٩ رجلا وإمرأة وطفلا والذين كانوا يختبئون فى بيوتهم .

وبعد مرور سنوات على الغضب العالمى الذى أثاره الحادث قال « شارون » إنها كانت مأساة غير مقصودة أن يفقد المدنيون أرواحهم ..

وعجلت الإدانات من الأمم المتحدة وغيرها بقيام جيش إسرائيل بحل الوحدة « ١٠١ » وجعلها جزءا من قوات المظلات ..

ومهما كان الأمر ، فقد ذاع صيت « شارون » ورق إلى منصب قائد قوات المظلات ، وأصبح المرشح الأول لمنصب رئيس أركان الجيش .. كانت قواته المظلية تفعل ماهو أكثر بكثير من مجرد القفز من الطائرات ..

ووصف « شارون » جنوده بأنهم رجال حرب عصابات لمكافحة الارهاب ، ومقاتلين غير تقليديين ، وقد تولوا فى عام ١٩٧١ مهمة القضاء على الإرهاب فى قطاع غزة المحتل . حيث تنكر الإسرائيليون بصفة منتظمة فى زى عربى ، وتظاهروا بانهم فدائيون ليتمكنوا من اختراق خلايا العدو .

وفى غضون سبعة شهور ، وعلى حد حسابات « شارون » نفسه ، قتل رجاله ١٠٤ من الفلسطينيين وقبضوا على ٧٤٢ آخرين لكن « شارون » لم يتمكن أبداً من أن يحصل على أعلى منصب فى الجيش ..

فعلى الرغم من أنه فاز باحترام واخلاص مجموعة من أصدقاء عمره ، إلا أنه احتك بأناس آخرين عديدين بطريقة خاطئة ..

ونتيجة شعوره بخيبة الأمل ، استقال « شارون » من الجيش ، وكان ذلك بالمصادفة قبل مجرد ثلاثة شهور من حرب يوم كيبور عام ١٩٧٣ .

عاد « شارون » بسرعة إلى الخدمة للمساعدة فى التغلب على نكسات إسرائيل

الأولى فى الحرب وعبر بجسارة إلى غربى قناة السويس فى قلب الأراضى المصرية للتوصل إلى وقف لاطلاق النار ..

ثم وجه « شارون » طموحاتهِ وعبقريته التاكتيكية إلى الاشتغال بالسياسة ..

كان حزب العمل لديه بالفعل كثرة من الجنرالات يقومون بأدوار بارزة ، لذلك قرر أنه يمكن أن يحقق ماهو أفضل فى حزب سياسى يلعب فيه الدور الرئيسى ..

وهكذا وجد طريقة للانضمام إلى الحزب الليبرالى الذى كان حزبا يمينيا على الرغم من اسمه ..

وبطاقته اللا محدودة ، سرعان ما أقنع « شارون » أحزابا عديدة ، والتى كانت أنذاك تشكل معارضة يمينية مهشمة ، بالاندماج تحت سقف منظمة واحدة أطلقت على نفسها اسم « ليكود » وهو لفظ عبرى يعنى التضامن أو الوحدة .

وفى أقل من أربع سنوات ، رأى « شارون » ابتكاره يفوز بتفويض الناخبين ليحكم الأمة ..

بعد انتصار « ليكود » فى انتخابات عام ١٩٧٧ ، دبر « شارون » أساليب على جبهة البيروقراطية الحكومية .. حيث أدرك « شارون » بخلفيته العسكرية أهمية السيطرة على مؤسسة المخابرات والاشراف عليها ..

فالمخابرات تعنى المعلومات ، والمعلومات تعنى السلطة ..

وأدرك الجنرال المتقاعد أن مخابرات إسرائيل دولة داخل الدولة ، حيث تمارس سياستها الخارجية الخاصة وتؤثر فى سياسات الدفاع والسياسات المحلية .

وأهتم « شارون » اهتماما كبيرا بمثل هذه الاستقلالية الذاتية ..

عندما علم « شارون » بأن « بيجين » كان يخطط لمنح مسئولية وزارة الدفاع للجنرال « عيرز وايزمان » القائد السابق لسلاح الطيران والذى كان العقل الموجه للحملة الانتخابية لليكود ، رشح نفسه لتولى مسئولية وزارة جديدة للمخابرات ..

وكانت اقتراحات مماثلة قد طرحت قبل حوالى إثنى عشر عاما ، وبالتحديد فى عام ١٩٦٦ ، عندما رشح جنرال آخر هو « ييجال أللون » للمنصب نفسه لكن وزارة المخابرات لم تنشأ أبدا ..

كانت وجهة نظر « شارون » أن الوزارة ستصبح مسئولة عن جميع وكالات المخابرات ، بل ويمكن أن تستقل بوكالة « أمان » عن وزارة الدفاع .. إلا أن « بيجين » رفض اقتراح « شارون » ومنحه بدلا من ذلك وزارة الزراعة .

فاستغل بطل الحرب منصبه لشن هجومه الخاص وهو تخصيص ميزانيات لانشاء مستوطنات يهودية فى الاراضى المحتلة ، والتى وصفها بأنها « حقائق على الأرض » ، وكأنه بهذا يتحدى العالم الخارجى الذى يريد إزالة اليهود من الأراضى التى استولوا عليها .

وفى انتظار سنوح فرص أكبر ، راقب « شارون » عن قرب الشجار القائم بين رئيس الوزراء وبين « أحيتوف » رئيس « شين بيت » حول انفجارات السيارات فى عام ١٩٨٠ كان « أحيتوف » يفكر فى الاستقالة ، لقيام « بيجين » بإعاقة مطلبه لإجراء تحقيق أكثر تشددا حول الاندلاع الظاهر للارهاب اليهودى ..

وعلى أية حال ، فقد أدرك رئيس « شين بيت » ان رحيله المفاجىء سيربك وكالة الأمن الداخلى ، وسيثير عاصفة سياسية هائلة لن تعود بالنفع على أحد .. لذلك قرر أن يبتلع كبرياءه المهنى ، وأن يستمر فى منصبه لعام آخر ..

عندما ترك « أحيتوف » أخيرا « شين بيت » فى عام ١٩٨١ ، وذكر رجال مؤسسة المخابرات المطلعون ، والذين كلفوا بكتابة تقرير ينتقده ، أن « احيتوف » أخطأ عندما طلب تصريحا من بيجين » للتجسس على المستوطنين .. وأضافوا أنه إذا كان رئيس « شين بيت » يعتقد بوجود تخريب وعنف فى المجتمع الاسرائيلى ، لكان ينبغى عليه أن يستخدم حكمه الخاص وسلطته لزرع شبكة من المخبرين بين يهود الضفة الغربية ..

وفى غياب أية معلومات مادية عن مفجرى السيارات فإن « شين بيت »

والجيش عجزا عن منع الحركات السرية اليهودية من الاستمرار على طريق العنف .

وتنكر عديد من مستوطنى الضفة الغربية فى الزى العربى ، واقتحموا حرم الجامعة الاسلامية فى الخليل فى يوليو ١٩٨٣ ، وهم يطلقون الرصاص على الطلبة مما أدى إلى مصرع ثلاثة فلسطينيين .. وظلت هذه الجريمة أيضا دون حل حتى مايو ١٩٨٤ .

حدثت نقطة تحول فى ذلك الشهر من عام ١٩٨٤ عندما اكتشف البوليس الإسرائيلى فى القدس ١٢ قنبلة داخل اوتوبيسات عربية ، تحمل ركابا من بينهم اطفال ، فى القدس الشرقية . وتم تجنب مجزرة رهيبة بأعجوبة ، فهذه المرة استطاعت « شين بيت » أن توجه ضربة قوية ..

كانت المتفجرات التى عثر عليها من الطراز المستخدم فى الجيش الاسرائيلى ، مما يشير إلى أن جنودا أو جنود الاحتياط قد سرقوها من ترسانات الجيش .

عرفت « شين بيت » على من تلقى القبض بالضبط لأنها بحلول عام ١٩٨٤ زرعت بالفعل عملاء فى الحركات السرية اليهودية .

كان « بيجين » قد استقال فى العام السابق وأخذ افراهام شالوم الرئيس الجديد لوكالة « شين بيت » ونائب « أحيتوف » قبل ذلك ، على عاتقه حل رموز القضية مهما تطلب ذلك ..

واكتشف ان الخلية الارهابية تتألف من قرابة عشرين من المستوطنين اليهود الذين كرسوا انفسهم لقتل وتهديد الفلسطينيين .

وعاملت « شين بيت » اليهود معاملة أفضل إلى حد ما من الارهابيين العربى ، ومع ذلك فقد اعترف جميع المشتبه فيهم ، وحوكموا ، وأدينوا ، وسجنوا .

ومع أنه يمكن انتقاد « بيجين » كرئيس للوزراء لتردده عندما تحدت الحركات السرية اليهودية القانون والنظام ، إلا أنه بالطبع لم يظهر أى صبر أو رحمة تجاه التهديدات من الخارج ..

فالسلام مع مصر لم يعنى أن « بيجين » قد لان ، كما برهن هو نفسه بقراره الجسور فى ١٩٨١ .. ففى الرابع من يونيو قامت أربع عشرة طائرة قاذفة مقاتلة من طرازى « إف ــ ١٦ » و « إف ــ ١٥ » تابعة لسلاح الطيران الإسرائيلى بتدمير المفاعل النووى العراقى فى بغداد .

ومن الناحية العسكرية ، فإن هذه العملية كانت ناجحة على نحو فريد ، وأظهرت دقة متناهية ومعلومات ممتازة فيما يتعلق بهدف بعيد لم يسبق له مثيل بالنسبة لاسرائيل ..

وتكشف خلفية هذا الهجوم الدور الرئيسى الذى لعبته مؤسسة المخابرات فى سياسة « بيجين » الخارجية التى لا تخشى شيئا .

كان الموساد و « أمان » تنهجان سياسة الترقب والانتظار منذ اللحظة الأولى التى أصبح فيها عزم العراق على شراء مفاعل نووى من فرنسا معروفا .

وأرق مضاجع القادة الإسرائيليين احتمال حصول أية دولة عربية ، وبصفة خاصة العراق المتطرف ، على أسلحة نووية يمكن أن تهدد الدولة اليهودية ..

وفى نوفمبر ١٩٧٥ ، وافقت فرنسا رسميا على امداد العراق بمفاعلين نوويين ، أحدهما صغير للأبحاث ، والآخر أكبر طاقته ٧٠ ميجاوات ..

وأطلق العراقيون على المشروع اسم « تموز » نسبة إلى اسم إله كنعانى ، وإشارة إلى الشهر الذى تولى فيه حزب البعث الاشتراكى مقاليد السلطة فى عام ١٩٦٨ .

وخلال الفترة السابقة على تولى « مناجم بيجين » رئاسة الوزراء فى عام ١٩٧٧ ، استخدمت الحكومة الإسرائيلية الدبلوماسية الهادئة لإثناء فرنسا وايطاليا والبرازيل عن عزمهم على امداد العراق بالمعدات ، واليورانيوم ، والخبرة الفنية فى إطار مشروع « تموز » .

كذلك طالبت إسرائيل الولايات المتحدة بالتدخل على أمل أن تؤثر حملة الرئيس « كارتر » لمنع انتشار الأسلحة النووية فى فرنسا ..

لكن النهج الهادىء لم يكن مثمرا على أية حال حيث استمر إنشاء المفاعلين النوويين فى موقع قرب بغداد وفى إيقاع أسرع ..

وقرر « بيجين » تبنى سياسة جديدة تماما حيث استدعى رؤساء المخابرات وأعلن أنه من الآن فصاعدا سيكون تدمير المفاعل النووى العراق أحد الأهداف لقومية العليا لإسرائيل .

وأمرهم « بيجين » ببذل كل جهد ممكن للحصول على معلومات عن المفاعل النووى لمشروع تموز ، مدى سرعة بنائه ومدى التعاون بين العراق والدول الأخرى ..

كان « بيجين » متأثرا ، أكثر من أى زعيم إسرائيلى آخر ، بالإبادة الجماعية لليهود الذى اقترفها النازى ..

واعتبر القضاء على ستة ملايين يهودى، أوربى ليس فقط حدثا تاريخيا مخيفا ، وإنما أيضا تحذير واضح من أخطار الحاضر ..

ونتيجة لذلك ، أرسى رئيس الوزراء مبدأ جديدا مفاده أن إسرائيل لن تسمح لأية دولة عربية بانتاج قدرة نووية هجومية ..

وبدأت كتائب « بيجين » السرية تتحرك بسرعة .. فوصل فريق من العملاء إلى طولون بفرنسا عن طريق طرق متعددة فى الأسبوع الأول من إبريل ١٩٧٩ ..

كان هدفهم مخزنا كبيرا فى بلدة « لاسين ـــ سور ـــ مير » الواقعة على البحر المتوسط ، حيث يوجد قلبا المفاعلين النوويين لتموز فى انتظار شحنهما إلى العراق ..

وذكرت السلطات الفرنسية فيما بعد أن العمل تم على يد محترفين تماما ، فالمتفجرات ربطت إلى قلبى المفاعل وأجهزة التوقيت مضبوطة على الساعة الثالثة صباحا ، وبعد وقوع الانفجار لم يكن هناك أى أثر يشير إلى المهاجمين ..

وأعلنت جماعة فرنسية للحفاظ على البيئة مسئوليتها عن الحادث ، إلا أن ذلك

لم يؤخذ مأخذ الجد . وسرعان ما استنتجت وكالة المخابرات الفرنسية « SDECE » أن تدمير المكونات النووية كان عملا لحساب إسرائيل ، وأن الموساد هى التى ارتكبته فى الغالب ..

أمل « بيجين » ومؤسسة المخابرات الإسرائيلية أن فرنسا ستستخدم الانفجار كذريعة لإنهاء معونتها للعراق ، لكن هذا الآمال تبددت فى غضون وقت قصير جدا ..

فقد أعلنت الحكومة الفرنسية أنها ستلتزم بتنفيذ اتفاقاتها مع العراق وستمدها بقلبى مفاعلين جديدين ..

وتحول « بيجين » إلى ما اعتبره طريق التحرك الأخير الباق لإسرائيل ، وهو الخيار العسكرى ضد العراق ذاته ..

وبالتنسيق مع « رافول إيتان » رئيس الأركان أمر « بيجين » الموساد و « أمان » ببحث إمكانية شن هجوم مباشر بقوات برية ، سواء بواسطة قوات كوماندوز الجيش أو أية قوات غير نظامية أخرى ، على المفاعل العراق .

فوضع المتفجرات عن طريق عملاء يعطى نتائج أكثر دقة من الهجوم بطريق الجو .

لكن الجنرال « إيتان » أمر أيضا القوات الجوية ببناء نموذج كامل للمفاعل استنادا إلى تقارير التجسس ، والتدريب على قصفه .

ومع بدء الاستعدادات للهجوم ، ظهرت خلافات هامة بين صناع القرار الإسرائيليين ..

فقد كان يجرى بحث شن غارة على بغداد والتخطيط لها ، والانتخابات العامة تلوح مع الأفق ..

وقبل بضعة أسابيع فقط من إجراء الانتخابات فى السابع من يونيو عام ١٩٨١ ، علم « شيمون بيريز » وجنرالات الجيش السابقين فى حزب العمل بالخطط من أصدقاء وزملاء سابقين فى المؤسسة العسكرية ومؤسسة المخابرات .

اتصل « بيريز » ببيجين لحثه على عدم الهجوم على العراق .. ففى السر ، كان زعماء العمل يخشون أن تؤدى الغارة على المفاعل إلى دعم شعبية « ليكود » و « بيجين » بين الناخبين .

كما عارضت بعض أكثر الأصوات نفوذا وتأثيرا فى مؤسسة المخابرات الخيار العسكرى المكشوف .

فاعتقد « اسحاق حوفى » رئيس الموساد و « شلومو جازيت » رئيس « أمان » حتى حل محله « يهوشوا ساجاى » فى فبراير ١٩٧٩ ، أن المفاعل العراقى لن يشكل خطرا قبل مضى فترة طويلة ..

واقترح رجال المخابرات أولئك ، الذين كانوا يمثلون شبه أغلبية ، البدء فى مبادرة دبلوماسية أكثر حزما ..

وحذروا من أن قصف بغداد قد يحفز العراق وإيران على إنهاء حربهما فى الخليج والتوحد ضد إسرائيل ، وأنه قد يثير موجة هائلة من الإدانة الدولية ..

ومن المعروف أن حرب الخليج عندما بدأت فى عام ١٩٨٠ بدا أنها تخدم مصالح إسرائيل ..

من ناحية أخرى ، تجمع ائتلاف قوى من أعضاء الحكومة التابعين لليكود بقيادة « إريل شارون » حول الجنرال « إيتان » مساندين له فى تأييده لشن الغارة ..

وبالطبع كان « مناجم بيجين » رئيس الوزراء معجبا بالفكرة ، وخطط « ساجاى » قائد « أمان » للعملية فى حماس وبكفاءة ..

ونفذ الهجوم بطريقة بلغت حد الكمال قبل ثلاثة أيام فقط من الانتخابات ، وفازت كتلة ليكود فى صناديق الاقتراع أيضا ، وفاز « بيجين » بفترة ثانية كرئيس للوزراء .

وتبين أيضا أن وجهة نظر بيجين / شارون / إتيان ، حول العواقب الدولية كانت فى محلها .

وثبت أن التحذيرات البائسة من جانب بيريز ،حوفى ، جازيت ، وآخرين غيرهم فى المخابرات كانت خاطئة .

فلم تعان إسرائيل سوى من أضرار دبلوماسية محدودة ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى أن الأمريكين والسوفيت شعروا بالارتياح ضمنا من جراء تسوية برج بابل النووى للعراق بالأرض ..

فالدولتان الأعظم لم تعلقا كثيرا على الغارة والأهم من ذلك ، أن الرئيس الاشتراكى الجديد لفرنسا « فرنسوا ميتران » استخدم الهجوم كذريعة لخفض التعاون النووى مع العراق ..

وقررت فرنسا عدم تعويض العراق عن المفاعل النووى الذى دمرته إسرائيل .

كان الهجوم على بغداد نقطة انطلاق فى أسلوب حكومة « بيجين » الجديد فى تناول المشكلات على الجبهة الخارجية بعد إعادة انتخاب ليكود فى عام ١٩٨١ ..

ومن أوضح التعبيرات على نغمة هذه السياسة الجديدة تعيين « شارون » وزيرا للدفاع ، بعد أن ألزمه ، لأكثر من عام وبمنتهى العناد ، بمنصبه كوزير للزراعة .. وبدلا من أن يمنح « شارون » المنصب الذى أراده بشدة ، تولى « بيجين » بنفسه منصب وزير الدفاع بعد استقالة « عيزر وايزمان » احتجاجا على النهج العسكرى الجديد .

وفى اطار مواصلته لمقاومة مطمح « شارون » ذكر « بيجين » بطريقة شبه مازحة ، أن « شارون » سيطوق مقر رئيس الوزراء بالدبابات ، فى اليوم نفسه الذى سيعين فيه وزيرا للدفاع ..

وهكذا كان غزو « شارون » لوزارة الدفاع تحقيقاً لحلم قديم ..

ولم يكن ذلك يكفيه .. فبطريقة أو بأخرى ، كان مازال راغبا فى السيطرة على مؤسسة المخابرات .

وقد استطاع أن يقنع « بيجين » بتعيين « رافى إيتان » ، وهو صديق حميم

لشارون ، مستشارا لرئيس الوزراء لشئون مكافحة الارهاب .. ويجب عدم الخلط بين « رافى ايتان » وبين « رافول إيتان » رئيس أركان الجيش ..

فرافى إيتان رجل مخابرات متمرس حقق أكبر ضرباته الموفقة بواسطة فريق الاختطاف الذى أمسك « أدولف أيخمان » فى عام ١٩٦٠ . وهو معروف بين مؤسسة المخابرات باسم « رافى كريه الرائحة » .

ولايرجع ذلك إلى نشاطاته الكريهة ولكن لأنه اضطر لأن يخوض فى مياه الصرف الصحى خلال قيامه بمهمة تخريبية لصالح البالماخ وضد البريطانيين فى فلسطين قبل عام ١٩٤٨ .

ولد « رافى إيتان » عام ١٩٢٦ فى كيبوتز « عين هارود » بإسرائيل .. وبعد أن ذهب إلى السينما مرة مع أمه ، قال لها :

« أريد أن أصبح جاسوسا مثل ماتاهارى » .. وبعد عشرات السنين ، كان من الأنسب أن يسمى « جيمس بوند » .

فقد حول « إيتان » أحلام طفولته إلى واقع طفولى لأنه نفذ مهاما سرية للهاجاناه وهو فى سن الثانية عشرة .

جرح « إيتان » يوم مولد دولة إسرائيل فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ ، ثم التحق بوحدة مخابرات الجيش . وبعد حرب الاستقلال تم تجنيده بواسطة « إيسر هاريل » وخدم فى قسم العمليات المشتركة التابع لوكالتى « شين بيت » و « الموساد » ..

التحق « إيتان » بوكالة « شين بيت » من عام ١٩٥٠ وظل كذلك حتى عام ١٩٥٣ ، ثم انتقل إلى الموساد حيث أصبح رئيسا للعمليات ، وشارك « إيتان » عمليا فى كل عملية من العمليات المذهلة التى قامت بها مؤسسة المخابرات ..

وعندما شنق « أيخمان » فى عام ١٩٦١ كان « إيتان » أحد شهود عملية الشنق فى السجن ..

وقد وجه مجرم الحرب النازى آخر كلماته إلى « إيتان » قائلا :

« آمل أن تتبعني سريعا » .

أحس العميل الكبير المتمرس بأنه مضطر للاستقالة فى عام ١٩٧٢ ، عندما علم أنه لم تعد أمامه أية فرصة ليحل محل « زفى زامير » كرئيس الموساد ..

كانت لإيتان خلافات حادة على المستوى العملى والشخصى مع « زامير » ومع خليفته « جوفى » عندما تم استدعاؤه للعمل كمستشار ..

وبدأ « إيتان » يشارك صديقه « شارون » الرأى أن الموساد بحاجة إلى الاصلاح والترويض بل والإضعاف ..

وفى ١٩٧٢ ، عندما بلغ السادسة والأربعين ، جرب « إيتان » حظه فى عدة أعمال تباينت من تربية الأسماك الإستوائية وحتى التعامل فى أرض الضفة الغربية ..

لكنه لم ينجح فى ذلك ، مثله فى ذلك مثل كثيرين غيره ممن حاولوا مبادلة العباءة والخنجر بالملابس المدنية ..

لذلك انتشل « شارون » صديقه القديم من الغرق فى مزيد من الملل ، وأعاده إلى خدمة الحكومة فى عام ١٩٧٨ كخبير رسمى فى مكافحة الارهاب ، وهى وظيفة تنسيقية ذات سلطة محدودة ، على هامش مؤسسة المخابرات ..

اكتشف « شارون » أيضا ، داخل وزارة الدفاع ، الكنز المخابراتى المعروف باسم « لاكام » ، مكتب الاتصال العلمى ، والذى لم يكن وجوده معروفا سوى للقليلين ..

وبوصفه رجلا منظما ودقيقا ، فإن « شارون » درس تاريخ « لاكام » فى الملفات السرية للوزارة ، ولاحظ كيف حولت الوكالة نفسها من مجرد حامية لأمن مفاعل « ديمونه » لتقوم بدور أكبر فى تدبير المواد اللازمة لدفاع إسرائيل ..

وقد اعتبر العديدون داخل جهاز الدفاع والمخابرات « بنيامين بلومبيرج » مدير « لاكام » عبقريا على الرغم من أن واجباته ونشاطاته لم تكن معروفة على وجه الدقة .

وعلى أية حال ، لم يشعر « شارون » بالسرور لأنه لاحظ أن « لاكام » أصبحت إقطاعية خاصة تقدم على فعل كل ماتريد تقريبا دون أن تحسب حسابا لأحد ..

فعندما كان القادة البارزون فى مؤسسة المخابرات يطلبون بصفة دورية تقريرا عن أعمال « لاكام » فإن « بلومبيرج » كان يتجاهلهم ببساطة .

وقد منح « ديان » وزير الدفاع وكالة الاتصال العلمى بالغة السرية تأييده الكامل ، دون أن يريد على الاطلاق معرفة ماتقوم به بالضبط .. وفوض « ديان » مساعدة الجنرال « زفى تسور » المسئولية عن « لاكام » ..

وقد أطلق الجنرال « تسور » ، الذى كان رئيسا لأركان الجيش فى بداية الستينيات ، يد « بلومبيرج » :.

وامتد هذا الموقف الليبرالى إلى مدى أبعد عندما عاد « شيمون بيريز » لوزارة الدفاع عام ١٩٧٤ ، بعد غياب دام أحد عشر عاما ، كوزير للدفاع ليحل محل « ديان » بعد الإذلال الذى لقيه فى حرب « يوم كيبور » ..

ومن بين القلة من الإسرائيليين التى كانت تعرف « لاكام » فإن البعض شكا من أن « بلومبيرج » كان متحيزا جدا لأصدقائه ويعطيهم المعلومات ، ويكلفهم بمهام مؤقتة أسهمت فى جعلهم أغنياء بل كانت هناك شائعات بغيضة مفادها أن رئيس « لاكام » ينتفع شخصيا ، على الرغم من أن قلة من الناس هى التى تشككت فى أسلوب حياته المتواضع ..

ومع ذلك ، شعرت سلطات وزارة الدفاع أنه يتعين عليها فحص الشكاوى حول ادارة « لاكام » التى تثير الشكوك ..

بعد تولى « مناحم بيجين » وكتلة ليكود اليمينية مقاليد السلطة فى مايو ١٩٧٧ ، ازدادت الجهود الرامية لفصل « بلومبيرج » كثافة ..

ففى عيون الإدارة الجديدة ، كان « بلومبيرج » مرتبطا بالمؤسسة القديمة لحزب العمل .

وتشكك البريجادير جنرال « موردخاى تسيبورى » نائب وزير الدفاع المنتمى لليكود فى أن بعض عمليات « لاكام » تضمنت نهب الأموال لصالح حزب العمل .. وسعى إلى إقناع رئيسه « عيزر وايزمان » بإقالة « بلومبيرج » فى عام ١٩٧٩ ،ز استنادا إلى عدم وجود أية ضوابط عليه .. وعقد « وايزمان » وزير الدفاع اجتماعا وحصل على موافقة « بلومبيرج » على أن يقدم له تقارير أكثر اكتمالا وبصورة منتظمة أكثر ..

قرأ « شارون » تاريخ « لاكام » ، واستمع أكثر من ذلك لمستشارين عدة ، وأخذ الشكاوى ضد « بلومبيرج » بجدية أكثر من سلفه « وايزمان » .

كان هناك ، ماهو أكثر من الشكاوى ، فقد تقدم موظفون فى « لاكام » بأدلة على أن الوكالة قد قامت بجمع أموال بطريقة غير مشروعة ..

ولم يكن « شارون » بحاجة إلى وقائع محددة لطرد « بلومبيرج » ، فقد خطط وزير الدفاع الجديد لأن يستبدله برجل من رجاله مناوىء لحزب العمل بأية وسيلة ، والآن قد أصبح لديه المبرر

انتشرت الشكاوى كشائعات ، ثم نمت لتصبح عملية تشويه وتلويث ، وعلى الرغم من أنها فى معظمها كانت بلا أساس ، إلا أنها جعلت إقالة « بلومبيرج » أمرا أسهل .

وبعد مرور ثلاثين عاما على عمل « بلومبيرج » فى مؤسسة المخابرات ، من بينها أكثر من عشرين عاما كرئيس للاكام ، كان من الطبيعى ان يثير رحيله عن موقعه فى عام ١٩٨١ عاصفة هائلة داخل مؤسسة المخابرات فقط .. حيث أن الصحافة الإسرائيلية لم تشر إليه على الاطلاق ولو لمرة واحدة .

وسرعان ما كلف « شارون » صديقه « رافى إيتان » بأن يصبح مسئولا عن « لاكام » لغرض النظام وفرض إرادته ..

وللمرة الأولى منذ أيام « روفين شيلوح » ، والشهور التسعة التى أمضاها « مائير أميت » ، أصبح مسئول كبير فى مؤسسة المخابرات لايشغل منصبين فحسب بل ويتبع رئيسين ..

فإيتان بوصفه مستشارا لمكافحة الارهاب لرئيس الوزراء أصبح يخضع لرئاسة « بيجين » ، وبوصفه رئيس « لاكام » أصبح تحت رئاسة « شارون » ..

كان الانقلاب فى « لاكام » خطوة هامة فى اطار جهود « شارون » ليصبح الشخصية المسيطرة فى مؤسسة المخابرات والأمن الإسرائيلية ..

وعلى أية حال ، وقفت منظمتان مستقلتان فى طريقه وهما « شين بيت » والموساد .

ووعى « شارون » أن أى رئيس للوزراء لن يوافق على السماح له بالاشراف الوزارى المباشر على هاتين الوكالتين ، لكنه كان يأمل فى إقناع « بيجين » بتغيير رئيسيهما ..

وكان « شارون » مهتما بصفة خاصة بإبعاد « اسحاق حوفى » من الموساد ..

لم يكن منبع العدواة بين « شارون » و « حوفى » خلافاتهما الأساسية حول السياسة والدفاع ودور المخابرات فقط ، لكنه يعود أيضا إلى العداء المتبادل الخفى بينهما والذى يرجع إلى أعوام عديدة ماضية .

ففى أعقاب حملة السويس عام ١٩٥٦ ، تمرد قادة أربع كتائب فى لواء المظلات ضد قائدهم البريجادير كولونيل « إرييل شارون » .. وكان قائد المتمردين نائبه الليفتنانت كولونيل « إسحاق حوفى » .

ومشيرين إلى جبن قائدهم ، قالوا أن « شارون » لم يقد رجاله إلى المعركة ، كما يعظ هو دائما بأن ذلك هو واجب القائد ..

وزعموا أنه بدلا من ذلك فضل البقاء فى المؤخرة . ولجأ « شارون » والمتمردين إلى ضابطين محايدين لتسوية نزاعهم ، لكن المحكمين توصلا إلى نتائج متضاربة ، ولم يتفقا على قرار .

وقد ظلت هذه الحادثة الغريبة سرا لسنوات عديدة ، لكن « شارون » مشهور بأنه يتمتع بذاكرة فيل ، ولم ينس عصيان « حوفى » .

واعتزم « شارون » أن يقتنص فرصة عمره لتسوية حسابه القديم مع « حوفى » . وزاد التدمير بعيد المدى للمفاعل النووى العراق من فرصه ليفعل

فقد ضايق « حوفى » « بيجين » بمعارضته للغارة على بغداد ..

وعلى أية حال ، فإن رئيس الموساد لم يخفه « شارون » بأية طريقة .. كان « حوفى » واعيا أنه فى غضون إثنى عشر شهرا سيكمل ثمانية أعوام فى الموساد ، وهى أطول فترة ظل فيها أى شخص على قمة الوكالة منذ عهد « إيسر هاريل » .. كان وقت التقاعد يقترب .. وبدلا من أن يتخذ « حوفى » موقفا دفاعيا بيروقراطيا بدأ فى هجوم محموم ولم يسبق له مثيل .

ففى الثامن عشر من يونيو عام ١٩٨١ ، أدلى « حوفى » بحديث إلى صحيفة « هاآرتس » الاسرائيلية بوصفه رئيس الموساد مجهول الهوية دون أن يسعى للحصول على تصريح من « بيجين » ..

وحذر « حوفى » الساسة من مواصلة الافراط فى الحديث لينسبوا لأنفسهم الفضل فى الغارة الجوية على المفاعل العراقى ..

وعلى الرغم من أن اسمه لم يذكر وفقا للقانون الإسرائيلى ، إلا أن تصريحات « حوفى » تسجل المرة الأولى التى يجرى فيها رئيس للموساد مقابلة صحفية ..

وادعى حوفى أن تسريب المعلومات المتكرر للصحافة حول قصف بغداد يحدث ضررا بالغا ومن المحتمل أن يؤثر على مصادر المعلومات وعلى الروابط مع أطراف خارج إسرائيل .

وبطبيعة الأشياء أثارت المقابلة الصحفية تفسيرات وتخمينات حول من الذى يقصده رئيس الموساد بالتحديد .

وقد أجاب على ذلك عدد من الصحفيين الذين يعدون من أوثق أصدقاء حوفى قائلين أنه كان يشير إلى « شارون » وإلى الكاتب الصحفى « يورى دان » وهو واحد من أوثق أصدقاء الوزير المثير للجدل ..

وكما هو متوقع ، رد « شارون » على « حوفى » بنفس الطريقة ، فقد نشر « دان » هجوما قاسيا على رئيس الموساد مجهول الاسم فى صحيفة معاريف المسائية ، مدعيا أن المقابلة الصحفية التى أجراها زودت حزب العمل المعارض بذخيرة من المعلومات الهامة وأن رئيس المخابرات قد اعتزم تحقيق الهدف المحدد التالى : وهو خدمة حزب العمل الذى عينه فى موقعه ..

وادعى « دان » أيضا أن « حوفى » على اتصال مستمر بزعماء المعارضة ، وأنه سرب الأسرار لهم ، وضلل رئيس الوزراء بعدم امداده بمعلومات دقيقة حول المفاعل النووى العراقى . ودعا « دان » « بيجين » بوضوح إلى طرد رئيس الموساد .

ورفض رئيس الوزراء الاستجابة لدعوة « يورى دان » رغم معرفته أن « شارون » هو القوة الكامنة خلف كتابة هذا المقال ، ورغم أن « بيجين » نفسه ثار غضبه بسبب الحديث الصحفى لحوفى دون موافقة السلطات المعنية ..

واعتبر العامود الذى كتبه « دان » انفعاليا ومتحيزا للغاية ، ومثيرا للشقاق السياسى بدرجة كبيرة .

واستاء المسئولون عن التحرير فى صحيفة « معاريف » وتخلى « دان » عن عمله فى الجريدة فى سبيل وظيفه جديدة وهى : المستشار الصحفى لشارون والمتحدث باسم وزارة الدفاع ..

وعلى أية حال ، ظل « حوفى » رئيسا للموساد . وأدرك « شارون » ، بوصفه بارعا ومتمرسا فى التاكتيك العسكرى ، أن أهدافه لن تتحقق عن طريق هجوم مباشر ، وغير منهجه لصالح الاستراتيجية غير المباشرة .

وأسهم فى إنشاء « منابر » متعددة أغلبها معاقل للفكر غير رسمية تضم مسئولى الحكومة ومواطنين عاديين .

وقد أشار المعارضون السياسيون إلى تلك الاجتماعات ، التى كان تعقد فى مكتب وزير الدفاع فى تل أبيب ، بوصفها « غرفة الحرب » أو « بلاط إريك » .

وكان من بين المشاركين فى هذه الاجتماعات ، التى اصبحت بسرعة أداة مؤثرة ، « رافى ايتان » و « ريحافيا فاردى » وهو عميل سابق للموساد عينه « شارون » كمنسق للحكومة فى الأراضى المحتلة ، والميجور جنرال « افراهام تامير » مساعد الوزير للتخطيط والاستراتيجية و « يعقوب نيمرودى » تاجر الأسلحة الخاصة والعضو القديم فى « أمان » و « ديفيد كيمحى »العميل المتمرس فى إفريقيا ، والذى قفز ليحصل على ثانى أكبر وظيفة فى الموساد قبل أن يصبح المدير العام لوزارة الخارجية . وكان كيمحى يحضر هذه الاجتماعات من حين لآخر ..

على مدى ربع قرن ، ومنذ اليوم الذى انضم فيه « كيمحى » إلى الموساد كأكاديمى بريطانى المولد فى عام ١٩٥٣ ، حلم دائما برئاسة الوكالة ..

وفى نهاية السبعينيات ، اعتقد « كيمحى » أن أمامه فرصة ممتازة ، لأن « بيجين » كان من الواضح أنه يعتبره الخليفة الطبيعى لحوفى .

لكن « حوفى » لم يكن ليسمح بذلك بسبب استيائه الشديد من « كيمحى » لأنه يتصرف على أنه منظمة الرجل الواحد ، فقد كان يختفى بصفة متكررة فى مهام غامضة لايعرفها أحد بما فى ذلك رئيس الوكالة ..

وقد كان « كيمحى » معروفا فى الموساد بوصفه « الرجل ذا الحقيبة » من جراء كثرة أسفاره ..

واتهم « حوفى » نائبه أيضا بتبديد الأموال لكن « كيمحى » أنكر كل تلك الاتهامات وفى النهاية لم يكن مستعدا للبقاء فى مكان يشعر بأنه غير مرغوب فيه .

واستقال من الموساد فى عام ١٩٨٠ . قبل « كيمحى » عرض عمل من زميله السابق فى الموساد الذى يتصف بالاحترام « إسحاق شامير » وزير الخارجية .

وأصبح « كيمحى » المدير العام لوزارة الخارجية دون أن يتخلى عن طموحه لأن يكون رئيسا للموساد يوما ما ..

فاحتفظ باتصالاته مع زملائه القدامى وواصل متابعته لأحدث التطورات داخل الوكالة .

بدأ « رافى إيتان » ، عميل الموساد المتمرس والذى له طموحات مماثلة ، فى توسيع نطاق نشاطات « لاكام » أو مكتب الاتصال العلمى الذى دفع به صديقه « شارون » ليتولى مسئوليته .

ولم تتوقف اهتمامات الوكالة المبهمة عند مجرد الاتصال العلمى ، وحقق « إيتان » زيادة فى « الانتاجية » تصل إلى عشرة أضعاف ما كان قبل ذلك .

فإذا كان رجال « لاكام » فى الأيام الخوالى لبنيامين بلومبيرج يضعون أيديهم على مائتى وثيقة كل عام ، فإن هذا الرقم قفز فى عهد « إيتان » ليصل إلى ألفى وثيقة فى العام الواحد .

بدأت « لاكام » تدخل مناطق خطرة فيما وراء البحار وهى أرض بكر للعمليات كان يتعين أن تكون من اختصاص الموساد وحدها ..

كما وجد « إيتان » نفسه فى مواجهات ونزاعات لاتنتهى مع الموساد ، كلما تصرف انطلاقا من منصبه الثانى كمستشار رئيس الوزراء لمكافحة الارهاب ..

استاء « حوفى » بشدة من عمليات « إيتان » المستقلة ، وشكا إلى كل من « بيجين » وأيضا إلى زملائه رؤساء الأجهزة السرية فى لجنة « فاراش » .

كان هناك المزيد من الأخبار السارة لشارون من مؤسسة المخابرات ، فقد تم استبدال « افراهام أحيتوف » رئيس « شين بيت » بأفراهام شالوم الذى كان لقبه قبل ذلك « بندور » ..

و « أفراهام شالوم » صديق قديم لرافى إيتان وشاركه فى العمليات الميدانية ومن بينها اختطاف « أيخمان » من الأرجنتين فى عام ١٩٦٠ .

وقد اتفق « شارون » و « شالوم » فى الرأى بشأن مسائل عديدة .

وشعر « شارون » أيضا بالسرور لاحتمال أن يتولى حليف آخر من حلفائه رئاسة الموساد ..

وكان الميجور جنرال « يكوتيل [كوتى » أدم » ، وهو رجل عسكرى عمل

فى مشروعات مشتركة مع الموساد ، هو الشخصية التى يفضلها « بيجين » بحزم لخلافة « اسحاق حوفى » .

وكان « آدم » و « شارون » من جنود المظلات وعملا معا فى الخمسينيات .

ازدادت ثقة « شارون » بنفسه ولم يتحرج من القيام بجهود لإعادة صياغة السياسات الخارجية والدفاعية لإسرائيل .

وفى ديسمبر ١٩٨١ ، وجه وزير الدفاع الجديد خطابا مطولا وشاملا ، أعلن فيه أن مصالح أمن إسرائيل تتخطى إقليم المواجهة المباشرة مع الدول العربية ، لتضم أيضا باكستان ودول شمال إفريقيا ، بل وأجزاء أبعد من إفريقيا .

لم يكتف « شارون » بالكلمات ، نتيجة إيمانه بآرائه حاول تنفيذها من خلال مجموعة متنوعة من المشروعات السياسية والاستراتيجية والمخابراتية ..

وسرعان ماوجدت الموساد نفسها مواجهة بالنشاطات المستقلة لأصدقاء شارون : « نيمرودى » عميل الموساد السابق ، وشريكه « آل شفايمر » وهو الرئيس التنفيذى السابق لشركة « صناعات طيران إسرائيل » ..

وكانت أسفارهما وتعاملاتهما تجعلهما غالبا على اتصال بتجار وساسة عرب ، وقام « شارون » بدور مستشارهما السياسى وقناة الاتصال بمراكز السلطة الإسرائيلية ..

وواصل « نيمرودى » الذى فقد ملايين الدولارات عندما أطاحت كتائب آية الله الخمينى الاسلامية بشاة إيران ، محاولاته لكسب التأييد لصالح استمرار الاتصالات الغربية مع طهران ..

وبوصفه خبيرا معترفا به ، فقد كان يأمل أن يعيد الغرب ثانية إلى إيران بوصفها سوقا محتملا يضم ٤٥ مليون إيرانى ..

وقد أعتبر نفسه وطنيا من الدرجة الأولى ، لكن الخط الفاصل بين مصالح

« نيمرودى » الخاصة وبين مصالح دولة إسرائيل لم يكن واضحا فى أغلب الأحيان .

التقى « نيمرودى » و « شفايمر » مع البليونير السعودى « عدنان خاشقجى » ، وتعاونوا فى مشروعات عمل قليلة ، واستمتعوا بتبادل الأفكار التى اعتقدوا أنها يمكن أن تقود إلى السلام فى الشرق الأوسط ..

آمن الرجال الثلاثة بالتعايش السلمى من خلال التعاون الرأسمالى ..

ساعدت علاقة « خاشقجى » بنيمرودى على حصول الأخير على وثيقة سياسية سرية وضعها ولى العهد السعودى الأمير فهد .

كانت تلك ضربة موفقة بالنسبة لنيمرودى وبالطبع فإنها أثارت ضغينة الموساد التى اتهمته بالتدخل وإرباك عملها .

تحدثت الوثيقة ، المعروفة باسم « خطة فهد » ، للمرة الأولى عن اعتراف السعودية بالدولة اليهودية .

وقد جلبها « نيمرودى » إلى إسرائيل قبل أن يتم نشرها فى الرياض ..

أثارت الوثيقة اهتمام « نيمرودى » ، وأعجب بفكرة أن كل مايريده السعوديون ، فى مقابل العمل من أجل السلام والاعتراف المتبادل بين إسرائيل والعالم العربى ، هو الحق فى رفع العلم السعودى على الأماكن المقدسة فى القدس الشرقية كرمز على حماية السعودية لها بالإضافة إلى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة .

وعلى أية حال ، غضب بيجين رئيس الوزراء من « نيمرودى » لمحاولته تصوير الوثيقة على أنها معتدلة .. حيث أن « بيجين » لم يكن ليقبل أقل من السيادة الإسرائيلية على القدس بأسرها ..

ولم يرغب فى فحص تفاصيل الوثيقة .. ومن وجهة نظر « بيجين » فإن كلمات « فهد » كانت مجرد إعادة صياغة للمواقف العربية القديمة ، وتعكس محاولة لارغام إسرائيل على تسليم ما يعتبره « بيجين » بتراب الوطن اليهودى ..

ومهما كان الأمر ، فإن العملية السعودية لم تكن شيئا بالمقارنة بالخطط غير البارعة التى تم اعدادها خلال سلسلة من الرحلات السرية فى نهاية ١٩٨١ ، و ١٩٨٢ .. ويمكن تلخيص شبكة الاتصالات السرية بأنها عملية إيرانية — سودانية تربط إسرائيل والمملكة العربية السعودية وقد بدأ نسج الخيوط فى شمال إفريقيا .

طار « نيمرودى » و « شفايمر » بوصفهما ضيفى « خاشقجى » على متن طائرته الفاخرة من طراز « دى سى — ٨ » إلى المغرب لإجراء مناقشات مع كبار ضباط الجيش الإيرانية الذين يعيشون فى المنفى منذ الإطاحة بالشاه ..

واجتمعا أيضا مع الأمير « رضا بهلوى » ابن الشاه الراحل الذى كان معروفا للمطلعين باسم « الشاه الطفل » .

وكان ذا شخصية ضعيفة ، لكن وكالات المخابرات الغربية اهتمت برضا بوصفه شخصية يمكن التأثير فيها .. وساعدته وكالة المخابرات المركزية على توجيه رسائل إذاعية وتليفزيونية سرية إلى إيران ، لكن كلماته أحدثت تأثيرا باهتا .

اتخذ الشاه الطفل من المغرب مقرا له مع زمرة من الخدم والعسكريين ، وتآمر لعودته شبه المستحيلة لتولى مقاليد السلطة فى طهران ..

وأبلغ الإيرانيون « نيمرودى » و « شفايمر » و « خاشقجى » أن كل ماهو مطلوب هو الدعم المادى لشراء الأسلحة ودفع رواتب قوة من المرتزقة التى يمكن أن تطيح بآيات الله .

وأعتقد الإسرائيليان ، وفى منتهى الجدية ، أن مثل هذا الانقلاب يمكن أن ينجح ، وهرعا إلى إسرائيل لإبلاغ « شارون » .

وبدا أن أحلام الشاه الطفل تنسجم مع تطلعات « شارون » الجغرافية الاستراتيجية الأوسع نطاقا .

وبعد سلسلة من الاتصالات التليفونية والاجتماعات الدولية اللاهثة ، التقت مجموعة كبيرة من المتآمرين فى إفريقيا .

وهناك كانوا يقفون على المروج الخضراء المشذبة فى « نادى سافارى جبل كينيا » أو « مونت كينيا سافارى كلوب » فى الثالث عشر من مايو عام ١٩٨٢ .

كان هناك ستة إسرائيليين وسودانيان وسعودى يتصافحون بالأيدى وسط الزهور والأشجار المثمرة فى منتجع رحلات القنص المنعزل والخاص ، الذى يمتلكه « خاشقجى » ، والواقع قرب حدود تنزانيا ، ولا يفصله عن نيروبى سوى حوالى مائة ميل من أرض المراعى تعيش فيها الحياة الطبيعية حرة طليقة .

كان من المقرر أن يكون الاجتماع سريا ، لكنه جرى فى جو من الاسترخاء حتى أن أحد الحاضرين التقط بعض الصور الفورية للآخرين وهم يثرثرون .. ومن بينهم « إريك شارون » وزوجته « ليلى » التى كان يصحبها فى جميع مهامه السرية تقريبا ، وأخذ « شارون » يشع سحره على الأجانب الذين كانوا أعداءه من الناحية الرسمية ..

وعلى أية حال ، كان العمل الذى ناقشوه بالغ الجدية ..

مثل السودان فى الاجتماع ، الرئيس « جعفر نميرى » وأبو الطيب رئيس مخابراته ، وذكر « شارون » فيما بعد أنه اندهش عندما وجد الرئيس السودانى يتكلم بلغة رقيقة ومهذبا إلى أبعد حد .

وكان « نميرى » أيضا واسع الاطلاع وذا رؤية ثاقبة ، حيث اتفق مع « شارون » على أن خصمهما المشترك هو ليبيا ..

وبدا الزعيم السودانى مستعدا لما هو أكثر من التعاون ، الذى بدأ بالفعل ، مع مشروع المخابرات الإسرائيلية لإنقاذ يهود إثيوبيا وكان لدى الإسرائيليين ، الممثلين بشارون وحاشيته ، خطط أكبر فيما يتعلق بنميرى والسودان .

تمثلت الخطة الرئيسية لوزير الدفاع و « نيمرودى » و « شفايمر » ، « كيمحى » ، و « تامير » فى تحويل السودان إلى مخبأ هائل للأسلحة للمشروعات الخاصة وكان على المملكة العربية السعودية تقديم التمويل اللازم ..

وأبلغ « خاشقجى » ضيوفه أنه حصل على موافقة الملك « فهد » على توقيع شيكات قيمتها تصل إلى ٨٠٠ مليون دولار ..

وأضاف مبتسما : « وفى حالة الضرورة يمكن أن تصل إلى بليون دولار » ..

كان على اسرائيل تقديم الأسلحة سواء من المنتجة محليا أو من فائض الأسلحة التى يستولون عليها .. وتشمل الترسانة ماهو أكثر من البنادق ومدافع الهاون والذخيرة .. حيث تتضمن أيضا الدبابات ، الطائرات ، والصواريخ .

كان الحافز لنميرى هى الأموال التى ستدفع إما لبلاده أو تدخل جيبه الخاص .

وكوسطاء ، فإن « نيمرودى » ، « شفايمر » ، و « خاشقجى » سيلعبون دورا محوريا فى شراء وبيع الأسلحة والتربح من العمولات المعتادة التى تدفع للسماسرة ..

وبالنسبة إلى « شارون » ، مثل ذلك فرصة للفوز بعقد تصدير كبير الحجم يمكن أن يتضمن بسهولة الأسلحة التى تم الاستيلاء عليها من فدائيى منظمة التحرير الفلسطينية والجيوش العربية عبر السنين .

وكانت المفارقة فى خطة بناء ترسانة للأسلحة فى السودان تتمثل فى امكانية قيام السعوديين بدفع ثمن المدافع والذخائر لإسرائيل التى استولت عليها أصلا من منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية ، والتى اشترتها المنظمة والدول العربية عن طريق استخدام المعونة المالية السعودية !

لكن السؤال الذى يطرح نفسه هو : من كان تستهدفه كل تلك القوة من النيران ؟

كانت إيران على رأس القائمة ، فالشاه الطفل وجنرالاته المنفيون من شأنهم أن يحصلوا على الأسلحة التى يريدونها للقيام بانقلاب ضد آية الله الخمينى .

فبدلا من المعارضة الهامشية التى يمثلها « رضا بهلوى » ورجاله ، يمكن أن يشكلوا فجأة تهديدا حقيقيا للجمهورية الإسلامية ، ويعيدوا إيران الى أحضان الغرب ..

ويمكن أيضا استخدام هذه الأسلحة من مخزنها فى شمال شرقى إفريقيا لامداد قوات حرب العصابات التى تقاتل الحكومات المعادية لإسرائيل ، أو السودان ، أو المصالح الغربية ..

ويمكن شن هذه الحروب الأهلية فى إفريقيا أو آسيا أو فى العالم العربى .. لكن الآفاق كانت محدودة بالنسبة لهذا المشروع ..

واتفق « نميرى » والإسرائيليون على الاجتماع مرة أخرى فى الاسكندرية بمصر فى يوليو ١٩٨٢ لاجراء مزيد من المناقشات التفصيلية .

استبعدت الموساد من اجتماع جبل كينيا ولكنها أصرت على الحصول على تقرير كامل عن هذا الاجتماع .

وبعد عودة « كيمحى » لمكتبه بوزارة الخارجية ، أبلغ الموساد بأن الرئيس « نميرى » قد وافق على السماح بفتح مركز دائم للموساد فى الخرطوم .

وأضاف « كيمحى » فى تقريره أن « شارون » قد ضمن أن « نميرى » سيواصل تعاونه فى خروج يهود إثيوبيا .

وبالطبع سر « إسحاق حوفى » بافتتاح مركز جديد للموساد فى عاصمة عربية ، لكنه استاء عن استبعاده من الاجتماع مع « نميرى » .

كان الاسرائيليون ، الذين أقاموا حلقات اتصال وثيقة مع « عدنان خاشقجى » ، يبدأون فى عملية سرية كبيرة دون مشاركة الموساد التى لم تكن تثق فى العملاق المالى السعودى أو تكن له أى حب أبدا ..

وهكذا فإن « بلاط إريك » كان يهدد بانتهاك حرمة أرض « حوفى » .
وبالإضافة إلى اعتبارات السياسة الداخلية والإقليمية البيروقراطية ، فإن محللى الموساد كانت لديهم مخاوف حقيقية تجاه المشروع الإيرانى ـــ السودانى فيما يتعلق بإيران ، اعتقدت الموساد أن أيام الشاه الطفل وجنرالاته ، الذين لاحول ولا قوة لهم ، قد ولت ..

فغزو على نطاق ضيق لإيران ، التى نجحت أنذاك فى التصدى لجيش العراق

الضخم ، ليس من المرجح أن ينجح على الاطلاق ، بل من الأرجح أن يثير حرجا كبيرا ، وربما يؤدى إلى الكشف عن المتآمرين وراء هذا الانقلاب .

وفيما يختص بالأهداف الجغرافية الاستراتيجية الأوسع نطاقا للترسانة السودانية المقترحة ، اعتقد « حوفى » والموساد أن « شارون » يغالى فى تصور قدرات ومصالح دولة إسرائيل ..

كان هناك اعتراض آخر استخلصته الموساد من هذه الحالة وحالات أخرى ، ومفادة أن الثقة بالعرب ليست فكرة طيبة .. خاصة فى حالات المخاطرة بأرواح الإسرائيليين وأموالها وسمعتهم استنادا إلى التعاون والنوايا الطيبة من جانب دول مثل المملكة العربية السعودية والسودان ..

كما أن « شامير » وزير الخارجية ، وهو جندى قديم ومتمرس من جنود الموساد ، كان مقتنعا تماما ومؤمنا بعدم الثقة إلى حد كبير فى الشركاء العرب .

وفى تقييمه لمشروع السودان ، وقف إلى جانب الموساد ولم يحمله « كيمحى » المدير العام لوزارته على تغيير رأيه ..

أما « بيجين » رئيس الوزراء فلم يتخذ موقفا محددا وأبلغ « شارون » وأصدقاءه أنه يتعين عليهم تقديم مزيد من الأدلة المقنعة على أن القيام بانقلاب فى إيران يمكن أن ينجح ، وذلك كخطوة أولى فى سبيل الخطة الأوسع نطاقا والأكثر طموحا ..

لم تكن الموساد لتسمح للخطة بالتقدم ولو خطوة واحدة إلى الإمام .. فقد اعتبرها « حوفى » فكرة سيئة بالنسبة لإسرائيل ، وللموساد كما هو واضح أيضا .. وبعث بأحد كبار نوابه فى رحلة سرية إلى المغرب ، عن طريق أوربا ، للقاء الشاه الطفل ..

وأوضح الجاسوس الإسرائيلى الكبير هويته تماما لرضا بهلوى وقال له :

« أنا مفوض من جانب أعلى الدوائر فى إسرائيل لأبلغك بأن الإسرائيليين الذين اجتمعت بهم ليسوا ممثلين مفوضين .. وأنهم لن يجلبوا لك سوى المتاعب .

ونرجو أن تنسق معنا مباشرة فى المستقبل على الرغم من أن هذه الخطة التى تتضمن السودان لاتهمنا » .

وعاد مبعوث الموساد طائرا إلى تل أبيب واعتنى بإخفاء شخصيته عند مروره الترانزيت عبر أوربا ..

وتمكن المبعوث من إنجاز مهمته . ومات المشروع الضخم الذى بدأه « شارون » ، « نيمرودى » و « كيمحى » ، وبعضاً من العرب .

وكانت تلك طريقة غير مألوفة فى ممارسة العمل الحكومى .. كما قام « البنتاجون » بمبادرة سياسية من خلف ظهر وزارة الخارجية الأمريكية ، لدفع وكالة المخابرات المركزية للتدخل وتخريب الخطة وهكذا انزلقت مؤسسة المخابرات الاسرائيلية إلى الغيرة البيروقراطية والصراع الداخلى ..

كانت الخطة السودانية الإيرانية بداية نهاية الاستراتيجية الكبرى التى وضعها « شارون » خلال السنوات التى أمضاها كوزير للدفاع .

وعلى الرغم من انغماسه فى عديد من المخططات المركبة ، إلا أنه كرس معظم اهتمامه لتحقيق هدف استراتيجى أكثر قربا من وطنه وهو خلق لبنان جديد على الحدود الشمالية لإسرائيل مباشرة .

عقد « شارون » العزم على تدمير البنية الأساسية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى جنوبى لبنان ، والتى كانت دولة إرهابية داخل دولة على حد كلمات صناع السياسة الإسرائيلية .

وبعد سلسلة من الهجمات الفدائية المؤلمة والهجمات بالصواريخ ضد البلدات والمزارع الإسرائيلية فى شمال الجليل ، والتى ردت عليها إسرائيل بغارات جوية أو قصف مدفعى ، وافق « بيجين » على مضض ، فى يوليو ١٩٨١ ، على وقف لاطلاق النار مع منظمة التحرير الفلسطينية تم التوصل إليه تحت اشراف أمريكى .

لكن كان واضحا أنه اتفاق مؤقت وهش .. وواصلت الجماعات المنشقة الفلسطينية هجومها على القوات الإسرائيلية ، مما استحث الجيش وسلاح الطيران على الرد .

كان « بيجين » و « شارون » يكنان كراهية شديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، التى كانا يعتبرانها جماعة من القتلة تسعى لتدمير إسرائيل .. وشبه « بيجين » « ياسر عرفات » علنا بأدولف هتلر .

وبدا واضحا أن مهاجمة إسرائيل للمعاقل الفلسطينية فى لبنان مجرد مسألة وقت .

كانت التساؤلات الوحيدة هى متى سيقوم الاسرائيليون بالهجوم ، وماهو اتساع نطاق عمليتهم ، ومدى طموحها ..

وفى محاولة لإيضاح الاحتمالات ، اجتمع « شارون » ومساعدة الجنرال « تامير » ، فى جنيف فى يناير ١٩٨٢ ، سرا مع اللواء « رفعت الأسد » شقيق الرئيس السورى .. وأثبت الاجتماع أن كل شىء ممكن فى عالم الدبلوماسية السرية فى الشرق الأوسط ..

فأهم من كل شىء ، أجرى واحد من أكثر وزراء الحكومة الاسرائيلية تشددا محادثة متحضرة مع ممثل كبير لدولة من أكثر خصوم إسرائيل تهديدا .

كان « رفعت الأسد » يمتلىء بالحيوية والقسوة ورجل عسكرى يثير الجدل ، وأيضا محب للمتعة يسعى وراء الثروة ومطاردة النساء .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه كان واقعيا قد يرفض علانية الاعتراف بإسرائيل ، لكنه يحترم قوتها سرا .. وأدرك أنه على الرغم من العداء بين إسرائيل وسوريا ، فإن لهما هدفين مشتركين على الأقل وهما : إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية ، والعمل على استقرار لبنان عن طريق تقسيمه .

ويعد عقد اجتماع جنيف إنجازا فى حد ذاته ، على الرغم أنه لم يثمر شيئا ولا حتى مجرد تفاهم ضمنى ..

وليس من الواضح ما إذا كان « رفعت الأسد » قد اجتمع بأعدائه الإسرائيليين بموافقة شقيقه الرئيس « حافظ الأسد » ، وإن كان ذلك مرجحا إلى حد كبير ..

وقد تضمنت جهود إسرائيل الرامية لدعم مصالحها فى لبنان ، الاعتماد على الدبلوماسية السرية على نحو ثابت .

وظلت الموساد و « أمان » على اتصال وثيق بالمليشيات المسيحية فى لبنان [حزب الكتائب] على مدى ثمانية أعوام .

وبدأت الاتصالات الأولى فى عام ١٩٧٤ ، عندما خشى الزعماء المسيحيون أن يفقدوا سيطرتهم التى يتمتعون بها فى بلادهم ..

وشكل منافسوهم المسلمون ائتلافا مع اللاجئين الفلسطينيين الكثيرين فى لبنان ، لزيادة قوتهم وتأثيرهم وهم يطالبون بنصيب أكبر من الفطيرة السياسية .

وعلى أية حال ، فقد رفض الساسة المسيحيون فى عناد أية اصلاحات فى النظام الذى يناسبهم كثيرا .

كما تورط الملك حسين عاهل الأردن بنفسه فى الدبلوماسية السرية لإسرائيل ، عندما أقنع رؤساء المليشيا المسيحية فى لبنان ، كميل شمعون وبيير الجميل ، بإجراء اتصالات مع الدولة اليهودية .

وعقد « شمعون » ، الرئيس اللبنانى السابق و « الجميل » ، وهو وزير فى الحكومة ، مناقشات مطولة مع « إسحاق رابين » رئيس وزراء إسرائيل .

وتم الاتفاق على أن تساعد إسرائيل ميليشيا حزب الكتائب ، ومن سخرية الأقدار أن هذه المليشيا بدأت كنموذج يعكس الاعجاب بالنازيين والفاشيين الأوربيين الآخرين فى الثلاثينيات .

على الجانب الاسرائيلى ، تولت الموساد مسئولية الاتصال بحزب الكتائب ، واهتمت على نحو خاص ببشير ابن « بيير الجميل » ، وهو محام ، لكنه فى دولة الخروج على القانون كان معروفا بجرأته ودهائه ودمويته . فلم يبد أى تردد فى قتل « حلفائه » المسيحيين — أفراد أسرتى شمعون وفرنجيه — ليصبح الحاكم الوحيد للمليشيات المسيحية .

وكجزء من تعليمه فى السبعينيات ، عمل « بشير الجميل » لحساب شركة

قانونية فى العاصمة واشنطن ، وهناك اتصلت به وكالة المخابرات المركزية ووافق ابن زعيم المليشيا المسيحية على أن يصبح مخبرا مدفوع الأجر لحساب وكالة المخابرات المركزية .

دفع الأمريكيون إلى بشير آلافا من الدولارات وبرهن لهم على حسن اختيارهم عندما تمت ترقيته ليسبق كل أشقائه ويصبح مسئولا عن أكبر مليشيا مسيحية فى لبنان عام ١٩٧٦ ، على الرغم من أنه أصغر أبناء « بيير » الستة .

بعد مساعدة الموساد لحزب الكتائب المسيحى فى تخطى محنة الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ ـــ ١٩٧٦ تم السماح لها بفتح مركز جديد يضم محطة ارسال لاسلكية قوية فى ميناء « جونيه » .

كان المسيحيون يتعرضون لهجمات المسلمين والفلسطينيين العدوانيين فى باقى لبنان ، لكن الجميل وجماعته تمتعوا بسيطرة مطلقة على الميناء الذى يقع شمالى بيروت مباشرة .

وبالإضافة إلى عملاء الموساد ، فإن ضباط الجيش الإسرائيلى سافروا إلى جونيه وأنشأوا نظام اتصال رسمى مع الكتائبين التابعين للجميل وهو أقوى بكثير من أى نظام حققته اسرائيل فى الدول العربية الأخرى .

وفى الوقت نفسه ، شكل الإسرائيليون مليشيا لبنانية خاصة بهم فى جنوبى لبنان لمقاتلة وجود منظمة التحرير الفلسطينية المتنامى فى المنطقة ، ولحماية الحدود الشمالية لإسرائيل . وأطلق على هذه القوة اسم جيش جنوب لبنان وسيطر عليه المسيحيون المحليون داخل بلدة « مرجعيون » وحولها وارتدى رجال هذا الجيش الزى الاسرائيلى بعد نزع علامات جيش الدفاع الاسرائيلى من عليه ببساطة ، وقاموا بقيادة دبابات وسيارات جيب لم يتم إزالة جميع العلامات العبرية من عليها .

كانت « أمان » مسئولة عن تدريب هذا الجيش وتزويده بالمعدات وتمويله وامداده بالملابس .

كما قام الجيش الاسرائيلى بتدريب المقاتلين الكتائبيين من شمالى لبنان ، كما

شاركت الموساد و « شين بيت » فى التدريب عندما يتعلق الأمر بأساليب المخابرات والاستجواب ..

ورأس جهاز الأمن والمخابرات الصغير ، الذى شكله الكتائبيون بمساعدة إسرائيلية ، « إيلى حبيقة » .

ساندت « أمان » والموساد الاتصالات مع الكتائبيين بإخلاص ، اعتقادا منهما أنهم يمنحون إسرائيل ميزات هامة .. فقد مكنوا إسرائيل من إنشاء شبكة واسعة من المخبرين تقدم معلومات حديثة حول الجماعات الفدائية الفلسطينية ، والجيش السورى والتطورات السياسية فى ذلك الجزء من العالم العربى .

كما اتفقت الاتصالات السرية مع لبنان مع الفكرة « المحيطية » للسياسة الإسرائيلية ..

فمن الطبيعى أن المسيحيين فى لبنان يمكن أن يكونوا أصدقاء لإسرائيل ، لأنهم أعداء للمسلمين .

حتى عام ١٩٨١ ، لم تفعل إسرائيل ماهو أكثر من مساعدة حزب الكتائب على مساعدة نفسه ويقول « ديفيد كيمحى » ، الذى كان مسئولا آنذاك عن نشاطات الموساد فى لبنان ، أن ضباط الاتصال الإسرائيليين فى « جونيه » أوضحوا للمسيحيين أن إسرائيل لن تقاتل فى معاركهم بدلا منهم ..

وعندما أعيد انتخاب « بيجين » ، أمر « حوفى » بتوسيع وتعميق الاتصالات مع الكتائبيين .

وذهب « شارون » إلى ماهو أبعد من ذلك . وبدأ الزعماء المسيحيون ، الذين كانوا على دراية بحساسيات « بيجين » الأخلاقية ، فى الضغط على رئيس الوزراء لزيادة المعونات الإسرائيلية لهم وأخذوا يصرحون مشيرين إلى أنهم يتعرضون لخطر الإبادة على يد السوريين ، وشنوا استفزازات ماكرة وأصدروا تقارير زائفة لدعم دعاواهم ..

ومال « بيجين » إلى تصديق حزب الكتائب ، خاصة وهو معروف بتعاطفه

مع الأقليات المقهورة وبصفة خاصة عندما يكون العرب المسلمون هم القاهرون ..

أما « شارون » فكان يعرف الحقيقة ، ولم يكن يخشى أبدا أن يباد مسيحيو لبنان ، لكنه اعتقد أن « بشير الجميل » سيكون مستعدا وربما قادرا على تنفيذ استراتيجية « شارون » لإقامة نظام جديد فى الشرق الأوسط .

وفى ليلة ١٢ يناير ١٩٨٢ ، تجمع جمع صغير ولكن فعال من الإسرائيليين فى مطار عسكرى قرب تل أبيب .. ومن بينهم « إرييل شارون » ، الجنرال « تامير » ، ممثلو الموساد ، ورئيس « أمان » الجنرال « يهوشوا ساجاى » وغيرهم من كبار ضباط الجيش ..

وتم اخبارهم بإفادة موجزة عن كيفية التصرف فى حالة ماإذا سارت الأمور على غير مايرام .

وكيف يمكن أن يهربوا من أرض العدو إذا ماكان ذلك ضروريا .

ثم أقلعت بهم طائرة هليكوبتر عسكرية .. كانت رحلة غريبة إلى المجهول بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين أنيط بهم أمن إسرائيل ..

ونظروا إلى أسفل إلى حلكة البحر الأبيض المتوسط ثم إلى الأضواء الخافتة للساحل اللبنانى ، محاولين التعرف على الأماكن التى يحلقون فوقها ، حتى رأوا أضواء بيروت المتلألئة .. وتقدمت الهليكوبتر صوب الشمال وهبطت فى « جونيه » ، حيث التقى « شارون » وزملاؤه برئيس المركز المحلى للموساد ..

قيل لبشير الجميل فقط أن مسئولا إسرائيليا كبيرا يعتزم المجىء ، لكنه كان قد خمن من يكون ..

قال الزعيم الكتائبى وهو يبتسم لرؤية « شارون » ضخم الجثة : « علمت بقدومك .. وكنا ننتظرك » وخلال سلسلة من المآدب المترفة التى تخللتها زيارات لأجزاء بيروت المتعددة ، عمل الجانبان بشكل مكثف للتوصل إلى تفاهم واسع النطاق وأساسى .

وعندما عاد « شارون » إلى إسرائيل ، صاح فى أصدقائه متباهيا :

« لقد أبرمت الخطة مع المسيحيين . الآن يمكننا تنفيذها .. لقد قيدت أقدامهم »

وبعد خمسة أسابيع بالضبط ، تأكدت اتفاقات التعاون عندما طار « الجميل » إلى القدس للقاء « بيجين » رئيس الوزراء .. فقد أراد « شارون » أن يقتنع « بيجين » شخصيا .

أثارت مطالبة وزير الدفاع بإقامة تحالف مقنع وشامل مع حزب الكتائب نقاشا حادا داخل مؤسسة المخابرات فى إسرائيل .

وأصرت « أمان » بطريقة محمومة أن إسرائيل لايمكنها أن تثق فى المسيحيين بدرجة تكفى للقيام بتحركات لأية قوات لمساندتهم ..

وكان لدى المخابرات العسكرية تقارير تشير أيضا إلى أن للجميل روابط مع القيادة السورية ، ومع منظمة التحرير الفلسطينية إلى حد ما أيضا .

وتعجب محللو « أمان » متسائلين كيف يمكن اعتبار حزب الكتائب جديرا بالثقة مع أن بعض الأسلحة التى تلقاها من إسرائيل وجدت طريقها فى وقت لاحق إلى منظمة التحرير الفلسطينية . وزعموا أن بعض الزعماء المسيحيين انغمسوا فى صفقات خاصة تتضمن أسلحة ومخدرات .

وعارضت « أمان » أيضا الدخول فى مغامرة عسكرية يمكن أن تدخل الجيش الإسرائيلى فى مواجهة مع القوات السورية فى لبنان .. غير أن « شارون » كان مصمما على أن الوقت قد حان لتنفيذ خطته لتغيير مجرى التاريخ ..

وفاجأ الجميع بعثوره على حليف فى الموساد وهى منظمة كان يعاملها بصفة عامة بمنتهى التشكك ..

وفى الواقع قال « حوفى » أن خطة « شارون » يمكن أن تنجح . وتصرفت الموساد وكأنها نست واحدة من أهم القواعد المقدسة فى المخابرات : « لاتكن أبدا على صلة حميمة بمصادرك » .

فقد أدت مآدب العشاء الباذخة التى استمتع بها رجال الموساد فى بيروت ، والرحلات المثمرة التى قام بها الكتائبيون سرا إلى إسرائيل ، الى اقرار تحالف على نحو فعال لم يترك مجالا لتساؤلات أو شكوك ..

ودائما كان الجميل ورجاله يعلنون موافقتهم على أى شيء يقوله الإسرائيليون ، ويذهبون إلى أبعد من ذلك بالتأكيد على كراهية المسيحين اللبنانيين لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وعندما أدرك الجنرال « ساجاى » رئيس « أمان » أنه قد خسر المعركة البيروقراطيبة الداخلية ، وافق على أن يكون المسئول عن اطلاع الأمريكيين على مايجرى ، وهم أهم حلفاء إسرائيل .

وخلال زيارته إلى واشنطن فى نهاية يناير ١٩٨٢ حذر رئيس المخابرات العسكرية « الكسندر هيج » وزير الخارجية الأمريكية بأنه فى حالة استمرار الاستفزازات الفلسطينية ، لن يكون أمام إسرائيل أى خيار سوى غزو لبنان حتى أطراف بيروت .

وطار « شارون » إلى واشنطن بعد بضعة شهور ليكرر التحذير نفسه .

وخلال الفترة من الثانى وحتى الرابع من يونيو ، كان وزير الدفاع فى مهمة سرية فى رومانيا رتبتها الموساد .

فتحت ستار زيارة عائلية ، عرض « شارون » التعاون التكنولوجى مع الحكومة الشيوعية الوحيدة التى احتفظت بعلاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل .

ورافق « شارون » خبراء من شركتى « الصناعات العسكرية » و « صناعات الطائرات » الإسرائيليتين .

فى الثالث من يونيو ، أطلق فلسطينيون الرصاص على « شلومو أرجوف » سفير إسرائيل لدى لندن وأصابوه بعاهة مستديمة ، بعد أن نصبوا له كمينا لدى مغادرته حفل دبلوماسى ..

كان المسلحون ينتمون إلى جماعة « أبو نضال » المنشقة ولا يتبعون منظمة التحرير الفلسطينية ..

ولكن على أية حال ، فقد اعتبر « شارون » محاولة الاغتيال عود الثقاب الذى أشعل الفتيل ..

وأصبح من المؤكد الآن أن تغزو إسرائيل لبنان وتطلعت إلى المسيحيين اللبنانيين لمساعدتها فى إزالة المنظمة من لبنان ..

وفى السادس من يونيو ، أرسل « شارون » قواته لتعبر الحدود ، وكانت تلك هى الحرب الثانية فقط التى أشعلتها إسرائيل .. والحرب الأولى كانت حملة السويس عام ١٩٥٦ وتحولت الحرب الثانية لتصبح « واترلو شارون » .

فكما سبق أن حذرت « أمان » ، لم تلتزم القوات المسيحية بكلمتها ، ولم تساعد الإسرائيليين فى قتال منظمة التحرير الفلسطينية ، ورفض « الجميل » فى وقت لاحق توقيع معاهدة سلام كاملة مع إسرائيل .. وغرق « شارون » فى عمق المستنقع اللبنانى ..

كان الهدف المعلن هو القضاء على مواقع المدفعية والصواريخ الفلسطينية التى كانت تهدد المدنيين فى شمالى إسرائيل . وأطلق على الغزو رسميا اسم : « عملية السلام من أجل الجليل » .

تحددت الآمال الأعرض لزعماء إسرائيل فى أن الحاق هزيمة صاعقة بمنظمة التحرير الفلسطينية سيقوض الارتباط الذى يحس به الفلسطينيون فى الضفة الغربية وقطاع غزة تجاه المنظمة ..

وكان « بيجين » يتمنى أن يدعم قبضة إسرائيل فى الأراضى المحتلة ، فى الوقت الذى يعرض فيه على السكان العرب شكلا من أشكال الاستقلال الذاتى كما وعد فى معاهدة السلام مع مصر . لكن منظمة التحرير الفلسطينية رفضت الاستقلال الذاتى رفضا تاما ، وأصرت على إقامة دولة .. وتطلع « بيجين » إلى تشجيع الزعماء الفلسطينيين البدلاء المستعدين للعمل مع الإسرائيليين .

أما تطلعات « شارون » فكانت أكثر طموحا .. وأمر دباباته بمواصلة القتال والتقدم حتى تصل إلى ضواحى بيروت .. وهناك تنضم إلى القوات المسيحية اللبنانية وتساعدها فى فرض قانونها ونظامها فى لبنان ..

وتضمنت الخطة انتخاب « بشير الجميل » رئيسا للبنان ، ثم يقوم بطرد السوريين من لبنان وتوقيع معاهدة سلام رسمية مع إسرائيل .

وبالطبع ، كان من شأن الجميل ارغام جميع المقاتلين الفلسطينيين على مغادرة لبنان ، سوا على متن السفن إلى مناطق أخرى من الشرق الأوسط أو براً إلى سوريا .

وفى اليوم الخامس من الحرب ، أصيبت تطلعات « شارون » فيما يتعلق بمؤسسة المخابرات الإسرائيلية بضربة عنيفة ، فقد قُتل صديقه الجنرال « كوتى آدم » فى المعركة فى العاشر من يونيو .. لقد مات المرشح الأول لرئاسة الموساد ..

رحل « آدم » ، لكن الوقت كان قد حان لاستبدال « إسحاق حوفى » الذى ظل فى منصبه لمدة ثمانى سنوات . ولجأ « بيجين » لاستشارة « حوفى » نفسه ، وفى السابع والعشرين من يونيو أوصى رئيس الوزراء مجلس الوزراء بتعيين « ناحوم أدمونى » نائب « حوفى » رئيسا للموساد ..

وكانت تلك هى المرة الأولى التى يقع فيها الاختيار على ضابط فى سلك الموساد ليكون رئيسا لها ..

وتمشيا مع قيود الأمن التقليدية ، لم يعلن اسم « أدمونى » .

ووصفه العالمون ببواطن الأمور فى الموساد بأنه شخص يصعب تصنيفه ، عادى ، ومدير بيروقراطى غير متألق ، ولكنه يتسم بالإتزان والتصميم .

كان « أدمونى » يبلغ من العمر ٥٣ عاما ، وتعلم فى أمريكا ، وأمضى ثمانية وعشرين عاماً كعميل سرى فى مواقع متقدمة خارجية ومتعددة ..

لقد شق « أدمونى » طريقه بنفسه عبر الصفوف ..

ولد « أدمونى » فى القدس عام ١٩٢٩ لأسرة كانت قد انتقلت الى فلسطين من بولندا قبل بضع سنوات وغيرت لقبها من « روتباوم » إلى « أدمونى »

كان والده هو المهندس المعمارى الذى صمم متنزهات القدس ، وعاشت أسرة « أدمونى » فى حى « ريهافيا » الأنيق الذى لا يبعد عن فندق « الملك داود » الفاخر ..

وقد أخرج حى « ريهافيا » نسبة كبيرة من الزعماء اليهود قبل عام ١٩٤٨ حينما استقلت اسرائيل ، وحتى بعد ذلك جاء من الحى مسئولو الحكومة ، الوزراء ، أساتذة الجامعات ضباط الجيش ، والعاملون فى المخابرات ..

وفى مقتبل شبابه ، خدم « ناحوم أدمونى » فى الهاجاناه

وفى فرع المخابرات التابع لها « شاى » وبعد انتهاء حرب ١٩٤٨ بفترة قصيرة ، ذهب إلى أمريكا لدراسة العلاقات الدولية بجامعة كاليفورنيا فى بيركلى .

وهناك عمل « أدمونى » فى إحدى مدارس الأحد اليهودية وكراع لمعبد يهودى ، واشتغل أيضا فى مصنع ينتج الأردية الرسمية للقوات المسلحة الأمريكية .

وفى كاليفورنيا ، التقى بالمرأة التى تزوجها .. وعاشا أسعد أيامهما خلال الخمس سنوات التى أمضياها على الشاطىء الغربى ..

كان تلك هى الفترة الوحيدة فى حياة « أدمونى » كرجل بالغ التى استطاع أن يهرب خلالها من ضغوط الحرب السرية ضد أعداء إسرائيل .

وتمنى « أدمونى » أن يصبح دبلوماسيا ، لكن لدى عودته إلى إسرائيل عمل كمدرس فى الأكاديمية الخاصة التابعة لمؤسسة المخابرات فى القدس .

وكان « ديفيد كيمحى » ، الذى سيصبح فيما بعد منافسه على رئاسة الموساد ، يقوم أيضا بالتدريس فى الأكاديمية ..

وأصبح من الطبيعى تماما ، أن تقوم الموساد بتجنيده ونقله من صفوف المدرسين إلى كتائب العاملين .. وأمضى « أدمونى » ثلاثة عقود فى القسم

السياسى والخاص بالاتصالات التابع للوكالة السرية ، فى مراكز تبدأ من واشنطن وحتى إثيوبيا .

وشارك فى جميع مشروعات التعاون مع وكالة المخابرات المركزية على مدى أعوام ، وكان خبيرا فى الدبلوماسية البديلة التى تقوم بها الموساد نيابة عن إسرائيل .

ولكن عندما يتعلق الأمر بالتحركات السرية ضد أعداء الدولة اليهودية ، فإن خبرته العملية كانت ضئيلة نسبيا فى هذا المجال .

لم يكن مغامرا ولا قاتلا ، لكنه كان جديرا بالثقة وحاز احترام الجميع بفضل اجتهاده .

ومع تطور الحرب اللبنانية لتصبح أكثر دموية ، فإن وعود « شارون » الأولى بحرب خاطفة سريعة تراجعت لتفسح الطريق لواقع أرض محتلة تمتد بين الحدود الشمالية لإسرائيل وبيروت ، وهى منطقة تمتلىء باللاجئين والفوضى ، وكان من المتعين السيطرة عليها .

تولى « أفراهام شالوم » رئيس « شين بيت » مهمة الانتشار فى لبنان للبحث عن أصدقاء وقتال الأعداء .

وعلى الرغم من أن القرى الشيعية المسلمة ، رحبت فى البداية بالقوات الاسرائيلية المتقدمة لأنها قامت بطرد منظمة التحرير الفلسطينية المكروهة ، إلا أنها أصبحت بعد ذلك مراكز للارهاب المضاد لإسرائيل مستلهمة فى ذلك صورة آية الله الخمينى زعيم إيران ، ومدفوعة إلى ذلك ببعض العملاء النشطين للخمينى .

وبدأت الشاحنات الملغومة فى مهاجمة الوحدات الإسرائيلية فى الجنوب ، وكان لبنانيون رفقاء قد قاموا بقتل أكثر من ٢٥٠ من جنود مشاة البحرية الأمريكية ومن القوات الفرنسية فى بيروت فى عام ١٩٨٣ .

كان الشيعة المتعصبون يقودون طواعية المركبات الممتلئة بالمتفجرات ويقومون بتفجيرها ، ليدخلوا الجنة عن طريق دفع اليهود ليعودوا إلى الحدود ..

لم تكن « شين بيت » مستعدة بأى شكل لمثل هذا النوع من المواجهات . كان لشالوم ورجاله خبرة بالفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة الذين ربما لم يكونوا سعداء للعيش فى ظل الاحتلال الإسرائيلى منذ ١٩٦٧ ، لكنهم لم يتطوعوا أبدا لنسف انفسهم للإعلان عن موقفهم .

وفى صيف ١٩٨٢ ، اتخذت وحدات الجيش الإسرائيلى مواقع دفاعية حول بيروت ، وسيطر سلاح الطيران الاسرائيلى على الأجواء لمنع أية محاولات للتدخل من جانب الطائرات الحربية والصواريخ السورية .

وبدأت « شين بيت » فى إنشاء أنظمة للقانون والنظام فى جنوبى لبنان ..

وفى الوقت نفسه ، بدأت معركة بيروقراطية عندما التقى عملاء « شين بيت » بإسرائيلى منافس هو « رافى إيتان » الذى كان يقود سياره فى المنطقة ويقوم بالتفتيش على عملهم بوصفه مستشارا لرئيس الوزراء لمكافحة الارهاب .

كان « إيتان » هناك ، جزئيا ، لأن « شارون » اعتمد عليه كصديق مخلص فى مراقبة « شين بيت » .

أما « بشير الجميل » ، صديق « شارون » الأقل موثوقية ، فقد أكمل جانبا واحدا فقط من جوانب الخطة بانتخابه رئيسا جديدا للبنان فى الثالث والعشرين من أغسطس .

وقام الرئيس المنتخب ، بعد بضعة أيام من انتخابه ، بزيارة « نهاريا » فى إسرائيل للاجتماع مع « بيجين » رئيس الوزراء .

وفى ١٢ سبتمبر زار « شارون » منزل « الجميل » قرب بيروت ، واتفقا على أن يعاود « شارون » زيارته مع « اسحاق شامير » وزير الخارجية فى الخامس عشر من سبتمبر . إلا أن خطط « شارون » تجاه لبنان تحطمت إلى شظايا فى ١٤ سبتمبر ، عندما تلقى جهاز اللاسلكى فى سيارة وزير الدفاع رسالة عاجلة تطلب منه الاتصال على وجه السرعة مع رئيس الموساد .

كان « شارون » فى هذه الأثناء متوجها إلى مزرعته فى جنوبى إسرائيل ،

وطلب من سائقه التوجه إلى قاعدة للجيش حتى يمكنه الاتصال تليفونيا بتل أبيب ..

أبلغ « اسحاق حوفى » ، الذى كان لايزال فى مكتبه خلال فترة انتقال رئاسة الموساد إلى « أدمونى » ، « شارون » ببرود أن الجميل قد قتل بفعل انفجار قنبلة شديدة المفعول فى مقر رئاسة حزبه فى بيروت .

ألمحت الإشارات الأولى إلى أن عملاء سوريا هم المسئولون عن الحادث .

كان ذلك حدثا مربكا ومحبطا بالنسبة إلى « حوفى » الذى كان فى طريقه للتقاعد عن العمل فى مؤسسة المخابرات وسط جو من الحيرة والغموض بدلا من الانتصار ، وبالطبع كانت الأنباء مروعة بالنسبة إلى شارون ..

كانت العملية التى اعتمد وزير الدفاع عليها ، وهى إقامة علاقات عادية بين إسرائيل ولبنان ، يمكن أن تبرر الحرب المثيرة للجدل ..

والآن فإن الأمور وصلت إلى نهاية متفجرة .. فقد اغتيل « الجميل » قبل بضعة أيام فحسب من الموعد المقرر لأدائه اليمين الدستورية كرئيس للبنان .

فى صباح اليوم التالى ، ١٥ سبتمبر ، انتقل « شارون » بواسطة طائرة هليكوبتر لتقديم العزاء لأسرة « الجميل » ، وبرفقته ثلة من الشخصيات الباهرة فى المخابرات الاسرائيلية .

الجنرال « ساجاى » قائد « أمان » ، « أفراهام شالوم » رئيس « شين بيت » ، « مناحم [ناحيك] نافوت » نائب مدير الموساد .

وفى ذلك اليوم ، أفلتوا جميعا بحياتهم بأعجوبة . لم يكن الرجل الذى هدد حياة جميع قادة دفاع اسرائيل تقريبا بالخطر سوى كولونيل فى « أمان » الذى استقبلهم لدى هبوطهم من الطائرة الهليكوبتر ، وقادهم فى سيارة إلى مقر أسرة « الجميل » ، لكنه ضل الطريق ومعه فى السيارة « شارون » ، « ساجاى » « شالوم » ، و » نافوت » ، وقادهم مباشرة صوب مواقع منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت الغربية التى يسيطر عليها المسلمون .

ومن حسن حظهم ، أشار إليهم شرطى مسيحى ليعودوا أدراجهم ، ونصحهم بالابتعاد عن هناك ..

ويعيد « شارون » ذلك إلى الأذهان قائلا :

« لا أعرف من كان رجل البوليس ، لكن ليس لدى أدنى شك أنه أنقذ حياتى وحياة أولئك المسئولين الكبار من المخابرات والأمن بما فى ذلك الكولونيل الذى فكر فى تلك الطريق المختصرة » .

ولدى وصوله بأمان إلى مقر أسرة الجميل أعرب « شارون » عن تعازيه لوالده « بيير » قائد المليشيا المتمرس . وقام « نافوت » بدور مسجل وقائع المحادثة التى اتخذت طابعا رسميا مثيرا للدهشة .

وباختصار ، فإن الاجتماع كان هاما بل وحيويا بالنسبة للمجرى التالى للأحداث ..

وتم حفظ وقائع الاجتماع ، التى كتبها « نافوت » بخط يده فى أرشيف الموساد بالغ السرية .

وقد أصبحت تلك الوقائع ، فيما بعد ، العامل الرئيسى فى محاكمة تشهيرية كبيرة فى نيويورك ، عندما قاضى « شارون » مجلة « تايم » الأمريكية لنشرها تقريرا كاذبا مفادة أن « شارون » اقترح على أسرة الجميل الانتقام من الفلسطينيين المتبقين فى بيروت . وربح « شارون » القضية .

على أية حال ، انشغل زعماء حزب الكتائب فى اليوم التالى السادس عشر من سبتمبر .. وقرروا أن يصبح « أمين الجميل » ، شقيق « بشير » ، مرشحهم للرئاسة ، وبعثوا بمسلحيهم فى مهمة انتقامية إلى داخل مخيمى « صابرا » و « شاتيلا » للاجئين الفلسطينيين الواقعين فى الضواحى الجنوبية لبيروت .

قاد الوحدات التى دخلت المخيمين ، « إيلى حبيقة » ، وهو ليس غريبا بالنسبة للإسرائيليين ، ومر أعضاء مليشيا الكتائب المدججون بالسلاح ببساطة أمام

وحدات الجيش الإسرائيلى التى تحاصر المخيمين . وكان هدف « حبيقة » القضاء على الفدائيين الفلسطينيين .

وبدلا من ذلك ، اشتبك رجال المليشيا على مدى أربع وعشرين ساعة فى حفل عربيد لإراقة الدماء أزهق أرواح الأطفال والأمهات والمسنين .

كان مقاتلى منظمة التحرير الفلسطينية قد هربوا بالفعل . وقام المهاجمون من مليشيا الكتائب ، بالثأر لمقتل زعيمهم المحبوب « بشير » فى هستيريا دموية ، وقتلوا وطعنوا حتى الموت مايزيد على سبعمائة من الفلسطينيين العزل ..

جرى كل ذلك تحت سمع وبصر الجنود والضباط الاسرائيليين ، الذين يديرون مواقع المراقبة خارج المخيمين مباشرة ، لكن لم يبد عليهم الاهتمام بما كان يجرى .

نقل التليفزيون صور أكداس الجثث المثيرة للحزن إلى داخل البيوت فى جميع أنحاء العالم .. وتناسى معظم المشاهدين الأجانب الجزيئة الدقيقة التى مفادها أن مليشيا الكتائب هم القتلة وليس الإسرائيليين .

ورأى العالم مذابح « صابرا » و « شاتيلا » بوصفها الكلمة الأخيرة تجاه غزو إسرائيل للبنان وكانت كارثة .

حاول « بيجين » أن يقول أن المذبحة كانت قضية عرب يقتلون عربا ، ولا علاقة لاسرائيل بها . لكن الأجانب لم يقبلوا ذلك ولا ألوف الإسرائيليين الذين احتجوا على تصرفات حكومتهم فى لبنان . ووافق « بيجين » على تشكيل لجنة خاصة للتحقيق برئاسة « إسحاق كاهان » رئيس محكمة العدل العليا السابق ، لتقصى عما إذا كان لإسرائيل دخل بفظائع صابرا وشاتيلا أم لا .

وفى انتظار حكم « لجنة كاهان » ، واصل « شارون » المضى قدما فى مشاريعه الاستراتيجية فى أماكن أخرى . ورأى فرصة سانحة فى إفريقيا لتوجيه لكمة إلى أنف العقيد الليبى القذافى المحارب الاسلامى ضد الصهيونية .

كان الليبيون متورطين بنشاط فى حرب أهلية فى تشاد التى تقع جنوب شرق ليبيا .

وساند القذافى المتمردين ضد الحكومة . وإلى الشرق مباشرة من تشاد ، كان الرئيس السودانى « نميرى » يخشى ليبيا ، ويبذل أقصى مافى وسعه لمساعدة الرئيس التشادى « حسين حبرى » الموالى للغرب .

كان الاسرائيليون ناقمين على القذافى ، بصفة خاصة ، لأنه أعاق جهودهم النشطة فى بداية الثمانينيات لاستعادة نفوذهم فى إفريقيا ..

فقد قام هذا الثورى الليبى بتهديد وابتزاز ورشوة رفاقه من الزعماء الأفارقة لكيلا يستأنفون علاقاتهم الدبلوماسية مع الدولة اليهودية .

وقد أدت الحقيقة التى مفادها أنه يؤيد أكثر الجماعات الارهابية تعصبا وعنفا فى أوربا والعالم العربى إلى تجسيد أهمية الهدف المشترك لإسرائيل والولايات المتحدة وهو اضعاف الزعيم الليبى كلما كان ذلك ممكنا على أمل أن تتم الاطاحة به فى نهاية المطاف .

كلف « شارون » مساعدة الجنرال « تامير » شخصيا باستكشاف امكانات القيام بعمل ضد ليبيا .

وفى نوفمبر ١٩٨٢ ، اختفى « تامير » من إسرائيل كعادته المتكررة بوصفه مبعوثا سريا .

طار « تامير » إلى باريس لعقد اجتماع مع وزير تشادى كبير .. وناقشا الصراع فى شمال إفريقيا ، والتهديد بشأن التدخل المباشر من جانب الجيش الليبى .

بدا المسئول التشادى متفائلا بصدد امكانية قيام قوات « حبرى » بهزيمة المتمردين لكنه أعرب عن خشيته للدخول فى معركة شاملة مع قوات القذافى ..

وكانت تشاد تضغط على فرنسا لتلتزم بارسال الجيش الفرنسى ، إذا ماتدخل الليبيون ودخلوا تشاد من ناحية الشمال .

استنتج « تامير » ، استناداً على كل ماسمع ، أنه من الضرورى أن يكون لإسرائيل وجود عسكرى صغير فى تشاد .

سعى « تامير » إلى الحصول على أفضل النتائج : أن تتحمل فرنسا عبء إنقاذ حكومة « حبرى » بينما يمكن لإسرائيل أن تتولى جزئيا على الأقل توجيه نكسة إلى القذافى .

واتفق « تامير » والوزير التشادى فى باريس على أن يقوم الأول بزيارة بخامينا عاصمة تشاد ، وتوصلا إلى تفاصيل حلقة اتصالات سرية مع إسرائيل .

وبعد أسبوعين ، تم استقبال الإشارة المنتظرة من تشاد ، وارتدى « تامير » ملابس مدينة للطيران إلى باريس ، ومن هناك طار فى رحلة طويلة مضنية إلى نجامينا ، وهى مدينة يعيش فيها نصف مليون نسمة ، ويبدو عليها دمار حرب شريرة بحق .. فكثير من منازل العاصمة تم تدميرها ، والطرق مليئة بالحفر ، والأنقاض منتشرة فى المدينة بأسرها ..

وتعنى كلمة « نجامينا » بإحدى اللغات المحلية « المدينة التى يرتاح فيها المرء » ، لكن الجنرال الاسرائيلى لم يذق طعم الراحة .

فبعد وصوله مباشرة ، هرع إلى قصر الرئاسة للقاء « حبرى » ، واستمرت المباحثات بينهما طوال الليل ، وفى الصباح أخذوا الجنرال فى جولة لتفقد الخطوط الأمامية للجبهة فى الصحراء الشمالية .

واتفق الجانبان على أن ترسل إسرائيل خبراء عسكريين إلى تشاد لمساعدة جيشها فى الحرب الأهلية وفى المعركة ضد ليبيا .

وعاد « تامير » إلى إسرائيل ، عن طريق باريس ، وقدم تقريرا إلى « شارون » .

المرة التالية ، كان الدور على « شارون » ليسافر . ففى يوم الرابع من فبراير ١٩٨٣ ، زار « شارون » عددا من البلاد الافريقية ليقترح استئناف العلاقات الدبلوماسية فى مقابل الحصول على مساعدات عسكرية من إسرائيل .

كانت عشرات الدول قد التزمت بقرار منظمة الوحدة الافريقية الصادر فى أواخر ١٩٧٣ والذى يدعو الدول الافريقية لقطع روابطها مع إسرائيل ، ردا على

حرب « يوم كيبور » والحظر البترولى الذى تلاها الذى جعل البترودولارات العربية ذات قيمة لم يسبق لها مثيل .

وخلال زيارته لزائير ، لم يلتق « شارون » بالرئيس الزائيرى « موبوتو سيسى سيكو » فحسب وإنما أيضا بالرئيس التشادى « حبرى » .

وتوصلوا إلى التقاء عقولهم حول الحاجة لمواجهة التخريب الليبى .. وفى إيماءة فورية إلى تشاد أهدى « شارون » إلى « حبرى » شحنة من الأسلحة الخفيفة جاءت بالطائرة من إسرائيل خصيصا له ..

وخلال فترة زمنية قصيرة للغاية ، بعث الجيش الإسرائيلى بوفد يضم ١٥ مستشارا إلى نجامينا من كتيبة سرية تتمركز بالفعل فى زائير .

عندما اكتشفت الموساد مهمة « تامير » السرية ودبلوماسية « شارون » الشخصية ، استشاط « ناحوم أدمونى » غضبا فافريقيا من الناحية التقليدية ، من اختصاص الموساد وليست من اختصاص وزارة الدفاع .

لكن العملية بأسرها تم تنفيذها من خلف ظهر الموساد ، ولم يبد « شارون » أية نية تشير إلى اعتزامه ابلاغ الموساد .

شكا « أدمونى » إلى « بيجين » رئيس الوزراء ، مشيرا إلى أنه من الخطورة بمكان أن يتمركز ضباط الجيش الإسرائيلى فى بلد نظامها غير مستقر ، وحيث يمكن للمتمردين أن تكون لهم اليد العليا فى أى وقت .

وكانت المخاطر أكبر من ذلك ، لأن المستشارين العسكريين لإسرائيل فى تشاد يمكن أخذهم سجناء من قبل القوات الليبية فى الخطوط الأمامية .

دافع « شارون » و « تامير » عن غزوتهما الدبلوماسية أمام « بيجين » مؤكدين على مميزات مساعدة الافارقة المعتدلين والعرب المعتدلين مثل « نميرى » رئيس السودان فى محاولة لهزيمة العقيد القذافى .

وعلى أية حال ، قرر رئيس الوزراء أن « أدمونى » على حق فيما يتعلق

بالمخاطر ، وبالاتيكيت البيروقراطى الذى يقضى باشراك الموساد فى موضوعات الدبلوماسية السرية .

وصدرت التعليمات إلى الضباط الاسرائيليين الخمسة عشر فى تشاد بالعودة إلى الوطن .

كانت لحظة مواجهة الحقيقة قد اقتربت فى اسرائيل ، حيث نشرت لجنة « كاهان » تقريرها حول مذبحة صابرا وشاتيلا فى بيروت .

وفى الثامن من فبراير ١٩٨٣ ، قرر القاضى المتقاعد « كاهان » أن إسرائيل يتعين عليها أن تتحمل مسئولية غير مباشرة فيما يتعلق بالمذبحة الجماعية . وأوصى تقريره بالتحديد باستبعاد « إرييل شارون » من منصب وزير الدفاع .

وفى الرابع عشر من فبراير ، قدم « شارون » استقالته من منصبه على مضض ..

كان غزو لبنان ، الذى تم شنه فى يونيو السابق ، يعتبره الاسرائيليون أمرا مؤسفا على أفضل تقدير ، وكان خطأ مروعا فى عيون الكثيرين منهم ..

فقد أدت هذه الحرب التى شنها الإسرائيليون ، فى بلد يعيش بالفعل فى جو من العنف ، إلى مقتل ألوف من اللبنانيين والفلسطينيين من المدنيين والمقاتلين على حد سواء ، فضلا عن أن الخسائر الاسرائيلية كانت أكبر مما توقع الجيش ، حيث قتل أكثر من ٦٠٠ جندى وجرح الآلاف .

وهكذا لم تتحقق أهداف عملية « السلام من أجل الجليل » فلم يتم طرد السوريين من لبنان ، ولم يوقع لبنان معاهدة سلام مع اسرائيل .. ومازالت منظمة التحرير الفلسطينية قائمة وعلى مايرام على الرغم من طردها من بيروت وجنوبى لبنان .

وعلى الرغم من آمال « بيجين » ، فإن الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة واصلوا التزامهم بتأييد « ياسر عرفات » ، فى الوقت الذى حاولت فيه إسرائيل دون جدوى أن تتعهد قيادة عربية بديلة فى الأراضى المحتلة .

كان الرأى داخل مؤسسة الدفاع الإسرائيلية ، أن مؤسسة المخابرات قد أدت عملا بالغ السوء .. فقد أخفقت الموساد فى أهم وظائفها الأساسية وهى التقييم عندما راهنت على فوائد التحالف مع الكتائبيين الذين ينظر إليهم الآن فى مختلف أنحاء العالم كعصابة من القتلة المتعطشين للدماء .

وتسربت أيضا أنباء عن أن الموساد و « أمان » لم تتمكنا من تقديم تفاصيل محددة عن تحركات « عرفات » على الرغم من أن « بيجين » و « شارون » طالبا الوكالتين بذلك مراراً .

وكانت المحاولات العديدة من جانب القوات الإسرائيلية لقتل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ، خلال الحرب ، قد أودت بأرواح كثيرين آخرين دون أن تناله هو . فقد أخطأت السيارات الملغومة والغارات الجوية الدقيقة « عرفات » وهو الرجل الذى وصفه « بيجين » بأنه « وحش يمشى على قدمين » .

وعندما أتيحت الفرصة أخيرا لقناص إسرائيلى أن يطلق النار على الزعيم الفلسطينى خلال مراسم مغادرته بيروت ، بدا ان اطلاق النار عليه لايتسم بالحكمة من الناحية السياسية حيث أنه تعرض للمهانة من جراء هزيمة بادية .

وعلى أية حال ، فإن اغتيال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أمام الدبلوماسيين الأمريكيين وغيرهم الذين أشرفوا على عملية الانسحاب وأمام أطقم المصورين من أنحاء العالم ، كان من شأنه أن يبدو عملا شديد الغباء لذلك امتنع القناص عن اطلاق نيرانه .

وفى أكتوبر ١٩٨٣ ، بعد ثمانية شهور من رحيل « شارون » من وزارة الدفاع ، فاجأ « بيجين » رئيس الوزراء مجلس وزرائه بقوله :

« لم يعد لى مزيد من القوة » وقدم استقالته .

ومن الواضح أن وفاة زوجته « عليزا » قد أصابته بالاكتئاب ، كما أن يقظة المتظاهرين الاسرائيليين المناهضين للحرب أمام مقر إقامته الرسمى ، يبدو أنها دفعت « بيجين » إلى أن يغرق فى صمت متأمل .

وأصبح وزير الخارجية « شامير » رئيس الوزراء الجديد فى الوقت الذى انسحب فيه بيجين إلى حالة من العزلة شبه الكاملة فى بيته المتواضع فى شارع « زيماش » فى القدس .

وعلى الرغم من كونه واحدا من أعظم الشخصيات التاريخية فى إسرائيل ، إلا أنه رفض أن يوضح دوافعه سواء للحرب أو للسلام .

وقال المقربون منه ، وهم قلة ، أنه تعذب من احساسه بأن « شارون » و « رافول إيتان » رئيس الأركان قد ضللاه ، وبدلا من أن يحتفل بالنصر الموعود لم يجد سوى موت المئات من الاسرائيليين الشباب فى لبنان الذى يثقل ضميره .

وبعد تسعة شهور من غياب « بيجين » الدراماتيكى من على الساحة السياسية ، تشكلت حكومة إسرائيلية جديدة نتيجة للانتخابات العامة التى أحدثت انقساما عميقا فى إسرائيل .

فبعد شهور من المشاحنات بين ليكود والعمل فى صيف ١٩٨٤ ، وافق زعيما الحزبين « شامير » و « بيريز » على اقتسام السلطة فى إطار حكومة فريدة للوحدة الوطنية .. تشكل مجلس الوزراء من كل من الكتلتين السياسيتين الرئيسيتين وبعد أن شغل « بيريز » منصب رئيس الوزراء خلال فترة الخمسة وعشرين شهر الأولى ، سلم المنصب إلى « شامير » بطريقة دورية لم يسبق لها مثيل ، ليشغله على مدى النصف الثانى من فترة الحكومة ..

كانت هناك آمال كبيرة لاحداث تغيير فى عديد من جوانب الحياة الإسرائيلية . واستطاع الائتلاف المتنافر الاتفاق على خطة اقتصادية كبحت جماح التضخم المتسارع ..

وانسحبت القوات الإسرائيلية من كل لبنان تقريبا وقامت بداوريات فقط فى الحزام الأمنى قرب الحدود إلى جانب توابعها فى جيش جنوب لبنان .

ولم يشغل « شارون » سوى منصب وزير التجارة والصناعة فى الحكومة الائتلافية ، لكنه ظل يلقى بظلال مؤثرة على الاطار الاستراتيجى للدولة . وفى الوقت نفسه ، فإن أصدقاءه داخل مؤسسة المخابرات وحولها ــ شالوم ، إيتان ونميرودى ــ أثاروا بعض المتاعب المثيرة للدهشة خلال الأعوام القليلة التالية .

الفصل الثالث عشر

عمليات القتل والتستر

● همس أحد رجال الحرس الخاص لإسحاق شامير : « سيدى رئيس الوزراء .. هناك رسالة عاجلة لك تطلب منك الاتصال برئيس « شين بيت » ..

كان ذلك آخر شيء يتوقعه « شامير » ، وانطلق مسرعا فى خطوة ، وخلفه حرسه الخاص ، إلى غرفة جانبية بمركز المؤتمرات الدولية فى شمال تل أبيب وألقى شامير ، القصير ، قوى البنية ، ذو الحواجب الكثة ، بنظرة على ساعة يده ..

كانت السابعة والنصف من مساء ١٣ إبريل ١٩٨٤ ، وفى غضون بضع ساعات تظهر نتائج الانتخابات الداخلية لكتلة « ليكود »

وقد انشغل « شامير » ، على مدى أسابيع ، بصراع الجبابرة الذى كان يجتاح ليكود حول المناصب العليا فى قائمة مرشحى الكنيست ..

ورغم مضى أكثر من نصف عام على استقالة « مناحم بيجين » الدراماتيكية التى أورثت « شامير » رئاسة الوزراء ، إلا أن منافسى « شامير » داخل الحزب وهما « ديفيدليفى » و « إرييل شارون » رفضا الاعتراف به كزعيم لليكود .. وأدرك « شامير » أن نتائج الانتخابات الداخلية سوف تحسم الصراع ..

ادرت رئيس الوزراء السبب المحتمل لاتصال « افراهام شالوم » به .. فقد كانت « شين بيت » على وشك حل أحد أهم الألغاز فى إسرائيل خلال السنوات

الماضية ، وهو كشف المنظمة الإرهابية اليهودية التى قتلت الطلبة الفلسطينيين ، وحاولت قتل عمد الضفة الغربية الثلاثة ..

وعلى عكس سلفه « بيجين » سمح « شامير » لوكالة « شين بيت » بدس المخبرين بين المستوطنين اليهود فى الأراضى المحتلة .. وكان « شالوم » قد أخبر رئيس الوزراء مؤخرا أن أكثر من عشرين من المشتبه فيهم سيتم القبض عليهم فى المستقبل القريب ، وكلهم من المستوطنين ..

لم يحاول « شامير » التدخل فى التحقيق ، ولكنه تمنى أن تصدر الاتهامات بعد الاقتراع الداخلى فى « ليكود » .. ويكون من الأفضل أن يتم ذلك فى أعقاب الانتخابات العامة المقرر أن تجرى بعد شهر .

فالقبض على المستوطنين اليهود سيضع « شامير » وحزبه تحت ضغط هائل من قبل الأحزاب الوطنية واليمينية المتطرفة ، التى ستتهم « ليكود » بأنها حزب غير وطنى ، وتستقطب بذلك جزءا من ناخبى « ليكود » التقليديين ..

وعند دخول « شامير » الغرفة ، قال له الكولونيل « عزريال نيفو » المعاون العسكرى لرئيس الوزراء : « سيدى رئيس الوزراء ، لقد تحدثت بالفعل إلى رئيس شين بيت ، وقد ذكر أن إرهابيين عربا قد اختطفوا أوتوبيسا يعمل على الخط رقم ٣٠٠ بعد أن غادر المحطة الرئيسية للأوتوبيسات فى تل أبيب متجها إلى عسقلون .. وأن قوات الجيش والبوليس فى حالة تأهب ، وقد صدرت التعليمات بوقف الأوتوبيس .. وأن هناك خوفا من أن الإرهابيين قد يحاولون عبور الحدود إلى مصر ويحتجزوا الركاب معهم كرهائن .. ونحن ليست لدينا مزيد من المعلومات ، حتى فيما يتعلق بعدد الضحايا » .

وعلى الرغم من جدية الموقف والقلق الطبيعى الذى أبداه بشأن ركاب الأوتوبيس ، إلا أن « شامير » أحس بنوع من الارتياح .. فقد كان على ثقة أن قوات الأمن ــ الجيش وشين بيت ــ ستهزم الفدائيين ، وأن النتيجة السياسية ستكون لصالح « ليكود » ..

ودعم الحادث اعتقاد « شامير » بأنه لاينبغى تقديم تنازلات لجيران إسرائيل

العرب وبالطبع عدم تقديم تنازلات لمنظمة التحرير الفلسطينية لأن هذا لن يؤدى إلا إلى تشجيع الأرهاب وكانت معظم استطلاعات الرأى تشير إلى تقدم « شيمون بيريز » زعيم حزب العمل ، ولكن كان فى مقدور « شامير » أن يصور « بيريز » على أنه متساهل تجاه العرب ..

منعت الرقابة العسكرية نشر أى شيء عن دراما الرهائن ، لكن حادث اختطاف اوتوبيس لم يكن ليبقى فى طى الكتمان لمدة طويلة .. وبدأت الشائعات تنتشر وسط آلاف المندوبين فى مؤتمر كتلة « ليكود » . ومنهم إلى عشرات من المراسلين والمصورين المتجمعين لمتابعة هذا التجمع السياسى ..

وهرع معظم الصحفيين بسياراتهم الى الجنوب سعيا وراء قصة أكثر إثارة من صراع « شارون — ليفى » للتأثير على ليكود

● فى هذه الاثناء ، كان الجنود فى موقع على الطريق قد أصابوا إطارات الأوتوبيس بطلقات نارية مما اضطره إلى التوقف فى قطاع غزة على مسافة أقل من ستة أميال عن الحدود المصرية .. وقام عدد كبير من رجال « شين بيت » ومن رجال البوليس بمحاصرة الاوتوبيس وحضر « أفراهام شالوم » بنفسه إلى موقع الحادث ..

انضم « شالوم » إلى « شين بيت » بعد أن أمضى فترة قصيرة كعضو فى أحد الكيبوتزات وفترة أخرى كجندى .

وقد أراد دائما الانتماء إلى النخبة الإسرائيلية من الرواد التى ارتبطت حياتها بالسلطة والسياسة والتطوع لخدمة إسرائيل .. أولئك الذين لايستطيعون الحياة بدون وطنهم إسرائيل ، ولا تستطيع إسرائيل عل مايبدو أن تتواجد بدونهم ..

ولد « افراهام شالوم » فى عام ١٩٢٩ تحت اسم « افراهام بندور » لأبوين انتقلا من ألمانيا إلى فلسطين بعد تولى « هتلر » مقاليد السلطة فى ألمانيا ..

وفى تل أبيب ، كما فى برلين ، حاول أبواه تعليمه تعليما برجوازيا يستطيع من خلاله أن يصبح رجل أعمال ألمانيا — يهوديا ناجحا ولكن « افراهام بندور / شالوم » فضل القيم الاشتراكية ، وانضم إلى أحد الكيبوتزات .

ودفعته حرب ١٩٤٨ إلى الالتحاق بالجيش ، حيث لفت انتباه « إيسر هاريل » ، وطلب ضمه الى « شين بيت » ، وقام بتجنيده بالفعل ..

تميز « شالوم » بروح الجندى الذى يكرس نفسه لأية مهمة يقوم بها حتى ولو كانت مجرد تمارين للتدريب ، هذا بالإضافة إلى مواهبه فى اللغة الانجليزية والألمانية .. وكان دائما هادئا ، على خلق ، بارد المظهر .. ومع ذلك يبدو دائما غاضبا ومستاء دون أن يعرف أحد سر ذلك ..

وخلال ٣٥ عاما من العمل فى « شين بيت » ، شارك « شالوم » فى معظم العمليات الهامة ، ومن بينها المهمة المشتركة مع الموساد لاختطاف « أدولف أيخمان » فى الأرجنتين .

كان « شالوم » دائما رجل عمليات ميدانية ، وقد أقام علاقة عمل وثيقة مع « يهودا إربيل » ، وقاما معا بشن عديد من الهجمات السرية ضد الفدائيين الفلسطينيين .. وظل ذلك هو مايركز عليه « شالوم » بعد أن أصبح رئيسا لوكالة « شين بيت » عام ١٩٨١ ، بدلا من « أفراهام أحيتوف » ..

عندما رمق « شالوم » الاوتوبيس واقفا دون حراك ، فكر فى أن لدى الجيش والبوليس وحدات مدربة خصيصا لاجتياح كل أنواع المركبات التى تتعرض للاختطاف ، وانقاذ الرهائن ..

وآمن « شالوم » بأن مهمة « شين بيت » ستقتصر على استجواب المهاجمين العرب واكتشاف شركائهم ومصادر أسلحتهم وتمويلهم ..

كانت المنطقة الرملية على طول الطريق إلى غزة خلية نحل ، وأحالت الأضواء الكاشفة العملاقة ليل المنطقة إلى نهار ، بينما اختلط الجنود المسلحون مع رجال البوليس ورجال « شين بيت » بملابسهم المدنية ..

وسلط عشرات من المصورين الصحفيين مزيدا من الأضواء بوميض كاميراتهم .. وعلى مسافة قصيرة وقف الاوتوبيس الإسرائيلى تحت سيطرة أربعة من الفلسطينيين المسلحين .. تواجد فى مكان الحادث « شالوم » ، وكبار ضباط

الجيش ، ووزير الدفاع « موشى أرينز » .. قبل الفجر بساعات ، ولم يستطيعوا إخفاء الشعور بغياب النظام والسيطرة ..

وكان ذلك شيء تقليدى بالنسبة لأى حدث هام فى إسرائيل : فهناك الكثيرون جدا من الأناس الذين يتحركون فى غير نظام من أجل القيام بالمهمة . وعلى الرغم من وجود ثقة كبيرة ، إلا أنه بدا أن السلطات ستشق طريقها إلى النجاح عن سبيل الارتجال وليس بواسطة اتباع خطة محكمة منظمة ..

وسط حشد المسئولين والعملاء الذين قدموا أساسا بدافع من الفضول يعادل رغبتهم فى مديد المساعدة ، كان المتخصصون فى مكافحة الارهاب يجمعون أكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة عن المختطفين ، وأسلحتهم ، والمواقع المحتملة للمتفجرات على متن الاوتوبيس .. لم يكن هناك أدنى تفكير فى الانصياع لمطالب المختطفين الذين طلبوا الافراج عن زملائهم الفدائيين من السجون الإسرائيلية .. لكن لم يكن بمقدورهم النجاح ، فبعد تجميع كافة البيانات الضرورية بمساعدة أجهزة الرؤية الليلية ومعدات التصنت ، عرفت القوات.الاسرائيلية أن الفدائيين لايحملون سوى أسلحة خفيفة ليس من بينها مدفع رشاش واحد ، فقد كانوا هواة ..

واستعد جنود الكوماندوز المحترفون الإسرائيليون ، وأعطيت لهم إشارة الهجوم ، وحطموا خلال ثوان عديد من نوافذ الأوتوبيس ، وأصبحوا بداخله ، وفتحوا نيران أسلحتهم على الفور ، وقتلوا إثنين من الفدائيين وجرحوا الإثنين الآخرين ..

وتم تحرير الرهائن ، رغم أن سيدة عمرها ٢٢ عاما لقيت مصرعها فى مقعدها ، وأصيب ركاب آخرون بجراح طفيفة ..

عادت قوات الكوماندوز بسرعة إلى قاعدتها مع الحفاظ على السرية كجزء من الغموض المحيط بها ، وقامت هذه القوات بتسليم الفدائيين المصابين إلى وحدة أخرى من الجيش وإلى محققى « شين بيت » .

صاح « اليكس ليباك » ، المصور فى صحيفة « حاداشوت » الجديدة ، عندما

سمع بيانات الجيش فى الراديو بعد بضع ساعات ، قائلا : « لكن هذا لايمكن أن يكون » ..

كان المتحدث الرسمى قد أعلن فى البداية أن إثنين من الفدائيين قتلا ، وجرح آخران .. وبعد ساعة تم تصحيح البيان ليتم إعلان أن مختطفى الأوتوبيس الأربعة قد قتلوا خلال هجوم الجيش ..

وذهل « ليباك » لأنه شاهد بنفسه الهجوم وعملية اطلاق النار ، ويتذكر جثتى المختطفين المتفحمتين من جراء اشتعال النار خلال القتال ولكنه رأى أيضا كيف قام الجنود ورجال آخرون بملابس مدنية بضرب الفدائيين الآخرين المجروحين بقبضاتهم وبكعوب بنادقهم ..

بل أنه تذكر حتى نظرات الرعب فى عيون الفلسطينيين وهو يهرع إلى معمل تصوير « حاداشوت » لتحميض الفيلم .. ولم يبذل « ليباك » جهدا كبيرا للعثور على الصورة التى يبحث عنها ، وبالفعل وجدها وكانت تظهر رجال الأمن وهم يقودون أحد المختطفين لاستجوابه .

سأله « يوسى كلاين » رئيس تحرير الصحيفة الشاب : « هل أنت متأكد ؟ » .. وشعر بالدهشة عندما أراه ليباك الصورة ، وحكى له عما شاهده .. وأجابه المصور : « نعم .. ألف فى المائة » .

الأمر الذى كان غريبا بالفعل هو أن وزارة الدفاع نفسها بدت غير واثقة تماما عما حدث ليلة ١٤/١٣ إبريل .. وعين « أرينز » لجنة داخلية للتحقيق برئاسة الميجور جنرال « مائير زوريا » .. من احتياطى الجيش ، وهو رجل سجله مشرف وحافل ..

واتصل المتحدث باسم « آرينز » ، « نيحمان شاى » ، بمكتب الرقابة العسكرية ، وطالبهم بعدم نشر أى تقارير حول هذا الموضوع المثير للجدل ..

واتصل الرقباء و « شاى » نفسه بجميع الصحف وعديد من المراسلين الأجانب فى إسرائيل لإبلاغهم بأن أى مقال حول حادث اختطاف الاوتوبيس ولابد وأن يقدم لمكتب الرقابة العسكرية ..

كان الطلب واضحا ، فأى مقال ، أو تقرير ، أو إرسال إذاعى أو تليفزيونى سيتم حظره .. وتمثل تفسير هذا القرار فى أن أية إشارة إلى أن اثنين من الفدائيين قد ألقى القبض عليهما أحياء ، ثم قتلا فيما بعد ، وهما فى الأسر ، يمكن أن تؤدى إلى موت السجناء الاسرائيليين الذين تحتجزهم الجماعات الفدائية الفلسطينية .

وتشكك « كلايـن » فى أن وراء هذا السبب المعلن عوامل أخرى تهدف إلى حرمان الرأى العام الإسرائيلى من معرفة الحقيقة ..

وقد لفت انتباه « كلاين » صورة « ليباك » الدرامية منشورة فى صدر الصفحة الأولى من « حاداشوت » ، وتحتها موضوع إخبارى مقتضب مفاده أن وزارة الدفاع قد شكلت لجنة تحقيق لبحث الظروف المحيطة بالحادث ، فى تحد سافر لقرار الرقابة العسكرية .

وتقليدا لصحيفة « حاداشوت » ، التى دفعها للنشر شهيتها المفتوحة للأخبار المثيرة من أجل المزيد من التوزيع ، نشرت الصحف الأخرى تفاصيل القضية .

وكان رد فعل « أرينز » وزير الدفاع عنيفا ، حيث استخدم لسلطته القانونية لمعاقبة صحيفة « حاداشوت » عن طريق إغلاقها لمدة أربعة أيام ..

وتجدر الإشارة إلى أن تلك كانت المرة الأولى التى يتم فيها إغلاق جريدة عبرية منذ اغلاق صحيفة الحزب الشيوعى « كول هاعام » فى عام ١٩٥٢ ، وذلك بالطبع باستثناء الإجراءات الإدارية ضد الصحف العربية فى القدس الشرقية والضفة الغربية المحتلة وأدى التصرف العنيف تجاه صحيفة « حاداشوت » إلى دعم الشكوك بأن الرواية التى نشرتها دقيقة .

وفى الرابع والعشرين من الشهر التالى ، مايو ، قدمت لجنة « زوريا » تقريرها إلى وزير الدفاع ، معلنة بوضوح أن إثنين من الفدائيين قد أخرجا أحياء من الأوتوبيس .. وبدا أنه من الضرورى البدء فى التحقيق حول من قام بقتلهما ..

كان تقرير « زوريا » سريا ، ولم يتم تسريبه إلى الصحافة ، ولكن تم إرساله إلى البوليس وإلى المدعى العام « اسحاق زامير » ولمدعى الدولة ، وللبوليس الحربى ..

واستمرت المعارك السياسية كسالف عهدها وظل شامير يحكم قبضته على ليكود .

وأسفرت الانتخابات العامة فى يونيو ١٩٨٤ عن طريق مسدود : حيث تعادلت كفتا ليكود والعمل ، ولم يستطع أى من الحزبين كسب ود عدد كاف من الأحزاب الصغيرة ليتمكن من تشكيل ائتلاف .

واضطر الحزبان إلى تشكيل كيان جديد غريب وهو حكومة وحدة وطنية مع تبادل منصب رئيس الوزراء بينهما بطريقة غير مألوفة ..

وتولى « شيمون بيريز » منصب رئيس الوزراء فى الدورة الأولى للائتلاف ، وسرعان ماوقعت مشادات حول جهوده الرامية لوقف معدل التضخم المتسارع ، الذى قفز إلى ٦٠٠ فى المائة وحول إصراره على إعادة القوات الاسرائيلية من مغامرتها المشئومة فى لبنان .. ولكن لم يتردد شيئا حول اختطاف الاوتوبيس فى إبريل السابق ..

كانت أقلية ضئيلة فقط من الإسرائيليين يمكن أن تولى اهتماما لموت إثنين من الفلسطينيين ..

ولكن على الرغم من تلاشى حادث الاوتوبيس من ذاكرة الرأى العام ، فإن معركة تفجرت وراء الكواليس ..

فقد شهد رجال « شين بيت » امام لجنة « زوريا » أنهم تسلموا الفدائيين من الجيش وهما فى حالة سيئة من شدة الضرب الذى تعرضا له إلى درجة لم تسمح لهم باستجوابهما .. وأضافوا أن الفدائيين ماتا بعد فترة قصيرة من جراء الضربات التى ألحقت بهما .. وتعد تلك إشارة واضحة إلى مسئولية الجيش ..

ومال فريق التحقيق ، برئاسة مدعى الدولة « يونا بلاتمان » ، إلى تصديق رواية « شين بيت » .

وفى يوليو ١٩٨٥ ، اتهم « بلاتمان » البريجادير جنرال « اسحاق موردخاى » ، قائد الجيش المسئول عن عملية الانقاذ ، بأنه يتحمل مسئولية موت الفدائيين ..

ومثل « موردخاى » أمام محكمة عسكرية ، ولم ينكر أنه ضرب الفدائيين بحافة مسدسه ، ولكنه أوضح أنه فعل ذلك من أجل احتياجات الاستخبارات الميدانية ليكتشف على وجه السرعة عما إذا كان قد تم زرع قنابل على متن الأوتوبيس أم لا ..

وأضاف « موردخاى » فى دفاعه قائلا : « وعلى أية حال ، فإننى عندما تسلمت الفدائيين كانا فى حالة سيئة بالفعل » .

ووافقت المحكمة العسكرية على أقواله ومفادها أنه وقت ارغام الفدائيين على الخروج من الأتوبيس بالقوة ، بأنهما كانا ميتين من الناحية العملية متأثرين بجراحهما .. وتم تبرئة ساحة الجنرال ..

وبناء على الأدلة المتوافرة ، أوصى « بلاتمان » والمدعى العام « زامير » بمحاكمة إثنين من العاملين فى « شين بيت » بتهمة ضرب الفدائيين .

وتم تبرئة ساحة هذين الإسرائيليين أيضا بعد محاكمة داخلية فى « شين بيت » .. فالوكالة لديها محكمة نظامية خاصة بها ، تتألف من ثلاثة أعضاء ، أحدهم من « شين بيت » ، والثانى من الموساد ، وقاض محكمة فرعية ، والأخير يتولى رئاسة المحكمة السرية الخاصة ..

وتنعقد هذه المحكمة عندما يوجه اتهام لأحد رجال « شين بيت » بمخالفة القواعد السلوكية داخل الوكالة ..

والمحكمة معروفة بجزمها وشدتها فى التعامل مع أبسط المخالفات . فرجال « شين بيت » الذين يضبطون وهم يستغلون مناصبهم لمصالح شخصية يتم إعفاؤهم من الخدمة .

فعلى سبيل المثال ، كان العاملون الذين يتم إرسالهم فى مهمات رسمية بالخارج ، ويحاولون تهريب تليفزيون أو فيديو الى داخل إسرائيل ، يحاكمون ويصرفون من الخدمة ويحرمون حتى من الحصول على معاش .. ويصرف من الخدمة أيضا كل من يكذب او يتوانى عن تقديم التقارير الوافية إلى رؤسائه ، ونادرا ما أعطيت فرصة ثانية لمن يخالف التعليمات ..

والهدف من ذلك هو خلق علاقات عمل على أساس من الثقة المتبادلة والتقارير الدقيقة وفى ذلك نجحت « شين بيت » ..

ولم تكن مسألة التقارير بالممتعة عادة ، فالكل داخل « شين بيت » يعرف أنه لابد من القيام بجهود تثير الشكوك ، وحيل قذرة ، وإلا كيف يمكن حماية الدولة وسط كل التحديات والمخاطر فى الشرق الاوسط ؟ ..

وقد أوضح رؤساء « شين بيت » لرجالهم دائما أنه مهما كانت الظروف خطيرة أو مزعجة ، يتعين عليهم تقديم تقارير حقيقية وكاملة إلى قيادتهم وكانت القاعدة داخل « شين بيت » هى : أن طبيعة العمل تحتم الكذب على العالم الخارجى ، لكن الصراحة التامة لابد وان تكون أساس التعامل مع الرؤساء فى الداخل ..

وبرهنت قضية الأوتوبيس أن هذا توقع مستحيل ، فالشخص الذى سمح له بالكذب فى ظروف معينة ، سوف يسمح لنفسه بالكذب فى ظروف أخرى أيضا ..

وهذا ماحدث مع ثلاثة من كبار العاملين فى « شين بيت » وهم « روفين هازاك » نائب « شالوم » و « بيليج راداى » رئيس ادارة الأمن ، و « رافى مالكا » ..

وعلى الرغم من أنهم كانوا فى الأربعينات من عمرهم ، و « شالوم » فى الخمسينيات ، إلا أن الثلاثة كانوا يعتبرون بمثابة « أطفال إربيل » ، الذين يعملون بهدى من روح « يهودا إربيل » المعادية للعمل الفدائى : وبعد نجاح مذهل فى محاربة الفدائيين ، انهزم « أطفال إربيل » بفعل قضية اختطاف الأوتوبيس ..

فقد اكتشف أن « شالوم » كان قد أمر « هازاك » ، « راداى » ، و« مالكا » ، بالادلاء بشهادات مزورة أمام المحكمة الداخلية للوكالة ،..

فقد كانوا مستعدين لفعل أى شيء ، بما فى ذلك الكذب ، تلفيق الوثائق ، إخفاء الأدلة ، لكن مخالفة النظام الداخلى أخذت تثقل ضمائرهم ..

وذهب الرجال الثلاثة إلى « شالوم » طالبين توضيح كامل للأسباب التى دعته إلى إصداره مثل هذه الأوامر إليهم .. وعندما لم يرضهم إيضاح « شالوم » ، ضغطوا عليه لكى يقدم استقالته ..

رفض « شالوم » الاستقالة ، لكنه سمح لروفين هازاك بمقابلة « بيريز » رئيس الوزراء ..

كان اللقاء قصيرا وباردا ، فلم يرغب « بيريز » فى أن يصدق مايقوله « هازاك » ، خاصة وأنه سمع مقدما من « شالوم » أن « هازاك » يقوم بعملية صراع على السلطة من أجل الحصول على منصب رئيس « شين بيت » .

كان « بيريز » قلقا أيضا بشأن الآثار السياسية الضمنية ، فهذه القضية ترجع إلى فترة كان فيها « اسحاق شامير » رئيسا للوزراء ، وتولى خلالها « موشى أرينز » منصب وزير الدفاع ..

والآن ، وقد أصبح الجميع داخل حكومة وحدة وطنية فإن قيام « بيريز » بمساندة « هازاك » يمكن أن ينسف الحكومة الائتلافية ..

فمن الممكن تصور أن « شالوم » كان يعمل بعلم من « شامير » .. والصراع السياسى الداخلى استنادا إلى فضائح المخابرات مثل فضيحة « لافون » فى مصر قبل ثلاثة عقود ، لم تجلب أى نفع على أى من الساسة المتورطين فيها . لذلك من الأفضل أن تبقى هذه الأمور سرا وفى طى الكتمان ..

وكانت هناك أسباب عديدة دفعت « بيريز » إلى تصديق ادعاء « شالوم » بأن « هازاك » يريد شن تمرد داخلى فى « شين بيت » .

وقام « شالوم » مستندا إلى دعم رئيس الوزراء بتصفية معارضيه الثلاثة ..

لكن « شالوم » أخطأ فى اعتقاده أن ملف القضية قد أقفل ، فرجال « شين بيت » الثلاثة مضوا قدما فى صراعهم وذهبوا إلى المدعي العام الجنرال « زامير »

فى نهاية ١٩٨٥ ، وزودوه بتفاصيل يقف لها الشعر حول عمليات الكذب والتغطية والتستر ..

انقسمت « شين بيت » على الفور إلى معسكرين : أولئك الذين يؤيدون سالوم » ، وهؤلاء الذين يدعمون المتمردين الثلاثة .. ولم يكن من السهل الابتعاد عن هذا الصراع الذى يمس كل فرد تقريبا فى الوكالة السرية ..

وبرزت على السطح انشقاقات بين الأخلاقيات والوصولية ، بين العواطف والمنطق ، وبين الولاء والوطنية العليا ..

وأقام « رافى مالكا » دعوى من المحكمة العليا الإسرائيلية اتهم فيها « شالوم » بوقفة عن العمل ظلما ، وطالب بإعادته إلى العمل ..

وفى مقر قيادة « شين بيت » فى تل أبيب ، كان الجميع يتحدثون عن القضية ، وكأنه لايوجد عمل غير الحديث عن هذه القضية .

وتطايرت الشائعات القاسية من كل نوع فى جميع الاتجاهات ، وبدأت الاحتجاجات المدفونة لسنوات تعلو أصواتها ، وتجد طريقها حتى للصحفيين الذين لم يتمكنوا من نشرها بسبب الرقابة على الصحف .

ومن بين هذه الحكايات التى شاعت ، حكاية تلمح إلى وجود إمرأة خلف هذه الفضيحة المتشعبة بطريقة غير مألوفة .. وأشيع أن احد المتمردين الثلاثة كان على علاقة حميمة بمدعية إسرائيلية رفيعة المستوى ، دفعته إلى تقديم شكوى إلى المدعى العام ..

فلم يكن الجدل إذن يتعلق بكيفية معاملة الفدائيين بعد القبض عليهم ، ولكن كان يتعلق بالقيادة ، والأخلاق والثقة .. ولم تشهد « شين بيت » حربا داخليا بمثل هذا العنف والشراسة ..

هزت جدية الاتهامات المطروحة « اسحاق زامير » ، الذى كان عميدا لكلية الحقوق بالجامعة العبرية فى القدس ، قبل أن يعين فى عام ١٩٨١ ، كمدع عام وكمستشار قانونى للحكومة ..

وتوجه « زامير » إلى « بيريز » وأخبره بما سمعه وأبلغه أنه يعتزم تقديم كل الأدلة والوثائق إلى البوليس لإجراء تحقيق رسمى ..

صدم « بيريز » ، ليس بسبب الأدلة التى سمعها ، لكن من جراء اعتزام المدعى العام المضى قدما لكشف عمليات الكذب والتستر .. وحاول رئيس الوزراء أن يوضح لزامير أن تحقيق البوليس فى القضية سيلحق ضررا جديا بالأمن القومى ..

وكحل وسط ، اقترح « زامير » أن يستقيل « شالوم » على الفور ، لكن « شالوم » و « بيريز » رفضا الاقتراح مباشرة ..

ثم عقد « بيريز » اجتماعا عاجلا مع « شامير » نائب رئيس الوزراء ، ومع « اسحاق رابين » وزير الدفاع .

وقرر هؤلاء الرجال الثلاثة ، المعروفون باسم « نادى رؤساء الوزارة ، بحكم خبرتهم جميعا فى ذلك المنصب الرفيع ، أن يفعلوا مافى وسعهم لوقف « زامير » عن المضى قدما فيما يعتزمه ..

لم يكن هناك أحد داخل الحزبين الرئيسين [العمل وليكود] يرغب فى رؤية « شين بيت » تتمزق ، وعند الصراع بين الديمقراطية والأمن القومى ، فإن الزعماء الإسرائيليين اختاروا الدفاع عن وكالة الأمن الداخلى [شين بيت] ، وليس الدفاع عن القيم الديمقراطية ..

كان أعضاء « النادى » الثلاثة يعرفون أن المدعى العام قد طلب ، قبل شهور ، إعفاءه من منصبه لأسباب لا تتعلق بقضية الأوتوبيس ، فقد كان يريد أن يتقاعد عن العمل الحكومى .

فقرر « بيريز » ، « شامير » ، و « رابين » أنه يتعين عليهم التعجيل باستقالة زامير .. دون إثارة أية ضجة .. وبالتالى يمكنهم تعيين مدعيا عاما أكثر مسئولية ..

لم يكن « للنادى » أن يصل إلى مأربه بسهولة هذه المرة ، رغم أنه أعتاد التصرف على أنه حكومة داخل الحكومة ، وكان الساسة الثلاثة يتخذون أقسى القرارات وحدهم ، فالوقت كان قد فات لمنع فضيحة بدأت بالفعل ..

وفضل « زامير » إرجاء رحيله المزمع ، ليتمكن من متابعة قضية « شين بيت » ، فلم يكن يرى أى تناقض بين الحكم الديمقراطى للقانون وبين الأمن

القومى .. فعلى العكس من ذلك ، كان يرى أن أية محاولة للتستر وتغطية الأمور لايمكن سوى أن تلحق الضرر بإسرائيل ..

وفى ١٨ مايو ١٩٨٦ ، قدم « زامير » شكوى رسمية إلى البوليس ، ليجبرهم على التحقيق فى الاتهامات والاتهامات المضادة داخل « شين بيت » .

وتحول آنذاك مجرى الأحاديث الخاصة وحتى حديث الصحافة العامة من التلميح إلى « حادث الاتوبيس » إلى الحديث عن « عملية شين بيت » ..

وبعد بضعة أيام من بدء البوليس التحقيق ، أذاع التليفزيون ، المملوك للدولة فى إسرائيل ، تقريرا مقتضبا عما أسماه بتحقيق يؤثر على « شين بيت » .

وبسبب نظام الرقابة الذى تفرضه « أمان » ، لم تستطع النشرة الاخبارية التليفزيونية ذكر أسماء ضباط المخابرات المعنيين .

وبدلا من ذلك أشارت النشرة الإخبارية إلى « مسئول كبير » وإلى « القضية » التى تعيد للأذهان عملية لافون فى الخمسينيات ..

ومرة أخرى ، لم يفهم تلك التلميحات سوى هؤلاء الذين على علم بالفضيحة ، أما الجمهور العام فقد ظل فى شبه ظلام دامس ..

لقد انطلقت السدادة نهائيا خارج الزجاجة عندما برهن نظام الرقابة على عدم فعاليته .. فقد انتهكت شبكة تليفزيون امريكية قواعد الرقابة وذكرت اسم « افراهام شالوم » بوصفه « المسئول الكبير » الذى سبقت الإشارة إليه إذ ذكرت شبكة « إيه . بى . سى » أنه متهم بإصدار الأوامر بقتل الفدائيين الفلسطينيين .. وأن الحكومة تحاول التستر على القضية بأسرها على الرغم من الموقف الذى يتخذه المدعى العام الإسرائيلى ..

ولأن الشعب الأمريكى أصبح يعرف الكثير عن القضية فقد اضطرت الرقابة فى اسرائيل أن تسمح للصحف الإسرائيلية بإعادة نشر ما أذيع فى الولايات المتحدة ، وتردد اسم « شالوم » على الملأ وانكشف بذلك هوية أحد قادة « شين بيت » .

أخذ التحقيق مسارا يثير الدوار ، حيث استجوب البوليس على مضض رجال « شين بيت » المتورطين ومن بينهم شالوم ، بالإضافة إلى الوزراء الذين كانوا فى السلطة وقت اختطاف الاوتوبيس ومن بينهم « شامير » و « أرينز » ..

وألمح « شالوم » ، الذى قرر الدفاع عن نفسه ، إلى أنه كان يتصرف بمقتضى سلطة « شامير » رئيس الوزراء .. لكنه عندما شاهد الأدلة تتصاعد ضده وأن هناك فرصا حقيقية لتوجيه تهمة القتل إليه ، دبر اجتماعا ليليا سريا يوم ٢٣ يونيو ، لمجلس الوزراء بأسره .

وبناء على توصية من نادى « رؤساء الوزراة » أقرت الحكومة قرارا لم يسبق له مثيل ، وهو صرف كل من رئيس « شين بيت » والعاملين الثلاثة المتمردين من الخدمة ، وفى اطار الصفقة تقرر التجاوز عن محاكمة أحد عشر عضوا آخرين من رجال « شين بيت » والعفو عنهم ..

كما عينت الحكومة لجنة تحقيق من ثلاثة مدعين حكوميين برئاسة « يهوديت كارب » للتحقيق فى تفاصيل قضية « شين بيت » ..

وكان « شالوم » والآخرون يتمتعون بحصانة تحول دون مقاضاتهم ، وكان ذلك من حسن حظهم بالنظر إلى الأمور غير القانونية التى كشفت عنها لجنة « كارب » ..

وفى نهاية ديسمبر ١٩٨٦ ، نشرت اللجنة تقريرها الذى أشادت فيه بـ « هازاك » ، « راداى » و « مالكا » لادلائهم بشهاداتهم ، وأعلنت بجزم أن المتمردين الثلاثة قد قالوا الحقيقة ، وأن رئيس « شين بيت » قد كذب وأمر معاونيه بالكذب وأنه ضلل ثلاث عمليات سابقة قام بها « زوريا » و « بلاتمان » ، ومحكمة « شين بيت » وقررت لجنة « كارب » أيضا أن « هازاك » و « راداى » ، و « مالكا » ، علموا بقرار « شالوم » بالكذب على « زوريا » ولجنة « بلاتمان » ..

وفى محاولة للتستر على الموقف ، تمكن رئيس « شين بيت » من أن يشرك أحد رجاله فى لجنة « زوريا » للتحقيق ..

وم تظهر نية « شالوم » الحقيقية فى هذا الصدد إلا عندما نشرت لجنة « كارب » تقريرها .. وكشف تقرير « كارب » أن ممثل « شين بيت » فى لجنة « زوريا » وهو « يوسى جينوسار » ، كان بمثابة حصان طروادة بالنسبة إلى « شالوم » .. حيث أخبره باتجاه لجنة التحقيق ، كما قام بالتأثير على اللجنة للتوصل إلى نتائج يرغبها رئيس « شين بيت » ..

وقد قام « جينوسار » بمهمته بمنتهى الولاء لشالوم فغير بعض الأدلة وأخفى وثائق ومستندات اخرى وفعل كل مافى وسعه لضمان تغطية الموقف تغطية كاملة ..

وقبل كل جلسة للجنة ، كان « جينوسار » يلتقى برجال « شين بيت » المقرر أن يمثلوا أمام اللجنة .. ويلقنهم ماينبغى عليهم أن يقولوه ، ويعمل على ألا تتعارض شهاداتهم مع بعضها بعضا .

وقد تطلع إلى أن يعاونه « شالوم » فى أن يصبح الرئيس القادم لوكالة « شين بيت » .

واسترشادا بجينوسار ، وجهت لجنة « زوريا » اللوم ، فيما يتعلق بمصرع الفدائيين الفلسطينيين ، إلى الجنرال « موردخاى » ..

وهكذا فإن تبرئة « شالوم » جاءت على حساب تلويث اسم أحد ضباط الجيش المرموقين ..

لقد أراد « شالوم » أن يرى « موردخاى » وقد أدين ، على الرغم من أن الشخص الذى أعطى التعليمات بقتل الفدائيين لم يكن سوى « شالوم » ذاته ..

وكانت الحقيقة ، كما كشفها تقرير لجنة « كارب » ، أن مختطفى الاوتوبيس المصابين تم نقلهما إلى « شين بيت » لاستجوابهما ، ثم جرى قتلهما ..

وبررت هيئة الادعاء فى « شين بيت » ، التى تورطت فى عملية التستر ، مسلكها بأنها قد حاولت حماية واحد من أخطر أسرار الوكالة ..

وفى دفاعه ، واصل « شالوم » إدعاءه بأنه تصرف ببساطة بناء على السلطة التى فوضها له رئيس الوزراء ..

ووفقا لأقواله ، فإنه التقى مع « اسحاق شامير » فى نوفمبر ١٩٨٣ — قبيل خمسة شهور من حادث اختطاف الاوتوبيس — وخلال اللقاء نوقشت كيفية التعامل مع الفدائيين المحتجزين بصفة عامة دون الإشارة إلى أى حادث بعينه ..

وادعى « شالوم » بالتحديد أن « أرينز » وزير الدفاع قد صرح بقتل الفدائيين المصابين ، وأنكر « أرينز » ذلك على نحو قاطع ، فى حين اعترف « شامير » رئيس الوزراء بحديثه مع شالوم ، ولكنه أنكر أن يكون قد أمر رئيس « شين بيت » بعدم احتجاز أسرى ..

واختارت لجنة « كارب » أن تصدق رئيس الوزراء ووزير الدفاع .. وذكرت بوضوح أنه فى ليلة اختطاف الاوتوبيس ، لم يتلق « شالوم » من رئيس الوزراء أية أوامر فيما يتعلق بكيفية معاملة الفدائيين ..

وكنتيجة لهذا التقرير ، تقرر إحياء الممارسات التى كانت تتم فى عهد رئاسة « جولدا مائير » و « إسحاق رابين » للحكومة .. والتى توجب أن يتم لقاء بين رئيس الوزراء وقادة وكالات المخابرات فى حضور كاتب لتسجيل وقائع اللقاء .. ومن المعروف أن أحدا لم يشهد حديث « شامير — شالوم » فى عام ١٩٨٣ ..

هز تقرير لجنة « كارب » الرأى العام الإسرائيلى وهز ثقته أيضا فى مؤسسة المخابرات ..

فبعد سنوات عديدة لم يسمع فيها الشعب الإسرائيلى شيئا عن « شين بيت » ، شعر عديد من المواطنين أن رئيس أمن دولتهم قد تصرف بأسلوب أسوأ من أى أسلوب تسلكه أية دولة ديكتاتورية .

ووفقا للتقارير التى نشرتها الصحف الاسرائيلية فإن « شالوم » تصرف وكأنه فوق القانون ..

وفى عيون العديد من الإسرائيليين ، فإنه كان من الممكن التجاوز عن مسلك

« شالوم » لو كانت التهمة الموجهة إليه تتعلق بقتل الفدائيين الفلسطينيين فقط .. ولكن عملية التستر كما وصفتها الصحف تخطت كل الحدود التى يمكن تقبلها ..

وكما حدث فى عملية لافون وفضيحه ووترجيت الأمريكية فإن المادة القابلة للانفجار لم تكن فى العمل نفسه ولكن فى محاولة التستر التى تبعته ..

وكما فهم أغلب الشعب ، فقد بدا الأمر وكأن ذوى المناصب العليا فى « شين بيت » قد تآمروا ضد رؤسائهم من الساسة وضد الرأى العام ..

وكان من الممكن احتواء الأزمة لو اعترفت إحدى الشخصيات الرئيسية بانها هى التى اعطت الأوامر ولكن كان كل شخص داخل « شين بيت » يحاول أن يقذف بالمسئولية وينحى باللائمة على كاهل الآخرين ..

واضطر « افراهام شالوم » رئيس الوكالة أن يبدأ حياة جديدة كمواطن عادى .. وعاونه رئيس الوزراء « شيمون بيريز » فى حصوله على وظيفة مع « شاءول أيزنبيرج » تاجر الطائرات والأسلحة والسلع والخدمات من كل نوع ، والذى يتخذ من إسرائيل مقرا له ..

وتم إرسال « شالوم » إلى نيويورك ، ولكى يتجنب أية دعاية غير مرغوب فيها ذهب تحت اسمه القديم « أفراهام بندور » .. وهناك استفاد من خبرته المهنية للحصول على العديد من العقود المرتبطة بالدفاع لصالح « أيزنبيرج » .. كانت نيويورك منفى بالنسبة له ، ولم يكن العمل يثير اهتمامه بالمرة ، حيث أنه اضطر للاهتمام بتفاصيل كان قد عهد بها منذ سنوات عديدة لمرؤوسيه فى « شين بيت » ..

ولكن لم يكن أمامه بديل آخر ، فعمليات القتل والتستر فى « شين بيت » كانت مازالت ماثلة فى الأذهان ، ومثيرة للحرج للغاية إلى حد يحول دون أن يمنحه أحد وظيفة مريحة فى إسرائيل .. لقد واجه « شالوم / بندور » الرفض من وطنه ..

ولم تكن لديه حرية التصرف فى الخارج كذلك فقد قامت هيئة الموانىء فى نيويورك ونيوجيرس بإلغاء عقد قيمته ٧٥ ألف دولار مع شركة اسرائيلية تدعى

« آتويل للأمن » ، عندما علمت الهيئة أن رئيس الشركة هو « بندور » وعرفت حقيقته .. قالت هيئة الموانى ، ببساطة ، أنها لم تعد راضية عن هذا الاتفاق ..

وفى غياب أى تفسير من جانب « شالوم » نفسه لقتل المحققين لمختطفى الأوتوبيس ، خرج أصدقاؤه داخل « شين بيت » وخارجها بمبرراتهم الخاصة ..

فادعى أحدهم أنها كانت خطوة محترفة فى محلها الصحيح لمكافحة العمل الفدائى ، لأن المختطفين من الهواة ، وكان من الصعب أن يقدما أية معلومات بشأن أية منظمة فدائية ، وبالتالى لم تكن لها قيمة بالنسبة لوكالة « شين بيت » .. حتى أن تقديمهما للمحاكمة كان أكثر مما يستحقان ..

وفسر آخرون القرار استنادا إلى تورط « شين بيت » ونفوذها المتعاظم فى لبنان فى الفترة مابين ١٩٨٢ ، ١٩٨٥ ، حتى قامت حكومة الوحدة الوطنية فى إسرائيل بسحب قواتها من لبنان ..

فلبنان كان بمثابة « الغرب الضارى الخارج على القانون » بالنسبة لوكالة « شين بيت » .. حيث أشارت التقارير الصحفية إلى « جينوسار » وهو يجوب لبنان كما لو كان « مأمورا مسئولا » ..

كانت هناك حالات تهريب وحالات خرق للوائح الجيش ولوائح وكالة « شين بيت » ..

وقد علم رجال « شين بيت » أنه فى الوقت الذى توجد فيه ضوابط معينة وقواعد للسلوك نافذة المفعول فى الضفة الغربية وغزة ، فإن الفوضى هى السائدة فى لبنان .. وقد امتد سوء السلوك من لبنان إلى الأراضى المحتلة ..

لم يجد مانشر عن « شين بيت » ومشكلاتها فى عام ١٩٨٧ اهتماما مماثلا لما لقيه فى إحدى زنزانات أحد السجون العسكرية فى وسط إسرائيل حيث كان يجلس « عزت نافسو » غارقا فى أفكاره ويحلم بأسرته فى « كفر كاما » ..

كانت صحف المساء تصل إلى زنزانة « عزت نافسو » مثلما كانت تصل إليه على مدى السبع سنوات السابقة ..

سيطر عليه الانفعال فجأة وشحب لونه عندما شاهد فى إحدى الصحف صورة لـ« جينوسار » أحد رجال « شين بيت » الذين كان الرئيس « حاييم هيرتزوج » قد عفا عنهم توا .. فى اطار قرار مجلس الوزراء الإسرائيلى بإنهاء الفضيحة ..

وكان الخبر المنشور فى الصحيفة يشير إلى أن « جينوسار » حصل على عمل فى وزارة التجارة والصناعة التى يتولاها « إرييل شارون » ..

صاح « نافسو » متعجبا : « هذا هو الرجل الذى استجوبنى ، وأوقعنى فى هذا المأزق » ..

وأسرع يكتب رسالة إلى محاميه قال فيها : « لقد قلت لنفسى أنه لو مر مائة عام فإننى لن أنسى ابتسامة جينوسار الساخرة وكيف طلب منى أن أخلع ملابسى ، ثم بصق على وبعد ذلك ، عندما تمددت على الارض أخذ يضربنى بقدمه وينزع شعرى » .

كانت تلك بداية قضية جديدة ، لاتقل حدة عن قضية اختطاف الأوتوبيس ، والتى لطخت سمعة « شين بيت » .. وكانت هذه القضية مرتبطة بلبنان ..

لم يكن أحد يتوقع أن تظهر فضيحة أمن من بلده مثل بلدة « كفر كاما » النظيفة والمزدهرة والواقعة فى التلال الريفية بالقرب من بحر الجليل ..

ومعظم أعضاء أصغر اقلية فى إسرائيل يعيشون هناك ، وهم بضعة ألوف من الشراكسة وهم مسلمون غير عرب ترجع أصولهم إلى جبال القوقاز فى الاتحاد السوفيتى ..

وقد تطوع « نافسو » للتطوع فى الجيش الإسرائيلى ، مثل كل الشباب تقريبا فى مجتمعه ، وكان يشعر بالفخر لأنه وصل إلى رتبة « ملازم » .

وفى عام ١٩٧٦ ، قبل الغزوات الإسرائيلية للبنان فى عام ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، تم إرساله إلى جنوب لبنان .. على مسافة لاتزيد عن ثلاثين ميلا عن بلدته « كفر كاما » ، ولكنها خارج حدود الأراضى الإسرائيلية .

وكتب « نافسو » فى مذكراته يقول : « لم تكن لدى مهمة محددة .. وكان ذلك فى الأيام الأولى لتورط إسرائيل فى المنطقة .. وشاركت فى جميع أنواع مهام المخابرات دون أى اطلاع مسبق .. فلم أحصل على أى تدريب متخصص ، أو يتم تحذيرى بالاحتياطات المعينة الواجب اتخاذها فى مثل هذه الحالة .. وكانت مهمتى تتطلب أن أعيش بين اللبنانيين وكثير منهم مخبرون . »

واستخدم « نافسو » فى مذكراته كلمة عبرية مقتبسة من الكلمة الانجليزية « STINKER » أى شخص حقير وجدير بالازدراء لوصف العملاء والمخبرين غير الهامين الذين كانت المخابرات الإسرائيلية تستخدمهم من بين عرب إسرائيل والدول الأخرى ..

وكتب الملازم الشاب يقول أن وظيفته تلخصت فى امداد المسيحيين والمسلمين الشيعة اللبنانيين بالذخائر والأسلحة والامدادات الطبية بوصفهم ممن يعارضون الفلسطينيين ..

ونتيجة وعيه وحساسيته تجاه للعداوات الدينية والتاريخية المعقدة فى لبنان ، أطلق « نافسو » فى مذكراته على لبنان اسم « المكان الذى يخرب الأرواح » .

وأضاف فى مذكراته يقول : « كان تصفية أى انسان جسديا بالنسبة لى هناك أسهل من قيام المافيا بذلك فى نيويورك .. فى كل مكان حولى سادت وحشية قانون الغاب ، فأينما تطلعنا نرى أحداث تثير الذهول بصورة مطلقة .. قتل ، انتقام .. وكانت الحياة البشرية رخيصة تماما ولاقيمة لها » .

وتسجل المذكرات حوادث لجنود وعملاء إسرائيليين أصبحوا أغنياء عن طريق تهريب السجائر والساعات والأجهزة التليفزيونية وحتى المخدرات إلى داخل إسرائيل .

وأضاف « نافسو » فى مذكراته يقول : « بالنسبة لى كان « أبو قاسم » رمزا لكل هذه الأشياء .. كان شخصا حقيرا يعمل لحساب جميع الأطراف .. كان

زوربا جنوب لبنان .. داهية كالثعبان .. وحاكما بأمره ، وهو الذى قرر مصيرى » ..

وفى ليلة الرابع من يناير ١٩٨٠ وكانت ليلة مطيرة ، وفقا لمذكرات « نافسو » ، أفاق على طرقات على باب منزله فى « كفر كاما » ، كان مازال شبه نائم وأخذ يسأل باللغة الشركسية من هناك ؟ ولكن لم يرد عليه أحد .. وعندما كرر السؤال باللغة العبرية تلقى ردا ، ففتح الباب ليجد صديقا من أصدقائه ، وهو « دانى سنير » الضابط بوحدته فى الجيش ، وطلب منه أن يرافقه فى مهمة سرية إلى لبنان تستغرق حوالى يوم أو يومين .

ووافق « نافسو » فى الحال ، وصعد إلى الطابق الثانى وأخذ كومة من الملابس ، وقبل زوجته « سيام » التى تزوجها قبل ثلاثة أسابيع فقط ، ثم خرج بصحبة « سنير » ولم ير « نافسو » بيته ثانية إلا بعد سبعة أعوام ونصف العام ..

وبدلا من أن يصطحب الضابط « نافسو » إلى وحدته العسكرية ، أخذه إلى جناح فى فندق فى ميناء حيفا ، وهناك تعرف على « يوسى جينوسار » .

لم يكن « نافسو » يعرف اسم الرجل الحقيقى آنذاك وعومل « نافسو » معاملة حسنة إلى حد أنه اعتقد أن « شين بيت » قررت تجنيده ..

ومع استمرار الحديث ، أدرك « نافسو » أنه يواجه استجوابا ، حيث ظل المحقق المجهول يسأله على نحو مستمر عن رجل معين من منظمة التحرير الفلسطينية كان على اتصال بنافسو وفقا لمعلومات « شين بيت » ..

وهنا بدأ الخوف يتسرب إلى قلب الضابط الشركسى ..

قال له رجل « شين بيت » : « عليك أن تعترف بأنك كنت عميلا مزدوجا لمنظمة التحرير الفلسطينية .. لايمكنك أن تتلاعب بنا .. نحن نعرف كل شيء وكنا نتعقبك منذ شهور . » ..

أنكر « نافسو » كل الاتهامات على نحو محموم ، وواصل إنكاره حتى بعد نقله إلى سجن « كيشون » فى حيفا ، حيث تحتفظ « شين بيت » بزنزاناتها الخاصة ..

كتب « نافسو » مضيفا : « وبدأت أيام وليال من التحقيق والتهديد والامتهان » وأوضح أن « جينوسار » الذى كان مجهولا بالنسبة له فى ذلك الوقت كان له رئيس يطلق على نفسه اسم « باشوش » ..

ويقول « نافسو » : « فى إحدى المرات دخل إلى الغرفة « باشوش » وادعى أنه نائب رئيس « شين بيت » ورئيس قسم التحقيقات منها .. وهدد بإرسالى إلى منشأة تستخدم فى التحقيق مع الفدائيين ، وهدد بحقنى بمادة تصيبنى بالعجز الجنسى .. وتكرر التهدد بالحقن على نحو دائم طوال التحقيق .. فكان شخص يفتح أحد الأدراج ويبدو كما لو كان يتناول حقنة .. » .

وأشارت مذكرات « نافسو » إلى أن محققى « شين بيت » هددوا باعتقال زوجته وتجريدها من ملابسها ..

يقول « نافسو » فى مذكراته : « فى بعض الأحيان كانوا يأتون بمجلة « بلاى بوى » وبصور النساء العاريات حتى استوعب الرسالة .. كانوا يهددون أيضا بإحضار زوجتى وإخبارهم بأننى على علاقة جنسية شاذة مع « أبو قاسم » وأنهم سينشرون فى قريتى شائعات مفادها أننى شاذ جنسيا » ..

وفهم « نافسو » أن القرائن ضده مبنية على شهادة « أبو قاسم » ، وأن الدافع المزعوم لتعامله مع منظمة التحرير الفلسطينية هو الابتزاز الجنسى ..

وكان لدى « جينوسار » شهود ، من بينهم « أبو قاسم » ، يدعون أنهم رأوه وهو يمارس الجنس مع رجل منظمة التحرير ومع مسيحى لبنانى ..

وبعد التهديدات ، أتى محققو « شين بيت » إلى زنزانة « نافسو » ولعبوا دور الرجال الطيبين ، ووعدوه بأنهم سيسمحون له بزيارة زوجته لو أخبرهم بكل شيء ..

إن السمة المميزة لأية وكالة مخابرات ولوكالة « شين بيت » هى الموهبة فى اكتشاف نقاط الضعف فى الأناس الذين تتعامل معهم ..

وفى حالة « نافسو » ، فان نقاط ضعفه كانت زوجته ورجولته .. فبوصفه

عضوا فى المجتمع الشركسي ، الذى يحدد بوضوح وضع الذكر ، كان يخشى من المهانة التى سيعانيها إذا مانشر المحققون مايتهمونه به ..

وبعد أربعين يوما من التحقيق المتواصل ، انهار « نافسو » ، واعترف بجميع الجرائم التى اتهم بارتكابها ومن بينها الخيانة والتجسس ضد إسرائيل لصالح منظمة التحرير الفلسطينية ..

لكن عندما بدأت محاكمته أمام محكمة عسكرية سحب « نافسو » اعترافه ، وادعى أنه اعترف تحت الضغط والتهديد ..

وأنكر محققو « شين بيت » ذلك بالطبع وصدقهم القاضى كما هو الحال فى معظم القضايا المتعلقة بوكالة الأمن ..

دارت المحاكمة سرا ، ولم يسمح حتى لأسرة المتهم بالحضور ، وبعد مداولات استمرت سنتين أدين « نافسو » وحكم عليه فى نهاية ١٩٨٢ بالسجن لمدة ١٨ عاما .. وخفض رتبته العسكرية إلى رتبة جندى [نفر] ..

لم يؤمن أحد ببراءة « نافسو » غير أسرته ومحاميه ، الذى كان مدعيا عاما عسكريا فى السابق .

وحتى بعد رفض العديد من طلبات الاستئناف التى قدمها « نافسو » ، فإنه رفض اقتراحات قدمها له رجال « شين بيت » وآخرون بأن يتقدم بطلب للعفو .. وقال أنه يريد الحصول على حكم بالبراءة وليس قرارا بالعفو ..

وأخيرا حصل « نافسو » على ما أراد ، بعد معاناة طويلة ، وذلك فى الرابع والعشرين من مايو عام ١٩٨٧ عندما برأته المحكمة العليا الإسرائيلية من الاتهامات بالخيانة والتجسس ، وألغت الحكم بالسجن عليه لمدة ١٨ عاما ..

وهكذا أطلق سراحه ، وتمت ترقيته إلى رتبة رقيب ، ودفع له راتبه المستحق منذ القبض عليه ..

وحكم عليه القضاة بالسجن لمدة عامين ، كان قد أمضاهما بالفعل ، بتهمة عدم إبلاغه عن اجتماعاته مع أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان ..

وركز منطوق الحكم على توجيه انتقاد حاد لوكالة « شين بيت » ، ومحققيها ، والأساليب التى يستخدمونها للحصول على اعترافات ..

كانت تصرفات الوكالة السرية مجرد جزء من بيئة عدوانية أوسع نطاقا .. فقد كانت « شين بيت » أشبه بالغول الذى يخيف به الآباء اطفالهم إذا أساءوا التصرف ..

وهذا ماحدث فى قضية « دانييل شوشان » الذى كان نفرا فى الجيش الاسرائيلى ، وحكم عليه فى اكتوبر ١٩٨٦ بالسجن لمدة عشر سنوات بتهمة نقل معلومات للعدو .. وبوصفه ساعى بريد عسكرى ، تم توجيه الاتهام إليه بأنه سلم مستندات إلى أحد العرب فى الضفة الغربية الذى له اتصالات بمنظمة التحرير الفلسطينية وهدده محققوا البوليس الحربى بأنه اذا لم يعترف بالاتهامات الموجهة إليه ، فسيحيلونه إلى « شين بيت » ، وهذا أسوأ بالنسبة له دونى أدنى شك ..

واستنادا إلى ماسبق وسمعه عن « شين بيت » ، فضل « دانييل شوشان » أن يرضخ للضغط ، ويعترب بجريمة لم يقترفها ..

وبعد عامين ، أعيدت محاكمة شوشان وتمت تبرئته ، وذكرت محكمة الاستئناف أن البوليس الحربى استخدام الاكراه البدنى وضغوطا أخرى للحصول على اعتراف من الجندى الشاب ، وأنهم أخفوا كثيرا من الأدلة عن المحكمة ..

وأصبح الجمهور الاسرائيلى معتادا على الحقيقة الجديدة السلبية . فقبل عقد من الزمان ، كان مجرد ذكر اسم « شين بيت » ممنوعا ، وكان من عير المقبول على الاطلاق توجيه الانتقاء الى وكالات المخابرات .. أما الآن ، وخلال فترة تقل عن العام ، رفع نقاب السرية مرتين ليكشف عن « شين بيت » وقد لطختها أسوأ فضيحتين فى تاريخها وهما : قتل مختطفى الأوتوبيس ، والمحاكمة غير العادلة لـ « نافسو » ..

لقد رأى الشعب الإسرائيلى وكالة أمنهم الداخلى للمرة الأولى ، ولم يحبوا ماشاهدوه ..

وأعلن الرئيس « هيرتزوج » ، الذى كان قد وافق على العفو عن كبار ضباط « شين بيت » ، أن قضية « نافسو » جعلته يشعر بالخجل ..

وتحدى « يوسف حريش » المدعى العام الجديد رغبات « نادى رؤساء الوزارة » ورغبات « شين بيت » ذاتها ، وأمر بالتحقيق مع الذين حققوا مع « نافسو » ..

كانت النية الرسمية هى توجيه اتهامات جنائية على الرغم من أنه كان واضحا أن « جينوسار » لن يمس بعد حصوله على العفو ..

وتجاوبا مع ضغط الرأى العام ، كما عبرت عنه صحف ومجلات إسرائيل ، عينت الحكومة لجنة تحقيق فى ٣١ مايو ١٩٨٧ برئاسة « موشى لاندو » القاضى السابق فى المحكمة العليا .. وكان المحققان الآخران « اسحاق حوفى » الرئيس السابق للموساد و « ياكوف مالتز » مراقب حسابات الدولة ..

وعلى مدى نصف عام ، أخذت اللجنة تستمع إلى شهادات من رؤساء وزارات ، ورؤساء « شين بيت » ، والعاملين فيها ومستشاريها القانونيين ، وممثلى الجمعية الإسرائيلية للحقوق المدنية ، وأيضا مدعين أجانب من منظمة العفو الدولية ..

وفى هذه الأثناء ، ظهرت قضية أخرى ، أكثر إثارة للقلق ، فى دائرة الضوء ..

ففى ١٩ يوليو ١٩٨٧ ، ألقى رجال « شين بيت » القبض على « عوض حمدان » ، البالغ من العمر ٢٣ عاما ، والمقيم فى قرية صغيرة بالقرب من بلدة طولكرم فى الضفة الغربية .. للاشتباه فى أنه عضو فى منظمة فدائية فلسطينية ..

وبعد يومين توفى « حمدان » فى زنزانته وادعى من حققوا معه أنه مات من جراء إصابته بنوبة قلبية ، لكن أسرته أعلنت أن هناك علامات على جثمانه تشير إلى تعرضه للعنف البدنى ..

وثارت الشبهات حول قضية « حمدان » وأحاطت أيضا بمعهد الطب الشرعى

التابع للحكومة حيث يقوم الخبراء بتحديد سبب الوفاة لكل من يقضى نحبه فى ظروف غامضة أو تثير الشكوك فى إسرائيل ..

كان المعهد يتمتع بسمعة طيبة حتى صدور قرار لجنة « لاندو » فى أواخر نوفمبر عام ١٩٨٧ .. ثم اتضح أن عددا من أطبائه قد شوهوا الحقائق لأسباب تتعلق بالأمن .. فهؤلاء الأطباء هم الذين حددوا سبب وفاة الفدائيين ، اللذين اختطفا الاوتوبيس ، بما يتفق مع رؤية « شين بيت » قدر الإمكان .. كما وافقوا على أن وفاة « حمدان » نجمت عن إصابته بنوبة قلبية ..

كان تقرير « لاندو » مدمرا : فهو تسجيل مطبوع ودليل مادى على مدى عمق تغلغل الفساد إلى داخل « شين بيت » ..

فقد ذكر التقرير أنه منذ عام ١٩٧١ ، وافق « يوسف هارميلين » ، رئيس « شين بيت » آنذاك ، على أن يدلى العاملين فى الوكالة بشهادات كاذبة أمام المحاكم الإسرائيلية ..

وأشارالتقرير إلى أن « هارميلين » لم يأمر رجاله بالكذب ، ولكنه تقبل ذلك على أنه امر طبيعى وحقيقة من حقائق الحياة ..

وكشف « لاندو » ، و « حوفى » ، و « مالتز » بالاجماع النقاب عن أن رجال « شين بيت » كانوا يكذبون أمام المحاكم الإسرائيلية عادة وبوصف ذلك أمرا طبيعيا ، على الرغم من أن القانون الإسرائيلى يعاقب من يدلى بشهادة زور بالسجن لمدة سبع سنوات .. فقد وضع رجال « شين بيت » انفسهم فوق القانون ..

وقد نبع القرار بالكذب من الزيادة السريعة والمفاجئة والكبيرة فى الأعمال الفدائية التى أعقبت استيلاء إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة .

ومع ازدياد الأعمال الفدائية ، شعر محققو « شين بيت » أنه لابد لهم من استخدام الضغوط النفسية وبعض ألوان التعذيب لاكراه المذنبين على الاعتراف ..

بدأت « شين بيت » فى القيام بمهمة الحصول على معلومات وقائية لاعطاء

تحذير مبكر بقدر الإمكان ضد أى هجوم فلسطينى إلا أن أساليب « شين بيت » تجاوزت القانون الإسرائيلى ..

ولم تكن مئات المحاكمات التى أجريت للفدائيين تزيد عن محاكمات عسكرية صورية ، يتلو خلالها المدعون العسكريون ببساطة وبصوت عال الاعترافات التى حصلت عليها « شين بيت » ..

وعندما كان المتهمون يدعون أنهم تعرضوا للتعذيب والاكراه للادلاء باعترافات زائفة كان القضاة العسكريون يقبلون انكار « شين بيت » لحدوث ذلك ..

واستمر نموذج الكذب ونمط التزوير على مدى ستة عشر عاما ، طوال رئاسة كل من « أفراهام أحيتوف » ، و « إفراهام شالوم » لوكالة « شين بيت » ..

وذكر تقرير « لاندو » أن « شالوم » أرسى تقليدا فى « شين بيت » يستند إلى الشهادة الزور ، وتوارثت أجيال الوكالة هذا التقليد ونقل التقرير عن « شالوم » قوله : « عندما كنت أفكر فى الحرب ضد الفدائيين لم أكن أضع فى اعتبارى نطاق القضاء الاسرائيلى » . ولم يفهم « شالوم » أن تقليده هذا خاطىء ، وقد اعتبرته لجنة « لاندو » أحد المسئولين عن وجود هذا الأسلوب المتخلف .

وأعرب التقرير عن استنكاره إزاء قيادة « شين بيت » بأسرها ، والتى أخفقت فى فهم أنه لايحق لأحد أن يتجاوز القانون وينتهكه مهما كانت الاعتبارات الأمنية التى تبرر ذلك » ..

وأضاف التقرير أن قيادة « شين بيت » لم تفهم أنه قد عهد إليها بمهمة هامة والتى قد تبرر استخدام بعض الوسائل ، ولكنها تحت أى ظرف من الظروف لاتبرر الادلاء بشهادة زور ..

وأشار تقرير « لاندو » بطريقة لالبس فيها إلى أنه داخل « شين بيت » كان الادلاء بالحقيقة أمرا ملزما للعاملين فيها وكان من يكذب يعاقب بصرامة تصل إلى حد الطرد من الخدمة .. ولكن من ناحية أخرى ، كان رجال « شين بيت » يدلون بشهادات زور أمام المحاكم ..

وأوضح التقرير أن هذا الموقف المزدوج استمر لمدة ١٦ عاما دون أن يشعر أحد بالانزعاج .

وأعلن التقرير بوضوح أن محققى الوكالة كان لهم الحق فى استخدام درجة معينة من الضغط على العرب الذين يتم استجوابهم دون أن يتم تحديد ماهى الحدود القصوى لهذا الضغط ..

وحذر التقرير من أنه لاينبغى السماح لأى من رجال « شين بيت » بأن يضع اللوائح لنفسه . وبصفة خاصة فيما يتعلق بممارسة الضغط على الشخص الذى يتم استجوابه ..

واستطرد التقرير قائلا : « فى مثل هذه الظروف ، من الممكن أن تتحطم صورة إسرائيل بوصفها دولة ملتزمة بالقانون وتحترم الحقوق المدنية ، ويمكن أن يصل الأمر إلى تشبيهها بتلك الأنظمة التى تمنح أجهزتها الأمنية سلطات غير محدودة ..

ولدرء هذا الخطر ، لايجوز استخدام ضغط متزايد ضد أى شخص يجرى التحقيق معه .. وهذا الضغط لاينبغى بأى حال من الأحوال أن يصل إلى درجة الإيذاء البدنى ، أو التعدى على شرف الانسان بما يجرح كرامته الانسانية » .

ولوضع خطوط استرشادية ، كتب « لاندو » : « إن درجة استخدام هذه الأساليب ينبغى موازنتها فى مواجهة درجة الخطر المتوقع ، ولابد من تحديد وبيان مفهوم اساليب الضغط البدنى والنفسى مسبقا .. وكل انتهاك لماهو مسموح به ينبغى أن يواجه برد فعل قوى وحاسم من جانب القادة » ..

وهكذا اختارت اللجنة موقفا وسطا بين وجهة النظر التى ترى أن السلطة العليا للقانون بغض النظر عن تهديدات العمل الفدائى ، وبين الرأى القائل بأن مقاتله العمل الفدائى تتطلب تجاوز حكم القانون الصارم ..

وعلى الرغم من قلق « لاندو » وزملائه فى اللجنة من اتجاه « شين بيت » نحو الوحشية إلا أنهم لم يحاولوا اقتلاع التقاليد غير القانونية التى اعتادت عليها الوكالة بين عشية وضحاها ..

وقبل أن يجف مداد التقرير ، اتضح أن ثلاثة من محققى « شين بيت » ، قد ضللوا لجنة « لاندو » .. وعندما علم رئيس « شين بيت » الجديد بالأمر ، أوقف الثلاثة عن العمل ..

وكانت المفارقة أن الرئيس الجديد للوكالة لم يكن سوى « يوسف هارميلين » الذى نمت تحت فترة رئاسته الأولى للوكالة من عام ١٩٦٤ إلى ١٩٧٤ عادة كذب رجال « شين بيت » أمام المحاكم ..

وعلى الرغم من ذلك كان « هارميلين » شخصية تلقى الاحترام ، ولقى الترحيب فى عام ١٩٨٦ كرئيس مؤقت للوكالة خلال الأزمة التى تمر بها ..

وكانت مهمته هى إعادة النظام والثقة والأمل فى الوكالة بعد أن مزقتها الفضائح والتحقيقات المتعددة ..

كان هناك تخوف كبير من شل كفاءة وفعالية « شين بيت » خاصة وأن الروح المعنوية داخلها كانت منخفضة إلى حد مخيف ..

فبعد تقارير « كارب » و « لاندو » ، شعر عديد من العاملين فى « شين بيت » بأن الساسة قد تخلوا عنهم كالعادة وأخذت علامات عدم الرضى فى التنامى داخل « شين بيت » ، واستطاع رجال الوكالة بالكاد إخفاء قرفهم من المحققين والصحفيين الذين بدوا أنهم يتوقعون شكلا نقيا ونظيفا ضد العمل الفدائى ..

وأنحى رجال « شين بيت » باللائمة على الساسة لفشلهم فى اتخاذ قرارات بعيدة الأمد حول وضع الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين وحول تطبيق القانون بهما .

فقد شعر الكثير من رجال الوكالة أنهم كباش فداء للاحتلال ..

وبعد ٣٥ عاما من تمرد الجواسيس الذين عارضوا تشكيل الموساد ، بدا تمردا صغيرا آخر على وشك أن يقع داخل مؤسسة المخابرات الإسرائيلية ..

ونجح « هارميلين » ، بطريقته الهادئة ، فى أن يجعل صفوف « شين بيت » تستقر وأن يهدىء من روع رجالها .. ولكنه لم يتمكن من ترميم الأضرار التى

لحقت بسمعة « شين بيت » وبسمعة مؤسسة المخابرات الإسرائيلية باسرها وللمرة الأولى فى تاريخ إسرائيل ، لم تعد الأجهزة السرية تلك البقرات المقدسة التى ليست بحاجة إلى أن يسائلها أحد عن أساليب عملها ..

لقد واجهت مؤسسة المخابرات فى إسرائيل فى الثمانينيات شكوكا وحقائق مؤلمة لم يسبق لها مثيل ، على غرار التساؤلات التى هزت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى السبعينيات ..

وبعد أن فقد زعماء الجواسيس الإسرائيليون جانبا كبيرا من ثقة الرأى العام فى الداخل ، واجهوا أزمة مع أفضل أصدقائهم فى الخارج ..

جاسوس فى أمريكا

● عندما اندفع « جوناثان جاى بولارد » إلى داخل مبنى السفارة الإسرائيلية فى واشنطن فى الحادى والعشرين من نوفمبر عام ١٩٨٥ ، كان ذلك هو الفصل الأخير من عملية سرية هددت علاقة الثقة الممتدة بين الدولة اليهودية وبين الولايات المتحدة أقوى حلفاء إسرائيل وأحد المصادر الرئيسية لقوتها ..

كان « جاى بولارد » يتصبب عرقا أمام عجلة القيادة فى سيارته من طراز « فورد » ، وإلى يمينه جلست زوجته « أن هندرسون ــ بولارد » كانا يحملان شهادات ميلادهما ووثيقة زواجهما وصورا عائلية ، وقطتهما ، وشهادات تطعيمها تمهيدا للهرب من أمريكا ..

وقفا بالسيارة خارج بوابة السفارة والمحرك دائر .. ولكن أبواب الصلب السميكة انفتحت لتسمح لسيارة أخرى بالدخول .. وضغط « بولارد » على صمام البنزين ، وانحرف حول المركبة الأخرى ليدخل سيارته فى ساحة الانتظار أمام مبنى السفارة ..

أوشك حارس الأمن الإسرائيلى أن يجذب مسدسه ، إلا أن السائق البالغ من العمر ٣١ عاما تفوه بشىء يشير إلى أنه يهودى .

قال السائق للإسرائيليين المتحيرين : « إن مكتب التحقيقات الفيدرالية يطاردنى .. احتاج للمساعدة » .

وخلال لحظات ، كان رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية الذين تتبعوا « بولارد » يخبرون فريق الأمن الإسرائيلى عبر اللاسلكى عند البوابة أن الرجل الذى دخل مجمع السفارة توا فى سيارة « فورد » مطلوب لاستجوابه ..

كان بإمكان الإسرائيليين ، المسلحين بالحصانة الدبلوماسية ، أن يفعلوا أى شيء تقريبا .. ولكن إيواء هارب كان من شأنه أن يؤدى بالتأكيد إلى حادث دبلوماسي يلحق الضرر .. وأجرت البوابة الأمامية مكالمة تليفونية داخلية سريعة بالطابق العلوى من المبنى ذى الستة طوابق حيث يوجد ممثلو وكالات المخابرات الإسرائيلية فى واشنطن ..

كان ضابط الأمن المسئول فى السفارة قد سمع من « بولارد » فى اليوم السابق اسم « رافى إيتان » وآخرين وطلب المساعدة ..

ومن خلال مكالمة تليفونية ثانية ، طلب ضابط الأمن من الأمريكى القدوم إلى السفارة إذا استطاع أن يتخلص من مكتب التحقيقات الفيدرالية ..

ولكن هاهم رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية خلف آل بولارد ، اللذين كانا مازالا ينتظران أمام البوابة الخارجية لساحة الانتظار يحيط بهما البوليس السرى الإسرائيلى ..

وأبلغ الإسرائيليون الأمريكيين [بولارد وزوجته] بالاعتذار عن منحهما اللجوء السياسى .

وقام رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية بالقبض على « بولارد » ، وأوصلوا زوجته إلى منزلها رقم ١٧٣٣ بالشارع العشرين وبدأ « جوناثان جاى بولارد » طريقه إلى حياة يمضيها داخل السجن ..

كان « بولارد » مدنيا ، عمل لحساب البحرية الأمريكية على مدى ست سنوات .. وأمضى معظم هذه الفترة فى وحدات متعددة للمخابرات ومكافحة الارهاب ..

كان « بولارد » يقوم بعمل مكتبى ، إلا أن مكتبه احتوى على كمبيوتر يضم

كافة الأسرار تقريبا التى تختزنها شبكة المخابرات الأمريكية الهائلة .. وفى حين اعتبر نفسه مواطنا أمريكيا مخلصا ، إلا أنه كان أيضا مؤيدا متحمسا لإسرائيل ..

ولد « بولارد » فى السابع من أغسطس عام ١٩٥٤ لأسرة يهودية فى جالفستون بولاية تكساس ..، وأمضى معظم شبابه فى « سوث بند » بولاية إنديانا ولم تكن أقوى مراكز الثقافة اليهودية أو النشاط الموالى لإسرائيل فى أمريكا لكن « بولارد » كان مؤثرا للوحدة ، ونمى حماسه الصهيونى بطريقته الخاصة ..

درس « بولارد » فى جامعة « ستانفورد » ، وهى واحدة من أفضل الجامعات بالولايات المتحدة ، حيث اكتشف أساتذة العلاقات الدولية تمتعه بخيال خصب .. فقد ادعى أنه « كولونيل » فى الجيش الإسرائيلى ، رغم أنه أحيانا أخرى كان يقول بأنه « كابتن « ، وأبلغ معارفه أن الموساد تتقرب له ليكون جاسوسا داخل الحكومة الأمريكية ..

ولقد اعتبره زملاؤه فى سكن الطلبة مهزوزا ومضطربا ، وذات مرة بلغ به التوتر والقلق ، تجاه مجموعة من الإسرائيليين توهم أنهم يحاولون قتله ، حدا جعله يرى أصدقاءه مسدسا ، ثم حبس نفسه داخل غرفته ..

كما أخبر أصدقاءه ذات مرة بأنه قتل عربيا بينما كان يقوم بواجب الحراسة فى كيبوتز فى إسرائيل .

كانت كل روايات « بولارد » تتضمن إسرائيل ، كما أعطى الانطباع للبعض بأن الموساد تدفع له مصاريف تعليمه وعلى الرغم من الحكايات لم تبد كلها معقولة إلا أنه كان يرويها باقتناع يجعل من الصعب الاعتقاد بأن كلها ملفقة .. ولكنها بالفعل كانت كذلك ..

وبعد حصوله على درجة البكالوريوس من ستانفورد عام ١٩٧٦ ، انتقل للالتحاق بمدرسة « فلتشر » للقانون والدبلوماسية بجامعة « تافتس » بالقرب من بوسطن ..

لكنه لم ينل درجة علمية ، واستأجرته البحرية الأمريكية كمحلل مدنى للمخابرات فى خريف ١٩٧٩ ..

وكانت الوظائف التى تولاها فى منطقة واشنطن فى وكالات مثل : مراقبة العمليات البحرية ومركز المخابرات ، مركز مساندة المخابرات البحرية ، وإدارة التحقيقات البحرية ..

كان « بولارد » واحدا من بين القلة المختارة للعمل فى مركز التأهب لمكافحة الارهاب فى مقر قيادة إدارة التحقيقات البحرية فى سوتيلاند بولاية ميرى لاند وذلك فى وقت كانت فيه كافة القوات المسلحة الأمريكية توسع إلى حد كبير من نطاق جهودها الرامية للتحرى عن العلامات المبكرة للتهديدات الإرهابية ..

حدث ذلك فى يونيو ١٩٨٤ كرد فعل للعملية الانتحارية للشاحنة الملغومة التى أسفرت عن مصرع ٢٤١ من الجنود الأمريكيين فى اكتوبر الذى سبقه ..

وكان « بولارد » يتمتع بحق الاطلاع على كل شيء تقريبا .. فلم يكن لديه فقط كمبيوتر يمكن أن يصله ببنوك المعلومات فى مختلف أنحاء نظام المخابرات الفيدرالية ، وتصريح يمكنه من الاطلاع على أوراق غاية فى السرية ، بل كل لديه أثمن بطاقة لدخول المكتبات فى واشنطن .. وهى بطاقة تسمح له بزيارة الارشيفات غايةِ السرية وحمل وثائق إلى مكتبه لتحليلها ..

واستمر كابوس عدم تمكن مستخدميه الأمريكيين من كشف معالم شخصيته المخادعة فى المدرسة ، وتفاخره المغالى وأكاذيبه الصريحة ، يطارد ضباط الأمن فى واشنطن على مدى سنوات ..

تقدم « بولارد » بطلب للعمل فى وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٧٧ ، لكنه رفض .. وعندما قامت إدارة تحقيقات الدفاع التابعة للبنتاجون بإجراء تحرياتها حول « بولارد » كمتقدم للالتحاق بوظيفة فى المخابرات البحرية بعد عامين ، أجرت مقابلات مع أبيه وعدد قليل من زملائه الطلاب فى « فلتشر » .. لكن وكالة المخابرات المركزية لم تقدم إلى إدارة تحقيقات الدفاع تقييمها لبولارد بوصفه « كاذبا خياليا وجاسوسا ، ومتطرفا صهيونيا ، ومدمن مخدرات .. »

وفى ١٩٨١ ، قامت البحرية بحرمانه من تصريحه الأمنى بسبب مشكلات عاطفية غير محددة تم توصيفها على أنها « سلوك غريب » .

فقد كان « بولارد » يدعى أنه صديق حميم لأحد كبار رجال المخابرات فى جنوب أفريقيا وعندما قام الأخير بزيارة الولايات المتحدة ، اكتشف رؤساء « بولارد » بسرعة أن إدعاءاته زائفة ..

واقترحوا أن يذهب لطبيب نفسى ؛ لكن « بولارد » دخل فى معركة مع البيروقراطية لمدة ستة شهور ، وقدم تظلما رسميا ونجح فى إلغاء القرار الصادر ضده ، لأن الجيش الأمريكى لم يتمكن من إثبات أى شىء ضد مستخدمها المدنى الغريب الأطوار ..

وبدأ « جاى بولارد » ، محلل المخابرات الأمريكى الذى حلم بالتجسس لحساب إسرائيل ، يعيش أحلامه ..

وقد خطا الخطوة الفعلية الأولى فى عالم الخيانة فى مايو ١٩٨٤ ، عندما التقى بالرجل الذى جعل منه جاسوسا .. فعن طريق رجل أعمال من نيويورك يعرفه « بولارد » تم التعارف بينه وبين كولونيل فى سلاح الطيران الإسرائيلى يدعى « آفيم سيللا » ..

كانت مؤامرة من أول نظرة .. حيث أبلغ « بولارد » الكولونيل أن لديه دليلا إيجابيا على أن الولايات المتحدة لاتقاسم إسرائيل كل معلومات المخابرات التى ينبغى أن تتقاسمها معها .. وقال بولارد أن ذلك يثير غضبه ..

وأنصت « سيللا » ، الذى يعد واحدا من أمهر طيارى إسرائيل والذى شارك فى الغارة الجوية على المفاعل النووى العراقى فى عام ١٩٨١ ، فى اهتمام ..

وأبلغ « سيللا » مقر قيادة سلاح الطيران فى تل أبيب من خلال التسلسل القيادى ..

ومن هناك تم إمرار تقريره عن رجل المخابرات الأمريكى المحبط والمهتم بمساعدة إسرائيل إلى « رافى إيتان » ، رجل المخابرات الاسرائيلية المحبط والذى كان وقتها ملحقا بوزارة الدفاع كرئيس لوكالة التجسس التكنولوجية [لاكام] ..

وكانت إسرائيل تحصل بالفعل على التكنولوجيا الثمينة من مصدر واحد على الأقل فى الولايات المتحدة ..

وكان من بين الوسطاء مقاول إسرائيلي فى هوليوود ، قام بتقديم مسئولو الدفاع الإسرائيليين إلى شركة اسمها « ميلكو أوف كاليفورنيا » ، والتى يملكها « ريتشارد سميث » .. وهو أمريكى يهودى اتهم من جانب هيئة محلفين كبرى اتحادية فى مايو ١٩٨٥ بتهريب ٨١٠ كرايترون إلى إسرائيلي ..

والكرايترونات هى أجهزة الكترونية يمكن استخدامها كأجهزة تفجير فى القنابل النووية ..

كان تصدير مثل هذه الأجهزة يتطلب الحصول على تصريح خاص ، ولو تقدم سميث للحصول على مثل ذلك التصريح لقوبل بالرفض من جانب الحكومة الأمريكية استنادا إلى أن أسرائيل لم توقع المعاهدة الدولية لعدم الانتشار النووى ..

واكتشف محققو مكتب التحقيقات الفيدرالية أن ٨٠ فى المائة من تعاملات « ميلكو » ، منذ عام ١٩٧٣ ، كان مع إسرائيل ..

وأطلق سراح « سميث » بكفالة قدرها مائة ألف دولار ..

وبعد ثلاثة شهور لم يظهر فى المحاكمة ، فقد اختفى ، لكن تردد أنه شوهد فى بريطانيا وإسرائيل .

اعتذرت إسرائيل للولايات المتحدة بعد أن احتلت القضية العناوين الرئيسية فى الصحف وأعلنت أن الكرايترونات كانت لأغراض طبية ، وليست للاستخدام فى برنامجها النووى ..

وطالب الأمريكيون بإعادة كل الكرايترونات التى لم تستخدم بعد ..

وتردد أن عددا من الحوادث الأخرى وقعت فى إسرائيل عام ١٩٨٥ ، والتى زعم أن عدد من المؤسسات الحكومية الاسرائيلية ، مثل « الصناعات العسكرية الإسرائيلية » ، قد تورطت فى اطارها فى صفقات مريبة مع شركات أمريكية ..

وحوكم بعض الأمريكيين ، ولم يخف مسئولون حكوميون ، بصفة خاصة فى ادارة الجمارك الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالية ، سخطهم بشأن سلوك إسرائيل ..

ومع ذلك ، كانت أوضح رسالة من واشنطن ، خاصة بعد تولى « رونالد ريجان » الرئاسة عام ١٩٨١ ، هى أن إسرائيل لن تعانى طويلا من أى شيء فعلته ..

وهكذا وصل العصر الذهبى للتحالف الأمريكى ـــ الاسرائيلى النشط أخيرا إلى مرحلة الإثمار الكامل ..

لم يكن هناك أى تعهد رسمى ، كما هو الحال من منظمة حلف شمال الأطلنطى ، بأن أى عدوان على أى من الدولتين يعتبر عدوانا على الدولة الأخرى .. لكن كانت لدى إسرائيل أسبابها التى تجعلها تشعر بالقرب والحماية من الولايات المتحدة أكثر مما يشعر حلفاء الولايات المتحدة الغربيين والرسميين مثل بريطانيا ..

وذهب « ريجان » إلى أبعد مما ذهب إليه أى رئيس أمريكى ليجعل الاسرائيليين يشعرون بالأمن .. فلم يكن هناك أى احتجاج حكومى أمريكى حقيقى على غزو لبنان فى عام ١٩٨٢ ..

وعلى الرغم من معارضة الخارجية الأمريكية لإنشاء مستوطنات يهودية فى الأراضى المحتلة ، إلا أنها لم تفعل شيئا فى هذا الصدد ..

والأهم من ذلك ، أن البيت الأبيض ساند بحماس المذكرة الرسمية حول التعاون الاستراتيجى مع إسرائيل ..

وظل الجانب الأكبر من المذكرة سرا ، لكن الآثار الواضحة تضمنت أزدياد عدد الزيارات التى يقوم بها الأسطول السادس الأمريكى لميناء حيفا ، وتخزين المعدات العسكرية والامدادات الطبية فى إسرائيل من جانب القوات المسلحة الأمريكية ، وأصبحت التدريبات المشتركة أمرا شائعا أكثر من أى وقت مضى ..

وتضمنت الآثار غير المرئية تصعيد التعاون بين مؤسسات المخابرات بما فى ذلك مكافحة الارهاب ، والذى اعتمدت فيه الولايات المتحدة اعتمادا كليا تقريبا على الاسرائيليين فيما يتعلق بالمعلومات بشأن الجماعات الفدائية العربية ..

كان قدامى العاملين فى وكالة المخابرات المركزية الذين خدموا طويلا فى الشرق

الأوسطذ يستنتجون أن الاسرائيليين يمكنهم فعل أى شيء دون أن يسائلهم أحد ، وأنهم بالطبع يعلمون ذلك ..

وذات مرة أبلغ جاسوس أمريكي مصدر معلومات فى الموساد ، فيما يشبه المزاح ، أن من حسن حظ إسرائيل أنها لم تصبح أبدا الولايات الأمريكية الحادية والخمسين ..

فتساءل رجل المخابرات الاسرائيلى متعجبا :
ـ ولم نحن محظوظون ؟

فقال عميل وكالة المخابرات المركزية :
ـ لأنه فى هذه الحال ، لن يكون لإسرائيل سوى عضوين فى مجلس الشيوخ الأمريكي ولكن اليوم فإن لكم ستين عضوا بالمجلس على أقل تقدير ..

وكانت إدارة ريجان ، بموافقة حماسية من الكونجرس المؤيد لإسرائيل ، تعطى للدولة اليهودية حوالى ثلاثة بلايين من الدولارات سنويا فى صورة مساعدات ، ويوجه ثلثا هذا المبلغ للدعم العسكرى ..

وبدا بئر الكرم وكأنه بلا قرار ، ولم ينته معين التسامح فيما يتعلق بالاعتداءات الاسرائيلية عبر حدودها ..

ومع ذلك ، فإن مؤسستى المخابرات فى الدولتين ، كانتا تعرفان مايكفى لتبادل الشكوك فيما بينهما ..

فكان مكتب التحقيقات الفيدرالية ، بصفة خاصة ، تبدى الحذر تجاه النشاطات الإسرائيلية واسعة النطاق فى الولايات المتحدة ، اقتناعا من المكتب بأن معظم هذه النشاطات تصل إلى حد التجسس بالنظر إلى رغبة اسرائيل العدوانية فيما يتعلق بامتلاك التكنولوجيا .

وشكلت عمليات المقاضاة القليلة ، وتسريب المعلومات للصحف من جانب مسئولين أمريكيين غاضبين ، تحذيرا لأيتان وبقية المؤسسة العسكرية ـــ الصناعية فى إسرائيل بأن العمل السرى يحمل بين طياته دائما خطر الانكشاف ..

ولم يكن هذا التحذير كشفا جديدا بالنسبة لأيتان ، ذلك المحترف المتمرس الذى أدار الخطط المعقدة والعملاء على مدى عقود فى الموساد و « شين بيت » .

وعندما قرأ « أيتان » تقرير الكولونيل « سيللا » ، الوارد من نيويورك ، انتابه الشك والفضول تجاه ظهور « بولارد » كمتطوع على الساحة .. إذ يمكن أن تكون تلك عملية خداع مدبرة من جانب السلطات الأمريكية أو شرك من نوع آخر ، وكان « أيتان » كأستاذ فى الجاسوسية يعرف أنه ينبغى أن يكون حذرا تجاه كل من يبدى حماسا شديدا ..

وعلى أية حال ، فقد أدرك « أيتان » أن الأمريكى الشاب قد يكون ذا قيمة كبيرة فعلى الرغم من اتفاقات التبادل الرسمية ، افترضت مؤسسة المخابرات الاسرائيلية على الدوام أن الولايات المتحدة لاتتقاسم معها كل شيء ..

ويمكن لبولارد أن يسد الفجوات ، فبوجود جاسوس فى الداخل يستطيع الإسرائيليون معرفة كل المعلومات التى تنقصهم ..

كما أن « بولارد » كان يمثل فرصة « أيتان » للتفوق على الموساد ، كجزء من جهوده الرامية لتوسيع نطاق « لاكام » ولتمتد إلى أرض جديدة ، ولايضاح أنه الوحيد الذى يمكن أن يحصل من واشنطن على أكثر مما تحصل عليه وتقدمه وكالة المخابرات المركزية والبنتاجون ..

ورفض « أدمونى » رئيس الموساد أن تدير وكالته رسميا جاسوسا فى قلب مؤسسة المخابرات الأمريكية ، وذلك على ضوء اتفاق التعاون عام ١٩٥١ مع وكالة المخابرات المركزية ، والتعديلات المتوالية لهذا الاتفاق ..

كانت هناك اتصالات يومية ومن بينها شبكات اتصال بالكمبيوتر ، بالإضافة إلى اجتماعات رسمية مرتين فى العام لبحث الخطط الجديدة للتعاون ، ولمراجعة الفرص العالمية المتاحة لتحقيق مصالح مشتركة ..

وبذلك يكون من المحرج بل من المدمر للعلاقة أن تزرع الموساد عميلا وسط أصدقائها ويكون الأمر أكثر سوءا إذا تم الامساك بهذا العميل .

وفى حين كان التجسس سرا وبطريقة مباشرة وغير أمينه لأى من مؤسستى المخابرات سى الأخرى يعتبر غير مسموح به رسميا ، إلا أن مخططى التجسس المحنكين على الجانبين الأمريكى والإسرائيلى كانوا يعلمون أنه من الممكن تحقيق ذلك إذا ماتم اللجوء إلى مهارة الجاسوسية المحترفة مع التزام أقصى درجة من الحذر ..

وكانت الأولوية الأولى ، كما يراها الأمريكيون والاسرائيليون الذين نفذوا مثل هذه العمليات ، هى إخفاء حقيقة من يدير العملية فى واقع الأمر .

فمن الناحية النظرية ، إذا وجدت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عميلا يمكن لها تجنيده داخل المخابرات الإسرائيلية ، فإن التكتيك المثالى المتبع يتطلب ألا يعرف العميل أنه مأجور من قبل الولايات المتحدة ..

بمعنى آخر ينبغى تضليله وجعله يعتقد أن دولة أخرى مثل سويسرا أو ألمانيا الغربية هى التى تعرض عليه المال فى مقابل المعلومات ..

وإذا ماعرف العميل لحساب من يعمل ، وصمم بحق على أنه يرغب فقط فى خدمة الولايات المتحدة ، فيتعين على الأقل عدم توجيهه من جانب مركز وكالة المخابرات المركزية المحلى فى تل أبيب ..

وينبغى عدم ترك أية آثار تشير إلى تورط أمريكى ، ويفضل أن تتم الاجتماعات فى دولة ثالثة .. وينبغى إدارة العملية من مركز آخر لوكالة المخابرات المركزية ..

ومن الافضل استخدام وكالات بديلة لأن وكالة المخابرات المركزية يجب ألا تتورط رسميا فى إدارة جواسيس داخل إسرائيل ، وينبغى تحويل مثل هذه المسئولية إلى جزء آخر من مؤسسة المخابرات الأمريكية ..

وبالمثل ، فإذا ماأتيحت للموساد فرصة للتجسس داخل الولايات المتحدة فيمكن للموساد ان تختار ترك هذه المهمة لوكالة أخرى مثل « لاكام » ..

وفى الواقع ، ليس هناك مايشير إلى أن المخابرات الأمريكية اخترقت الأجهزة السرية الإسرائيلية .. إلا أن الولايات المتحدة قد قامت بإرسال جواسيس إلى

داخل إسرائيل فى مهام محددة للحصول على معلومات حول المشروعات العسكرية والاقتصادية والعلمية بمافيها البرنامج النووى .

وقد صرح « اسحاق رابين » وزير الدفاع فور القبض على بولارد ، أن اسرائيل اكتشفت خمسة جواسيس أمريكية فى أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات فى منشات نووية وصناعية حساسة .. وكان أحدهم يجمع معلومات داخل شركة « رافاييل » لتطوير الأسلحة المملوكة للدولة فى حيفا .. وجاسوس آخر كان عالم أمريكى يعمل فى اطار برنامج للتبادل العلمى فى « ناحال سوريك » فى مفاعل الأبحاث النووية الذى منحته إدارة أيزنهاور لإسرائيل ...

وتم استجواب الجواسيس الأمريكيين إلا أن النظام القانونى الإسرائيلى الأقل صرامة جعل من الممكن للحكومة أن تطلق سراحهم وتقوم بترحيلهم لتجنب الحرج والصراع مع الولايات المتحدة ..

وفى هذه العمليات ، التى تعد بالغة الحساسية والتى لم تؤكدها واشنطن مطلقا رسميا ، تم تطبيق الوصفة السابقة بدقة جاء العملاء الأمريكيون من قواعد فى دولة ثالثة .. ولم يتم إخبار رئيس مركز وكالة المخابرات المركزية فى تل أبيب على الاطلاق ، لكى يمكن أن يتجنب تماما تعريض وظيفته كضابط اتصال مع الموساد ..

وفى حالة استخدام عميل إسرائيلى فإنه كان يفضل إخباره بأن الدولارات الأمريكية التى تدفع له ليست أمريكية بكل معنى الكلمة ..

وعندما تكشفت قضية « بولارد » صرح « ديفيد دورينبيرجر » عضو لجنة المخابرات التابعة لمجلس الشيوخ ، بأن المخابرات الأمريكية استخدمت على الأقل جندى إسرائيلى كعميل مدفوع الأجر خلال غزو لبنان عام ١٩٨٢ ..

وكانت هيئة العاملين بالمقر الرئيسى لوكالة المخابرات المركزية فى لانجلى مهمته دائما بالبحث عن عملاء محتملين وسط مئات الألوف من الأمريكيين الذين انتقلوا إلى إسرائيل ..

ومع ذلك فنظراً لأن معظمهم من اليهود الذين هاجروا باسم الدين أو

الصهيونية فقد شعرت وكالة المخابرات المركزية أن ولاءهم النهائى من المرجح أن يكون لإسرائيل وليس للولايات المتحدة وطنهم الأم ..

وفى الوقت الذى كانت فيه المخابرات الاسرائيلية تؤمن دائما بأن وكالات التجسس السوفيتية تزرع الجواسيس بين المهاجرين اليهود إلى إسرائيل ، إلا أنها لم تتشكك بجدية مطلقا فى أن وكالة المخابرات المركزية تفعل ذلك ..

وحتى مسئولو « شين بيت » الذين يعتبرون أن كل شيء ممكن تصوره ، لكنهم لم يعتقدوا بوجود جواسيس امريكيين على المدى البعيد ضمن موجات الإسرائيليين الجدد ..

من ناحية أخرى ، كانت المخابرات الأمريكية على ثقة من وجود جواسيس ضمن الإسرائيليين الذين ينتقلون إلى الولايات المتحدة أو يقومون بزيارتها للعمل أو الدراسة .. فكيف يمكن لدولة تعتبر نفسها فى حالة حرب ألا ترسل بعملائها إلى حيث يمكن الحصول على معلومات مفيدة .. حتى ولو كان ذلك فى دولة صديقة ..

وكانت النشاطات السرية الاسرائيلية فى الولايات المتحدة واسعة النطاق بالفعل ، ولكنها لم تكن جيدة التنظيم أو على درجة من الخطورة التى ربما توقعها مسئولو مكتب التحقيقات الفيدرالية ..

وفى بعض الأحيان ، كان يطلب من الإسرائيليين المسافرين إلى الخارج أن يفتحوا أعينهم وخصوصا إذا كانوا علماء مشتركين فى مشروعات تهم الدفاع الاسرائيلى .. ولكن هؤلاء لم يكن يتم استخدامهم أو الدفع لهم من جانب الموساد أو « أمان » ..

فقد كان كثير من المسافرين يشعرون أن أية معلومات يمكن أن تساعد إسرائيل ، ينبغى إرسالها لأسباب وطنية ..

ومعظم الإسرائيليين فى أمريكا لم يفعلوا بالطبع شيئا من هذا القبيل ولم يروا أبدا شيئا مهما للتجسس .. غير أن المخابرات الاسرائيلية انتقت من القلة التى كانت تقدم معلومات تحصل عليها عن طريق المعاهد والتعامل مع العاملين فى الخارج ..

وأيا كان نوع النشاط السرى داخل الولايات المتحدة ، فإن الموساد تجنبت استخدام مركزها المحلى تماما فى واشنطن مثلما فعل الأمريكيون فى إسرائيل ..

وعندما كان يرسل جاسوس إسرائيلى إلى أمريكا فى مهمة محددة ، لم يكن يتم إبلاغ رجال الموساد فى واشنطن بذلك .. كذلك ، كانت المخابرات الإسرائيلية إذا أحست أنه يتعين عليها أن تدفع لأمريكى مقابل المعلومات التى يقدمها ، فإنها كانت تبذل كل جهد ممكن للتستر تحت اسم دولة أخرى أو لجعل الأمر يبدو وكأنه تجسس صناعى غير ضار من جانب شركة أمريكية ..

كان « جوناثان بولارد » قضية غير عادية فقد كان يعمل فى المخابرات البحرية ، وله حق الاطلاع على الوثائق ، كما كان يهوديا يعرض العمل فقط من أجل إسرائيل ..

أدرك « أيتان » مخاطر استخدام يهود محليين كعملاء سريين داخل بلادهم ، وهو ماحدث فى مصر والعراق خلال الخمسينيات ..

لكن المعلومات ، التى كان يمكن بولارد أن يقدمها ، لم يكن من الممكن مقاومة إغرائها ..

وبموافقة رئيس الأركان ، وقائد سلاح الطيران ، تم السماح لأيتان باستخدام الكولونيل « سيللا » فى تلك المهمة الفريدة ..

لم يكن الجنرالان « موشى ليفى » و « آموس لابيدوت » يعرفان التفاصيل الدقيقة لما سيقوم به الطيار المتمرس « سيللا » ، والذى يدرس علم الكمبيوتر فى جامعة نيويورك ..

أمر « أيتان » « سيللا » أن يخبر « بولارد » بأن الدولة اليهودية مستعدة لأن تمنحه فرصة المحاولة ..

وقام الكولونيل بإجراء محادثات حذرة عديدة مع محلل المخابرات الأمريكية ، مستخدما أكشاك التليفون العمومى فى نيويورك وواشنطن للتقليل من فرص تصنت مكتب التحقيقات الفيدرالية على تلك المحادثات التليفونية ..

فطار « سيللا » إلى واشنطن ، فى رحلات مكوكية منطلقا من نيويورك مرات عديدة فى صيف عام ١٩٨٤ ، للقاء بولارد وحصل منه على وثائق ..

وتعاون مع « سيللا » ملحقو « لاكام » فى واشنطن ونيويورك ، لكن « سيللا » لم يكن يتمتع بحصانة دبلوماسية مثل هؤلاء الملحقين ..

فلو قبض عليه وحوكم بتهمة الحصول على أوراق سرية فإن « سيللا » وسلاح الطيران ، ودولة إسرائيل سيتعرضون لحرج بالغ ..

كان « الكولونيل » الشاب على استعداد للمخاطرة ، على الرغم من أنه تدرب على الطيران الحربى وليس على التجسس ..

كانت أولى الوثائق التى أعطيت لسيللا من إدارة المخابرات البحرية ، عبارة أساسا عن مستخرجات من الكمبيوتر ، وتم إرسالها على وجه السرعة إلى تل أبيب عن طريق الحقيبة الدبلوماسية .. وكانت الوثائق مذهلة ، وتجاوزت إلى حد بعيد توقعات « أيتان » ..

لم يكن « بولارد » قد انضم إلى مركز مكافحة الارهاب فى سوتيلاند بولاية « ميرى لاند » سوى منذ وقت قصير ومع ذلك أعطى « سيللا » بسرعة معلومات حول موضوعات تتجاوز عمله فى المركز ..

كانت هناك تفاصيل ولا تتضمن الرواية الكاملة ولكنها سدت بعض النقص فى معلومات إسرائيل ..

وذلك فيما يتعلق بتطوير سوريا لترسانة كيميائية وجهود العراق لإحياء برنامجه النووى ..

كذلك كانت هناك معلومات حول أحدث نظم الأسلحة التى حصلت عليها الدول العربية المجاورة لإسرائيل ..

وتضمنت المعلومات أيضا قوائم وتوصيف للأسلحة التى اشترتها مؤخرا مصر والأردن والمملكة العربية السعودية ، ولأن هذه الدول العربية الثلاث كانت تعد

دولا معتدلة وموالية لأمريكا ، فإن الولايات المتحدة رفضت دائما أن تتقاسم معلومات المخابرات بشأنها مع إسرائيل ..

والآن ، تحقق « أيتان » من أن بإمكان إسرائيل أن تجد نافذة تطل منها على تلك الدول الثلاث ..

بدا حماس « بولارد » كاسحا ، خاصة بعد أن تمت ترقيته داخل مركز مكافحة الارهاب فى أكتوبر ١٩٨٤ ، مما دعم من درجة التصريح الأمنى الذى يتمتع به ، وأبلغ « بولارد » الاسرائيليين أن كافة الوثائق تقريبا فى شبكة المخابرات الأمريكية ستكون فى متناول يده ..

بل كان بمقدوره استعارة صور الاستطلاع الملتقطة عن طريق أقمار التجسس الأمريكية ونظرا لأن هذه الصور لم يكن من الممكن الحصول على نسخة منها بواسطة جهاز الكمبيوتر الخاص به ، فإن « بولارد » اضطر إلى استعارة تلك الصور لمدة يوم أو يومين ..

شعر « سيللا » بالإثارة .. فقد كان يعرف قيمة « الجاسوس فى السماء » ، أى القمر الصناعى للتجسس ، فقبل ثلاثة أعوام ، وقبيل أن يقود سربه من الطائرات القاذفة ـــ المقاتلة التى أغارت على مفاعل بغداد النووى ، قام « سيللا » بدراسة صور الأقمار الصناعية الأمريكية التى تحدد موقع الهدف ..

غير أنها كانت فرصة نادرة أن يوافق « ويليام كيسى » مدير وكالة المخابرات المركزية على أن يتقاسم مثل هذه الأشياء الثمينة مع إسرائيل فى اطار اتفاقات التعاون الاستراتيجى وفى هذه الأثناء ، كان « سيللا » قد استكمل دراسته للكمبيوتر فى نيويورك وعاد إلى إسرائيل ..

وانتظر « بولارد » قدوم من يحل محل « سيللا » كضابط حالة جديد ..

وكان « أيتان » يشعر بسرور بالغ من النتائج التى تحققت حتى ذلك الوقت ، حتى أنه قرر أن يبدأ مرحلة جديدة ..

وطار « بولارد » وخطيبته آنذاك « آن هندرسون » إلى باريس على نفقة « لاكام » فى نوفمبر ١٩٨٤ ..

وهناك كانت مفاجأة فى انتظارهما .. فقد ظهر « سيللا » ثانية ، وتناول معهما الشراب فى مدينة النور ...

وتحير « بولارد » وتعجب من السبب الذى من أجله تم إحضاره هو وخطيبته إلى فرنسا للقاء « سيللا » الذى أدخل عليهما السرور ..

وتبدو الغموض عندما قدمه « سيللا » إلى « يوسى ياجور » ضابط الحالة الجديد [الضابط المسئول عنه] ..

كان « ياجور » قنصل « لاكام » العلمى فى القنصلية الإسرائيلية فى نيويورك .. ويشير ملفه الرسمى غير الواضح إلى العديد من الوظائف غير المحددة التى تولاها فى فترة مبكرة فى وزارة الدفاع ...

وفى حالة حدوث مكروه ، فإن « ياجور » يتمتع بالحصانة الدبلوماسية ..

وبحكم عمله كقنصل منذ عام ١٩٨٠ ، اعتاد « ياجور » على حضور المؤتمرات الأكاديمية وتكوين الصداقات مع العلماء الأمريكيين فى صناعات الدفاع والصناعات الأخرى واعتاد أيضا على إرسال ملفات هائلة من قصاصات الصحف والمجلات المتخصصة إلى محللى « لاكام » فى تل أبيب ..

وكمفاجأة أكبر ، التقى بولارد بـ « رافى أيتان » الأسطورة ، الذى كان يبهر الأمريكى الشاب بالعمليات التى قام بها ، وبصفة خاصة عملية اختطاف « أيخمان » ..

وتم تقديم « أيتان » إلى بولارد بوصفه مدير العملية بأسرها ، وجلس هو و « ياجور » مع بولارد لمناقشة خطواتهم التالية ، ومن بينها مستندات محددة مطلوبة للدفاع عن إسرائيل !

وفى لحظات أكثر استرخاء ، شجع « سيللا » كلا من « بولارد » و « آن » على إبداء إعجابهما بعدد من أفخر متاجر الذهب والمجوهرات فى العاصمة

الفرنسية ، وعندما أعجبت « آن » بخاتم كبير من الماس والياقوت طلب منهما شراءه ، على أن يدفع هو ثمنه بشرط أن يكون خاتم خطبتهما ..

وتكلف شراء الخاتم عشرة آلاف دولار ، وكان يمثل العلامة الملموسة للارتباط بين « بولارد » و إسرائيل وأعطاهما « سيللا » مذكرة بخط اليد تشير إلى أن الخاتم هدية من العم « جو » ، وذلك لاحتمال أن يسألهم أحد فى واشنطن عن كيفية استطاعتهما شراء خاتم بهذا الثمن ..

وتم الاتفاق على أن يتزوج « بولارد » و « آن » فى أغسطس التالى فى فينيسيا ، وعلى تمضية شهر عسل من ثلاثة أسابيع هناك وكانت الرحلة على نفقة إسرائيل وتضمنت جولة فى إسرائيل لمقابلة « أيتان » مرة أخرى ..

وتعويضا عن النفقات الضرورية وكرمز لتقديرهم أخبر الإسرائيليون بولارد أنه سيتلقى ١٥٠٠ دولار شهريا ، وبالإضافة إلى خاتم « آن » ، حصل بولارد على عشرة آلاف دولار نقدا ، وأبلغه « أيتان » أنه تم فتح حساب باسمه فى أحد بنوك سويسرا ، وأن أتعابه ستودع فى حسابه هناك مباشرة ليستخدمها فى غضون عشر سنوات .

ورد الأمريكى بأنه يأمل أن يعيش فى إسرائيل بحلول ذلك الوقت ، فأطلعه « ياجور » على جواز سفر إسرائيلى يحمل صورة بولارد تحت اسم مستعار هو « دانى كوهين » ..

كان العميل الأمريكى قد عبر عن تقديره للجاسوس الاسرائيلى الذى شنق فى دمشق « إيلى كوهين » ولإرضاء « بولارد » ، أعطاه « أيتان » و « ياجور » نفس اسم العائلة فى الجواز المزور أما مالم يقله « أيتان » لـ « بولارد » فهو أن خاتم الماس والعشرة آلاف دولار كانا جزءا من مخطط كلاسيكى لتصيد أى عميل سرى والاحتفاظ به ..

فالجاسوس الذى يقدم خدماته طوعا بناء على انتماء أيديولوجى للدولة التى يساعدها أو بسبب كراهيته للدولة التى يخونها ، يمكن أن يسيطر عليه الخوف أو

يغير رأيه بسهولة .. فكونه متطوعا يجعله يشعر أنه يستطيع أن ينسحب فى أى وقت يريد ..

أما العميل مدفوع الأجر فلا يستطيع ذلك .. فهو يشعر أنه مجبر على تسليم المعلومات المطلوبة ففى الخلفية يوجد التهديد بالابتزاز ، فمستخدموه يمكن أن يوقعوه دائما فى مشكلات عن طريق تقديم الوثائق التى تشير إلى الأموال التى تسلمها وعن طريق إرساء هذا التعاقد الضمنى يكون صاحب العمل قد ضمن ولاء العميل ..

كان دافع « بولارد » مزيج من الإيمان بالصهيونية والشعور بالإثارة ، كانت فكرة الجاسوسية تثير أحلامه من جراء الرحلات الغربية والمدفوعات السرية .. ولكنه كان كمتحمس وطنى يجد متعته الكبرى فى الشعور بأنه يساعد إسرائيل ..

وفور عودته إلى أمريكا بعد رحلة أوربا ، بدأ بولارد العمل مباشرة .. وأعد حقيبة كاملة ممتلئة بالمستندات وبالصور الأسطورية التى التقطتها الأقمار الصناعية للشرق الأوسط ونقل الحقيبة إلى منزل فى « ميرى لاند » حيث يقابل « ياجور » ..

وعلمه « ياجور » بعض الكلمات الشفرية ليستخدمها فى حالة ضرورة الاتصال للاجتماع أو لإلغاء الاجتماع ..

كما أخبره « ياجور » أنهم يتوقعون قدومه على الرحب والسعة كل أسبوعين إلى مركز للتصوير فى شقة بواشنطن ، تقطن فيها « إيريث إيرب » التى تعمل سكرتيرة لأحد رجال « لاكام » فى السفارة الإسرائيلية ..

كان « هارولد كاتز » وهو يهودى أمريكى يعمل كمحام فى إسرائيل هو الذى اشترى هذه الشقة الممتلئة بمعدات تصوير المستندات .. لم يكن « كاتز » يعلم كيف تستخدم وزارة الدفاع مقر إقامته فى واشنطن .. كان بالشقة معدات تصوير ذات سرعة عالية جدا ومتطورة جدا إلى درجة دفعت بالاسرائيليين إلى تركيب نظام دفاعى الكترونى خاص لمنع أى تداخل كهرومغناطيسى يمكن أن يلاحظ على أجهزة تليفزيون الجيران ..

كان الإسرائيليون يعرفون كيف يثيرون اهتمام « بولارد » بعملهم على نحو متواصل ، ويطرقون على وتر ذاتيته .. فكثيرا ما أخبره « ياجور » أنه ذو قيمة كبيرة للغاية ، وبأن جوانب مختلفة من المخابرات الاسرائيلية وأجهزة الدفاع تستفيد من المعلومات التى يزودهم بها .

ولأن « بولارد » كان يعمل فى مهنة تحليل مثل هذه الموضوعات ، فلم ترضه مثل هذه الملاحظات العامة والتافهة التى تتسم بالكرم ..

وأصر « بولارد » على أن يكتشف ماهى الوكالات الاسرائيلية التى تستخدم الوثائق السرية الواردة من واشنطن ، وكيف تستخدمها .

كان رؤساء الوكالات المختلفة فى تل أبيب يعرفون أن مصادر « أيتان » لابد وأنها تأتى من واشنطن ، حيث لايستطيع غير أمريكى أن يزود إسرائيل بصور الأقمار الصناعية ..

ولم يسأل أحد « أيتان » عن هوية عميله .. هل هو رجل عسكرى ؟ يهودى ؟ أو إسرائيلى ثم زرعه داخل القوات المسلحة أو الوكالات السرية الأمريكية ..

.. هكذا كان يتساءل فى دهشة رجال مثل « أدمونى » من الموساد ، و « ايهود باراك » الرئيس الجديد لوكالة « أمان » ..

كانت نوعية المعلومات جيدة لدرجة ينبغى معها عدم تجاهل طبيعة عملية التجسس ومخاطرها ..

لكن كان من الأمور الموروثة فى النظام عدم طرح مثل هذه التساؤلات فيما يتعلق بعمل أى من الوكالات الأخرى .. فالكشف عن التفاصيل يعد انتهاكا للتخصص وتقسيم العمل .. هذا فضلا عن أن المنافسات الداخلية كانت تمنعهم من الأصرار على أن يقوم نظراؤهم بالكشف عن مصادرهم ..

كان « بولارد » يأتى بملفات عديدة إلى « إيريت إيرب » فى المواعيد المحددة .. وفى البداية ، كان « بولارد » يقوم بعملية الاختيار والانتقاء ، لكن « ياجور »

فيما بعد اعتاد على اختيار وثائق معينة مقدما .. كما لو كان ينتقى أصنافا من قائمة طعام ..

ولم تكن قائمة الطعام فى هذه الحالة سوى كتالوج مرتب من قبل وكالة مخابرات الدفاع التابعة للبنتاجون .

ولكن كيف يمكن لمثل هذا الكتالوج أن يقع فى أيدى أجانب ؟

لقد اعتبر المحققون الأمريكيون ذلك دليلا ماديا على وجود جاسوس إسرائيلى آخر ، ومن المحتمل أن يكون أكثر أهمية من بولارد ..

ومن الناحية النظرية ، يمكن أن تكون إسرائيل قد حصلت على الكتالوج من مصدر آخر فى إحدى دول حلف الأطلنطى والتى يمكن أن تكون قد حصلت عليه من الولايات المتحدة ..

من ناحية أخرى ، كان للسفارة الإسرائيلية فى واشنطن عدد كبير من الأصدقاء فى البنتاجون حتى عندما كان وزير الدفاع معاديا لإسرائيل مثلما كان « كاسبار واينبرجر » وباستخدام « بطاقة الرسول [1]» ، التى تعتبر أثمن بطاقة لدخول المكتبات فى منطقة واشنطن ، استطاع بولارد أن يستعير مستندات سرية من ست أرشيفات سرية تابعة لوكالة المخابرات المركزية ، مكتب التحقيقات الفيدرالية ، وزارة الخارجية ، وكالة مخابرات الدفاع ، والمخابرات البحرية وحتى الأرشيف التابع لوكالة الأمن القومى رغم ضوابطها الصارمة ..

وفى حالة وجود أى معلومات تخص الشرق الأوسط ولو هامشيا ، كان بولارد يعتقد أن إسرائيل لابد وأن تعرف الأمر .. فقد شعر بقوة أن « واينبرجر » وزير الدفاع ، ومؤسسة المخابرات الأمريكية لايطلعون إسرائيل على كل مايعرفونه بشأن التهديدات المحتملة للدولة اليهودية ..

وهكذا ، وبفضل هذا الجاسوس غريب الأطوار والفعال تلقى الاسرائيليون تحليلات وكالة المخابرات المركزية ونسخ من الرسائل المتبادلة بين المنشآت

---

(١) بطاقة الرسول Conveyer Card .

الأمريكية فى المنطقة ، وتفاصيل شحنات الأسلحة السوفيتية إلى سوريا والدول الأخرى الحليفة وفقا لمعلومات العملاء السريين الأمريكيين ، وأقمار التجسس الصناعية ، والصور التى تلتقطها هذه الأقمار ..

فى حين كانت المعلومات والتحليلات المنقحة يتم اقتسامها بانتظام بين واشنطن وتل أبيب ، كانت صور الأقمار الصناعية تمثل مشكلة خاصة ..

كان الأمريكيون يخشون من تسرب المعلومات حول وسائل وامكانات الاستطلاع الفنية الأمريكية ، ولذلك رفضوا اعادة طلب الاسرائيليين بالاطلاع على صور معينة .. وفى بعض الأحيان كانوا يقومون بدراسة الطلب الاسرائيلى لأيام عديدة بحيث يصبح الأمر غير ذى جدوى .

كذلك أرجأت الولايات المتحدة إلى أجل غير مسمى الطلب الاسرائيلى بالحصول على محطة أرضية للقمر الصناعى خاصة بها لاستقبال الصور التى يلتقطها القمر فى مداره ..

مكنت الصور والتحليلات ، التى قدمها « بولارد » ، إسرائيل على مدى قرابة عام ، إلى أن تم إلقاء القبض عليه ، من مراقبة تحركات سفن الأساطيل البحرية المختلفة بالتفصيل فى البحر الأبيض المتوسط ..

وكان هناك ملف فى وكالة المخابرات المركزية حول الجهود الباكستانية الرامية لانتاج سلاح نووى ، وهو مشروع « القنبلة الإسلامية » وقد مثل ذلك بالنسبة لإسرائيل تهديدا يماثل فى خطورته التهديد الذى كان يشكله المفاعل النووى العراق ..

وكانت هناك تفاصيل حول مخزون الأسلحة الكيميائية المخزون فى العراق ، ومن الصعب الحصول على معلومات عنها ..

وتعد تأملات بولارد فى السجن التى أدلى بها للصحفى « وولف بليتزر » ، هامة فى تقييم وتحديد السبب الذى من أجله اكتشف « أيتان » أن أهمية بولارد لاتقدر بثمن .. قال بولارد أنه اكتشف أن المخابرات الاسرائيلية لاتعد بأى حال من الأحوال عملاقا يعرف كل شيء ومسيطرا على الشرق الأوسط ..

فالإسرائيليون يكرسون أفضل امكاناتهم البشرية والتقنية ضد سوريا التى تمثل التهديد الأساسى للوجود الاسرائيلى ..

وقال بولارد أنه كان يركز على الاطار الخارجى لأعداء إسرائيل ؛ ليبيا ، الجزائر ، العراق ، باكستان ..

ومن أثمن المعلومات التى قدمها بولارد وساعدت الاسرائيليين فى القيام بمهام محددة ، الصور الجوية لمقر منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس ، وأيضا التقارير عن نظم الدفاع الجوى فى دول شمال افريقيا ومن بينها ليبيا فى الطريق إلى تونس .

وفى الأول من اكتوبر عام ١٩٨٥ ، قصف سلاح الطيران الاسرائيلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى أبعد غارة جوية تقوم بها إسرائيل ..

وسوت معظم قاعدة ياسر عرفات بالأرض وسر بولارد عندما عرف أنه ساعد فى حدوث ذلك !

فى واشنطن ، كان بولارد يرهق نفسه كثيرا وأدى حماسه المتزايد إلى شعوره بالتعب والارهاق .. ولاحظ مركز مكافحة الارهاب التابع للبحرية هبوط مستوى أدائه لعمله .. كان يقوم بمهمة مزدوجة طوال الوقت ، الأولى هى تحليل المعلومات وبرمجة تقارير المخابرات داخل الكمبيوتر ، والثانية هى العمل كجاسوس يحصل على وثائق عديدة من أجل مستخدميه الاسرائيليين ..

بدأ بولارد يقدم آلاف الصفحات المتعلقة بالتهديدات الفدائية ، شحنات الأسلحة السوفيتية ، واعتراض الاتصالات الالكترونية ، وأنظمة الأسلحة فى الدول العربية .

وكان « أيتان » والعدد القليل من المحللين التابعين له فى « لاكام » يلاحقونه بالكاد ..

وقد لاحظ أحد أساتذته فى ستانفورد أن لدى بولارد ميولا للمبالغة فى أداء الأشياء .. « فإذا أعطيته واجبا بعمل بحث صغير كان يقوم به بمنتهى العناية ، ويجعله مطولا عما هو مطلوب » ..

والآن يتصرف بولارد بالمثل ؛ ليس كطالب وإنما كعميل للإسرائيليين ..

وكان من المتعين على مؤسسة المخابرات الأمريكية أن تعرف أن بولارد لايعتمد عليه استنادا إلى ماعرف عن تصرفاته الغريبة ..

بدأ « جيرى آجى » رئيس بولارد فى مركز مكافحة الارهاب يتشكك فى امكانية الاعتماد عليه بعد أن ضبطه يكذب مرتين بصدد أمور ثانوية ..

وأخذ « آجى » يراقبه ، ولاحظ وجود كميات هائلة من المواد بالغة السرية على مكتبة على الرغم أنها غير متعلقة بعمله ..

وظهر يوم الجمعة الموافق ٢٥ أكتوبر ، أبلغ زميله فى المركز أن بولارد ترك العمل وهو يحمل لفافة كبيرة من المواد المستخرجة من الكمبيوتر .. واكتشفت السلطات أنه اطلع توا على المعلومات الخاصة بالشرق الأوسط ..

وراقب « آجى » الأمر ثانية فى يومى الجمعة التاليين ، الأول من نوفمبر والثامن من الشهر نفسه ، ولاحظ أن بولارد يجمع المزيد من المعلومات بالغة السرية ..

وفى ليلة لم يتمكن « آجى » فيها من النوم ، ذهب إلى العمل فى الساعة الرابعة والنصف صباحا ليجد المزيد من المواد الخاصة بالشرق الأوسط على مكتب بولارد ..

ويتقن القائد البحرى أن لديه جاسوسا ولم يتمكن « آجى » من اقناع مكتب التحقيقات الفيدرالية بوضع « بولارد » تحت المراقبة ، لأن المكتب كان متورطا فى عديد من العمليات للكشف عن حلقات تجسس أجنبية ..

لكن ادارة مكافحة التجسس التابعة للبحرية وضعت كاميرات تليفزيونية حول مكتب بولارد ، وراقبوه ، ويتقنوا من أنه يجمع مكتبة مخابرات خاصة به .

وتم احتجازه لاستجوابه فى الثامن عشر من نوفمبر .. وقام عملاء المخابرات البحرية باستجوابه لمدة ثلاثة أيام ، لكنهم لم يتمكنوا منه ..

وبوصفه متمرسا فى رواية القصص الخيالية فقد أبلغ المحققين أنه سيساعدهم فى الكشف عن مخطط تجسس عالمى يعرف عنه ..

كان المحققون غير صارمين معه ، واتسموا باللين ، وسمحوا له فى الجلسة الأولى للتحقيق أن يتصل بزوجته ، حيث شرح لها أنه سيعود متأخرا ذلك المساء ، وطلب منها أن « تأخذ الصبار للأصدقاء » .. وكانت تلك شفرة تعنى أنه فى مأزق ، وأنه يجب إزالة أية مستندات سرية من المنزل فورا ..

ومن سخرية الأقدار ، أن « بولارد » وزوجته كانا مدعوين للعشاء فى تلك الليلة الثامن عشر من نوفمبر مع « آفيم سيللا » الذى كان يزور الولايات المتحدة وكان « سيللا » قد أخبرهما أنه تمت ترقيته إلى رتبة « بريجادير جنرال » ، وأنه ينبغى الاحتفال بتلك المناسبة ..

وعندما غادرت « آن » شقتها فى موعد العشاء كانت فى حالة من الذعر .. وفى طريقها حاولت التخلص من حقيبة كانت بالنسبة لها هى وزوجة قابلة للانفجار كما لو كانت مملوءة بالديناميت .. فقد كانت تحتوى على وثائق أمريكية سرية .. وكانت هى الصبار الذى أشار إليه بولارد ..

تحولت « آن » للجيران طلبا للمساعدة ، ولجأت إلى آل « اصفنديارى » للمساعدة ، وطلبت من « كريستين اصفنديارى » أن تأخذ الحقيبة التى كانت ممتلئة بالوثائق ، وأن تسلمها لها فى فندق « فور سيزونز » أو [الفصول الأربعة] فى واشنطن ، كما أعطتها ألبوم صور زفافها لتحفظ لها عندها ..

كان آل بولارد كريمين مع الزوجين اصفنديارى وكان يعيرانهما سيارتهما فى بعض المناسبات إلا أن مثل هذا الطلب لتهريب هذه الحقيبة بدا غريبا بالنسبة لكريستين .. ولكونها ابنة ضابط بحرية ، فقد اتصلت فى صباح اليوم التالى بادارة التحقيق البحرى قائلة لهم أن لديها معلومات قد تساعدهم ..

وقد ذكرت كريستين فيما بعد مايلى : « لم يكن من السهل على أن أفعل ذلك ، لأننا كنا نهتم بآل بولارد ، ولكن لم يكن ضميرى ليسكت على ذلك .. لم أستطع تصديق أن هذه هى حقيقة جاى وآن .. وجن جنونى وشعرت بأننى خدعت وتعرضت للخيانة .. »

في هذه الأثناء ، كانت « آن » تتناول عشاءها وهى تشعر بالعصبية فى مطعم صينى بالشارع الثانى عشر مع « سيللا » ..

وعندما قالت « آن » له أن بولارد فى مأزق شعر سيللا بالخطر الداهم ، وطلب منها فى عصبية ألا تعترف أبدا بأنها التقت به ..

ولم ير « سيللا » و « آن » بعضهما بعضا بعد ذلك أبدا .

عادت « آن هندرسون » إلى منزلها ، ووجدت « جاى بولارد » قد عاد بعد انتهاء أول جلسة تحقيق ..

كان الاثنان فى غاية الاضطراب ، وقررا الاتصال بياجور طالبين اللجوء والرحيل إلى إسرائيل ..

وحذر « ياجور » « بولارد » مهدئا إياه بقوله : « أنت مراقب فى الغالب ، وإذا تمكنت من الافلات من المراقبة فتعال ، وسنحاول تقديم يد العون » .

كانت تلك الملاحظة لاتليق بعميل محترف ، لأن لو كان « ياجور » مقتنعا بأن بولارد مراقب ، لاعتقد أيضا أن تليفونه مراقب ..

وهكذا سيتعين على إسرائيل وعلى بولارد وزوجته أن يدفعوا ثمن الافتقار للاحتراف فى تلك العملية بالغة الحساسية والخطورة .

وبدا الاسرائيليون كما لو كانوا فى سباق لرؤية من يهرب أولا ..

ففى ظرف ثلاثة أيام ، طار « ياجور » و « سيللا » إلى إسرائيل قادمين من نيويورك ، كما طارت « إيريت إيرب » ورئيسها فى العمل « إيلان رافيد » إلى إسرائيل عائدين من واشنطن ..

أذيع نبأ القبض على أمريكى بسبب التجسس بكثير من الارتباك ، إلا أن تأثير النبأ كان معتدلا ..

عندما وصل المتعاملون مع بولارد إلى إسرائيل ، كان مسئولو المخابرات والساسة هناك قد اطلعوا على التقارير الاعلامية حول إلقاء مكتب التحقيقات

الفيدرالية القبض على بولارد ، وعلموا أن ذلك سيلحق الضرر بالعلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة وبصفة خاصة مع وكالات المخابرات المركزية ومؤسسة الدفاع الأمريكية ..

عندما اعترفت إسرائيل للمرة الأولى باحتمال التورط مع بولارد بعد ثلاثة أيام من إلقاء القبض عليه ، كانت هناك صدمة عامة لكون المخابرات الإسرائيلية قد اتسمت بالغباء إلى حد السماح بأن يتم القبض على أحد عملائها فى سفارة إسرائيل ..

وفى غضون عدة أيام ، كشف النقاب عن أن « لاكام » ، التى لم يسبق الإشارة إلى وجودها مطلقا ، هى المسئولة عما حدث .. إلا أن ذلك لم يرض الشعب الإسرائيلى ..

شعر الجانب الأمريكى بالحيرة أيضا .. وقد سمع « رونالد ريجان » للمرة الأولى بالقبض على بولارد وهو فى طريقه عائدا إلى واشنطن قادما من لقاء القمة الأول مع الزعيم السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » فى جنيف ..

قال ريجان أنه لايفهم لماذا يفعل الاسرائيليون ذلك .. فى إشارة إلى أنه هو الذى امدهم بالمعونات المالية والعسكرية وجعلهم حلفاء رئيسيين للولايات المتحدة ..

من ناحية أخرى ، كان يتعين على الأمريكيين أن يكونوا أفضل علما .

فمن ناحية ، كانت وكالة المخابرات المركزية ترجح أن الجواسيس الإسرائيليون نشيطون فى الولايات المتحدة ..

وقد ذكرت دراسة سرية قامت بها الوكالة أن جمع معلومات عن الجيران العرب كان الأولوية الأولى للمخابرات الإسرائيلية أما الأولوية الثانية والثالثة فكانت جمع المعلومات عن السياسة الأمريكية السرية وقراراتها فيما يتعلق بإسرائيل ، وجمع المعلومات العلمية فى الولايات المتحدة ، والدول المتقدمة الأخرى ..

ومن ناحية ثانية ، كان ينبغى أن يعرف الأمريكيون أكثر بخصوص بولارد وتاريخه غير المستقر كما اتضح خلال التحقيق معه .. حيث بدا من الواضح أنه لم يكن ينبغى له العمل مطلقا فى مؤسسة المخابرات ..

كانت وكالة المخابرات المركزية قد رفضت بولارد ، ولكنها لم تنصح المخابرات البحرية بذلك عندما بدأ يعمل لديها .

وتم إلقاء القبض على « آن هندرسون ــ بولارد » لأنها كانت تعرف عن نشاط زوجها التجسسى وتعاونه كلما استطاعت ، كما أنها انزلقت للإغراء باستخدامها بعض الوثائق التى حصل عليها لصالح عملها المتعلق بالعلاقات العامة ..

وأصر المدعون الفيدراليون على مقاضاة « آن هندرسون ــ بولارد » ولكنهم كانوا أكثر اهتماما بترتيب قضية أكثر قسوة لزوجها ..

وأبلغ المدعون « أوبرى روبنسون » قاضى المحكمة الفرعية الأمريكية أن المتهم اعترف بأنه باع لإسرائيل كما كبيرا من الوثائق السرية ويصل حجمها إلى صندوق طوله عشرة أقدام وعرضه ستة أقدام وارتفاعه ستة أقدام ..

وقد كتب « كاسبار واينبرجر » وزير الدفاع الأمريكى رسالة خاصة إلى القاضى روبنسون ، قال فيها : « من الصعب على أن اتصور ضررا لحق بالأمن القومى مماثل للضرر الذى ألحقه هذا المتهم . » ..

وقال واينبرجر فى حديث خاص أن بولارد يستحق الشنق أو القتل رميا بالرصاص ، وأن اصلاح الأضرار التى تسبب فيها سيكلف الولايات المتحدة بليون دولار ..

وفى الرابع من مارس عام ١٩٨٧ ، حكم على بولارد بالسجن المؤبد بعد أن اعترف بأنه مذنب ..

وكان بولارد فى الثانية والثلاثين من عمره . أما زوجته « آن » ، وهى فى السادسة والعشرين من عمرها ، فقد حكم عليها بالسجن لمدة خمس سنوات .

وسقطت « آن » على أرض قاعة المحكمة الفيدرالية فى واشنطن صارخة : « كلا .. كلا » .

وكادت تمزق الجدران المبطنة بخشب البلوط من الحزن والغضب .

لقد أخطأ بولارد بالمفاخرة بكونه عيون إسرائيل وآذانها على مساحة منطقة جغرافية ضخمة تمتد من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهندى ..

وكشفت المذكرة التى قدمها للقاضى عن أن المعلومات التى قدمها لإسرائيل فريدة ولامثيل لها بحيث أن القادة السياسيين كان يجب أن يعرفوا بوجود عميل يشتغل داخل مؤسسة المخابرات الأمريكية .

وهرع المحققون الأمريكيون إلى تل أبيب لدراسة مدى صحة تأكيد الحكومة الإسرائيلية بأن قضية بولارد مجرد عملية زائفة ، وان زعماء الدولة اليهودية لم يعرفوا أبدا أن لاسرائيل جاسوسا فى المخابرات الأمريكية ..

ولإظهار حسن النوايا ، أعد الاسرائيليون فريق اتصال لمنح المحققين الأمريكيين كل مساعدة ممكنة ..

وتولى « افراهام شالوم » رئيس شين بيت مسئولية فريق الاتصال لأن الأمريكيين يعتبرونه رجلا نزيها .. إلا أن الرأى العام الاسرائيلى علم بعد فترة قصيرة أنه كان أستاذاً فى عمليات التستر والتغطية ، بعدما اتهم « شالوم » علنا بالكذب على الحكومة الإسرائيلية فى فضيحة مقتل مختطفى الاوتوبيس عام ١٩٨٤ ..

وعن طريق التعاون المظهرى من جانب شالوم ، اقتنع المدعى الأمريكى « جوزيف ديجينوفا » ومحامى وزارة الخارجية الأمريكية « أبراهام سوفير » أنهما قاما باستجواب كل الإسرائيليين المتورطين فى عملية بولارد ..

ولكن الإسرائيليين لم يخبروهما بشأن « سيللا » .. فلم تكن إسرائيل لتذكر بالتحديد من الذى قام بالتحديد بتجنيد جاسوس لاكام فى واشنطن ..

وعندما تم ابلاغ الأمريكيين بأن كل الوثائق التى أرسلها بولارد قد أعيدت

هذا الكتاب

● كل جاسوس أمير هو واحد من أخطر وأهم الكتب التى صدرت عن دولة المخابرات فى إسرائيل .. فهو يكتشف الملف الكامل لمؤسسة المخابرات الإسرائيلية ووكالاتها المتعددة من قبل قيام الدولة اليهودية وحتى اليوم !

والكتاب يفضح المخابرات الإسرائيلية وكيف أنها أصبحت دولة داخل الدولة ، ويكشف عملياتها القذرة التى تبدأ من الرشوة والابتزاز وإستخدام الجنس وحتى القتل لتحقيق أهدافها .. ويزيل الستار عن محاولاتها التخريبية .

ليس فى العالم العربى فقط بل فى معظم أنحاء العالم .. حتى داخل الولايات المتحدة أقوى وأخلص حليف لإسرائيل ..

إن مؤسسة المخابرات الإسرائيلية تلعب دوراً خطيراً فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى وفى الصراعات الأخرى فى العالم ..

وهذا الكتاب يكشف عن الوجه الحقيقى والقبيح لمخابرات الدولة اليهودية ..

الناشر